جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

المجلة العلمية
للدراسات التاريخية والحضارية

Scientific Journal of Historical and Civilizational Studies

العدد الثالث
يونيو / 2019 م

ت	المحتويات	رقم الصفحة
1.	تقديم	3
2.	شروط النشر	4
3.	هيئة التحرير	6
	الأبحـــــــاث	
4.	اكتشاف موقع أثري بمنطقة وادي الكوف (دراسة ميدانية لمستوطنة سليطين) أ.حمدي خليفة الصادق - أ.صالح عيسى الجراري - أ.عماد عبدالله وكيل	7
5.	دور الحكام الرومان في دعم الاستيطان الروماني فيكيرينايكي خلال القرن الأول قبل الميلاد . أ . الفرجاني محمد الفرجاني	21
6.	انتقال الفكر اليهودي من أورشليم إلى أفريقيا الرومانية د. أكريم الجارح محمد العلواني	43
7.	الصادرات الجرمنتية من خلال النصوص الأدبية والمخلفات الأثرية د. فاطمة سالم العقيلي .	69
8.	مملكـــــة الأنبـــاط 587ق. م/106م د. فاطمة علي الشيخي	95
9.	الساحات العمومية بالجزائر أثناء الفترة الرومانية د. بنت النبي مقدم	106
10.	السلطة الزمنية بالإمبراطورية البيزنطية ورسمها للسياسة الدينية بالكنيسة المسيحية بين عقيدة التوحيد والثالوث المقدس فيما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين د. سعيد محمد سعيد غريدة	118
11.	التطور العمراني لمدينة الكوفة في القرن الأول الهجري د. عبد السلام سالم سعيد محمد	134
12.	أنماط التغيرات الاقتصادية للاندلس خلال عصر ملوك الطوائف د.فرج إبراهيم محمد العقوري	152
13.	استحقاق النسب وأثره في موقف بعض القبائل من خلافة أبي بكر الصديق د.أبو بكر صالح السنوسي بوتكاميل . - أ.إدريس عبد النبي حامد الجوير.	172
14.	الأوضاع السياسية في ولاية طرابلس الغرب وأثرها على الحركة التجارية خلال الفترة (1835-1911 م) د . سُعاد مُحمّد عمر الجفال	186
15.	القبائل الصحراوية الطرابلسية في القرن الخامس الميلادي نبيلة حمودي	202
16.	أثر الحربين العالميتين الأولى والثانية على الأوضاع السياسية في ليبيا أ.الناجي حسين علي	210
17.	الاستشراق والمستشرقون د. عبد الرحمن صالح بكار	223
18.	سياسة محمد علي الداخلية في مصر 1805 – 1840 م د . اوريدة صالح محمد صالح	244
19.	تونس في الفترة الاستعمارية: مدينة الجمال وبلاد السياحة د . بلقاسم بنعبد النبي	263
20.	مظاهر الحياة الثقافية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني (1835- 1911م) أ. سعد إدريس سعيد	280
21.	كتاب بدء الإسلام وشائع الدين لابن سلام الأباضي (دراسة تاريخية) د. زكية بالناصر القعود	293

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين إلى يوم الدين

أما بعد:

يطيب لي وبكل سرور أن أقدم للعدد الثالث من المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، التي تصدر عن كلية التاريخ والحضارة بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، والذي جاء زاخرا بالأبحاث العلمية القيمة في جوانب التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، والتي كتبها نخبة من الكتاب المتميزين بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الاسلامية ، وجامعة بنغازي، وجامعة طرابلس، وجامعة عمر المختار ، وجامعة طبرق، والكلية التربوية المفتوحة ببغداد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فعلى مر العصور والازمان كانت نهضة الشعوب وتقدم الاوطان محصلةً لإبداع العلماء والباحثين وصدق الرجال والمفكرين، ويبقى مسار العلم والإبداع والأخلاق الحميدة عاملاً مهماً في إعادة نهوض الأمة وتنميتها وتطورها .

ووفقاً لهذا المفهوم تسعى كلية التاريخ والحضارة – بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية البيضاء – ليبيا، كمثيلاتها من الكليات والمؤسسات العلمية – إلى بذل قصارى جهدها لمواكبة التطورات العلمية والبحثية لتعزيز النهضة العلمية والتربوية بجد وإخلاص .

وتأكيداً لهذا المفهوم الفكري تواصل مجلة الكلية إصدار عددها الثالث الذي ضم مجموعة من البحوث العلمية والإنسانية آملين ان يكون العدد رافداً من روافد المسيرة العلمية في ليبيا .

ومن الله عز وجل التوفيق والسداد.

م.د/ عبد الرحمن جدوع سعيد التميمي
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
مديرية تربية صلاح الدين
وزارة التربية العراقية
ومكلف بالتدريس في الكلية التربوية المفتوحة/ بغداد

شروط كتابة البحث العلمي ونشره في المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية

1- ملخص البحث يكون باللغة العربية وباللغة الانجليزية في حدود (150كلمة)

2- المقدمة،وتشمل التالي:

- ملخص عن موضوع الدراسة (مدخل) يشمل أهمية الدراسة والمنهج العلمي المتبع.فيها.

3- الخاتمة. (أهم نتائج البحث – التوصيات)

4- قائمة المصادر والمراجع.

5-عدد صفحات البحث لا تزيد عن (30) صفحة ولا تقل عن (15) صفحة متضمنة الملاحق وقائمة المصادر والمراجع ،على أن تكون هوامش جانبي الصفحة (2.5) وأعلى وأسفل الصفحة (3).

القواعد العامة لقبول النشر

1- تقبل المجلة نشر البحوث باللغتين العربية و الإنجليزية والتي تتوافر فيها الشروط الآتية:

- ✓ أن يكون البحث أصيلاً،وتتوافر فيه شروط البحث العلمي المعتمد على الأصول العلمية والمنهجية المتعارف عليها من حيث الإحاطة والاستقصاء والإضافة المعرفية والمنهجية والتوثيق وسلامة اللغة ودقة التعبير .
- ✓ ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قُدم للنشر في أي جهة أخرى.
- ✓ أن يكون البحث مراعيا لقواعد الضبط ودقة الرسوم والأشكال – إن وجدت–ومطبوعاً على ملف وورد word،حجم الخط (13) وبخط (Simplified Arabic) للغة العربية. وحجم الخط (12) وبخط (Times New Roman) للغة الإنجليزية .
- ✓ أن تكون الجداول والأشكال مدرجة في أماكنها الصحيحة،وأن تشمل العناوين والبيانات الإيضاحية الضرورية.
- ✓ في حالة التوثيق وفق دليل جمعية علم النفس الأميركية (APA) تثبت هوامش البحث في نفس الصفحة والمراجع في نهاية البحث على النحو الآتي:
  - أن تُثبت المصادر أو المراجع بذكر اسم المؤلف كاملاً، ثم وضع تاريخ نشره بين حاصرتين،ويلي ذلك ذكر عنوان المصدر،متبوعا باسم المحقق أو المترجم،ودار النشر،ومكان النشر،ورقم الصفحة.

- عند استخدام الدوريات (المجلات،المؤتمرات العلمية،الندوات) بوصفها مراجع للبحث: ذكر اسم صاحب المقالة كاملاً، ثم تاريخ النشر بين حاصرتين،ثم عنوان المقالة، ثم ذكر اسم المجلة،ثم رقم المجلد،ثم رقم العدد،ودار النشر،ومكان النشر،ورقم الصفحة.

2- تحتفظ المجلة بحقها في أسلوب إخراج البحث النهائي عند النشر.

إجراءات النشر

ترسل جميع المواد عبر البريد الإلكتروني الخاص بالمجلة وهو كالتالي:

- يرسل البحث الكترونياً إلى عنوان المجلة وهو saeidgrida@gmail.comأوAglimohada@gmail.com
- أو(نسخة CD) بحيث يظهر في البحث اسم الباحث ومؤهله العلمي،ومكان عمله،ومجال تخصصه.
- يرفق مع البحث نموذج تقديم ورقة بحثية للنشر موجود على موقع المجلة، وكذلك إرفاق للسيرة الذاتية العلمية للباحث إلكترونياً .
- لايقبل استلام الورقة العلمية إلا بشروط المجلة.
- في حالة قبول البحث مبدئيا يتم عرضه على مُحكَمين من ذوي الاختصاص في مجال البحث،ويتم اختيارهم بسرية تامة،ولا يعرض عليهما سم الباحث أو بياناته، وذلك لإبداء آرائهم حول مدى أصالة البحث،وقيمته العلمية،ومدى التزام الباحث بالمنهجية المتعارف عليها،ويطلب من المحكم تحديد مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة من عدمها.
- يبلغ الباحث بقرار صلاحية بحثه للنشر من عدمها خلال خمسة عشرة يوماً من تاريخ الاستلام.
- في حالة ورود ملاحظات من المحكُمين،تُرسل تلك الملاحظات إلى الباحث لإجراء التعديلات اللازمة بموجبها،على أن تعاد للمجلة خلال مدة أقصاها أسبوعين.
- الأبحاث التي لم تتم الموافقة على نشرها لا تعاد إلى الباحثين.
- الأفكار الواردة في ما نشر من دراسات وبحوث وعروض تعبر عن آراء أصحابها.
- لا يجوز إعادة نشر إي من المواد المنشورة في المجلة مرة أخرى.

رئيس هيئة تحرير المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
د. سعيد محمد غريدة
saeidgrida@gmail.com

المشرف العام

د. سعد الدلال

رئيس التحرير

د. سعيد غريدة

مدير التحرير

د. الصديق بودوارة
أ, يونس علي الجوير
cyhamad1977@gmail.com

المراجعة اللغوية

د. حسين نوح الحمري

الهيئة الاستشارية

د. حمد الجهيمي

أ . صالح الجراري

أ . حمدي علي سعد

أ . حماد فضل الله

أسرة تحرير المجلة :

- أ . حمدي خليفة الصادق
- أ . علي مفتاح حويلن
- أ . عادل عوض الزائدي
- أ . الفرجاني محمد الفرجاني
- أ . حسين الفقيه
- أ . أكرم علي الحمروش

سكرتير التحرير

منى طه زيدان

تنسيق واخراج

محمد حسن الخضر

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 2018/225

اكتشاف موقع أثري بمنطقة وادي الكوف

(دراسة ميدانية لمستوطنة سليطين)

إعداد :

- أ.حمدي خليفة الصادق
- أ.صالح عيسي الجراري
- أ.عماد عبدالله وكيل

جامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية

الملخص:

يشكل وادي الكوف جزءاً من إقليم كيرينايكي نسبة إلى كيريني أكبر وأول المدن التي أسسها الإغريق في الإقليم، ويعتبر وادي الكوف الوادي الأكبر في هذه المنطقة، إن ذكر هذا الوادي كان غائباً تماماً في كتب المؤرخين والجغرافيين القدماء، كما لم يتحصل على دراسات مستوفيه من قبل المتخصصين في مجال علم الآثار باستثناء بعض الدراسات التي حاولت توثيق مواقع المنطقة، كالدراسة الموسومة بدفاعات منطقة وادي الكوف والدراسة الثانية التخوم الخارجية الغربية لمنطقة وادي الكوف.

في الحقيقة كشفت الدراسات الأخيرة عن أهمية المنطقة تاريخياً وأثرياً، حيث تم الكشف عن الآثار المادية للمنطقة، حيث تشكل تلك المواقع مناطق استيطان زراعي تمثل في الغالب مستوطنات ريفية عبارة عن مزارع محصنة وحصون دفاعية.

أما الموقع الذي نحن بصدد دراسته، فهو من المواقع المجهولة التي لم تكتشف في السابق، ولم ينشر عنه، وظل مجهولاً وبعيداً عن أعين المختصين والمعنيين بالموروث الثقافي، وللأسف الشديد كان محط أنظار العابثين ولصوص الآثار، كما كان معرضاً بشكل كبير للعديد من عوامل التدمير الطبيعية والبشرية.

إن هذه الدراسة تسعى إلي توثيق الموقع، ومن ثم العمل على رصد عوامل التدهور التي يتعرض لها، حيث حاول الفريق متابعة تلك المخاطر بشكل علمي، مستعرضاً أسباب التلف بأشكاله المختلفة، وبالتالي سيكون هذا البحث بمثابة تقرير علمي سوف يتم تقديمه إلي الجهات ذات العلاقة.

Abstract:

The Kof Valley constitutes part of the territory of Cirenaica relative to the larger Cyrene and the first cities founded by the Greeks in the region.

The Kof Valley is the largest Valley In This area was completely absent in books of ancient historians and geographers, as qualifying studies obtained by professionals in Archaeology.

With the exception of some studies that attempted to document the region's sites, such as study tagged Kof Valley area's defenses, and The second study frontier Valley Kof. In fact, recent studies revealed the importance of the region, where the physical effects were detected for the region Those sites mostly represent agricultural settlement areas Fortified Farmstead And Castles of warship.

The site we are going to study the unknown sites previously undetected, It was not published, and remained unknown and far away from the eyes of professionals involved in cultural heritage, Alas it was envy abusers and thieves effects, As he was exposed to numerous natural destruction or human factors.

This study seeks to document the site, and then work to monitor the deterioration factors website, As the group tried to follow those risks scientifically, reviewing causes damage in various forms , And appearances thereof, Hence this research will serve as a scientific report will be submitted to particular actors relationship.

مقدمة البحث:

يشكل وادي الكوف جزءاً من إقليم كيرينايكي Κυρηναικη (قورينائية نسبة إلى (كيريني Κυρηνη) قوريني أكبر وأول المدن التي أسسها الإغريق في الإقليم[1]، ويقع الإقليمان (كاتاباثموس Καταβαθμος) (السلوم شرقا و(أتوملاكس) Αυτομαλαξ*بوشعيفة غرباً، وذلك وفقاً لما ورد في دستور بطليموس الأول الصادر عام 322 قبل الميلاد[2]، ويتفق في الحد الشرقي للإقليم كلٌ من سترأبون[3]، وسالوست[4]، اللذان عاشا في القرن الأول قبل الميلاد، وبليني[5]الذي عاش في القرن الأول ميلادي؛ أما عن الحدود الغربية للإقليم فيري سترأبون[6]خلافا لما ورد في الدستور البطلمي فيجعلها تنتهي عند (يوفرانتاس Ευρφαντας) سرت الحديثة. ويبدو أن الخلاف كان بسبب إزاحة الحد نحو الغرب إلى يوفرانتاس، وسرعان ماتغير وانتهي عند أتوملاكس[7].

ويمكن القول أن هذا التحديد الجغرافي للإقليم أقدم ما وردنا حتى الآن في المصادر القديمة، ويعد وادي الكوف الوادي الرئيس في حوض كبير يمتد من الجنوب الشرقي إلي الشمال الغربي لمسافة تبلغ حوالي 58كم. ويقع هذا الحوض بين خط يطول00. ˚21، 00. ˚22 شرقاً، ودائرتي عرض30. ˚32, 50. ˚32 شمالاً[8] – وإذا ما تم التطرق إلي اسم منطقة الكوف من قبل الكتاب القدامى نلاحظ صمت المصادر التاريخية، وغياب النقوش عن ذكرها، إلا أن هذا كله لا يقلل من أهميتها، فبالرغم من عدم وجود نصوص أو ذكر صريح لمواقع هذه المنطقة،إلا أنه تستشف إشارات تشير إلى أن هذا الموقع من ضمن الكثير من المواقع التي أدت دوراً اقتصادياً وسياسياً في إقليم كيرينايكي، وفي ظل هذه المعطيات يترك المجال للحفريات بوصل حلقة مفقودة في سلسلة تاريخية من تاريخ كيرينايكي.

---

*- أختلف الباحثون في تحديد موقع أتومالاكس، فيري الأثرم أنها العقيلة، بينما يجعلها مصطفي عبد العليم تقع غرب العقيلة ؛في حين يحددها ستوكي وجودتشايلد ولاروند عند بوشعيفة، للمزيد بهذا ا الشأن. مصطفي كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1966،ص 138؛ينظر أيضاً: رجب الاثرم،محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، ط2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994؛جود تشايلد، دراسات ليبية، ت:عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1999،ص272_وما بعدها ؛أندريه لاروند، تاريخ برقه في العصر الهلينستي،ت:عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 2003م،ص225؛ خالد الهدار ،دراسة القبور الفردية وأثاثها الجنائزي في تاوخيرا ،مج1،منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 2006م،ص35؛

SANDRO STUCCHI,Architectura Cyrenaica,MonographiediArcheologia, Roma,1975 ,p385.

[2]-Supplementum / Epigraphic an Graecan . Vol . Ix .I . G Klaffenbach 1939 ؛ينظر أيضاً :مصطفي كمال عبد العليم، مرجع سابق،ص138؛عبد السلام شلوف، نقوش ونصوص من ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1994م،ص75.

[3] -سترأبون،الجغرافية"الكتاب السابع عشر"ت:محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس2003م،الفصل الثالث،ف 22.

[4] -سالوست، حرب يوغرطة، ت: محمد الهادي،د. ن،الجزائر، 1991،ف 19.

[5]- بليني الأكبر،التاريخ الطبيعي،الكتاب الخامس،ترجمة: علي فهمي خشيم، ط2،مكتبة الفكر،طرابلس، 1975م،ف 5،ص111.

[6]- سترأبون،مصدر سابق،ف114.

[7]- جود تشايلد، دراسات ليبية، مرجع سابق،ص272.

[8]- المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والقاحلة، مشروع منتزه الكوف الوطني (الغطاء النباتي)، ...،ص3.

يعد الموقع المكتشف (سليطين) أحد المواقع المهمة بمنطقة وادي الكوف الذي يمتد جغرافياً بين سهل باركي (برقة–المرج) وبين هضبة كيريني (شحات)،وهي منطقة جبلية تكاد أوديتها تفصل بين المنطقتين جغرافياً، إلا أن وجود بعض الطرق والممرات الفرعية التي تخترق الوادي ساهمت نوعاً ما في الاتصال بين هضبة كيريني وسهل باركي، وهذه الممرات استخدمت كمسالك وطرق في العصور الإغريقية والرومانية، أما حديثاً فقد تم التغلب على تلك المشكلة بإنشاء جسور تعبر بين ضفتي الوادي، أهمها الجسر القديم الذي شيده المستعمرون الايطاليون إبان الحرب العالمية الأولي (1914–1918م)، والجسر الحديث الذي شيد في عهد المملكة الليبية عام 1965م.

إن الطبيعة الجبلية الوعرة لمنطقة وادي الكوف كانت تشكل تحدياً حقيقياً في وجه أي استيطان بشري للمنطقة؛ لأن هذه الطبيعة كانت تحول دون الاتصال البري بين الجهة الشرقية والغربية للوادي، الأمر الذي جعل الكثير من الأثريين والرحالة يتجاهلون هذه المنطقة في السنوات الأولى للكشف الأثري في ليبيا، وأن توجيه الدراسات ومحاولات كشف النقاب عما تخفيه تلك الأودية التي تغطيها الأحراش لم تتحصل على دراسات وافيه، باستثناء بعض المواقع الظاهرة للعيان والتي تحصلت على دراسات من قبل متخصصين في مجال الآثار أمثال ساندرو ستوكي، وريتشارد جود شايلد، واندريه لاروند، الذين تطرقت أبحاثهم لثلاثة مواقع مهمة في الحقيقة كقصر بن اقديم، وقصر الشاهدين، وبرج الوشيش، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المنطقة تزخر بالعديد من المواقع الأثرية، حيث أجريت مؤخراً أعمال مسح أثري كُشف فيها النقاب عن الطبيعة المادية لآثار منطقة الكوف كالدراسة الموسومة بالمواقع الأثرية للتخوم الخارجية الغربية لهضبة كيريني(دراسة أثرية لمنطقة وادي الكوف) والتي حققت نتائجها بتوثيق ما يقارب 40 موقعاً أثرياً في منطقة محدودة المساحة، مما يشير لأهمية ما كانت تلعبه هذه المنطقة في تاريخ إقليم كرينايكي بشكل عام، وهضبة كيريني بشكل خاص.

وما يجدر الإشارة إليه أن تلك المواقع في مجملها تمثل مستوطنات زراعية عبارة عن مزارع محصنة، وبعض الأبراج والكنائس المسيحية التي تتجاور في معظمها[9].

وفي حقيقة الأمر لا يمكننا في ظل هذه المعطيات أن نكتب في تاريخ هذه المنطقة أكثر من أن نصفها كجزءٍ من الريف الكيريني الذي شهد منذ العصر الإغريقي ومروراً بالفترة الهلنستية التي تمكنت الدراسات والقرائن الأثرية في المنطقة أن تثبت نشاطاً يعود لتلك الفترة، كما بينت القرائن الأثرية التي سبق الإشارة إليها بأن المنطقة خلال العصر الروماني الأول والعصر الروماني المتأخر قد شهدت نشاطاً معمارياً واسعاً,

[9]- - عماد عبدالله وكيل،المواقع الاثرية للتخوم الخارجية الغربية لهضبة كيريني دراسة أثرية لمنطقة وادي الكوف رسالة ماجستير غير منشورة ،أكاديمية الدراسات العليا طرابلس 2015م ص180.

ويبدو أن ذلك النشاط العمراني كان يهدف إلى حماية المدن الساحلية في المقام الأول، حيث كانت المنطقة مصدر إزعاج حقيقي للمدن والمستوطنات الداخلية لهضبة كيريني إذ كانت تستغل أودية الكوف من قبل القبائل الليبية لما توفره من مسالك ملائمة للتسلل من داخل الهضبة لمهاجمة تلك المدن، وبالتالي كانت الطريقة المثلى للسيطرة على هذه المنطقة الخطرة تكمن بالعمل على تشييد ذلك العدد الكبير من القلاع والحصون والمزارع المحصنة، لتأمين الوادي وردع محاولات التسلل عبر تلك الأودية[10].

ويعد العصر الروماني الأول والمتأخر فترة ازدهار للريف الكيرينايكي بشكل عام، ولمنطقة الكوف بشكل خاص، إذ تشير جميع الدلائل المادية على أهميتها سياسياً واقتصادياً، ورغم تلك الأهمية جغرافياً وتاريخياً لم تحظ باهتمام كبير من قبل الباحثين الآثاريين، وهذا راجع لعدم درايتهم الكافية بالمنطقة، ولصعوبة التنقل بين مواقعها، يضاف لذلك أن الكشوف والمسح الأثري الذي أجري في ليبيا مازال محدوداً بالنظر إلى المساحة الكلية التي تتمتع بها ليبيا، وتركز جل اهتمامهم على المواقع الأثرية الكبرى، والظاهرة للعيان، وتكمن أهمية المنطقة كونها جزءً من الريف الكيريني الذي أدى دوراً أساسياً واقتصادياً في تاريخ إقليم كيرينايكي.

مستوطنة سليطين:

سليطين تسمية محلية حديثة يطلقها الأهالي على منطقة محدودة من الأرض، وهي هضبة جبلية من هضاب وادي الكوف، ولا يعرف على حد الخصوص علاقة الاسم بالموقع، وتجدر الإشارة إلى عدم وجود نقش أو نص يشير إلى اسم الموقع في المصادر القديمة أو لدى الرحالة والمستشرقين الذين زاروا المنطقة، ونشير أيضاً إلى أن هذه الدراسة هي أولى الدراسات التي تسلط الضوء، وترفع الستار وتميط لثام الدهر عن مستوطنة ريفية طالما لم تطأها أقدام الباحثين الأثرين، وكانت أيدي ومعاول اللصوص هي الأسبق، كما كانت للعوامل الطبيعية بظروفها المختلفة حضوراً لا يقل سوءً عن تخريب البشر .

- الإحداثية :

Late - 324117.4

Loge - 0213326.2

- الوصف العام للموقع :

تقع مستوطنة سليطين شرق قصر بن أقديم بمسافة 1كم تقريباً، حيث شيدت المستوطنة على هضبة تشرف على روافد ومنحدرات وادي الكوف، ويشكل الموقع مستوطنة زراعية محصنة تشمل مبنيين رئيسيين- مزرعة محصنة بجواره كنيسة -بالإضافة إلي مجموعة من الملحقات الخدمية كمخازن وإسطبل للخيول .

[10]-Deures, Synessius,EtudeBiogrphique Et Litter Aire,PyH-Druon,palibrairie,Hachette ETC79. Paris ,1978.Litter87؛
Roques ,D.Synesios de Cyrene et la Cyreniaque de Bas –Empire , Paris ,1987.P265 .

المبنى الأول عبارة عن مزرعة محصنة (Fortified Farmstead) وهي قلب الموقع ذات تخطيط مستطيل الشكل أبعاده (40م×45م) شيدت جدرانه الخارجية بكتل كبيرة من الحجر الجيري بطريقة البناء المعروفة بالوجهين ولب** حيث بلغ سمك الجدار 120سم (صورة 1)، والتخطيط الداخلي للبناء غير واضح بسبب تساقط كتل الجدران داخل البناء مما أخفي تفاصيله الداخلية، والبناء في الأصل عبارة عن برج مستطيل الشكل أبعاده (12,20م×16,60م) تحيط به أجنحة وحجرات، وشيدت الجدران الخارجية للبرج بكتل حجرية دعمت من الخارج بحجارة صغيرة (الدبش)، لتكون جدران المبني أكثر سماكة، وهو ما يعرف بطريقة التحصين الخارجي (External batter) ولجعل الجدران تميل إلي الداخل كلما ارتفعت (صورة 2)، أما باقي أجزاء البناء تساقطت جدرانه؛ إلا أنه بالإمكان التعرف على جزء كبير من تخطيطه الذي يوضح ثلاث حجرات بالجانب الجنوبي للبناء، وكذلك ممرات ودهاليز تدور حول المبني، أما عن المدخل الرئيس يقع في الجانب الشرقي بالإضافة إلى مدخل ثانوي صغير يقع في الجدار الشمالي الشرقي.

صورة (1) طريقة البناء المعروفة بالوجهين واللب

صورة(2) منظر عام للمزرعة المحصنة

يجاور المزرعة المحصنة في الجانب الشمالي مبنى ثاني في الغالب، يمثل كنيسة(Church) ذات تخطيط بازيلكي*** فهي تشكل مخططاً مستطيل الشكل أبعاده (27م×18,50م)، ويقع المدخل في الضلع القصير بالجانب الشرقي ويفتح على فناء الكنيسة الذي قسم إلي صحن أوسط(Nave) ورواقين جانبيين بصف واحد من الأعمدة (Porticoes)، ويطل الفناء على قاعة تنتهي بحنية (Apse) في الجدار الغربي على جانبيها غرفتين ربما خصصت إحداها كمعمودية (Baptistery) ينظر المخطط شكل(1).

**- هذه الطريقة من البناء يتم فيها استخدام صفين من الكتل الحجرية الكبيرة ويترك بينها فراغ يملا بالدبش .

***- ينسب هذا التخطيط المعماري إلي البازيلكا الرومانيةBasilica(المحكمة أو دور العدالة)،التي تحولت في العصر البيزنطي إلي كنائس، والتصميم البازيلكي يتكون من صحن Nave ورواقين أو جناحين جانبيين Aisles في الضلعين القصيرين الغربي والشرقي في غالب الأحيان، وبدأ هذا الطراز من القرن الرابع الميلادي وأستمر إلي القرن السادس الميلادي.

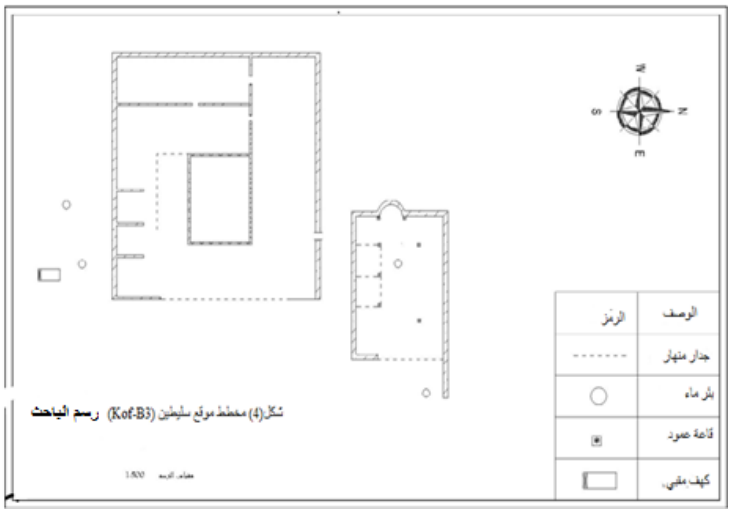

شكل(1) مخطط موقع سليطين.

وتعد الحنية أبرز العناصر المعمارية في الكنائس حيث تأخذ شكل نصف دائري لا تزال معالمها واضحة للعيان, حيث تظهر بارتفاع أربعة مداميك حجرية, إذ يبلغ وتر الحنية 5,30م بعمق 2,80م، أما باقي العناصر المعمارية التي كانت تشكل أجزاء المبنى قد تناثرت بعضها داخل وحول المبنى , وهي تشكل أجزاء من الأعمدة (Column) والتيجان (Capital) وأجزاء من الكورنيش(Cornice)(صورة 3)، وتجدر الإشارة إلى أن معظم الأعمدة سقطت داخل البناء، حيث كانت ترتكز على قواعد أبعادها (50سم×50سم) وقطر بدن العمود 120سم، ويلاحظ كذلك أن بعض تيجانها كورنثي(Corinthian) الطراز, والبعض الآخر يحمل زخارف نباتية غير واضحة باستثناء أن أحدها يحمل على وجهيه صليب داخل إطار دائري، وصور بجانبه سعفة نخيل. أما الكورنيش حمل زخارف تمثل حزوز أفقية ورأسية على واجهته (صورة4)، (صورة5) .

صورة (3)الكورنيش.

صورة (4) تاج يحمل رمز الصليبيين

صورة (5) عمود حجري

وتجدر الإشارة أيضاً إلي أن المعماري الذي شيد البناء صمم الصهاريج كجزء من عناصر الكنيسة، فقام بإنشاء صهريج وسط الصحن والآخر أمام مدخلها الشرقي، بالإضافة إلى الصهاريج الخارجية التي تقع إلى جهة الجنوب من الموقع (صورة 6،7).

صورة (6) صهريج بداخل صحن الكنيسة

صورة (7) صهريج أمام الكنيسة

وأحيط كل من البناءين (المزرعة المحصنة والكنيسة) بخندق وأسوار، نقر بداخل الخندق عدد من الكهوف استخدمت في الغالب كمخازن ويتميز أحد تلك الكهوف بمدخل قبوي أبعاده (2م×4,20م) (صورة 8).

والمدخل الرئيس للمستوطنة الذي يضم جميع البنايات غطي بركام من الأحجار المتساقطة إلا أن قوس المدخل يظهر بوضوح من بين تلك الركامات (صورة9)، وتقع الإسطبلات التي شيدت خارج الخندق في اتجاه المحاجر في الجهة الجنوبية الشرقية.

ونود الإشارة إلى أنه قد تم إنشاء ثمانية صهاريج كبيرة الحجم في الموقع، لتوفير احتياجات المستوطنة من الماء، أما عن المكتشفات السطحية فقد تم التقاط عدد من الكسر الفخارية التي تغطي سطح الموقع بكثافة كبيرة، وجميع ما تم معاينته يصنف من الفخار الأحمر المصقول والذي يؤرخ بالعصر الروماني المتأخر**** .

صورة (8) الكهف ذو المدخل القبوي

صورة (9) المدخل الرئيس للمستوطنة

تقييم حالة الموقع :

التوثيق الأثري من أهم الأعمال التي يبدأ بها الباحث في مجال الآثار، حيث يسبق الكثير من الإجراءات العلمية لاسيما التنقيب في الموقع الأثري، ولا يخفي الحال علي الكثير من المختصين أن هذا المجال يحتاج لتشكيل فريق متكامل لدراسة مثل هذه المستوطنة المترامية الأطراف، وكما أسلفنا الذكر أن هذه الدراسة تهدف إلي تسليط الضوء على الاكتشاف الجديد الذي يمثل مستوطنة زراعية، كذلك تسعى الدراسة إلى توثيق

****- شهد هذا الموقع إعادة استخدام في العصر الروماني المتأخر حيث يبرهن وجود الكنيسة، وكذلك العثور علي كسر من الفخار الأحمر علي سطح الموقع الذي يرجع لفترة بناء الكنيسة ،ولكن لا يمكن الاعتماد على الفخار الملتقط في تحديد تأريخ حقيقي لهذه المواقع ويترك هذا الأمر للحفريات مستقبلاً, وعند المقارنة بالمواقع المجاورة لهذا الموقع حيث كشفت بعض الملتقطات السطحية أثناء عملية المسح التي أجريت في منطقة وادي الكوف، إن العديد من المواقع شهدت استيطان في العصر الهللينستي إذ تم الكشف عن بعض العملات التي تؤرخ للقرن الثالث والثاني قبل الميلاد، للمزيد ينظر : عماد وكيل،المواقع الاثرية للتخوم الخارجية الغربية لهضبة كيريني المرجع السابق ص169.للمزيد عن الفخار ينظر : ج. لويد،ت: رمضان احمد قديده وآخرون،"تقرير عن حفريات مقبرة سيدي اخريبيش" ،مجلة ليبيا القديمة، الملحق الخامس .مصلحة الآثار،طرابلس،ص-ص11-12.

الموقع ومن ثم تتبع حالته وتسجيل عوامل التدهور التي يتعرض لها، ويعرض بشكل تقرير يوضع كخطة لحماية الموقع .

بطبيعة الحال المواقع الأثرية مهددة بشكل فعلى بمجموعة مركبة من العوامل المختلفة (طبيعية وبشرية). وهذه العوامل تتفاوت في مدى تأثيرها فالبعض منها سريع وفوري كالزلازل والحرائق، وبعض من تلك العوامل أقل تأثير كالتأكل الذي يحدث بفعل التفاعلات الفيزيوكيمائية (Physco Chemical Deteriorating Factors) والبيولوجية.

الزائر للموقع يشاهد بوضوح تأثير أكثر العوامل التلف الميكانيكية (Mechanical Deteriorating Factors) ، حيث تعرض البناء إلى زلزال[*****] مما تسبب في سقوط جدار بأكمله، ويلاحظ ذلك في الجدار الغربي الذي سقط في اتجاه واحد داخل البناء، ويظهر هذا الانهيار طبيعة الهيكل الإنشائي للبناء من حيث طريقة البناء المتبعة، والعناصر المعمارية كالأقواس والأعمدة والدعامات، صورة(10،11).

صورة(10،11) انهيار بالجدار الغربي بفعل الزلازل

وتعد التفاعلات التي تحدثها الرطوبة العالية والحرارة عوامل تلف كيميائية، حيث تعمل الرطوبة العالية على إذابة الأملاح في المواد الرابطة لحبيبات الكتل الحجرية (يعتبر الحجر الجيري أكثر الصخور تأثراً بالرطوبة) والمونة، مما يجعلها تطفو على الأسطح، وبفعل الحرارة والتبخر اللذان يعملا على إضعاف صلابة الأحجار وقوالب اللبن ومونة البناء والملاط، ومن ثم يجعل عملية تفتيتها أمراً واقعاً[11]، وتجدر

[11]-عبد المعز شاهين ،ترميم وصيانة المباني الأثرية والتاريخية، مطابع المجلس الأعلى للآثار،القاهرة، 1994م، ص176- ص178.

الإشارة إلى أن هذا النوع من التلف شائع جداً في أغلب الموقع الأثري لطبيعة مناخ المنطقة التي تتمتع بالحرارة صيفاً والرطوبة شتاءَ، صورة (12،13).

صورة (12،13) تأثير الرطوبة في الحجر والملاط

ومن عوامل تدهور موقع سليطين الأشجار والنباتات المتطفلة على البناء، حيث تعمل جذورها التي تخترق الفواصل بين الكتل المعمارية، وأسفل الأساسات بالضغط أثناء نموها الذي يسبب تصدع وشقوق في جدران البناء،صورة (14 ،15)، ومن العوامل التلف البيولوجية أيضاً الكائنات الدقيقة (البكتيريا والفطريات)، حيث تعملان على تفتيت تماسك وصلابة مواد البناء (Building Mortars) بسبب الحموضة التي تنتجها عند تحلل المواد العضوية[12].

صورة(14،15) توضح تطفل النباتات على الموقع

[12]-المرجع السابق،ص179.

كما شهد الموقع أعمال الهدم والتخريب بسبب الإهمال من الجهات المختصة، مما يجعل الموقع معرضاً للتدهور بدون قصد لانعدام الوعي لدى المواطنين، فقد رصدت بالمواقع بعض الانتهاكات من هذا النوع صورة (16،17)، وأما أن يكون التخريب متعمداً بفعل اللصوص بهدف البحث عن الكنوز كما في الصورة (18،19).

صورة(16) جزء من الكورنيش تم درجحته في الصهريج

صورة (17) أجزاء من عمود تم إسقاطها داخل الصهريج

صورة (18) رمي القمامة في الموقع

صورة (19) هدم متعمد لكتل البناء بالجدار الغربي

ويمكن تلخيص عوامل التدهور التي تشكل في الوقت الراهن الخطر الأبرز على الموقع في عدد من النقاط التالية:

1- تشكل الأشجار والنباتات المتطفلة التهديد الأكبر على الموقع .

2- الموقع مفتوح ويقع في مرتفع جبلي مما يجعله معرض بشكل كبير لعوامل التعرية.

3- للعامل البشري أيضاً نصيب من أسباب التدهور الحاصل للموقع، فالموقع يقع وسط هضبة زراعية لاتزال تمارس فيها أعمال الزراعة إلى الآن، مما جعل الموقع معرضاً لخطر الزحف على أرضه حيث تعرض الجدار الغربي للتدمير، كذلك تم رصد بعض أعمال التخريب بفعل معاول لصوص الآثار .

4- يواكب الزحف الزراعي على المواقع الأثرية في الغالب الرعي، حيث تشكل الأراضي الزراعية المحيطة بالموقع مراعي خصبة لرعي الحيوانات، مما يجعل الموقع معرضاً لسقوط أساساته وذلك بسبب مرور تلك الحيوانات عليه.

5- الزحف العمراني هو أيضاً عامل تدهور للمواقع الأثرية، وأن كان هذا الموقع لا يزال بعيداً عن هذا الخطر إلا أن حالة الإهمال التي يتعرض له الموقع يجعله أكثر عرضه لذلك الخطر المحتمل.

وبعد أن تتبعت الدراسة عملية التوثيق العلمي، وبعد أن عرضت أهم عوامل التدهور الذي يتعرض له الموقع، سنضع بعض المقترحات والتوصيات:

1- هذه الدراسة بمثابة تقرير علمي سوف نقوم بتوجيهه إلي الجهات المختصة (مصلحة الآثار) لكي تتم عملية تسجيل الموقع في أرشيف المواقع الأثرية المسجلة بمصلحة الآثار.

2- يجب أن تعقب عملية تسجيل الموقع الكثير من الخطوات، وهنا يجب التركيز على أن الموقع يحتاج لتدخل سريع وذلك لحماية الموقع وإيقاف التدهور الذي يتعرض له (تتلخص عوامل التدهور في النقاط السابقة).

3- نقترح أن تكون الخطوة الأولي لحماية الموقع وضع سياج حول الموقع، ثم وضع خطة لحمايته على المدى القريب وأخرى على المدى المتوسط.

4- نوصي بأن تتضمن خطط الحماية المادية – من مكافحة النباتات وإيقاف الزحف الزراعي، والعمراني على الموقع – حماية أمنية لوقف الاعتداءات التي يقوم بها الجهلة من المخربين ولصوص الآثار.

المصادر والمراجع :

1. بطوليميوس كلاوديوس،الجغرافية"وصف ليبيا (قارة أفريقيا) ومصر"الفصل الرابع، ت:محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس، 2004،هامش المترجم ص1؛ ينظر أيضاً: رجب عبد الحميد الأثرم، تاريخ برقة السياسي والاقتصادي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م،ص59.

*- أختلف الباحثون في تحديد موقع أتومالاكس، فيري الأثرم أنها العقيلة، بينما يجعلها مصطفي عبد العليم تقع غرب العقيلة ؛في حين يحددها ستوكي وجودتشايلد ولاروند عند بوشعيفة، للمزيد بهذا ا الشأن. مصطفي كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1966،ص 138؛ينظر أيضاً: رجب الاثرم،محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، ط2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994؛جود تشايلد، دراسات ليبية، ت:عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1999،ص272_وما بعدها ؛أندريه لاروند، تاريخ برقه في العصر الهلينستي،ت:عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 2003م،ص225؛ خالد الهدار ،دراسة القبور الفردية وأثاثها الجنائزي في تاوخيرا ،مج1،منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 2006م،ص35؛
.SANDRO STUCCHI,Architectura Cyrenaica,MonographiediArcheologia, Roma,1975 ,p385

2. Supplementum / Epigraphic an Graecan . Vol . Ix .I . G Klaffenbach 1939؛ينظر أيضاً : مصطفي كمال عبد العليم، مرجع سابق،ص138؛عبد السلام شلوف، نقوش ونصوص من ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1994م،ص75.
3. سترأبون،الجغرافية"الكتاب السابع عشر"ت:محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس2003م،الفصل الثالث،ف 22.
4. سالوست، حرب يوغرطة، ت: محمد الهادي،د. ن،الجزائر، 1991،ف 19.
5. بليني الأكبر،التاريخ الطبيعي،الكتاب الخامس،ترجمة: علي فهمي خشيم، ط2،مكتبة الفكر،طرابلس، 1975م،ف 5،ص111.
6. سترأبون،مصدر سابق،ف114.
7. جود تشايلد، دراسات ليبية، مرجع سابق،ص272.
8. المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والقاحلة، مشروع منتزه الكوف الوطني (الغطاء النباتي)، ...،ص3.
9. عماد عبدالله وكيل،المواقع الاثرية للتخوم الخارجية الغربية لهضبة كيريني دراسة أثرية لمنطقة وادي الكوف رسالة ماجستير غير منشورة ،أكاديمية الدراسات العليا طرابلس 2015م ص180.
10. Deures, Synessius,EtudeBiogrphique Et Litter Aire,PyH-Druon,palibrairie,Hachette ETC79. Paris ,1978.Litter87؛
Roques ,D.Synesios de Cyrene et la Cyreniaque de Bas –Empire , Paris ,1987.P265 .

**- هذه الطريقة من البناء يتم فيها استخدام صفين من الكتل الحجرية الكبيرة ويترك بينها فراغ يملا بالدبش .

***- ينسب هذا التخطيط المعماري إلي البازيلكا الرومانيةBasilica(المحكمة أو دور العدالة)،التي تحولت في العصر البيزنطي إلي كنائس، والتصميم البازيلكي يتكون من صحن Nave ورواقين أو جناحين جانبيين Aisles في الضلعين القصيرين الغربي والشرقي في غالب الأحيان، وبدأ هذا الطراز من القرن الرابع الميلادي وأستمر إلي القرن السادس الميلادي.

****- شهد هذا الموقع إعادة استخدام في العصر الروماني المتأخر حيث يبرهن وجود الكنيسة، وكذلك العثور علي كسر من الفخار الأحمر علي سطح الموقع الذي يرجع لفترة بناء الكنيسة ،ولكن لا يمكن الاعتماد على الفخار الملتقط في تحديد تأريخ حقيقي لهذه المواقع ويترك هذا الأمر للحفريات مستقبلاً, وعند المقارنة بالمواقع المجاورة لهذا الموقع حيث كشفت بعض الملتقطات السطحية أثناء عملية المسح التي أجريت في منطقة وادي الكوف، إن العديد من المواقع شهدت استيطان في العصر الهللينستي إذ تم الكشف عن بعض العملات التي تؤرخ للقرن الثالث والثاني قبل الميلاد، للمزيد ينظر : عماد وكيل،المواقع الاثرية للتخوم الخارجية الغربية لهضبة كيريني المرجع السابق ص169.للمزيد عن الفخار ينظر : ج. لويد،ت: رمضان احمد قديه وآخرون،"تقرير عن حفريات مقبرة سيدي اخريبيش" ،مجلة ليبيا القديمة، الملحق الخامس .مصلحة الآثار،طرابلس،ص-ص11-12.

11. عبد المعز شاهين ،ترميم وصيانة المباني الأثرية والتاريخية، مطابع المجلس الأعلى للآثار،القاهرة، 1994م، ص176-ص-178.
12. المرجع السابق،ص179.

دور الحكام الرومان في دعم الاستيطان الروماني فيكيرينايكي خلال القرن الأول قبل الميلاد .

إعداد :

أ . الفرجاني محمد الفرجاني

جامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية

ملخص البحث .

لم يكن الاستيطان الروماني في كيرينايكي في بادئ الأمر ظاهراً وجلياً منذ أن أصبح الإقليمجزءاً من أملاكهمبدءاً من سنة 96 ق.م وفقاً للوصية التي تركها بطلميوس أبيون بأيلولة الإقليم لصالحهم. ولعل روما في نهاية العصر الجمهوري انشغلت بفتوحاتٍ عدة، صرفتها على السيطرة الفعلية على الإقليم . ومن المرجح أن ظهور خطر الحرب في شمال أفريقيا عقب سقوط قرطاجة بين الرومان والنوميديين وظهور زعامات طامحة في روما للاستئثار بالمجد والعظمة، وتوسع روما في فتوحات كثيرة في شرق المتوسط وتدخلها في شؤون كثير من الممالك، كانت كلها أسباباً مباشرةً رسمت صورة أمام روما بحتمية ضم الإقليم لصالحها، خاصة عندما لاحت أخطار حروب القراصنة على ضفاف البحر المتوسط الجنوبية.

لقد كانت حالة الإقليم الداخلية عقب نهاية الحكم البطلمي تشوبها كثيراً من الفتن والقلاقل وتحكم فئة أرستقراطية في مصائر سكانه الذين لم يألوا جهداً في البحث على مُعينٍ لهم على محنتهم، وفي هذه الأثناء كانت روما تخوض حروباً طاحنة على جبهات متعددة جعلتها ترنو بنظرها إلى الإقليم ذو الثراء الوفير وجعله نقطة تمركز لقواتها، لما يتمتع به من موقعٍ ممتاز على ضفاف البحر المتوسط الجنوبية .

لقد كان مجلس الشيوخ الروماني هو المبادر والمحرض على ضم الإقليم خاصةً بعد الحروب التي خاضتها روما ضد الملك الفارسي ميثراداتيس الثاني،فأوفدت قادة عظماء أمثال سولا ولوكوللوس وبومبيوس للحد من خطره، ومن هنا كانت الحاجة ماسة للموارد الاقتصادية والبشرية في كيرينايكي لتكون تحت تصرف قادتها في حروبهم .

منذ سنة 74 ق.م أصبح الوجود الروماني في كيرينايكي ملموساً في شكل تواجد قادة عسكريين أُرسِلوا ليكونوا على هرم السلطة هناك، وتتبع الأعمال التي قامت بها عديد الشخصيات الرومانية التي أثرت في مجرى الأحداث في الإقليم خلال القرن الأول قبل الميلاد لدعم التواجد الروماني فيه، ومن هنا جاءت الفكرة للتعرف على هؤلاء الحكام الذين كانت لهم بصمات واضحة في رسم سياسة الإقليم تجاه التواجد الروماني آنذاك .

لقد تم في هذا العمل المتواضع جمع أسماء الشخصيات الرومانية التي ارتبطت جهودها بأعمال جليلة حفظها لنا التاريخ عبر وثائقه، وتتبع تلك الأعمال لكل شخصية، ومدى مساهمتها في دعم الاستيطان الروماني في كيرينايكي خلال القرن الأول قبل الميلاد .

The English summary

The Roman rulers role in the Roman settlement support at Cyrenaica during the First century B.C.

When the last king of Cyrenaica died in 96 B.C who's name Apion , bequeathing his kingdom to Rome. The region became center to glamours , after that the senate accepted ownership of the royal estates but left the cities independent .

After that the buccaneers are stated at the Cyrenaica ports ,like Cyrene port ,Bernice , Ptolemais ,and Teuchera .

The sources tell us that in 74 B.C the decision as to the cities were reversed on the grounds that they needed a wiser and less ambitious government than they could provide for themselves and that there had been a recent outbreak of civil strife in Cyrene -which ,as we know from other sources ,were not the first crisis of the kind to occur since 96 B.C .

In the event a new province was created to which the quaestor Cornelius LentulusMarcellinus was sent out as the first Roman's governor to the region.

It seems the reasons which actuated Caesar to impose a fine on Lepcis Magna were not that she had welcomed Marcos Cato Uticensis with the remnants ofPompeius Magnus 's army , where he spent a winter and at the outset of the war , in consequence of disagreement among her leaders , she had allied herself with Juba I and supplied him with arms , troops and money .

After Caesar's assassination there was a severe struggle between his supporters and the republicans . Both contested Africa Vetus and Nova .at this time the first governor of Africa Nova was the Roman historian SallustiusCrispus between 46/44B.C .

Meanwhile the victory of Actium 31B.C , Octavian became the master of the Roman provinces .He devoted all his efforts to reorganizing the state . He reign was distinguished by stability .

When the civil war was finally ended , and the new system know as the leader (Principate) had been established under the rule of Augustus , attention could be given to the permanent frontier of empire , and to the most effective deployment of the imperial army for their defence.

أهمية البحث : -

لقد كانت أهمية البحث في هذا الموضوع تكمن في التعرف على الحكام الذين ساهموا في ترسيخ التواجد الروماني في الإقليم، خاصة وأن كثيراً منهم تحدثت عنهم النقوش التي اكتُشِفتْ خلال أعمال الحفر والتنقيب التي قامت بها كثير من البعثات الأثرية ، وإلى أي مدى ساهم هؤلاء الحكام في الرفعة والنهوض بأحوالهم في الإقليم؟.

أهداف البحث : -

- تكمن أهداف البحث في كيفية تخلي البطالمة عن حكم الإقليم وترك زمام المبادرة لروما في تسير دفة الأمور فيه .
- محاولة استنطاق بعض النقوش التي تحدثت عن بعض الشخصيات الرومانية التي وردت في البحث والتي كان لها دور في رسم السياسة العامة لروما في الإقليم منذ أن وطأت أقدام الرومان ترابه .
- تتبع الدور الذي ساهم به الإقليم – وفقاً لسلطة الأمر الواقع - في تحقيق كثير من انتصارات روما في مواقع عدة سواء مع أعدائها أو حتى بين قادتها المتنافسين على السلطة .
- التأكيد على أن القبائل الليبية لم تخضع للحكم الروماني، بل واجهته بسلسلة حروبٍ وغارات أقضّت مضجعه لسنواتٍ طوال، معتبرةً إياه مستعمراً دخيلاً مثله مثل الإغريق الذين ورّثوا أرضهم للغير، ولعل إبراز أسماء

بعض القناصل الذين حاربوا الليبيين ليس على أساس أن الليبيين متمردين على السلطة الرومانية، بل لغرض ذكر الدور – وهو عنوان البحث – الذي ساهم فيه الحكام الرومان في تثبيت الحكم لصالحهم في الإقليم .

منهجية البحث : -

لعل منهجية البحث في هذا الموضوع لا تخرج عن المألوف من المنهجيات في دراسة التاريخ بشكل عام، وهو السرد التاريخي للوقائع، وتوظيف المتاح من الوثائق في هذا الجانب، وهذا ما جاءَ مشتملاً عليه البحث في الموائمة بين المعلومات التي ذكرتها المصادر الأدبية وبين ما جاءت به الوثائق النقشية ومحاولة الربط بينها وهذا ما يسميه البعض بالمنهج المركب الذي يجمع بين السرد التاريخي واستنطاق اللُقى الأثرية.

دور الحكام [1]الرومان في دعم الاستيطان الروماني في كيرينايكي خلال القرن الأول قبل الميلاد:

تحصل الرومان على ثلاث ممالك وفقاً لنظام الوصية بالتركة وهي مملكة برجامون Περγαμονالتي أوصى بها أتالوس الثالث Αττάλος III 133 ق.م ، ومملكة كيرينايكي Κυρηναικηالتي أوصى بها بطلميوسأبيون Πτολεμαιος Απιον سنة 96 ق.م ومملكة بيثينيا Βιθυνιαالتي أوصى بها نيكوميدس Νικομηδης سنة 74 ق.م.

لقد كانت وصية بطلميوس أبيون سنة 96 ق.م إيذاناً بتفكك وزوال إمبراطورية البطالمة، بل وحتى الممالك الهللنستية الأخرى التي مزقتها الصراعات الداخلية والحروب الخارجية، وظهور روما على مسرح الأحداث في العالم كقوة ضاربة استطاعت أن تُنهي الوجود القرطاجي باحتلال وتدمير قرطاجة سنة 146 ق.م ، والاستيلاء على بلاد الإغريق أيضاً في نفس السنة ، وإنهاء مملكة نوميديا سنة 47 ق.م ، كل ذلك جعل ممالك العالم القديم تتجه نحو سياسة التزلف وتقديم فروض الولاء والطاعة لسيدة العالم - آنذاك - روما .

حالة الإقليم قبيل الحكم الروماني المباشر :.

لم تكن وصية أبيون حديثة العهد، وإنما أُجلت لبعض الوقت ، حيث أن والده بطلميوس الصغير / يورجيتس الثاني Ευεργετες II دخل في صراع مع أخيه بطلميوس السادس / VI Πτολεμαιος / فليوماتور Φιλομητωρ[2](**النص الأول**) ودخلت روما كوسيط في الصراع بينهما ، إلا أنها وقفت إلى جانب بطلميوس الصغير في مسعاه للحصول على حكم كيرينايكي الذي تولاه بين عامي163-155 ق.م.

ووفاءً لروما على وقوفها إلى جانبه في تسلمه زمام الأمور في كيرينايكي، فقد آلَ على نفسه ألاَ تعود أملاكه لصالح أخيه بعد وفاته، ومن هنا جاءت التوصية للرومان حال عدم وجود وريث شرعي يؤول إليه الحكم عقب وفاته. وقد كُتِبتْ تلك الوصية لأول مرة عام 155 ق.م على أوراق البردي(**النص الثاني**) [3]، وأرسلت منها نسخة إلى روما[4]، وفي سنة 145 ق.م مات بطلميوس السادس / فليوماتور ووقف الحظ بجانب بطلميوس الصغير/ يورجيتس الثاني، واعتلى عرش مصر باسمبطلميوس الثامن / يورجيتس الثاني الملقب بفيسكون Φυσκων وتزوج من كليوباترا الثالثة Κλεοπατρα III وأنجبت له أبنين. ووجد له أبناً ثالثاً غير شرعي من محظيته إيريني Ειρενε دُعِيَ بطلميوس أبيون[5] ، وفي سنة 116 ق.م مات بطلميوس الثامن بعد أن أوصى بأوْل حكم إقليم كيرينايكي إلى ابنه غير الشرعي بطلميوس أبيون ، الذي سار على نهج والده وترك لنا وصية سنة 96 ق.م بموجبها أصبح إقليم كيرينايكي - من بعده -جزءاً من أملاك الشعب الروماني Ager PublicusPopuli Romani من كاثاباثموس Καταβαθμος شرقاً إلى نصب الأخوين فلايني Φιλαινι βομοι غرباً .

لقد اكتفى مجلس الشيوخ الروماني بوضع يده على الأراضي الزراعية الملكية Αγρι ρεγιι في الإقليم ، وأعتُبرتْ المدن الإغريقية في الإقليم حليفة للرومان FoederataCivitas، وأصبحت مدناً حرةً Libertas، وأدارت شؤونها بنفسها [6]، وفي عام 93 ق.م تم شحن ثلاثين رطلاً من نبات السلفيوم من كيرينايكي عبر ميناء كيريني إلى روما، وكان ذلك أول كمية أنتاج تتسلمه روما عقب وصية أبيون من أنتاج الأراضي الملكية [7].ومن المرجح أن مجلس الشيوخ الروماني قد قامَ بإرسال وكلاء ليكونوا مشرفين على إدارة الأراضي التي كانت

تخص الملك البطلمي بطلميوس أبيون، واستثمار تجارة السلفيوم التي كانت تدر أموالاً طائلة ، سواء أكانت هذه الأموال التي تجبى تدفع على شكل إتاوات أو مُنْح لصالح روما[8].

لقد عَانَى إقليم كيرينايكي كثيراً من عدم وجود حكمٍ مركزي، إذ لحِقتْ في هذه المرحلة بمدينة كيريني اضطرابات عصفت بأحوالها وأحوال ساكنيها، حيث تولى السلطة الطاغية نيكوكراتس Νικοκρατες Τψραντ الذي بدأ عهده بمقَتْلَ كاهن الإله أبوللو Απολλο الذي يُدعى ميلاينوس Μελαενος ، وقد تولى هذا الطاغية منصب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus، كما قتلَ فايديموس Φαεδιμος زوج أريتافيلاالكيرينية Αρεταφιλα Τον Κερναιν ، فما كان من التي قُتِلَ زوجها- وأُجبرتْ على الزواج من ذاك الطاغية - إلا أن تُحيك المؤامرات والدسائس ضد نيكوكراتس. وذلك بأن ألبت عليه شقيقه ليندر،Λενδερحيث أغرته بالزواج من أبنتها التي أصبحت تحرض زوجها على قتل أخيه الذي لقيَ حتفه على يد أحد الخدم ويدعى دافنيس Δαφνις ، غير أن ليندر لم يكن أقل طغياناً من أخيه ، فسَاسَ الرعية بجنون وتهور، ولم يكن أمام أريتافيلا بُدْ من طلب المعونة من زعيم إحدى القبائل الليبية المجاورة ويدعى أنابوس Αναβος لتخليص مدينتها من حكم هذا الطاغية، حيث تم القبض على ليندر وقُتِلَ ووضعَ في كيس جلدي وأُلقَى به في البحر، أما أمه كالبيا Καλβια فقد أُحرقتْ حية [9].

لقد أضحت كيرينايكي قبل سنة 75 ق.م مسرحاً لعمليات قراصنة البحر الأوربيين Κυρενακος πολεμος ، فعم السلب والنهب والاستيلاء على الغنائم في عَرض البحر المتوسط فيما بين جزيرة كريت و الإقليم[10]. ولقد كان لشهرة موانيه وتحكمها في طرق الملاحة البحرية بين مصر وإيطاليا دافعاً لعمليات القرصنة، إذ كانت السفن تجوب تلك الطرق في ذلك الزمن الغابر غدواً و رواحاً ، ولعل موانئ كيرينايكي - وخاصة ميناء برنيكي Βερενικη - كانت على صلة بموانئ جزيرة صقلية Σικελια[11]،ومن المرجح أن أولئك القراصنة اتخذوا بعضاً من موانئ الإقليم قواعدً رئيسية لعملياتهم في السطو على كل سفينة بالقوة[12]. ولعلهم استخدموا سفناً - في عملياتهم– كانت قد صُنِعتْ من غابات الإقليم في كيرينايكي، وقد عُرفتْ تلك السفن باسم ليمدوس Λεμδος، وكانت تتسع لنقل أكثر من خمسين رجلاً علاوةً على طاقم بحارتها وربانها، وهذا النوع من السفن السريعة استُخدِمتْ في قطع الطرق ومهاجمة السفن التجارية[13] . ولعل تلك العوامل مجتمعة ساهمت في استقطاب كثيراً ممن امتُهنوا هذه الوسيلة في التكسب والحصول على الغنائم بأيسر وأسهل الطرق.

لقد اشتملت أعمال القراصنة بين عامي 78/88ق.م على عمليات السلب والنهب والاستيلاء على القوافل البحرية في عرض البحر المتوسط فيما بين جزيرة كريت وكيرينايكي وجزر البلوبونيز، ومن الملفت للنظر أن أولئك القراصنة كان هدفهم هو شطر البحر المتوسط إلى نصفين، وإيجاد مناطق نفوذ بينهما وأصبحت مدن الإقليم الكيرينايكي قواعد رئيسية للقراصنة الأوربيين،الذين أزداد نشاطهم في ذاك الوقت[14].

في شتاء عام 86 ق.م قَدِمَ القنصل لوكيوس ليكينيوس لوكوللوس Licinius Lucullus Lucius موفداً من قبل القائد الروماني لوكيوسكورنيليوس سلا Lucius Cornelius Sulla 138– 78ق.م إلى كيرينايكي للحصول على معونات عسكرية – من سفنٍ وموارد اقتصادية– تُعين الأخير في حربه ضد خصومه، وذلك خلال حصار القوات الرومانية لأثينا التي كانت آنذاك تحت حكم الملك الفارسي ميثراداتيس الثاني Μιτηραδατες II 63/120 ق.م [15] .

إن ما جرى في كيريني عند قدوم لوكيوس لوكوللوس من فتن واضطرابات كادت تعصف بالمدينة والإقليم جعلت الفئة الأرستقراطية ترحب بقدومه، لأنها سيمتْ سوء العذاب وسئمتْ من تصرفات وأفعال الطاغية نيكوكراتيس ، فاعتقدت تلك الفئة أنه جاء لمساعدتها[16] .

باغتَ لوكوللوس الكيرينايكيين وهم في حالة من الفوضى تسبب فيها عدد ممن اغتصبوا السلطة وأحبوا الشغب، فقام لوكوللوس بالإصلاح بين الطرفين، وأرغمهم جميعاً على الانصياع لما يأمر به دستورهم، وذكرهم بمقولة مشهورة للفيلسوف الإغريقي أفلاطون Πλατο في مناسبة سابقة [17] . وكأنه تنبأ في مقولته تلك بما حدث في كيريني من انشقاقات خطيرة وتعْدٍ على القانون والأمن، وكأنه قد تكهن بما آلت إليه حالتهم من تعدٍ وهرج ومرج، وأنصت إليه الكيرينايكيون مليئاً، ثم طلبوا منه أن يصوغ لهم قوانين رادعة، وأن يصوغ للشعب

الكيرينايكي دستوراً عادلاً وحكيماً، فما كان من القائد الروماني لوكوللوس إلا أن ردّ عليهم قائلاً : ليس هناك أمراً من التحكم وفرض القوانين على أناس أغنياء مُنعمون، وأعمالهم التجارية مزدهرة، لأنه من نقائص البشر وآفاتهم الاستغراق في النعيم ومهاد الدعّة والغنى، فالغنّي –بطبعه - يكره الانصياع للسلطة والقوانين، فالقوانين لا يلتزم بها ولا ينصاع لما تقرره من ضوابط إلا أولئك الذين لا يملكون قوت يومهم ويباتون أحياناً يتضورون جوعاً، وكان صدى هذه النصائح والعظات الحكيمة والعقلانية قوياً، ولاقى ارتياحاً في نفوس الكيرينايكيين المنّعمين، فقرروا في التو والساعة تهدئة نفوس بعضهم البعض وأقسموا أن يلتزموا بالقوانين الصارمة التي صاغها لهم لوكوللوس[18] **(النص الثالث)**.

لقد كان لسوء الأحوال الاقتصادية في روما - نتيجة لحروب القراصنة الذين اتخذوا من كيرينايكي قاعدة لعملياتهم ونشاطهم البحري، وعجز مواردها الاقتصادية ، وحدوث المجاعات – هو الذي حدا بها إلى الاهتمام بشؤون إقليم كيرينايكي ذي الثراء الوافر وضمه وجعله ولاية رومانية Roman Provincia ، ومصدراً يضاف إلى مصادرها - خاصةً- في إنتاج الغلال[19] .

خلال العقد التالي تأكد عدم استقرار الإقليم نتيجة غزوات القبائل الليبية، وإزاء هذه الحوادث قررتْ روما بحلول سنة74ق.م أن تضم الإقليم ليكون جزء من الدولة الرومانية، فأوفدت الكويستورQuestor[20] كورنيليوس لينتولو سماركلينيوسCornelius LentulusMarcellinus مفوضاً عن روما بصفة مندوب إمبراطوري Legatus Pro Praetore ، حاملاً مرسوماً يقضي بجعل كيرينايكي ولاية رومانية[21]**(النص الرابع)**،وقد كان هذا الكويستور البروبرايتورQuestorPropraetor مزوداً– من قبل مجلس الشيوخ الروماني– بسلطة الإمبيريومMaiusImperium[22]، وقد جمع هذا الموفد بين السلطتين المالية (الكويستور) والعسكرية (البروبرايتور) .

في سنة67 ق.م أوفد كنيوسبو مبيوسمانيوسCneiusPompeius Magnus106– 48ق.م الجنرال العسكري ورجل الدولة الروماني كورنيليو سماركلينيوس شخصياً يحمل مرسوماً Decretumللفصل في نزاع بين مدينتي كيريني وميناءها أبوللونيا Απολλωνια ، ولعل سبب ذلك النزاع كان على حدودٍ مشتركة بينهما، وقد أدت هذه الوساطة إلى أن ماركلينيوس قد حكم لصالح كيريني في حيازة الأرض المتنازع عليها بينهما[23]، وقد يكون بوجه عام محاولة من روما تأمين مدن الإقليم ممن يحاولون اغتصاب السلطة.

ومن المرجح أن سلطة فض المنازعات Διαφορας υ πιρالتي أُسنِدتْ إلى كورنيليو سماركلينيوس لرأب الصدع بين مدينة كيريني وميناءها[24]**(النص الخامس)**، كانت بمثابة الحفاظ على وصول القوافل والمساعدات والإمدادات اللازمة من وإلى روما، حتى أن تلك الأعمال قد أشاد بها سكان الإقليم وأطلقوا عليه لقب الحامي والمنقذ للكيرينايكيين[25]**(النص السادس)**.

كما قامَ كورنيليوس ماركلينيوس بإيعازٍ من كنيوسبومبيوس بإصلاح نظام الري في كيرينايكي، وقد جمعَ في سبيل ذلك الأموال اللازمة، ويرجح أن ذلك العمل كان عقب استتباب الأمن في الإقليم بعد انتهاء خطر القراصنة حوالي سنة67 ق.م[26]**(النص السابع)** .

وفي هذه الفترة أوكِلتْ لبومبيو سمانيوس عن طريق مجلس الشيوخ - بمقتضى قانون جابينيوس LexGabinius الصادر سنة 67 ق.م الخاص بمحاربة القراصنة في البحر - مهمة السيطرة على السواحل المطلة على البحر المتوسط لجعله بحيرة رومانية Mara Romanum إلى قائد واحد يُمنح سلطات واسعة بدرجة بروقنصلProconsul ولمدة ثلاث سنوات، وأن يُمنح سلطةً عليا ، وتكون المسافة التي يحارب فيها حتى الدواخل حوالي خمسين ميلاً[27]، وبعد القضاء على القراصنة أشرف كورنيليوس ماركلينيوس على توطين من بقى منهم في بتوليمايس[28] .

بعد انتصار كنيوسبو مبيوسمانيوس نهائياً على القراصنة في صيف عام 67 ق.م دَخَلَ إقليم كيرينايكي وجزيرة كريت في اتحادٍ تحت الحكم الروماني[29]، إلا أن المنطقتين ظلتا منفصلتين من النواحي السياسية والإدارية، أي بمعنى أن الاتحاد ظلَ شكلياً، فلكل منهما كيانه الخاص به، حيث أنه في كريت تشَكَلَ مجلس الاتحاد الكريتي To Καινον Κρητων[30]،أما في كيرينايكي فلا أثر لوجود مثل ذاك المجلس في تاريخ الاتحاد بين المقاطعتين، مما يدلل على أن الاتحاد ربما كان متمثلاً في جانب واحد فقط وهو شخص الحاكم الذي أوكِلتْ إليه أمور المقاطعتين ، فجاءت الإصدارات النقدية ممهورة باسم الحاكم الروماني لكيرينايكي وكريت معاً بين عامي24/67 ق.م[31] .

من الشخصيات التي تولت حكم المقاطعتين خلال وحدتهما– إن أقررنا بذلك– ماركوس يوفينتو سلاتيرينسيسMarcus JuventiusLaterensis الذي كان يشغل منصب كويستوربروبرايتور QuaesterPropraetor ، وكان ذلك بين عامي 62– 59ق.م ، ولعل لاتيرينسيس- أبان حصوله على منصبه ذاك- قد أتهم شخصية رومانية أخري تدعى بلانكيوسPlancius بتزوير الانتخابات لمنصب البرايتورية الذي كانا يتنافسا في الحصول عليه خلال عام 55 ق.م[32] .

من المحتمل أن السنوات التي تلتْ سنة 59 ق.م تولى خلالها بعض الولاة الرومان أمثال م نونيوسسوفيتاتيM.NoniusSufenate الذي كان يشغل منصب بروبرايتور كريت وكيرينايكي خلال العام 50/51 ق.م، وكذلك الكويستور ترنتيوسفاروس مورينا TerentiusVarusMorena، الذي ورد ذكره على أنه حامي أملاك البطالمة في كيرينايكي A TerentioVarroniMurenaePtolemaeisCyrenenses patron[33]، وفيما يبدو أن إقليم كيرينايكي قد انفَصلَ عن كريت مرتين – قبيل العصر الإمبراطوري –الأول بين عامي 49/52 ق.م ، والثاني خلال العام 43/44 ق.م[34] .

الحرب الأهلية، وتأثيراتها على الإقليم :.

لعل صدور قانون جابينوسLexGabinius أعطى الفرصة لكنيوسبومبيوس ليكون طرفاً قوياً في صراع القادة العسكريين الرومان Roman Imperators: جايوس يوليوس قيصر GayusJullus Caesar 102- 44 ق.م وبومبيوسمانيوس[35] و ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius 83 – 30 ق.م، وقد أشتد ذاك الصراع وألقى بظلاله على العلاقات بين كيرينايكي و روما في أواخر العصر الجمهوري، حيث أنها دخلت في أتون تلك الصراعات بين القادة ، وقد استفاد بومبيوسمانيوس من ولاء كيرينايكي له فقد زودته بالرجال– الذين استعان بهم من القبائل الليبية – والغلال التي تنتجها سهولها الخصبة وفي مقدمتها محصول القمح[36].

وعندما حلت الهزيمة بقوات بومبيوسمانيوس وقائده ماركوس كاتو Marcos Cato أمام قوات يوليوس قيصر في معركة فارسالوسPharsalus– في أغسطس 48 ق.م بإقليم تساليا ببلاد الإغريق –قد تحّرجَ موقف الإقليم كثيراً بين مناصرة بومبيوسمانيوس أو مناصرة غريمه في تلك الحرب[37]، ورغم عمق العلاقات بين كيرينايكي ورجالات بومبيوسمانيوس الذين رجعوا إلى الإقليم– بعد مقتل قائدهم في الإسكندرية على يد أنصار الملك البطلمي بطلميوس الثالث عشرXiii Πτολεμιος[38]– وأقاموا له على شواطئه إكليلاً ضخماً من نبات العليق Bramble تجسيداً وتكريماً لتضحياته[39]، إلا أن بعض المرافئ في الإقليم– وفي مقدمتها مرفأ فيكوس Φυκους[40]- رفضت استقبال القوات المندحرة التي يقودها ماركوس كاتو[41]، التي كان قوامها عشرة آلاف مقاتل[42]، لذا فضلَ ماركوس كاتو التوجه إلى باليوروسΠαλιουρος(وادي التميمي)بالقرب من طبرق عن

اقتحام مرفأ فيكوس عنوة ، كما أن مدينة كيرينيلم تبذْ ترحيباً بالقائد لابنيوسLabienus، كما وصلت سفن قادمة من الإسكندرية Αλεξανδρεια على متن إحداها كورنيلياCornelia أرملة بومبيوسمانيوس مع أبنه سكستوسSextus[43] .

ويرجح أن ماركوس كاتو كان يرغب في التوجه غرباً للانضمام إلى أنصار بومبيوسمانيوس في أفريقيا الذين نظموا قواتهم في البر الإفريقي تحت قيادة ميتلوسسكيبيو Metellus Scipio الذي حظيَ بمساعدة ابني بومبيو سمانيوس وهما سكستوس وجنايوسGanayous، مع ما يتلقون من مساعدة مقدمة من ملك نوميدياNumidia جوبا الأول Guba I[44]، فقرر الإبحار غرباً لكن العواصف البحرية ألقت بسفنه على شواطئ مدينة برنيكي.

عقد كاتو العزم مرة أخرى للتوجه عبر فيافي سرت سيراً على الأقدام في الرمال الكثيفة والحرارة المرتفعة، وهو يقود جيشاً يفوق تعداده عشرة آلاف مقاتل ، قسمه إلى مجموعاتٍ لنقص موارد المياه ، وقد قطع المسافة في ثلاثين يوماً[45].

وصلَ بعد هذه المسيرة الشاقة مدينة لبتس ماجنا Leptis Magna (لبدة الكبرى)[46]، وقد زار خلال تلك الرحلة معبد الإلهأمون المقدس في صحراء سرت،وأقتفى أثر القائد البطلمي أوفيلاس الإولنيثيOφελας Τον Ολνετηι الذي قطع المسافة بين كيريني وقرطاجة آنذاك في شهرين تقريباً سنة308 ق.م[47]، وقد استعانا في رحلتيهما بأدلاء ليبيين من المدن الثلاث وبعضاً من أفراد قبيلة البسيليΠσψλι خبروا الدروب والمفاوز، وعلى دراية بمعالجة الجنود من لدغات الأفاعي[48]، رغم الفارق الزمني بين الرحلتين : إذ أن أكثر من قرنين ونصف يفصلان بينهما.

وعندما انتهت الحرب الإفريقية Bellum Africum بانتصار يوليوس قيصر ودخوله مدينة ثابسوسΘαψος (رأس ديماس Ras Dimas بتونس) سنة 47 ق.م وانتحار كل من :- ميتلوسسكيبيو وجوبا الأول وماركوس كاتو، أصبح الشمال الإفريقي في قبضة يوليوس قيصر، وقبل أن يغادره إلى روما أعادَ رسم الخارطة في شمال أفريقيا بإنهاء مملكة نوميديا وإظهار ولاية أفريقيا الجديدة، وعُينَ المؤرخ الروماني سالوست كريسبوسSallustiusCrispus كأول والٍ عليها بين عامي 44/46 ق.م . وأصطُلِحَ على تسميتها بولاية أفريقيا الجديدة ProvinciaAfrica Nova[49]، كما عُوقبتْ مدينة لبتس ماجنا بغرامة سنوية تقدر بثلاثة ملايين رطلاً من زيت الزيتون(حوالي ألف طن)[50]، كما أن المدينة أصبحت تابعة خاضعة CivitasStipendiaria بعدما كانت مدينة حليفة وصديقةFoederataCivitas، ولعل المصير ذاته حَلَ بالمدينتين أويا وصبراتة اللتين ربما شاركتا لبدة في دفع الجزية والوضع السياسي الجديد[51].

ولا نغفل ما حدث خلال قنصلية جايوس فاليروسGaius Valerius وماركوس هيرنيوس MarcusHerennius من استيراد ثلاثين رطلاً من عصير السلفيوم والذي يُتحصّل عليه من جذور النبات، وتحصلت روما في زمن دكتاتورية يوليوس قيصر - خلال الحرب الأهلية - على كمية من نبات السلفيوم الكيريني الذي تم سَحبَه من الخزينة بما مقداره ألف وخمسمائة لبرة[52]((**النص الثامن**).

ويُرجح أنه بعد اغتيال يوليوس قيصر في مارس 44 ق.م أسند مجلس الشيوخ الروماني حكم كيرينايكي إلى جايوسكاسيوسGaeus Cassius، وأسند حكم جزيرة كريت إلى ماركوس بروتسBrutusMarcus في سنة 44 ق.م[53](**النص التاسع**)، وليس هناك دلائل على تولي كليهما أمور تلك الولايتين، لأن ماركوس

أنطونيوس قد قطع عليهما كل أمل في تولي إدارات هامة في تلك الدولة الرومانية وكان هدف ماركوس أنطونيوس فصل المنطقتين وإضعاف خصومه السياسيين، وإبعادهما ضمنياً لأنهما لم يمتثلان لأوامره .

وفيما يبدو أن العملات التي صدرت في الإقليم بين عامي 67-24 ق.م وخلال فترة الاتحاد بين كريت وكيرينايكي كانت تحمل على الوجه الاختصار (Kpht) للدلالة على اسم كريت، بينما وجه العملة الآخر كان يحمل الاختصار (Kypa) للدلالة على اسم كيرينايكي مع صورة للنحلة، وقد كانت هذه الإصدارات في بادئ الأمر لا تحمل أسم الحاكم[54] .

وبعد أن هزمَ جنايوس أوكتافيوسGnaeusOctavius 63 ق.م/14م. وماركوس أنطونيوس كلاً من :- ماركوس بروتس و كاسيوس، في معركة فيلبي Philippiفي سبتمبر سنة43 ق.م، آلت أمور حكم جميع الولايات الواقعة شرق البحر الأدرياتيكي بما في ذلك ولاية كيرينايكي إلى ماركوس أنطونيوس، حيث وَضَعَ أربع فرق عسكرية قرابة الحدود الغربية المصرية، وكانت مهمتها الدفاع عن إقليم كيرينايكي من أي خطر بقيادة بيناريو سسكاربوسPinariusScarpusالذي يرجح أنه حكم الإقليم لخمس سنوات، وسَك عملة من فئة الديناريوسDenarius[55]، وفيما بعد جعل ماركوس أنطونيوس على هرم السلطة في ولاية كيرينايكي أبنته كليوباترا سيليني Κλεοπατρα Σειλενε (القمر) ابنة كليوباترا السابعة ΚλεοπατραVII[56]، كما أن أوكتافيوس الذي أصبح قنصلاً في19أغسطس سنة 43 ق.م تولى إدارة ولايات أسبانيا Ασπιναوبلاد الغال Γαλλιαوسردينيا Σαρδινια وصقلية وإيطاليا Ιταλια ودالماتيا Δαλματια[57].

خلال العام 40/41 ق.م سُكتْ عملة نقدية في مدينة كيريني ، وهذه العملة تصور الكويستور الإمبراطوري على وجهيها على هيأة قاضٍ Subsellium يرتدي لباس القضاة، ويحمل في يده رمحاً للدلالة على أنه المسْؤول الأعلى الموكلة إليه أمور الفصل في القضايا المدنية، ومرة أخرى تصوره العُملة وهو جالس على سرج عسكري SellaCastrensis، للدلالة على المركز المرموق الذي يتميز به، كما استمرت الإصدارات في زمن ولاية فيتيوس سكاتوVettiusScato[58].

لقد عَملَ ماركوس أنطونيوس على احتواء العائلات الإغريقية الأرستقراطية ذات النفوذ الكبير في إقليم كيرينايكي، ولعل تنصيبه على رأس هذه الولاية، جعلت كثير من تلك العائلات تقرن أسماءها باسم أنطوني Αντονιι تيمناً وتبركاً به، حيث نجد أسم كبير كهنة معبد أبوللو يقترن باسم أنطوني،كما ظهرت أسرة أنطونيوس فلاماسΑντονιυσ Φλαμμας التي انحدرَ منها كثير من كهنة معبد أبوللو بدءاً من النصف الأول من القرن الأول الميلادي وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي . كما شرعَ في تطبيق بعض الإنجازات والإصلاحات بعد فترةٍ من المعاناة والأزمات الخانقة التي عصفت بالإقليم، وأبقى على أسطول بحري في ولاية كيرينايكي الرومانية[59] ، كما أصدر المفوض الإمبراطوري Legatus Pro Praetore المدعو لوليوس . L Lollius عملة من معدن البرونز تؤرخ بين عامي 35/39 ق.م وجدت مقبورة في أديم الإقليم الكيرينايكي[60].

خلال الفترة التالية حكم الإقليم ثلاثة حكام رومان كان أولهما : بوبليوسلكينيوسPobliusLiciniusوالذي كان يشغل منصب بروكويستور بروبرايتورProquastorPropraetorحيث أصدر عملة معدنية يحمل وجهها Obverse تمثال نصفي لليبيا مع مختصر لكلمة بروكويستور، ويحمل ظهرها Reverse تمثال نصفي لأرتميس كريت مع مختصر لكلمة بروبرايتور، وكان ثان هؤلاء الحكام هو لوكيو سلوليوسLucius Lollius، وكان يشغل منصب برايتورPraetor، وقد سكَ - هو الآخر- عُملة حملت أسمه باللغتين الإغريقية واللاتينية[61]،

وهذه الإصدارات النقدية تتشابه إلى حدٍ كبير مع عملات ماركوس أنطونيوس الذي كان هو الآخر قد سكها بين عامي 35/37 ق.م،أما ثالثهم فهو اولوسبو بيو سروفوسAulusPupius Rufus،وكان هو الآخر موظف بدرجةكويستور بروبرايتورQuaestorPropraetor، وقد استمرت في عهده الإصدارات النقدية في كيرينايكي تظهر للعيان بنفس الهيأة ويرجح أن بداية سكها كان بين عامي 30/40 ق.م[62]، ولعل وظيفة الكويستور البروبرايتور كانت بمثابة إدارة شؤون الولاية الإدارية والمالية .

وعندما احتدم الصراع بين أوكتافيوس وأنطونيوس في معركة أكتيوم Actium سنة 31 ق.م أنظم قائد الفرق الأربعة بيناريو سسكاربوس طواعية لقوات أوكتافيوس وسلم نفسه إلى كورنيلوسجالوس Cornelius Galius مندوب أوكتافيوس[63]. وعلى أثر انتصار أوكتافيوس بدأ بإرجاع الوحدة بين كيرينايكي وكريت، وبدأ يتفاخر باسترداد ولاية كيرينايكي لروما، وأوكَلَ مهمة الإشراف عليها لمجلس الشيوخ الروماني، وعقب الاتفاق الذي حدثَ بين أوكتافيوس ومجلس الشيوخ تم إسناد حكم بعض الولايات - التي تحتاج إلى معونة عسكرية للدفاع عنها- لسلطة الإمبراطور فيما عُرفَ بالولايات الإمبراطورية Imperial provinces ،وبعضها الآخر لمجلس الشيوخ فيما عُرفَ بالولايات السيناتوريةSenatorialprovincesسنة 27 ق.م [64]، ولعل السبب الذي دفع أوكتافيوس إلى إعادة الوحدة بين كيرينايكي وكريت لكون أن كلا المنطقتين ظلتا لفترة طويلة تحت سلطان البطالمة، علاوة على أن هناك تقاطع في العلاقات السياسية والاجتماعية بينهما[65]، كما كان لقرب المسافة بينهما - والتي تتراوح بين ألف وخمسمائة ستاديون وألفا ستاديون[66]- دافعاً لأوكتافيوس لإعادة ربطهما ببعض من جديد، وربما مرجع ذلك أن روما سئمت الثورات المتتالية للمجموعات الأمازيغية في غرب أفريقيا، وبالتالي جاء تكوين هذه الولاية وربطها بكريت، وفصلها على مركز ثقل البطالمة في مصر على أساس سياسة فرق تسد Divide et impera التي تبنتها روما في سبيل استقامة الأمور لها في تلك البلدان .

لقد كان عهد أوكتافيوس في كيرينايكي منذ سنة 30 ق.م بداية عهد جديد حيث عملَ على توطيد الأمن في الداخل والخارج، وإقرار السلم الروماني PaxRomana في الإمبراطورية الفتية – منذ أن أصبح إمبراطوراً لروما يحمل اسم أغسطس Augustus بين عامي 30 ق.م/14م ،وأطلق على نفسه لقب المواطن الأولPrincepsCivitatis– ورسَم السياسة الاقتصادية لعودة الازدهار إلى الإقليم[67]، فعملَ على مناوئة القبائل الليبية الرافضة للوجود الروماني هناك مثل الجيتولΓαιτουλ القاطنين وراء خليج سرت ، والمرماريداي Μαρμαριδαι التي تقع منطقة نفوذهم على ساحل البحر بين كيرينايكي والحدود المصرية[68] ، والجرمنتςΓαραμαντες القاطنين جنوب منطقة الجيتول[69].

لقد كان أغسطس يولي الأمن اهتماماً بالغاً لتنعم الإمبراطورية بالسلام والاستقرار، ومنها مدن وأرياف كيرينايكيChoraCyrenaica التي لازالت تعاني من غارات القبائل الليبية ، فقام بتدعيم دفاعات المدن خاصة مدينة كيريني، وشيد حاميات عسكرية، وقام بتحصين المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة برنيكي، كما أن الإقليم بوجه عام أصبح قاعدة حربية متقدمة لبعض الجيوش الأجنبية، حيث يتضح أن هناك جيشاً اسبانياً وآخر سورياً Συρια، وكان الأخير مرابطاً في مدينة كورنيكلانومCorniclanum (اجدابيا) لصد أي هجوم محتمل من القبائل الليبية، كما تشير نقوشٍ لجنودٍ حفروا أسماءهم على طبقات الصخور البارزة قرب المدينة الحديثة كانوا من أصل سوري [70]، كما أنه في سنة 25 ق.م قام بإنشاء فرقة عسكرية عُرفتْ باسم الفرقة الأوغسطية الثالثةLogio III Augustae، والتي كانت تحت تصرف حكام الولاية، وأُسنِدتْ لها مهمة الدفاع عن الحدود الجنوبية للولايات الرومانية الأفريقية ، وقد سجلت هذه الفرقة عدة انتصارات على القبائل الليبية .

ومن المحتمل أن أول تلك الحملات كانت من قبل البروقنصل سيمبرونيوس اترتينوسL SemproniusAtratinus الذي هزم قبائل الجيتول سنة 21 ق.م،غير أن ذلك الانتصار لم يضعْ حداً لنهاية هجمات تلك القبائل[71]،كما تمَ إرسال البروقنصل لوكيوس كورنيليوس بالبوس Lucius Cornelius Ballpus[72] إلى قبائل الجرمنت سنة 20 ق.م، وقد أخضع في هذه الحرب عدداً من الشعوب والمدن الجنوبية وحاصر مدينة جرمةΓαρμα[73] لتثبيت التواجد الروماني فيها، وقد اتجهت القوة الضاربة من صبراته Σαβρατηα إلى غدامس Γψδαμυς ، ومنها إلى إدريEδρι ثم إلى جرمة ونواحي أخري في فزان بسرعة فائقة محققاً النصر هناك، وقد تحصل كورنيليوس بالبوس على إكليل النصر وزُفَ في العربة الحربية في الموكب الذي جرى له في روما، وقد حملَ الانتصار شعارات المدن والقبائل والأماكن المفتوحة [74] .

وقد كانت الهجمات التي تشنها القبائل الليبية ضد الوجود الروماني في كيرينايكي بين الفينة والأخرى بسبب عدم وجود سلطة حاكمة قوية، قد أقضتْ مضجع الإمبراطور الروماني، فنهضَ لمحاربتها بإرسال عديد الحملات للحد من خطر تلك القبائل في إطار توحيد العمليات العسكرية في ليبيا بشكل عام،حيث قامَ بإرسال حملة بقيادة سولبيكوس كويرينيوسP.SulipiciusQuirinius ضد مجموعتا:الجرمنت في الجنوب والمرمارياي في الشرق اللتين أثارتا القلاقل حتى أصبحت مواجهتهما حرباً شاملة[75] ويرجح أن تاريخ حملته تزامن مع تاريخ حملة بالبوس، أي حوالي عام20 ق.م، وفيما يعتقد أن سولبيكوس كويرينيوس تولى حكم كريت- كيرينايكي بعد أن أصبح برايتورPraetor في حوالي عام 12 ق.م[76] ، أي بعد ثمان سنوات من تاريخ حملته المذكورة آنفا، وقد انتهت هذه الجهود بنهاية العقد الأخير من القرن الأول قبل الميلاد بحملة كورنيليوس كوسوس جيتوليكوس CorneliusCossusGaetulicus الذي قاد حملته ضد قبائل الجيتولوالموسولامي Μυσυλαμι حوالي سنة 6 ق.م[77] .

ولقد استخدمَ الرومان فيالق الفتيان الأشداء Τριακατιοι في صدهم للقبائل الليبية الغازية بين الحين والآخر، حيث عثر على نقش لأسماء كثير من الجنود الذين كانوا يرابطون على أسوار مدينة تاوخيرا منها اسم الجندي دوميتيوس الأوياتي Δομιτιος Οιας الذي قدمَ من إقليم تريبوليتانيا Τριπολιτανια حوالي عام 18 ق.م[78]، ومن الملاحظ أن أسماء الجنود الذين دونت على بوابتي تاوخيرا وبتوليمايس كانت باللغة الإغريقية[79].

كان على أهالي كيرينايكي أن يدفعوا ضريبة العشر لمعبد الإله أبوللو Δεκατα Απολλωνι عن المحاصيل الزراعية، وكذلك من غنائم الحروب التي غنموها من المكايMακαι والنسامونيس Νασαμωνες[80] (**النص العاشر**)، كما يوضح نقش راجع إلى عامي 15/16 ق.م أن كاهن أبوللو وأغسطس المدعو باركايوس ثيوخريستوسΘευχρηστος Βαρκαιος ترك وصية مفادها أن ريع الأراضي الخاصة بالآلهة : - أبوللو وأرتميسArτεμις وهرقلHερακλ وهرمس Ερμαεςمن أصل نفقات المنشآت الرياضة البدنية التي كانت هذه الآلهة تكفل لها الحماية وتشرف عليها وترعاها ويكون ما تركه وقفاً على النواحي الدينية ولا يجوز لأحد التصرف فيها إلا بإذن من مجلس كهنة أبوللو- الذين يلقبون بحراس الباب وحاملي مفاتيحه- Πυλοκλειστης τον λυσιπολεμον، وإلا تعرض لغرامة مالية قدرها مائة ألف دراخما من الفضة [81](**النص الحادي عشر**).

وبحلول عام12ق.م قام الحاكم الروماني البروقنصل كيونتو لوكيانيوس بروكولوس QuintoLucaniusProculus بإصلاح مدخل المدينة ، وعمل على دعم أسوار قلعتها [82] Αχροπολις **(النص الثاني عشر)** وهذا يعطينا دليلاً على أن إقليم كيرينايكي كان عرضة لخطر القبائل الليبية القادمة من الصحراء لتهديد المدن الساحلية خلال فترة حكم أغسطس.

ومن الملفت للنظر أن الظروف التي مر بها الإقليم دعت كثيراً من مواطنيه أن يقوموا بأعمال جليلة حفظها لنا التاريخ عبر وثائقه، فنجد أن مواطناً يدعى أليكسيماخوس بن سوزيستراتوس Αλεξιμαχος Σωσιστρατω من مدينة أرسنوي Αρσινοε قدّمَ خدمة لمدينته عندما كانت في أشد الظروف صعوبة[83](**النص الثالث عشر**)، وفيما يبدو أنه كان يشغل منصباً رفيعاً في مدينته، وقد آل على نفسه ألا يدخر جهد في سبيل النهوض بأعبائها، وقد تزامن ذلك مع الحرب التي خاضتها المدينة ضد القبائل الليبية وفراغ المخازن من محصول القمح فسعى بمجهوده لاستيراد هذا المحصول من مدينة لبدة الكبرى بماله الخاص إنقاذاً للوضع الحرج الذي تمر به المدينة، لهذا فإن أهلها قد أسبغوا عليه ألوان من التشريف والتبجيل، وتعاهدوا أن يقام له تمثالاً من البرونز وأن ينصب إلى جانبه لوحاً تذكارياً من المرمر منقوشاً عليه نص التكريم الذي أقامته المدينة له، وأن يوضع في مكان عام بساحتها [84] ، وفيما يعتقد أن هذا التكريم جاء خلال تلك الفترة التي أشدت فيها خطر القبائل الليبية، وما ترتب عنها من اضطرابات عصفت بالإقليم عقب نهاية الحرب الأفريقية بين القادة العسكريين الرومان، ويعزز تلك الأدوار- التي قامت بها بعض الشخصيات الطامحة في الذود عن حياض مدنها- نقش عائد إلى القرن الأول قبل الميلاد لتكريم أحد مواطني مدينة بتوليمايس الذي ربما ساهم في إيجاد حلول لبعض مشاكلها [85](**النص الرابع عشر**).

وعندما ضيقت قبائل المارماريداي الخناق على مدن إقليم كيرينايكي- في سلسلة حروب عُرفت باسم الحروب المارماريكيةΜαρμαρικωι Πολεμω، والتي تؤرخ بعام4 ق.م - قام شخص يدعى فاوس بن كليارخوسΦαος Κλερξος بالذهاب إلى روما في فصل الشتاء لطلب المساعدة، كما أنه عرض نفسه للخطر في الحرب العنيفة التي تعرضت لها كيريني، كما يدلل نقش عُثِرَ عليه في المدينة مفاده أن المدينة قامت بتكريم مواطنها الذي تحمل كل تلك الأعباء [86]

لقد لعبت الإدارة الرومانية في إقليم كيرينايكي - خلال عصر الإمبراطور أغسطس – دوراً هاما في تهيئة الظروف الملائمة للاستقرار المدن الكيرينايكية، والعمل على توطين القبائل الليبية- المناوئة للوجود الروماني– على أراضٍ تقوم بزراعتها لخلق ظروف تساهم في استقرارها بإقامة السدود لحجز مياه الأمطار والجسور ومد القنوات وبناء الصهاريج وخزانات المياه الكبيرة للاستفادة من مصادر المياه المتنوعة من أمطار وينابيع[87]،لكي تقام عليها زراعة متوطنة فيما عُرفَ بعد بنظام المزارع المحصنة Fortified farm Houses .

لقد كان للأعمال التي قام بها أغسطس دوراً في شحذ همم سكان مدينة كيريني لإقامة تمثالٍ له في أحد الأروقة في السوق العامة Φουρμ، وقد قُرِنَ اسم الإمبراطور ليس بروما فقط بل قُرِنَ بالإله زيوس. وهذا شكرٌ وامتنان من أهل المدينة لشخص الإمبراطورΣεβαστωι Ζηνι Σωτηρι και Ρωμαι και [88] .

لقد كانت فترة حكم أغسطس من الفترات الهامة في تاريخ كيرينايكي إذ أنه عملَ - كما ذكرنا - على إعادة دمج كيرينايكي مع كريت في ولاية واحدة، كما اهتم بأمورها الداخلية وإقرار السلم فيها ضماناً لعودة الازدهار الاقتصادي للإقليم، وتنظيم أمورها في ذاك الزمن تنظيماً إدارياً سليماً [89]، وتحدثنا نقوش عُثِرَ عليها هناك على مدى عبقرية أغسطس في صنع ذاك الازدهار والاستقرار السياسي الذي عَمَ الإقليم حيث عَمَلَ على تنظيم النواحي القضائية والقانونية فيه بإصدار خمسة قرارات [90] وتخص القرارات الأربعة الأولْ مدينة كيريني : الأول منها يختص بالتعديلات التي أُجريت على النظام القضائي في الولاية الرومانية على وتيرة ما كان متبع في روما، بينما القرار الثاني يختص بأشخاص قد أدلوا أمام حاكم الولاية بأن لديهم معلومات تتعلق بسلامة الإمبراطور، فقام بتكبيلهم وبعث بهم إلى روما لكي يتم استجوابهم من قبل الإمبراطور نفسه، كما أنه يختص برفع الدعاوى التي أُتهمَ فيها أشخاص بالاعتداء على التماثيل الإمبراطورية – المقامة لشخص الإمبراطور- في الأماكن العامة في كيريني[91]، في الوقت الذي عُدَ فيه القرار الثالث أهم القرارات، حيث مَنَحَ الإمبراطور أغسطس الكاهن الأعظم pontifex Maximus- الذي تقلد السلطة التريبيونية للعام السابع عشر– حقوق المواطنة الرومانية CivitasRomana لأشخاص من كيريني على أن يؤدوا الالتزامات الواجبة Τσυτσυς λειτσυργειν συδεν عليهم نحو مدنهم الأصلية ، وهذه الحقوق تمنح وفقاً لمرسوم صادر بقرار من مجلس الشيوخ أو بمرسوم من

أغسطس نفسه. ولا يسمح للمواطنين الرومان أن يرفعوا دعاوى قضائية ضد مواطنين إغريق إلا إذا كانوا متمتعين بحقوق المواطنة الرومانية[92]، ولعل الضرائب كانت هي الممول الرئيس للخزانة العامة، وتهّرب أشخاص من دفعها يحرم الخزينة من ذلك المورد، وبالتالي فإن الممتلكات التي كانت في حوزة من مُنِحوا حقوق المواطنة لاحقاً أن يؤدوا ما عليها من ضرائب بعد حصولهم على ذلك الحق.

بينما يشكل القرار الرابع موازنة بين الأحكام التي تصدر في حق الإغريق القاطنين في الإقليم بحيث يمّكنونْ من المثول أمام هيأة من المحلفين الإغريق، شريطة ألا يكونوا من المدينة التي منها أحد طرفي النزاع (المدعي أو المدعى عليه) ، وإذا طلَبَ المدعى عليه المثول أمام هيأة من المحلفين الرومان كان له ذلك ، وعندما تكون الجرائم - التي يمْثل فيها المتهمون – تصل العقوبة فيها إلى الإعدام فإن الحاكم ملزم بأن يحكّم فيها بنفسه أو أن يكون حكمه بواسطة هيأة المحلفين[93].

وإجمالاً فإن هذه القرارات تمس النظم الإداريةوالمالية والعلاقات القانونية القائمة في الإمبراطورية الرومانية بين مختلف العناصر السكانية في إقليم كيرينايكي، ويرجح أن القرارات الأربعة المذكورة أنفاً قد صدرت حوالي سنة 6 ق.م ، وقد كُتِبتْ باللغة الإغريقية، بينما القرار الخامس- الذي يخص أمراً بنشر قرار مجلس الشيوخ الروماني بعدم تجاوز الحكام لسلطات وظائفهم وعدم ابتزازهم لأموال رعايا الإمبراطورية بصفة عامة - قد صدرَ هو الآخر حوالي السنة الرابعة قبل الميلاد وقد تُرجمَ من اللاتينية إلى الإغريقية[94].

لقد كانت الشخصيات الرومانية التي تولت تسيير دفة الأمور في الإقليم تسعى جاهدةً لتثبيت الحكم فيه لصالح روما واستثمار خيراته ، فعملت على توطين الرومان ، وتعقب المجموعات الليبية التي قاومت تواجدهم ، لذا فإن الحكام الرومان لم يدخروا جهداً في ضم أجزاء ليبيا الغربية (تريبوليتانيا) فكان لهم ذلك سنة 46 ق.م لتصبح ليبيا كاملة تحت نفوذهم لقرونٍ عدة .

النتائج :

من المفيد أن تخلُص أي دراسة إلى نتائج جوهرية تجعل من العمل المُقدم يُبْرز جانباً من الفترة موضوع الدراسة بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات ، تتمثل في الآتي :-

- إن الرومان لم يغزو الإقليم عسكرياً وبالقوة ، بل حَصَلوا عليه كهبة من البطالمة ، ودون عناء ، خاصة بعد أن أصبحت روما قوة ضاربة أزالت كثير من الممالك .
- إن الرومان لم يضموا الإقليم فعلياً إلا بعد أن احتاجوا لموقعه الجغرافي وموارده الاقتصادية التي تعينهم في الحروب التي يخوضونها آنذاك .
- إن الحكام الذين أرُسِلوا ليكونوا على هرم السلطة في إقليم كيرينايكي تفاوتت رتبهم الوظيفية بين قناصل وقضاة عدليين وموظفين للشؤون والمالية ، وأُعطوا من الصلاحيات والسلطات الواسعة مما جعلهم يحتلون مكان الصدارة في إصدار القرارات والأحكام .
- الأعمال التي قام بها الحكام الرومان - خلال القرن الأول قبل الميلاد - في كيرينايكي جاءت لتعزيز تواجدهم في الإقليم لا لخدمة سكانه الأصليين ، وبالتالي فإن دورهم كان منوطاً بالمحافظة على استمرار تواجدهم لأطول فترةٍ ممكنة .
- لم يكن الليبيون مهادنين للرومان ، بل خاضوا حروباً ضارية من أجل الدفاع عن وطنهم وبالتالي فإن القلاع والحصون والأسوار التي مازال الكثير منها ماثلاً للعيان دليلاً على تلك المقاومة التي أبدها أسلافنا عبر حقب التاريخ ضد أي دخيل يريد الاستحواذ على أرضهم .

التوصيات :

من المفيد أن تُختم أي دراسة بتوصيات علها تحقق جزءاً من الهدف المنشود , وهو الغوص في أعماق التاريخ القديم لليبيا ومعرفة كل ما دار فيه من وقائع وأحداث قد نستثمرها اليوم لتعزيز ارثنا الحضاري والحفاظ عليه , منها : -

- إجراء مسوح آثارية موسعة تتعلق بتاريخ الفترة (موضوع الدراسة) لا تقتصر على المدن الكبرى القديمة , بل تشمل المستوطنات والأرياف في الإقليم.

- تشجيع المتخصصين ، من طلبة وأساتذة في التاريخ القديم والآثار، على دراسة تاريخ كيرينايكي خلال الفترة الرومانية ، والاعتماد على الكفاءات العلمية التي تزخر بها جامعاتنا , دون الاعتماد على ما تقدمه لنا البعثات الآثارية من معلومات وصلت إليها .
- جمع كل ما ذكرته النقوش والعملة فيما يتعلق بالحكام الرومان الذين تبوءوا مراتب هامة في تسيير دفة الأمور في الإقليم .
-الاهتمام بالآثار وترميمها لمِا لها من أهمية في كونها جزء من التاريخ الحضاري لليبيا, علاوة على كونها مصدراً متجدد من مصادر الدخل في البلاد .

الهوامش والتعليقات :

1 – الحكام مصطلح يشمل : - القنصل(قنصل Consul) و القاضي العدلي (البرايتورPraetor) وهم يتمتعون بسلطات تنفيذية وعسكرية ومدنية و تشريعية- واسعة - في الدولة وقد عُرفتْ بسلطة الإمبيريومMaiusImperium ، غير أن طبقة العوام Piebesقاومت هذا الشكل من أشكال السلطة ، فحولت بعض السلطات إلى الحكام الآخرين أمثال موظفو الإحصاء (الكنسورCensor) وناظري الشؤون المالية (الكويستورQuestor) ، وأصبحت من صلاحياتهم قيادة الجيوش في ساحات المعارك والأشراف على الانتخابات ذات الأهمية . للمزيد أنظر : علي عكاشة ، وآخرون . اليونان والرومان . أربد ، دار الأمل للنشر والتوزيع . 1991. ص ص 213 – 217 .

وقد وردت في هذا البحث مجموعة من هذه الوظائف التي تبين أن الحكام الذين جاءوا إلى كيرينايكي تتنوع وظائفهم ، وقد تردبعض هذه الوظائف مسبوقة بكلمة بروPro التي تعني (سابق) مثل بروقنصلProconsul = قنصل سابق ، بروكويستور Proquestor = كويستور سابق ، بروبرايتورPropraetor = برايتور سابق .

2– Polybius . The Histories . published inVol. VI of the Loeb Classical Library edition 1922 thru1927 . Book . XXXI 10 .

النص الأول- دخول روما في الصراع الذي حدث بين بطلميوس الصغير ، وبطلميوس السادس ، ومقدمات الإيصياء بأملاك كيرينايكي للشعب الروماني ، كما جاء عند بوليبيوس في كتابه التواريخ : -

και παρεκαλει την συγκλητον μερισαι την κυπρον αυτω και γαρ τουτου γενομενου τον Κανολιηον και Κοιντον απομαρτυρουντων τοις περι τον Μενυλλον , τοις παρα τουπρεσβυτερου παραγεγονοσι πρεσβευταις ,διοτι και την Κυρηνην ο νεωτερος και το πνευμα δι αυτους εχοι τοιαυτην γενεσθαι την των δχλων προς αυτον αλλοτριοτ ητα και προσκοπην διο και παρ ελπιδα και παραδοξως δεδομενων αυτω των κατα Κυρηνην πραγματων ασμενως δεξαιτο. και σφαγιων τμηθεντων και λαβοι τους δρκουςπαρα ταδελφου και δοιη περι τουτου του δε Πτολεμαιον πασι τουτοις αντιλεγοντος.

3 - **النص الثاني** حول نص الوصية التي تركها بطلميوس السابع يورجيتس الثاني سنة 155 ق.م الذي عُرفَ باسم "أويوتيروسUeoteros = الوصية"وقد جاءت تلك الوصية في موسوعة النقوش الإغريقية الجزء التاسع (النقش السابع) SEG .VII .VOL . XI ، وفي مجموعة نقوش جاسبارو أوليفيريو(وثائق آثار أفريقيا الإيطالية).الجزء الأول (النقش الأول) DAI,I1 على النحو الآتي : -

Ετους πεντεκαιδεκατου, μηνος Δωιου ,Αγαθηι τυχηι, Ταδε διεθετο βασιλευς Πτολεμαιος βασιλεως Πτολεμαιου και βασιλισσης Κλεοπατρας ,θεων Επιφανων . ο νεωτερος . ων και τα αντιγραφα εις Ρωμην . εξαπεσταλται – Ειη μεν μοι μετα της των θεων ευμενειας μετελθειν καταξιως τους συστησαμενους επι με την ανοσιον επιβουλην και προελο – μενου μη μονον [ον] της βασιλειας, αλλα και του ξη στερησαι με εαν δε τι συμβαινηι των και ανθρωπον προτερον ηδιαδοχους απολιπειν της βασιλειας καταλειπω Ρωμαιοις την καθηκουσαν μοι βασιλειαν οις απ αρχηςτην

ιε φιλιαν και την συμμαχιαν γνησιως συντετηρηκα τοις δ
αυτοις παρακατατιθεμαι τα πραγματα συντηρειν ενευχομενος ,
κατα τε των θεων παντων και της εαυτων ευδοξιας εαν
τινες επιωσιν η ταις πολεσιν η τηι χωραι ,βοηθειν κατα
την φιλιαν και συνναχιαν την [προς] προς αλληλους ημιν ,
γενομενην και τδ διχαιον , παντι σθενει – Μαρτυρας δε
τουτων ποιοδμαι Δια τε τον Καπετωλιον και τους Μεγαλους
θεους και τον Ηλιον και τον Αρχηγετην Απολλωνα Παρ ωι
και τα περι τουτων ανιερωται γραμματα Τυχηι τηι αγαθηι.

« السنة الخامسة عشرة [من تنصيبه ملكاً في الإسكندرية]. شهر يوليو ، فيما يلي وصية الملك بطلميوس ، الابن الأصغر للملك بطلميوس والملكة كليوباترا ، الآلهين الظاهرين ، والتي أرسلت منها أيضاً صورة إلى روما .
لتمنحني الآلهة القدرة على أن أقتص قصاصاً عادلاً من أولئك الذين دبروا ضدي مؤامرة دنيئة ، وأخذوا على عاتقهم أن يسلبوني لا مملكتي فحسب بل حياتي كذلك ، لكن إذا حدث لي شيء – قبل أن أترك ورثة للعرش – فإني أوصي بالمملكة التي في حوزتي للرومان الذين حافظت بإخلاص منذ البداية على صداقتي وتحالفي معهم ، وإليهم أعهد كذلك بحماية مصالحي ، مناشداً إياهم باسم جميع الآلهة وبشرفهم أن يقدموا المساعدة بكل قواهم إذا اعتدى أحد على مدن مملكتي أو أراضيها طبقاً لما تقتضيه العدالة ومعاهدة الصداقة والتحالف القائمة بيننا ، ولقد أقمت شهوداً على هذا الأجراء جوبيترالكابيتوليني والآلهة الكبار ، وهليوس وأبوللو المؤسس الذين أودعت في حراستهم أيضاً أصل هذه الوثيقة ، ليكن التوفيق رائداً لها ». [وهناك من يعتقد أنها نفس الوصية التي تركها بطلميوس أبيون بعد ذلك بقرابة ستة عقود من الزمن ، غير أنه - في الواقع - سار على نفس النهج الذي سار عليه والده . وقد تمت إماطة اللثام عن نص وصية بطلميوس الصغير في نقش على مسلة من الرخام عُثِرَ عليها في حفريات معبد أبوللو في 24 أغسطس 1929 م].

4- عبد اللطيف أحمد علي . مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية .القاهرة .1960.ص15.

5–ر.ج .جوتشايلد . قورينا وأبولونيا ، دليل تاريخي ووصف عام لأثار المدينتين . نشر إدارة البحوث الأثرية . 1970 . ص 36 .

6–Andre Laronde . Cyrene Et La LibyeHellenistioueLibykaiHistoriai . Etudes D , AntiquitesAfricaines . Paris:1987 . P 455.

7–PliniusSecondus . Natural History . Trans into English by .H.Rackham. (L.C.L) Harvard University. Press. London 1971.Vol .V. Book XIX , 40 .

8– عبد الكريم فضيل الميار . قورينا في العصر الروماني . الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس. 1978 . ص 93 .

9–Plutarchus . Moralia.Trans into English by Frank Cole Babbih . and other (L.C.L) .Harvard University. Press. London 1968 . 255E –257 E .

10–Laronde . op .cit .P 468 .

11 –Idem P 468.

12 – PietroRomanelli . La CirenaicaRomana.Verbania . 1943 . P 46 .

13 –Laronde . op .cit . P 469 .

14 – Ibid . P 468 .

15–Plutarchus . Moralia. 255 – 257 .

16 – الميار . مرجع سابق . ص 26 .

17 – حوالي عامي 399/400 ق. م قَدِمَ أفلاطون Plato وهو في سن السابعة والعشرين من عمره إلى كيريني , وقد تكون زيارته جاءت بناءاً على دعوة أهلها ليضع لهم دستوراً ، فأعتذر قائلاً : أنه لمن الصعب صياغة قوانين وفرضها عليهم ، بينما هم أغنياء بطرون بما هم فيه من نعمة ، وتجارتهم مزدهرة ، لأنه من نقائص البشر وآفاتهم ، أنهم عندما يستغرقون في النعيم ويستلذوا العيش في مهاد الدعة ، فأنهم يعزفون عن الانصياع للقوانين والسلطة . للمزيد يراجع : -. 705 . Plato .Lois ؛ عبد الرحمن بدوي . الفلسفة القورينائية أو مذهب اللذة ، د.ط، بنغازي ، دار ليبيا ، 1969 . ص 13 .

ومن الملفت للنظر أن مقولة أفلاطون قد مضى عليها – وقت قدوم لوكيوس ليكينيوس لوكوللوس– أكثر من ثلاثة قرون ، ومع ذلك فقد تمثلت أمام القائد الروماني في معرض حديثه ، وأستشهد بها عن أحوال كيريني وماضيها الغابر آنذاك ،فهي لازالت راسخة في أذهان الكثيرين حتى ممن كانوا من غير سكان الإقليم الإغريق.

18 –Plutarchus . Lucullus . 2 , 4–5 .؛Laronde . op .cit . P P . 455 – 457.

النص الثالث- طلبَ أهالي كيرينايكي من لوكوللوس صياغة دستوراً لهم ،كما جاء عند بلوتارخوس في كتابه عن لوكوللوس:-

και Κυρηνανς καταλαβων εκ τυραννιδων συνεχν και πολεμων ταραττομενους ανελαβε κ αι κατεστησατο την πολιτειαν Πλατωνικης τινος Φωνης αναμνσας την πολιν ην εκεινος απε θεσπισε προς αυτους δεομενων γαρ ως εοικεν οπως τε νομους γραψη και τον δημον αυτον εις τυπον τινα καταστηση πολατειιας σωφρονος εφη χαλεπον ειναι Κυρηναιοις ουτως ευτυχχουσι νομοθετειν ουδεν γαρ ανθρωπου δυσαρκτοτερον ευ πρασσειν δοκουντοσ ουδ αυ παλιν δεκτικωτερον επιστασιας συσταλεντος υπο της τυχης Ο και τοτεΚυρηναιους νομοθετουντι Λευκολλω πραους παρεσχεν .

19– الميار . مرجع سابق . ص 31 .

20–الكويستورQuestorمنذ أوائل عصر الجمهورية كان القنصلان ينتخبان كل عام أثنين من الموظفين لإدارة حسابات الدولة وإدارة الأمور المالية للدولة عُرفا باسم الكويستور ، وكان عددهم في بادئ الأمر اثنان ينتخبان من طبقة النبلاء منذ سنة 447 ق.م ، غير أن مطالب العامة بأن يكون من حقهم أن يكن لهم مشرفين فاقتضت الظروف بأن يصبح عددهم أربعة منذ سنة 421 ق.م يختارون من بين جمعية القبائل Comitia Tributa ، وأصبح من حقهم دخول مجلس الشيوخ ، وفي أواخر العصر الجمهوري أصبح عددهم عشرون خازناً ، وفي عهد يوليوس قيصر أصبح عددهم أربعون خازناً . وقد يرد بصيغة بروكويستورProquastor أي بمعنى كويستور سابق . للمزيد يراجع : - علي عكاشة ، وآخرون . مرجع سابق . ص 217

21 –Laronde . Op. Cit .P 461 .

النص الرابع - المرسوم الذي كان يحمله ماركللينيوس عند قدومهإلى كيرينايكي سنة 74ق.م

(PublisqueLentulusMarcellinus quester in novamProvinciamCurenas Missus est)

22 - وهي تعني أن الشخص الذي أوفد من قبل مجلس الشيوخ الروماني Roman Senatus كان مزود بسلطات تنفيذية وعسكرية ومدنية و تشريعية- واسعة - في الدولة . للمزيد يُراجع : - Romanelli . Op. Cit. P 43

23 –Laronde . Op. Cit .PP 460 , 461 .

24–SupplementumEpigraphicumGraecum, Inscription of Cirenaica , A .G .Woodhead

1964 .VOL . XX ,709 .؛Romanelli. Op. Cit .P49 .؛J .G . Pedley((The History Of the City))

Apollonia :OfCyreneExcavations University Of Michigan 1965–1967 . L.A . IV. 1976 .P16 .

النص الخامس - وساطة كورنيليوس ماركللينيوس في النزاع بين كيريني وميناءها كما جاء في موسوعة النقوش الإغريقية ، الجزء العشرين/النقش709 ؛ و في مجلة ليبيا القديمة العدد الرابع لسنة 1976 الخاص بحفريات جامعة ميتشيجان موسم 67/65 م. ص 16 وما بعدها ، و في كتاب سيرينايكا الرومانية لبترو رومانيللي ص 49 . وقد عُثِرَ على هذا النقش في الحفريات الإيطالية في مدينة طلميثة سنة 1935 م وهو محفوظ الآن في متحف النقوش بشحات .

Επικριμα Γναιου Κορνηλιου Λεντολου Ποπλιου
Μαρκελλινο υ πρεσβευτου αντιστρατηγου περι της
διαφορας υ πιρ ..... της πολεως της
Απολλωω νιατων ..... προς της πολιν
την Κυρηναιων .....

SEG .VOL XX .730 . 25–؛JoyceReynolds.((Cyrenaica, Pompey and the Consul Cornelius LentulusMarcellinus)) .Journal Roman Study . LII , 1962 .P 97.

النص السادس- سكان الإقليم يطلقون على كورنيليوس ماركللينيوس لقب الحامي والمنقذ كما ورد في موسوعة النقوش الإغريقيةSEG الجزء العشرينXX/ النقش 730 ؛والجزء التاسعIX/ النقش56 ، وقد عُثِرَ على نسختين من هذا النقش على لوحين

من المرمر في شحات أثناء الحفريات الإيطالية : الأول في داخل حرم الإله أبوللو سنة 1860م وهو محفوظ الآن في المتحف البريطاني ، والثاني أمام مدخل نفس المعبد سنة 1927، وكلاهما يحملان نفس النص وقد أخذت جويس رينولدس عن الموسوعة في بحثها الموسوم ((بقورينائيةوبومبيوس والقنصل كورنيليوس لينتولوس ماركللينيوس)) في العدد الثاني والخمسين من مجلة الدراسات الرومانية الصادرة في لندن سنة 1962.

Γναιον Κορνηλιον Λεντολον
Ποπλιω υιον Μαρκελλινον πρεσ–
βευταν αντιστραταγον τον
πατρωνα και σωτηρα Κυραναιοι .

26 – Joyce Reynolds. Op. Cit.P 99 .

النص السابع - النقش التالي- كان أحد النقوش التي احتوتها مقالة جويس رينولدس المذكورة في الهامش السابق 25 - عُثِرَ عليه في الكنيسة الشرقية في سوسة أثناء الحفريات الإيطالية سنة 1920 م ،وهو محفوظ الآن في متحف النقوش بشحات . وتبين أن متعلق بإصلاح نظام الري في كيرينايكي وكان النقش على هذه الهيأة : -

……]
…]III u .B [……
…]eisCn (ae–) Pompei – Magn– …
as]signauit u . […
……] s dieisaquae[…
……]M* ∞I et I……
saquae in e …
quod est *∞ Ð
…] est[…

27–Plutarchus . Pompi.25 , 2 – 3 .

28 - وقد عُثِرَ على نقش يذكر أن هؤلاء المستوطنين يعود أصلهم إلى عدة مناطق فمنهم من أخايا Αχηαια وصقلية وكالابريا Καλαβρια وذلك لإعادة إحياء المنطقة بالسكان بعد أن أُهمِلتْ منذ عام 69 ق.م ومَنحَ هؤلاء المستوطنين قطع الأراضي العامة Ager publicus. للمزيد يُراجع كلاً من :- Joyce Reynolds. Op.Cit.P102 ؛إبراهيم نصحي . تاريخ الرومان ، ج2 . منشورات الجامعة الليبية بنغازي، 1973 . ص 420 .

29 - أوريك بايتس . الليبيون الشرقيون . ترجمة محمد اومادي ومروة شحاتة . دار الفرجاني، طرابلس .2015. ص227.

30 – Romanelli . Op. Cit . P 75 .

31 – Ibid . P 50 .

32 - الميار . مرجع سابق . ص ص 38 – 39 .

33– المرجع نفسه . ص 38 .

34 - Laronde . Op. Cit .P .478

35 –Idem .P 478 .

36 - الميار . مرجع سابق . ص 39 .

37 –Laronde . Op. Cit .P 478 .

38–سترابون . الكتاب السابع عشر من جغرافية سترابون ، وصف ليبيا و مصر ، ت . محمد المبروك الدويب .جامعة قاريونس ، بنغازي ، 2003 . ف 1 ، ف11 . ؛ أندريه لاروند. برقة في العصر الهلينستي . ت محمد عبد الكريم الوافي . جامعة قاريونس ، بنغازي ، 2002 ، الهامش الثاني، ص 595.

39 – Romanelli . Op. Cit . P 60 .

40- مرسىفيكوس Φυκους Λιμην (الحمامة يقع غرب سوسة 32كم) هو منخفض أكثر باتجاه الشمال خلافاً لبقية الشاطئ الليبي ، وهو يقابل رأس تيناروس Ταιναρος في لاكونياΛακωνιαللمزيد يراجع : - سترابون . مرجع سابق .ص 116 .

41 –Laronde . Op. Cit .P 478 .

42 – R.G Good Child .Cyrene and Apollonia .A Historical guide department of Antiquities of Libya .2 Ed . Tripoli .1963. PP 18–19 .

43 - الميار . مرجع سابق . ص 39 .

44 –Abdulhafid .F .Elmayer .Tripolitania and the Roman Empire 47 B.C – 235 AD . Markaz Jihad Al–Libyin – Studies Centre .Tripoli . 1997 . P 34 .

45- سترابون . مصدر سابق . ف 3 ، ف20

46 –Elmayer .Op. Cit. P 34 .

47. – Laronde . op .cit . P 479

48– الشريف أمراجع علي حامد . مقاومة القبائل الليبية للاحتلال الروماني بين عامي 96 ق. م– 455 م . رسالة ماجستير « غير منشورة » . جامعة قاريونس ، بنغازي . 2006 .ص 20 .

49 – Alexander Graham . Roman Africa . New York . 1902 . P 25 .

50– فيليب كنريك . دليل المواقع الأثرية في ليبيا إقليم المدن الثلاث . ت . جمعية الدراسات الليبية . دار نشر سيلفيوم بوكس 2015 . ص 3 .

51– إبراهيم نصحي . مرجع سابق . ص 642 .

52– PliniusSecondus . XIX , XV . 40 . علي فهمي خشيم . نصوص ليبية بليني الأكبر ؛ دار مكتبةالفكر طرابلس 1967 . ص 99 .

النص الثامن- يتحدث عن كميات السلفيوم التي استوردتها روما من كيرينايكي خلال قنصلية جايوسفاليروس وماركوس هيرنيوس ، والكميات التي وجدت في خزائن كيريني خلال دكتاتورية يوليوس قيصر كما ذكرها بلينيوس في كتابه التاسع عشر في الفقرة 40/15 .

Autfabafracta , quo minus omittendumvidetur G Valerio ,M Herenniocos .CyrenisadveetaRomampublicelaserpiciipondo xxx , Caesaremverodictatorem initio belli civlis inter aurum argentumqueprotulisse ex aerriolaserpiciipondo md .

53 –Appian,s. Roman History .Trans into English by Horace white . (L.C.L) Harvard University. Press. London 1961.Thecivilwars . Book IV , 57.

النص التاسع - إسناد مجلس الشيوخ الروماني حكم كيرينايكي إلى كاسيوس، و حكم جزيرة كريت إلى ماركوس بروتس في سنة 44 ق.م كما جاء في كتاب التاريخ الروماني للمؤرخ الروماني أبيانوس في جزئه الرابع المعنون بالحروب الأهليةTheCivilwars ، الفقرة السابعة والخمسين .

Οιχομενων δε αντων Συρια μευ και Μακεδονια εις τους υπατους Αντωντον τε και Δολοβελλαν μετεψηφιξετο , της Βουλης πανυ δυσχεραινουσης αντεδοφη δε ομως τοις αμ φι του Κασσιον Κυρηνη τε και Κρητη .ων υπεριδοντες ως βραχυτερων εκεινοι στρατον , και χρηματα ηγειρον ως ες Συριαν και Μακεδονιαν εσβαλουντες .

54 – E.S.G . Robinson , Catalogue of The Greek Coins of Cyrenaica in British Museum . London . 1927. P . CCII؛Romanelli . Op. Cit . P 50 Sq.

55– Robinson . op .cit . P .CCX . ؛ 69 الميار . مرجع سابق . ص

56– لاشك أن كليوباترا السابعة قد أغرت أطراف النزاع في الحرب الأهلية الرومانية ، واختطفت القلوب من أجل الحفاظ على عرشها ، فاقترنت بيوليوس قيصر ، الذي فَضَلَ البقاء إلى جانبها في مصر ، وأنجبت منه طفلاً ، دعوه أهل الإسكندرية باسم (قيصرون) على سبيل التهكم . وعلى أثر الشائعات التي كان مفادها ارتهان قيصر لكيلوباترا السابعة ، وجعْلها ملكة على الأملاك الرومانية في المشرق على غرار الممالك الهلينستية ، بدأت في الخفاء مؤامرات تحاك ضد قيصر نتجَ عنها مقْتلُه سنة 44 ق.م ، فعادت الكرة مرةً أخرى مع غريمه ماركوس انطونيوس، فاستطاعت بحنكتها السياسية وجمالها الأخاذ أن ترمي شباك مصيدتها لماركوس انطونيوس ، فأصبح أسيراً لنزواتها ، وتعددت اللقاءات بينهما ، تمخض على ذلك وجود ثلاثة أطفال بينهما، وجعل ماركوس أنطونيوس من كليوباترا ملكة قاسمته التربع على عرش الولايات الشرقية ، وجعلت من أبنائها ورثة على حكم بعض الولايات الشرقية من بعدها ، ومن بينهم كليوباترا سيليني التي أسند لها حكم كيرينايكي سنة 34 ق.م ، وجعل أخاها قيصرون أبن كليوباترا من زوجها قيصر ملكاً على سوريا ومصر وقبرص ، وكانت سلطتهم تحت سيطرة ماركوس أنطونيوس ، إلا أن ذلك كان بمثابة المسمار الذي دُقَ في نعشي ماركوس أنطونيوس وكليوباترا السابعة ، حيث قادهما ذاك الفعل ليلقيا حتفهما انتحاراً عقب موقعة أكتيوم سنة 31 ق.م للمزيد يراجع : - إبراهيم نصحي . مرجع سابق . ص 645 ؛ حسين عبد العالي . محاضرات في تاريخ العصر الهيلينستي . جامعة قاريونس، بنغازي. 2008 . ص ص 102 – 103.

57 – علي عكاشة ، وآخرون . مرجع سابق . ص 201 .

58 – Laronde . op .cit .P 479 .

59 – Idem .P 479.

60 – Robinson . op .cit . P .CCXIII .

61–Idem. P . CCXIII .

62 – Romanelli . op. cit . P . 57 .

63 - الميار . مرجع سابق . ص 69 .

64– المرجع نفسه . ص 44 .

65 - نفسه .

66– سترابون . مصدر سابق . ف 3 ، ف22 .والستاديون وحدة قياس طول إغريقية تساوي 184 ,87 متر تقريباً . نقلاً عن محمد المبروك الدويب . الكتاب السابع عشر من جغرافية سترابون. جامعة قاريونس ، بنغازي ، 2003 ، الهامش الأول ، ص 19 . لذا فإن 5,409ستاديون تعادل كيلومتر واحد . أي أن المسافة بين كيرينايكي وكريت والتي ذكرها سترابون عند تحويلها إلى كيلومترات فإنها تقارب مابين 370 : 280 كيلومتر تقريباً .

67 – الميار . مرجع سابق . ص 44 .

68 - سترابون . مصدر سابق . ف 3 ، ف23 .

69– المصدر السابق . ف3 ، ف 19 .

70 –SEG .VOL . IX . 775 , 776 , 778 , 782 , 794 .

71 - الشريف أمراجع . مرجع سابق .ص 78 .

72 - مواطن من قادش،عمل مع بومبيوس وقيصر وأغسطس ومُنِحَ حق المواطنة الرومانية وكان أول من حصل عليها ،وذلك في القرن الأول ق.م .للمزيد أنظر: - علي فهمي خشيم . مرجع سابق . ص 83 .

73 - الشريف أمراجع . مرجع سابق .ص 79 .

74– محمد سليمان أيوب . "حملة كورنيليوس بالبوس على فزان سنة 19 ق.م"ليبيا في التاريخ ، منشورات الجامعة الليبية ، 1968 . ص 213 .

75 -الميار . مرجع سابق . ص ص 46 ، 47 .

76– المرجع نفسه . ص 48 .

77– نفسه . ص 46 .

78 –SupplementumEpigraphicumGraecum, Inscription of Cirenaica , Klaffenbach . 1938. Gaspare .VOL . IX. 480؛Oliverio Documenti Antichi Dell ' Africa Italiana .Cirenaica .

Bergamo .1932 ,1936 . 1,2 . N 216 . P 182 .

79– Kraeling , C.H . Ptolemais city of the Libyan pentapolis .Chicago .1960 . P 16 .

80– SEG .VOL . XI .77 .؛Oliverio . Op. Cit .1,2 . N 141 . P 160 .

النص العاشر- أهالي كيرينايكي يدفعون ضريبة العشر لمعبد الإله أبوللو عن المحاصيل الزراعية ، وكذلك عن غنائم الحروب التي غنموها من المكاي والنسامونيس كما ورد في موسوعة النقوش الإغريقية ، الجزء التاسع / النقش 77 .

Δεκατα Απολλωνι απο Μακαν και Νασαμωνων . Στραταγοι Ερμησανδρος Θεαρω Ζηνις Πραξιαδα Θευφειδης Ιασιος Μνασαρχος Θευχρηστω , Τελεσαρχος Μνασιος .

81 – Oliverio.Op. Cit .1,2 . N 547 . PP 269 – 271 .؛ المیار . مرجع سابق . ص 119

النص الحادي عشر-لقد ورد في موسوعة جاسبارو أوليفيريو(وثائق آثار أفريقيا الإيطالية) النقش 547 الصفحات 269 / 271 .أن كاهن أبوللو وأغسطس المدعو باركايوس ثيوخريستوس ترك وصية مفادها أن ريع الأراضي الخاصة بالآلهة : - أبوللو وأرتميس وهرقل وهرمس تكن من أصل نفقات المنشآت الرياضة البدنية التي كانت هذه الآلهة تكفل لها الحماية وتشرف عليها .

δεδοχθκ [ι επαινεσαι τε αυτον δαμοσιαι ταν πολιν
και παρακα [λε] σαι [τον αυτον επι ξενια ες το πρυτανειον
δομεν δε αυτωι κατα τα [πατρια και τωι Σεβαστωι Καισ–
ρος ταν ιερ [ατειν.
Επι Παντα–
ον και
επει Βαρκαιος Θευχρηστωι μεταλλ [αχε τον βι] ον και
καταλελοιπε , συντηρησας το απο [τας πρατας αλ] ικιας
αυτωι ποτι ταν πατριδα φιλοστοργον , α[γρον] το Μνασ–
σεα Ερμαι και Ηρακλει ες το κοινον τω δ [αμω αλειμ] μα , και
αλλον αγρον ιαρον το Επιστρατω , Απο [λλωνι και , Αρ]ταμιτι
ες ταν των ιαρεων χοησιν , διαδοχος αμε τω [ν αγχιστ] α των
συνγενεστατων αγησαμενος , δεον δε εσ[τι τοις εν α] ρεται
και σωφροσυναι και ταιι ποτι ταν πατριδα [ευνοιαι] και
βτωσαισι και ζωσι και μεταλλαξαισι τας καθη [κοισας προστιθ

82 – Oliverio.Op. Cit .1,2 .N 54 . P 181 .

النص الثاني عشر- قيام الحاكم الروماني البروقنصل لوكيانيوس بروكولوس بإصلاح مدخل المدينة ، وعمل على دعم أسوار قلعتها كما ورد في موسوعة جاسبارو أوليفيريو(وثائق آثار أفريقيا الإيطالية)النقش54 الصفحة 181 وهو نقش باللغة اللاتينية.

Caesare Augusto pont . max Q . LucaniusProculusprocosmurosarcisreficiend cur

83– Joyce Reynolds .((A civic Decree from Tocra in Cyrenaica)). Archeology Classical .25 – 26 .1973 – 1974 . PP 622 – 630 .؛Laronde . Op. Cit. PP 472 – 474 .

النص الثالث عشر-عُثرَ في مدينة أرسنوي = (توكرة) سنة 1960 على نقش على لوح من المرمر الأبيض ، أستُخدِمَ في السابق ركيزة لباب كنيسة مسيحية ، وقد وصفته جويس رينولدس في مقالها (مرسوم مدني من توكرة في قورينائية) الوارد في مجلة الأركيولوجيا الكلاسيكية ، العد 26/25 لسنة 1974/1973 . وقد وصَفَ هذا النقش أليكسيماخوس بن سوزيستراتوس الأرسنوي على أنه المواطن الذي أسدى خدمات جليلة لمدينته . ولطول هذا النقش الذي يزيد ارتفاعه عن متر وثلاثين سنتمتر لم أكتب النقش كاملاً واستعضت بالمحذوف منه بخط النقط العرضي على النحو الآتي : -

επειδη Αλεξιμαχος Σωσιστρατω των α
μετερων πολιταν αει διατελει ταν
.....
Αλεξιμαχον Σωσιστρατω Αρσινοη αρετας
ενεκα και ευνοιας ας εχων διατελει ες
ταν πολιν Αρσινοες ˙ν.οι δε εφοροι

τον τε ανδριαντα αναθεντων
και σταλαν υγδιναν παρ αυτωτ

84 – Laronde . Op. Cit. PP 474 – 478 .

85 –SEG .Op. Cit . XI . 417 .

النص الرابع عشر- عثر الإيطالي جاسبارو أوليفيريو على نقش لتكريم أحد مواطني مدينة بتوليمايس عائدٌ إلى القرن الأول قبل الميلاد في مدينة أرسنوي محفوراً على قاعدة لتمثال لم يبق منه إلا الجزء السفلي ،وقد وردفي موسوعة النقوش الإغريقيةSEG الجزء التاسعIXالنقش 714 على هذا النحو :-

Μασκυκα ' Αγαιμενευς
Πτολεμαεα αρετας ενεκα
και ευνοιας τας ες ταν πολιν
ν ' Αρσινοες ν .

86 –Romanelli . Op. Cit . P 78 .؛ . 80 الشريف أمراجع . مرجع سابق . ص

87– الميار . مرجع سابق . ص 50 .

88 –SEG .Op. Cit . XI .127 .

89– الميار مرجع سابق .ص 44 .

90– مصطفى كمال عبد العليم .دراسات في تاريخ ليبيا القديم . منشورات الجامعة الليبية بنغازي ، 1966 . ص 156 .

91– الطيب محمد حمادي . اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني في إقليم برقة . جامعة قاريونس ، بنغازي . 1994 . ص ص 78، 79 .

92 –SEG .Op. Cit . XI . 5 .

93 – الميار . مرجع سابق . ص 103.

94 – مصطفى كمال عبد العليم .مرجع سابق . ص 157 .

المصادر والمراجع .

أولاً المصادر الكلاسيكية .

1 -Appian,s. Roman History .Trans into English by Horace white . (L.C.L) HarvardUniversity. Press. London 1961.Thecivilwars .

2–PliniusSecondus . Natural History . Trans into English by .Rackham.(L.C.L) Harvard University. Press. London 1938.

3–Plutarchus . Moralia.Trans into English by Frank Cole Babbih . and other (L.C.L) .Harvard University. Press. London 1968 .

4 –Plutarchus . Lucullus

5–Plutarchus. Pompi

6-Polybius . The Histories . published inVol.IV (L.C.L) edition 1922 thru1927 .

7- سترابون . الكتاب السابع عشر من جغرافية سترابون ، وصف ليبيا و مصر ، ت . محمد المبروك الدويب . جامعة قاريونس ، بنغازي .2003.

ثانياً العملة .

1- E.S.G .Robinson ,Catalogue of The Greek Coins of Cyrenaica inBritish Museum.London 1927 .

ثالثاً النقوش .

2- Oliverio, Gaspare Documenti Antichi Dell 'Africa Italiana .1,2 .Cirenaica .Bergamo.1932 ,1936.

3 –SupplementumEpigraphicumGraecum, Inscription of Cirenaica.VOL . IX,Klaffenbach.1938

4–SupplementumEpigraphicumGraecum, Inscription of Cirenaica. .VOL . XX ., A .G.Woodhead1964

رابعاً المراجع العربية

1– الميار ، عبد الكريم فضيل . قورينا في العصر الروماني . الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس. 1978 .

2–بايتس، أوريك . الليبيون الشرقيون . ترجمة محمد اومادي ومروة شحاتة . دار الفرجاني، طرابلس .2015 .

3 - بدوي ، عبد الرحمن . الفلسفة القورينائية أو مذهب اللذة ، د.ط، دار ليبيا، بنغازي ، 1969 .

4 –جوتشايلد ،ر.ج. قورينا وأبولونيا ، دليل تاريخي ووصف عام لأثار المدينتين . نشر إدارة البحوث الأثرية . طرابلس . 1970 .

5 – حمادي ، الطيب محمد. اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني في إقليم برقة .جامعة قاريونس ، بنغازي . 1994.

6 - خشيم ،علي فهمي . نصوص ليبية بلينى الأكبر . دار مكتبة، الفكر طرابلس.1967 .

7 - عبد العالي، حسين. محاضرات في تاريخ العصر الهيلينستي . جامعة قاريونس، بنغازي. 2008 .

8 –عبد العليم ، مصطفى كمال.دراسات في تاريخ ليبيا القديم . منشورات الجامعة الليبية ، بنغازي 1966 .

9 - علي ، الشريف أمراجع. مقاومة القبائل الليبية للاحتلال الروماني بين عامي 96 ق. م– 455م . رسالة ماجستير" غير منشورة " . جامعة قاريونس ، بنغازي .2006 .

10 - علي ، عبد اللطيف أحمد . مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية .القاهرة .1965.

11 - علي عكاشة ، وآخرون . اليونان والرومان . دار الأمل للنشر والتوزيع ، أربد. 1991.

12 - كنريك، فيليب . دليل المواقع الأثرية في ليبيا إقليم المدن الثلاث . ت. جمعية الدراسات الليبية .دار نشر سيلفيوم بوكس 2015 .

13 - نصحي، إبراهيم . تاريخ الرومان ، ج2 ، منشوراتالجامعة الليبية بنغازي .1973.

خامساً المقالات العربية .

1 - أيوب ، محمد سليمان . "حملة كورنيليوس بالبوس على فزان سنة 19 ق.م"ليبيا في التاريخ ،منشورات الجامعة الليبية ،1968 .

سادساً المراجع الأجنبية .

1- C.H , Kraeling. Ptolemais city of the Libyan pentapolis .Chicago .1960 .

2 –Elmayer , Abdulhafid .F .Tripolitania and the Roman Empire 47 B.C – 235AD . Markaz Jihad Al-Libyin - Studies Centre .Tripoli . 1997.

3 - Good Child ,R.G .Cyrene and Apollonia .A Historical guide department of Antiquities of Libya .2 Ed . Tripoli .1963.

4 – Graham , Alexander . Roman Africa . New York . 1902 .

5–Laronde , Andre .Cyrene Et La LibyeHellenistiqueLibykaiHistoriaiEtudes D,AntiquitesAfricaines . Paris:1987 .

6 - Romanelli , Pietro. La CirenaicaRomana.Verbania . 1943.P 46.

سابعاً المقالات الأجنبية .

1- Pedley , J . G ."The History Of the City" Apollonia: OfCyreneExcavations University Of Michigan 1965 – 1967. L.A .

2- Reynolds , Joyce."Cyrenaica, Pompey and the Consul Cornelius LentulusMarcellinus" .Journal Roman Study . LII , 1962.

3 - ……. ." A civic Decree from Tocra in Cyrenaica ". Archeology Classical . 25 - 26 . 1973 -1974 .

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

انتقال الفكر اليهودي
من أورشليم إلى أفريقيا الرومانية

إعداد :

أكريم الجارح محمد العلواني

جامعة بنغازي- فرع المرج.

Abstract:

In a comparison to what Cyrenaica and Egypt have, our information about Jewish diaspora is a very weak. However, their existence in Roman Africa has completely proven through so many Jewish antiquities and inscriptions which go back by the time to the second and third century. Because what Jews have brutally faced through conflicts, they went to the West where they have relatives and old relationships. Therefore, Jews have found a proper place to reconstruct their nation after the destruction of their homeland and temple in the East by Romans.

الملخص:

تعتبر معلوماتنا عن الشتات اليهودي في شمال أفريقيا ضعيفة جداً، مقارنة بما تملكه قوريني ومصر. ولكن وجودهم مثبت في أفريقيا الرومانية من خلال عدد كبير من الآثار والنقوش اليهودية التي تعود للقرن الثاني والثالث الميلادي. وبسبب الكوارث التي تعرض لها اليهود في الشرق اتجهوا للغرب، حيث تربطهم بسكان شمال أفريقيا قرابة دم وعلاقات قديمة، لذلك وجد اليهود في إفريقيا مكانا مناسباً لإعادة الانتشار اليهودي بعد تدمير وطنهم ومعبدهم في الشرق على يد الرومان.

المقدمة :

"**دينا دي ملكوتا دينا**"عبارة آرامية تعني " شريعة الدولة هي الشريعة" ؛ واجهت الجماعات اليهودية في بابل أثناء حكم الأسرة الساسانية الفارسية، قضية ازدواجية الولاء هل تكون للدولة أم للدين؟ وكان رد علماء اليهود في ذاك الوقت، على وجوب اتباع شريعة الدولة وتقديمها على شريعة اليهود. وهذا يعني باختصار تقليص نطاق تطبيق شريعة التوراة، والاعتراف بالقانون المدني غير اليهودي، وتعني أيضاً طبقا لهذه العبارة (الفتوى) بأن يحل القانون المدني محل الشريعة الدينية في الأمور الدنيوية –وهذا بطبيعة الحال لا ينطبق على الطقوس والشعائر الدينية اليهودية– من الواضح أن الجماعة اليهودية بدأت تتكيف وتندمج مع المجتمع البابلي من أجل الاستمرار والبقاء. ويبدو أن عبارة شريعة الدولة هي الشريعة، قد هدمت دعائم الشريعة اليهودية، وقوضت سلطة الدين وولد فكر جديد داخل النسق الديني.[1]، هذا الفكر اليهودي على ما يبدو قد استغرق حوالي ألف عام حتى اكتمل. باكتماله تكونت الرؤية اليهودية. ومن المعلوم أن هذا التصور الديني للرؤية اليهودية قد بدأ في تكوينه وتشكيله علماء اليهود الذين عاشوا حياة المنفى في بلاد الرافدين. بسبب حياة التشتت التي عاشها اليهود، وكذلك الحنين إلى دولة داوود وسليمان التي جعلت منهم سادة زمانهم.لذلك كان على هذا الفكر أن يحدد أرضاً لهذا الشتات، وقبلة يجتمع حولها الشعب اليهودي لتكوين الدولة اليهودية.وكان هذا يحتاج لمعين ينهض بتلك الرؤية، كنبي يبعث فيهم ليعيد لهم العزة والرياسة، أو قوة أرضية كدولة عظمى يحتمون بها حتى تنمو دولتهم أو فكرتهم. لذلك قدموا فروض الطاعة للإسكندر ثم للرومان من بعده. لم يكن هذا الفكر وليد لحظة في المهجر، ولكن كان عليهم إعادة النظر في حياتهم، ووضع إعادة ومراجعة للكتاب المقدس لمعالجة الانتكاسات المفاجئة التي تعرض لها الجيل الأول. حاول علماء اليهود تفسير النصوص التوراتية، تفسيراً جديداً، وإنزال الدين من الإطار الميتافيزيقي الغيبي إلى الإطار العملي ، وتوظيف

(1) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، المجلد الثاني، (القاهرة، دار الشروق، 1999)، 99.

النقل لصالح العقل، وتقديم العقل على الإيمان لتكوين رؤية أو تصور مستقبلي للشعب اليهودي الذي ضاعت هويته وعرقيته اليهودية، بين السببين الأشوري والبابلي، وجعلوا لهذه الرؤية نقطة مركزية يتجمع حولها هذا الشتات، أرض الميعاد والوطن اليهودي المزعوم تحت العناية الإلهية أي أن الرب يرعاها ويحميها.

شكل التراث القاعدة الرئيسة والرؤية المستقبلية التي قام عليها هذا الفكر اليهودي.كان التراث يتكون من تجميع يعود جزء منه للعصر الحديدي، ومن بقايا ذاكرة مكتوبة أو شفاهية وشرح لأصول التوراة، وبعض الأعمال الأدبية. [2]، وبعد حصول اليهودية على الدعم القانوني كديانة شرعية، والدعم السياسي من رجال متنفذين ونساء نافذات انتشرت في أرجاء واسعة من الإمبراطورية الرومانية. حتى أن المسيحي كان يقول أنه يهودي حتى لا تطاله يد السلطة التي كانت تبث عيونها هنا وهناك. فقد انتشرت اليهودية على مساحات شاسعة من أرجاء الإمبراطورية حتى أنهم حسب بعض الروايات شكلوا خمس عدد سكان الإمبراطورية. لكن عمليات المطاردة لليهود بعد عام 70 ميلادي، وتغير السياسة الرومانية تجاه اورشليم، جعلت اليهودية تغير اتجاهها من الشرق إلى غرب المتوسط وأعادت انتشارها من جديد في منطقة شمال أفريقيا، مع شعوب ربما كانت تربطها بها روابط تاريخية وقرابة الدم ارتبطت مع شعوب كانت تشاركها المصير نفسه، والمعانة ذاتها، لجأت اليهودية وارتمت في أحضان الفينيقيين والقبائل الأمازيغية. انتشرت اليهودية في شمال أفريقيا من المحيط الأطلنطي غرباً [3] وعلى امتداد الطريق إلى ليبيا شرقاً حتى مصر، وتوغلت في دواخل أفريقيا بين القبائل الأمازيغية (البربرية)، عاشت اليهودية في هذه المنطقة بعيدا عن يد السلطة الرومانية وبعيدا عن مركزها روما حتى ظهور الإسلام.

التاريخ اليهودي قبل السبي البابلي :

تشير النصوص الدينية والأدبية إلى التاريخ المشترك بين اليهود والكنعاني –الفينيقي في المشرق. حيث كانت هناك علاقات اقتصادية ممتازة بين البلدين تحدثت عنها المصادر الدينية القديمة[4] تبدأ هذه العلاقات التاريخية من الملك داوود وتستمر حتى ابنه الملك سليمان الذي حكم من عام 973 إلى عام 936 قبل الميلاد. وقد أقام سليمان علاقات اقتصادية قوية ومميزة مع الملك حيرام ملك مدينة صور، الذي حكم من 969 إلى 935 قبل الميلاد. [5]حيث زود حيرام سفن الملك سليمان بالسفن والرجال والعتاد وكونا حلفاً مشتركاً.[6]وقد

(2) توماس تومسن، **أسفار العهد القديم في التاريخ، اختلاق الماضي**، ترجمة عبدالوهاب علوب، (المجلس الأعلى للثقافة، 2000)، 50.
(3)Flavius Josephus, ***AntiquitatesJudaicae***, 16. 6-5.
(4) **سفر الملوك الأول**: 5.
(5)Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***, trans. Amos Carlen, (University Press of America, 2010),2.

أضاف المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن ملك مدينة صور قد شارك في بناء هيكل اليهود في أورشليم الذي أقامه سليمان، وأن هذا المعبد قد بني قبل أن يؤسس أهل صور مدينة قرطاجة بمائة وثلاث وأربعون عاما وثمان أشهر[7]لم تنقطع العلاقات بين البلدين والتي بدأت بتعاون عسكري زمن داوود واقتصادي زمن سليمان إلى اجتماعي ثقافي زمن أخاب ملك إسرائيل الذي تزوج من إيزابل ابنة أثعبل ملك صيدا، التي أدخلت عبادة بعل لمدينة السامرة.[8]كما تزوجت اثاليا الفينيقية بجورام ملك يهوذا. [9]كما أن اللغة التي استخدمها اليهود فيما بعد تعتبر النسخة الأخيرة للغة الفينيقية.[10] وربما أن العلاقات الإسرائيلية الفينيقية كانت أقدم من التاريخ المذكور آنفا، إذ تعود للبدايات الأولى من تاريخ قبائل بنو إسرائيل التي كانت قبائل بدوية تجوب الصحراء بعد خروجها من مصر لفترة طويلة، حتى استطاع زعيمها يوشع بن نون أن يعبر نهر الأردن ويستولي على– لأسباب دينية أو أسباب اقتصادية أو سياسية –مدينة أريحا الكنعانية أولى تلك المناطق. [11]وقام يوشع بتوزيع الأراضي الكنعانية التي تحصَّل عليها بين هذه القبائل البدوية، بعد أن استتب لهم الأمر. [12]قام هؤلاء القادمون الجدد بزراعة الأرض من الشعير والقمح والكتان وأشجار الزيتون،[13]استورد الفينيقيون المنتجات الزراعية من مملكة إسرائيل، في المقابل قام الفينيقيون بإمداد إسرائيل بالأخشاب وخصوصا أخشاب الأرز وبعض التقنيات الفينيقية.[14] كما وفرت مملكة إسرائيل المنفذ البري الذي كان يحتاجه الفينيقيون لتسيير تجارتهم البرية إلى عمق الأراضي الكنعانية والبحر الأحمر وجزيرة بلاد العرب.

لو تفحصنا موقع أرض يهوذا وعاصمتها اورشليم نجد أنها عبارة عن بقعة مستطيلة الشكل تشبه الشريط يحدها البحر المتوسط غربا والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شرقا. ويمر خلالها الطريق الرئيسي

---

[6] **سفر الملوك الأول** 18: 11; 18: 8.
[7] Flavius Josephus, ***Contra Apion***, 1. 17.
[8] **سفر الملوك الأول** 16:31-29.
[9] **سفر الملوك الثاني** 5: 15؛ **سفر الأخبار الثاني** 2،3 .
[10] كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطيني**، ترجمة سحر الهنيدي، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1978)، 18 .
[11] **سفر يشوع 6.**
[12] في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (ق.م.) حدث هجوم على فلسطين الغربية وهو ما تؤكده بقوة الاكتشافات الأثرية ومهما كان هذا الغزو ناقصا فإنه قصم ظهر المقاومة المنظمة ّ ومكن إسرائيل من نقل مركزها القبلي إلى هناك. لا يوجد أي سبب للشك في أن هذا الغزو كان كما سفر يشوع عملية وحشية ودموية. لقد كانت هذه هي حرب يهوه المقدسة التي سوف يعطي فيها شعبه أرض الميعاد وفي الوقت نفسه يجب ألا ننسى أن العزل الديني طبق في حالات معينة فقط ولم تتم إبادة السكان الكنعاني بشكل كامل. فمعظم الأرض التي احتلتها إسرائيل كانت قليلة السكان وفي مناطق أخرى كثيرة تعاطف السكان معها. إن انتصارات إسرائيل كانت السبب في انضمام أعداد كبيرة وعلى نطاق واسع إليها. اندمجت عشائر كاملة ومدن بالجملة فيها ودخلت ميثاق عهدها (يشوع) من ضمن هؤلاء الذين وكان العبيرو استيعابهم إما مرة واحدة أو فيما بعد وكذلك عدة مدن مختلفة في وسط فلسطين واتحاد الجبعون Gibeonite وعشائر ومدن الجليل.بالإضافة إلى جماعات أخرى وكثير منهم كانوا يتبعون دين يهوه من قبل مثل الكنزيون Kenizites الكينيون Kenites وكانوا قد تسللوا إلى الأرض من الجنوب واختلطوا مع أهل يهودا. ومع أن عملية الاستيعاب كانت ستستمر لبعض الوقت فإن تركيب إسرائيل القبلي تشكل بسرعة وأخذ شكله النموذجي .بهذا يمكن القول إن تاريخ إسرائيل ابتدأ. كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة**، 147.
[13] Miriam Greenblatt, ***Human Heritage: A World History***, (McGraw-HillGlencoe, 2000), 110.
[14] H. Jacob Katzenstein& S David , **Encyclopedia Judaica: PhoeniciaPhoenicians**, *Jewish Virtual Library*, (The Gale Group, 2008).

الطبيعي الذي يصل بين الحيثيين وسوريا وأشور وبابل شمالا وبين مصر جنوبا. فكانت لذلك بلدا كان له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير. كانت هذه البلاد طريقا لمصر ولكل الأقطار التي في الشمال، وكانت الجيوش الزاحفة للفتح والتوسع تخترقها، كما يشنون على أهلها الحروب رغبة في شق طريق للتجارة. ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القدرة الزراعية ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية.[15] فالفينيقيون كان من أسباب هجرتهم إلى الغرب ضيق الأرض، والتماس الرزق والتجارة، وهربا من التحركات العسكرية التي تشهدها المنطقة بين الفينة والأخرى. لم ينتظر الفينيقيون المصير الذي انتظره اليهود من تدمير أرضهم وترحيلهم من أرضهم، خرج الفينيقيون من الضيق إلى السعة، تاركين أرض الحروب والقتال إلى دمار وفناء كان ينتظرهم بعد حوالي ألف سنة من رحيلهم. لم يغادر بنو إسرائيل أرضهم ولم يكونوا إمبراطورية مثلما فعل الفينيقيون في غرب المتوسط، وبالرغم من ذلك دمرت مملكتهم في تاريخ لاحق، وأزيلت مملكتهم نهائيا بواسطة الرومان. تختلف رؤية الفينيقيين عن جيرانهم بنو إسرائيل. فالفينيقيون كانوا شعبا مسالماً، تقودهم المصالح الاقتصادية، وتغريهم الأرباح ولذلك كانوا لايلتمسون الحرب. بنو إسرائيل اجبر على الحرب والصراع منذ بداية قدومهم إلى المنطقة، لذلك تجد الصراع يشكل عنصر رئيس في الرؤية اليهودية. فالرب الذي يتبعه اليهود وهو يهوه كان يقود شعبه نحو الحرب، لذلك تجد تاريخ بنو إسرائيل حتى تدمير أرضهم ومعبدهم سلسلة من الحروب باسم الرب يهوه؛ وفي آخر المطاف غضب عليهم ودمر ممالك اليهود ومدنهم.

جدد بنو إسرائيل العهد مع يهوه عند جبل سيناء، على أن يكون ربا لهم يفضلهم على سائر البشر، بالمقابل يتبعوا أوامره. فقد جاء في سفر التكوين أن: الرب يهوه أبرم اتفاقا مع نبي الله إبراهيم بأن تُعطى أرض كنعان له ولنسله من بعده،واختتمت هذه الاتفاقية بختان كل طفل ذكر وكانت هذه هي العلامة[16]على الاتفاق الذي قطعه يهوه لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودي على جميع الأجناس الأخرى. [17] ورافق ذلك اتفاقيات أخرى واحدة مع موسى وأخرى مع داود حول القانون والنظام الملكي الذي سيحكمون به المجتمع اليهودي. لقد كشف يهوه عن نفسه وخطته لشعبه، وانقذ شعبه من العبودية في مصر، وأعطاهم أرض كنعان. وكل هذا كان مشروطا بطاعته واتباع سبيل التوراة، وعدم عصيانه واتباع سبيل الضلال وإلا، سيخضعون لعقوبة عادلة، (بأن يسلط عليهم عدوهم ويهينهم بالتفرق والتشرد).والنتيجة كانت أن نقض بنو إسرائيل العهد من خلال عبادة سكان مدينة السامرة الإله بعل فدمرهم يهوه، بأن سلط عليهم عبيده ملوك أشور حيث تمكن سرجون الثاني عام 722 قبل الميلاد، من تدمير مملكة إسرائيل واسر أهلها، ونقلهم إلى اشور.[18] ثم جربت

(15) ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، المجلد الثاني، (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 10.
(16) **سفر التكوين** 17.
(17) سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة السيد يعقوب بكر، (بيروت، دار الراقي، 1986)، 138.
(18) سيد فرج راشد، **السامريون واليهود**، (الرياض، دار المريخ)، 21.

أورشليم أن تتبع الشر مما أدى إلى هلاكها في النهاية من يهوه نفسه بأن سلط عليهم عبيده من ملوك بابل.[19]ففي عام 587 قبل الميلاد استطاع نبوخذ نصر تدمير المملكة اليهودية الجنوبية مملكة يهوذا بعد سلسلة من الحملات العسكرية واقتاد آلاف اليهود إلى بابل. [20] وبعد حوالي أربعين سنة قضاها يهود يهوذا في المنفى، تابوا ورجعوا عما كانوا فيه عادوا لتأسيس دولتهم الجديدة.

الأسر البابلي وتشكل الفكر اليهودي:

في عام 539 قبل الميلاد قضى الملك قورش الفارسي على المملكة البابلية الجديدة، وسمح لليهود بالعودة إلى موطنهم، حيث حاول العائدون تشكيل دولة صغيرة.[21] لقد كان الشعب اليهودي الذي عاش فترة السبي البابلي، يختلف عن أولئك المتقاتلين من عباد بعل، وعباد يهوه، وعمن يقدمون القرابين في المرتفعات. والحقيقة المجردة أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها ممدنين. خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسماً على نفسه، لا يربطه وعي ذاتي وطني، وعادوا بروح قومية شديدة، وجنوح نحو الاعتزال جعلهم ينأون بجانبهم عمن عداهم، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك بينهم، وعادوا إلى وطنهم ومعهم الشطر الأكبر من مادة العهد القديم، ومن الواضح أن اليهود قد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين، وحجبوا عن السياسة، وعاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي، فإن العقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة ومهمة . [22]، لقد كان هؤلاء الناجون والعائدون من المنفى حملة الإرث الفكري اليهودي ينتمون لشعب إسرائيل الجديد. في الواقع لم يكن حملة هذا الإرث هم شعب إسرائيل القديم الذي كان يهوه قد شرع في خلقه في سفر التكوين بوعده لإبراهيم، ولاهم شعب إسرائيل المختار ابن يهوه البكر في سفر الخروج، ولا هم أهل السامرة المرتدين، وليسوا أهل يهوذا الذين نقضوا العهد مع الرب فاستحقوا الدمار؛ بل هو شعب إسرائيل الذي تلقى التوراة، وكانت الطاعة ستجعله شعبا خالدا للرب، ذكرته أسفار موسى الخمسة، وقصة تحول شعب إسرائيل إلى أمة عظيمة في أسفار يشوع والقضاة وصموئيل. ولم يكن البحث عن هذا الشعب بين تاريخ الأحداث التي وقعت في فلسطين، ولا ينتمي إلى عالم الأحداث السياسية أو الاجتماعية، ولكنه ينتمي إلى عالم الفكر والأدب. وأصول هذا الشعب الجديد موجودة في تلك التركيبة المعقدة من التراث التشريعي والديني والشعبي الذي كان الحفاظ عليه ضرورة وأمراً محورياً لصوغ وعي ذاتي يرتبط تحديداً بشعب إسرائيل الجديد الذي خلقه التراث وأعطاه هويته. وينظر حملة التراث هؤلاء إلى أنفسهم باعتبارهم بني

(19) توماس تومسن، **أسفار العهد القديم في التاريخ**، 48.
(20)E. Mary Smallwood, ***The Jews under Roman rule: from Pompey to Diocletian: a study in political relations***, second edition, (Leiden Brill, 1981), 120. .
(21) فراس السواح، **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم**، (دمشق، دار علاء الدين، 1997)، 18.
(22) ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، 22.

إسرائيل بلا منازع. ومهما كان المصطلح الذي نستخدمه لتعريف الذات، فإن الصوت الذي يتضمنه التراث هو صوت يقدم نفسه إما في شكل بقية باقية من شعب إسرائيل القديم أو بأنه شعب إسرائيل المبعوث أو المولود من جديد. ومن خلال عملية تجميع التراث الذي يمكن الرجوع ببعضه إلى العصر الحديدي كما رأينا، يقدم التراث نفسه باعتباره من الماضي بحق. وهو يتكون من بقايا ذاكرة مكتوبة أو شفاهية وسلاسل من السرد القصصي والأعمال الأدبية المعقدة والسجلات الإدارية والأناشيد ومأثورات الأنبياء وكلمات الفلاسفة والقوائم والحكايات. وكلها ذات معنى ككل متراكم وتوراة تم جمعها وتصنيفها وشرح لأصول التوراة، وكل هذه الكتابات توصف في التراث بأنها ماض تبعثرت أجزاؤه.الذي تمت صياغته في السبي البابلي وما بعده على نهج التوراة. [23]

لقد استطاعت النخبة اليهودية عند العودة من الأسر البابلي أن يعيدوا تشكيل العقل اليهودي من جديد وتحويل الدين اليهودي من مجرد اهتمام بطقوس وشعائر دينية إلى الاهتمام بتنظيم المجتمع اليهودي.[24] وخلق رؤية له كخارطة طريق للخروج مما هم فيه من ابتلاء، من خلال تقوية الروابط الاجتماعية وزيادة التعاون والتضامن الإنساني بين أبناء اليهود وزيادة تمسكهم بدينهم ومجتمعهم. حاول المثقفون اليهود لملمة شعب أعياه التشتت، وفقد الهوية، وتبعثر في بقاع واسعة من الأرض. فاخذ الكتاب والمتعلمون والمثقفون اليهود كعزرا ونحميا على عاتقهم إعادة إحياء فكرة الهوية والمواطنة.[25] فالمواطنة هي عبارة عن انتماء ذهني وفكري ونفسي ومعرفي وعاطفي وأخلاقي مترابط الحلقات لا تولده الفطرة، بل يعمقه التعليم. فالتعليم والثقافة يشكلان الأرضية الأساس للمواطنة التي هي أكثر من الانتماء الشكلي المتمثل في اقتناء وثيقة هوية هذا البلد أو ذاك، وبما أن غير المتعلمين يفتقرون للخريطة الذهنية التي تبلور التوجه الوطني والقومي، لذلك كان ذلك يقع على عاتق النخبة والمتعلمين.[26] وانتهى الأمر بالشعب اليهودي بأن اقتنعوا –على بكرة أبيهم–بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة. وبذلك جمعت بين هذا الشتات اليهودي الذي عاش في المنفى تقاليد مكتوبة متواترة، كان ذلك الذي أحدث تماسكا عقليا لم يقف أثره عند توحيد الشعب الذي عاد إلى أورشليم، بل تجاوز ذلك كثيرا. وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل، كانت فكرة خلابة. واستولت هذه الفكرة أيضا على لب اليهود الذين ظلوا في بابل ووصل الأدب الخاص باليهود إلى اليهود الذين كانوا مستقرين في مصر إذ ذاك، كما أنها أثرت في الشعب المختلط الذي أسكن السامرة، عندما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا وهي أوحت إلى عدد كبير من البابليين وغيرهم أن يدعوا في إبراهيم أبا لهم، وأن يفرضوا

(23) توماس تومسن، **أسفار العهد القديم في التاريخ**، 48- 51.
(24) زيدان عبد الباقي، **علم الاجتماع الديني**، (مكتبة غريب، 1981)، 131.
(25) Emma Klein, ***Lost Jews: The Struggle for Identity Today***, (Palgrave Macmillan, 1996), 6.
(26) إبراهيم عثمان، قبس النوري، **التغير الاجتماعي**، (القاهرة، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، 2010)، 111.

أنفسهم على اليهود العائدين. وكذلك أصبح العمونيون والمؤابيون أنصارا لهم.وظلت العقيدة اليهودية زمانا طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى.[27]

الرومانيين التسامح والاضطهاد لليهود

يبدو أن اليهود قد تحركوا وانتشروا بثبات في أنحاء متفرقة من العالم الروماني خلال القرن الثاني قبل الميلاد فقد تمتعوا بممارسة حياتهم وطقوسهم الدينية بدون تدخل من السلطة، ولم يجبروا اليهود على أكل لحم الخنزير، وتقديم القرابين للآلهة الوثنية، ولم يحرموا عليهم الختان، ولم يدمروا أماكن عبادته مثلما فعل انطوخيوس الرابع بيهود يهوذا. [28]بل اتخذ الرومان موقفا متسامحا تجاه اليهود، فسمحوا لهم بتكوين مجتمع خاصmodus vivendi. وسمح لهم بنوع من الحكم المحلي، حيث كان اليهود يخضعون لقوانين يهودية مستمدة من التوراة والتلمود وليست من قوانين رومانية وهي الشريعة التي وضع أسسها كل من عزرا ونحميا فترة السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد،[29] كما جاء في سفر التثنية[30] وقوانين التلمود التي تحرم على اليهود الزواج بالرومانيات، ولا يعتد بهذا الزواج لأن الانتساب إلى اليهودية يكون عن طريق الأم وليس الأب[31]وكانت الديانة اليهودية تحرم علي اليهود أكل لحم الخنزير (الذي أحبه الرومان)،وكانوا يقومون بختان الأطفال الرضع,[32] ولم تكن لليهود صورة للرب داخل هياكلهم[33] (الذي كان مصدر غرابة بالنسبة للرومان)، كما كان يوم السبت عيدهم وراحتهم الذي لا يشتغلون فيه (كان الرومان يرون ذلك مظهرا من مظاهر الكسل واللامبالاة).[34] ولم تبدأ القوانين الرومانية التي تنص على تنظم وتحمي المجتمع اليهودي إلا في أواخر العهد الجمهوري، وتحديداً في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، حيث صدرت العديد من القوانين والمراسيم في الفترة الفاصلة بين يوليوس قيصر و أكتافيوس "أغسطس"وكانت تهدف إلى إضفاء مزيداً من الحرية على ممارسة اليهود لشعائرهم، وحماية الأقلية اليهودية بشكل قانوني. حيث سمحت لليهود بأن يجتمعوا

---

(27) ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، 23.

(28) هاني عبدالعزيز السيد جوهر، **اليهود في فلسطين في العصرين البطلمي والسلوقي**، (مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2005)، 39.

(29) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، (بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 2008)، 102.

(30) **سفر التثنية** 7: 1-5.

(31)***Mishnah Kiddushin***,4.

(32) **سفر التكوين**17.

(33) حول تاريخ خروج اليهود من مصر، وعاداتهم وتقاليدهم وحياتهم الاجتماعية، وتحدث المصادر الكلاسيكية سواء في الفترة اليونانية أو الرومانية انظر كتاب بيتر شافر:
Peter Schafer, ***Judeophobia***: ***Attitudes toward the Jews in the Ancient World***, (Harvard University Press, 1997) .

(34)Robert Louis Wilken, **Jews as the Romans saw them**, *First Things*, (2008).

بحرية في مجامعهم Thiasoi، وممارسة شعيرة السبت والاحتفالات اليهودية.[35] ويعد يوليوس قيصر الذي حكم بين59–44 قبل الميلاد، أول حاكم روماني يمنح مواطنوه اليهود امتيازات تجارية، وعدم إلزامهم بالالتحاق بالجيش. وسمح لهم بأن يرسلوا لأورشليم نصف شيكل مساهمة منهم لاستمرار معبدهم المقدس.[36]كما استمر تدفق الأموال على معبد اورشليم في عهد الإمبراطور اغسطس؛ إذ بناءً على التماس من الملك أجريبا ملك يهوذا، للإمبراطور اغسطس وجه أجريبا رسالة إلى الجهات المسئولة تسهيل مهمة إرسال أموال اليهود إلى الهيكل في أورشليم وعدم التعرض لهم.[37] يذكرنا هذا بضريبة العشر التي كان تبعثها قرطاجة للمدينة الأم "صور".كما كتب اجريبا لليهود في آسيا بأنهم غير ملزمين بالمثول أمام البرايتور سيلفانوس Sylvanusفي يوم السبت.[38] واستمر الإمبراطور أغسطس في منح اليهود الامتيازات السابقة التي أقرها من سبقه من ممارسة اليهود قوانينهم وعادات أجدادهم. [39]كما تحصل اليهود على الامتيازات ذاتها، من خلال مرسوم للإمبراطور كلوديوس والذي جاء فيه: نرى بأنه من العدل ألا يحرم اليهود أينما وجدوا حتى في المدن الإغريقية من الامتيازات التي حافظ لهم عليها الإمبراطور المؤله (أوغسطس) ونرى بأنه من الإنصاف أن يتمتع اليهود بعاداتهم في كل أرجاء إمبراطوريتنا. نريد أن يقوم حكام المدن والمستوطنات والبلديات بتعليق مرسومنا هذا في إيطاليا وخارجها. [40]، ويستطرد المؤرخ اليهودي يوسيفوس متفاخرا بالحرية التي كان يحظى بها اليهود في الإمبراطورية في القرن الميلادي الأول: إن شعائرنا الدينية كانت تتابع بشكل كبير من أجناس عدة، (وتحاول تقليدنا أو مجاراتنا) فلم تكن هناك لا مدينة إغريقية ولا بربرية ولا أمة على الإطلاق لم تأت يوم سبتنا الذي به صيامنا وتضأ فيه المصابيح، وبه العديد من الأطعمة الممنوعة علينا.[41] وقامت الإمبراطورية بإعفاء اليهود من الالتزامات الدينية التي فرضت على السكان الآخرين في المدن. لم يكن اليهود مضطرين إلى عبادة الآلهة الرومانية، واستجابوا بامتنان من خلال تقديم التضحيات والدعاء للإمبراطور في الهيكل في أورشليم.

[35]Leonard Victor Rutgers, **Roman Policy towards the Jews: Expulsions from the City of Rome during the First Century C.E**., *Classical Antiquity*, Vol. 13, No. 1 (University of California Press, 1994), 57.
[36]Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***.,5.
[37]Flavius Josephus, ***AntiquitatesJudaicae,*** 16, 6. 2.
[38]Flavius Josephus, ***AntiquitatesJudaicae,*** 16, 6. 4.
[39]Flavius Josephus, ***AntiquitatesJudaicae,*** 16, 7.
[40]Flavius Josephus, ***AntiquitatesJudaicae***, 16. 6.
[41] Flavius Josephus, ***Contra Apion***, 2. 40.

فالجاليات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم القديم الهلنستي أو من بعده الروماني، كانت ترتبط فيما بينها بعلاقات دينية واجتماعية قوية وكان مركز تلك العلاقات مدينة أورشليم عاصمة يهوذا بسبب وجود الهيكل بها، وكذلك السنهدرين الذي يعتبر المجلس الأعلى أو الهيئة اليهودية الحاكمة وهو الذي كان يصدر القرارات الدينية والمدنية لكل المجتمعات اليهودية المنتشرة في العالم آنذاك. هذا المجلس الذي تأسس زمن خلفاء الإسكندر في أورشليم، وقد ظل هذا المجلس قائما حتى تم إلغاؤه عام 70 ميلادي من قبل الرومان[42] لذلك كان هذا الترابط بين الجاليات اليهودية لديه آثار إيجابية بالنسبة لليهود، وآثاره السلبية بالنسبة للآخرين، فمن ناحية أدى ذلك الترابط بين الجاليات اليهودية إلى تمسكها بالتعاليم الدينية وبتركيبتها الاجتماعية الخاصة التي لا ينضوي في إطارها إلا اليهود فقط وتلك الأشياء جعلتها قوية، ولم تنصهر في المجتمعات التي كانت تعيش فيها، أما الجانب السلبي لذلك الترابط، فقد كانت تلك الجاليات أرضاً خصبة للمبادئ الهدامة الموجهة ضد الأغيار "الجوييم" أي غير اليهود وكذلك لإعداد المؤامرات التي كان يحيكها اليهود ضد سكان الدول التي كان يعيش فيها اليهود. [43]مما تسبب في طردهم عدة مرات؛ إذ حدث في عام 19ميلادي في عهد الإمبراطور تيبريوس أن طرد مجموعة من اليهود، عقابا لهم على تغيير دين امرأة من الطبقة الارستقراطية واعتناقها الديانة اليهودية، حيث تجمع مجموعة من الشبان اليهود في روما، وبدأوا يبشرون بالفكر اليهودي الضال، لذلك خشي الرومان من ذلك الأمر فتم ترحيلهم relegatio من روما، كما كان الرومان يفعلون مع مثيري الشغب.[44].

دخل اليهود عالم السياسة الرومانية من خلال تحالفات وصداقات رجال نافذين في روما، ورعاية عائلات يتمتع أفرادها بالاحترام dignitas وبالتالي جذبوا معهم مملكة يهوذا إلى هذا الفلك السياسي الذي كان ينذر بالهلاك، إذ فتحت العيون على غموض هذا الشعب الذي كان يختلف كلية عن الرومان وتنظيماتهم السياسية. فمركزية مدينة روما داخل الإمبراطورية أتت من قوتها السياسية وقوتها العسكرية، في حين كانت مركزية مدينة اورشليم تأتي من قوة الدين. روما كان لديها العديد من المعابد للعديد من الآلهة، اليهود كان لديهم معبد واحد، ويضعون كل السلطة والسيادة في يد الرب. في حين لعب الدين دوراً صغيراً عند الرومان في الأمور الأخلاقية، لكن اليهود عاشوا في ظل نظام من القوانين مُنحت من الرب وتشكلت من مفاهيم الخطيئة والرحمة والمغفرة.[45] إذا نحن نتحدث عن اختلاف تنظيمي وبناء هيكلي للدولة، ولا نتحدث عن أكل لحم الخنزير حلال أم حرام، ولا عن يوم راحة السبت، ولاعن ختان الأطفال الرضع نحن نتحدث عن وضع سياسي منظم، وجسم

(42) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، 102.
(43) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، 103.
(44) Leonard Victor Rutgers, **Roman Policy towards the Jews**., 43.
(45) Robert Louis Wilken, **Jews as the Romans saw them**.

سرطاني منتشر عبر الإمبراطورية يكبر يوما بعد يوم، من الممكن أن ينبأ بثورة تشتعل وتطيح بالإمبراطورية خصوصا إذا علمنا أن أغلب رؤوس الأموال في الإمبراطورية من اليهود الذين كانوا يتعاملون بالتجارة والربا ويسيطرون على الاقتصاد وعجلة الصناعة.[46]

إجهاض الحلم اليهودي وتدمير الهيكل

في الواقع لقد كان اليهود يترقبون مخلصا مُعيناً؛ مسيحا يخلص البشرية بطريقة محببة إليهم، تنطوي على استرجاع ما كان لداوود وسليمان من مجد أسطوري، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخيرة والحازمة أيضا.[47] ذلك أن اليهود لم يتمتعوا بالحكم الذاتي إلا فترة الهيكل الأول فترة الملك سليمان في الألف الأول قبل الميلاد، أما غالب فترة الهيكل الثاني أي بعد العودة من المنفى فقد كانوا تحت حكم أجنبي، بداية من الفرس إلى حكم الإغريق للسلوقيين ثم أخيراً تحت حكم الرومان.[48] وعندما تحطمت القوى السياسية والعسكرية للشعوب السامية، وأفل نجم قرطاجة بعد تدمير أمها مدينة صور بوقت ليس بالطويل، وأصبحت إسبانيا ولاية رومانية، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع، وليس ثمة شك أن الفينيقيين المتناثرين في إسبانيا وأفريقيا وفي كل أرجاء البحر المتوسط وهم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرية، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة، قد تحولوا إلى أتباع للدين اليهودي. ذلك أنه مرت في التاريخ اليهودي أدوار قوية من الدعوة واستمالة الأنصار إلى اليهودية. في الواقع أن اليهودية هي المثل الأعلى السياسي المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المحطمة وهي في غالب أمرها سامية الأصل، فلا غرابة أن ماليهود من تقاليد مالية وتجارية، إنما يعود إلى المجموعات الفينيقية التي تهودت وإلى الآراميين الذين تهودوا في بابل. على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان التمثل، التي كانت تقوم تقريبا بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقا؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات اليهودية كانت تمارس التجارة على نطاق واسع، وتزدهر وتثري وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة السنهدرين الدينية والتعليمية.[49]ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وفرص عظيمة جداً من الناحيتين المالية والسياسية. فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم، وكانوا يستطيعوا أن يستثيروا وأن يهدئوا، وما بلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى ذلك الوقت أوسع منهم انتشارا، ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بتماسك أقوى مما كان لدى الإغريق. فكان الإغريقي عدوا للإغريقي؛

---

(46) حسين محمد يوسف، **نماذج من تراث العداء الذاتي اليهودي من خلال مادونه يوسف عن الحرب اليهودية الأولى**، الآخر في الفكر اليهودي ، (مصر،دار العلوم)، 112.

(47) ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، 11.

(48) J. B. Rives, ***Religion and Authority in Roman Carthage from Augustus to Constantine***, (Oxford,1995), 223.

(49) ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، 11.

أما اليهودي فكان لليهودي أخا ونصيرا. فحيثما حل اليهودي، وجد رجالا لهم عقل مثل عقليته وتقاليد مثل تقاليده. فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القانوني. من أجل هذا التماسك اضطر الحكام أن يحسبوا لهؤلاء اليهود حسابا في كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلا للقروض أو مبعثا للمتاعب.[50]

كانت أقلام الكتاب المثقفين الرومان واليونانيين ترصد تحركات اليهود من غرابة سلوكهم، وغيرةً من نجاحهم وثرائهم، فكان هؤلاء الكتّاب مهتمين بالأخلاق العامة للمجتمع الوثني ويراقبون الأخلاق اليهودية، كانت أقلامهم تهتم بتفاصيل المجتمع وترى أن الإصلاح في روما، لا يتم إلا بالعودة إلى الأصالة الأولى، وتقاليد المجتمع الروماني الأول، وأن انتشار اليهودية كان يعوق هذا الاتجاه الإصلاحي، وبالتالي كان لابد من الهجوم على اليهود من بعض المؤلفين الرومان مثل هوراس وشيشرون، لكنه لم يصبح هجوما حاداً إلا بعد القرن الأول كما هو الحال في كتابات المؤرخ كورنيليوس تاكيتوس الذي ردد بعض أفكار آبيون عن اليهود واليهودية، وبّين أن تهود الرومان سيؤدي بهم إلى احتقار أرباب أسلافهم، وإلى رفض وطنهم وآباءهم وذريتهم وإخوتهم. وقد وجه جوفينال هجوماً على الأجانب (اليونانيين والسوريين وكذلك اليهود) لتقويضهم دعائم الفضيلة في المجتمع، ويرى تاكيتوس أن الجانب الأخلاقي لليهودية يمثل خطر حقيقي على الإمبراطورية.[51]

أما عداء الأرستقراطية لليهود فقد كان واضحا في دوافعه، ويعود إلى سببين أساسيين أولاً: رغبة بعض قطاعات من الأرستقراطية الرومانية في تحقيق مكاسب اقتصادية وبالتخلص من منافس قوي مثل اليهود. حيث كان اليهود يتمتعون بنفوذ مادي واجتماعي كبير في مدن الإمبراطورية، ذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن كاتوللوس الروماني حاكم مدينة قوريني ذبح أثناء أعمال الشغب التي قام بها اليهود عام 66- 70ميلادي حوالي ثلاثة آلاف شخص من أثرياء اليهود.[52]

ركزت السلطة الرومانية اهتمامها على الجانب السياسي والأمني لقبلة اليهود اورشليم. يبدو أن اليهود في كل مكان كانوا مصدر إزعاج، بسبب اعتقادهم وتكتلهم وعدم اندماجهم وكذلك بسبب كثرتهم، فأصبحوا معادين لليونانيين، والمسيحيين، بل أنهم في نهاية الأمر أصبحوا من أشد الناس عداوة للرومان. من حيث بدأ لهم تأثير قوي وراسخ في روما عاصمة الإمبراطورية، وبدأ تدخلهم واضح من حيث تدبير المؤامرات التي راح ضحيتها الإمبراطور نيرون نفسه، الذي اتهم بحرق مدينة روما، ويبدو أن رجالا نافذين من اليهود كان لهم دور في الحريق الذي شب في روما، وبسبب نفوذ اليهود جعل مؤرخا شهيرا من كبار رجال الدولة مثل

(50) ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، 12.
(51) خالد أبوشرخ، **معاداة اليهود دلالات المصطلح**، الحوار المتمدن، (2011).
(52) Flavius Josephus, ***De Bello Judaico,***7. 443.

تاكيتوس يعزف عن اتهامهم بحرق المدينة، ويسند هذا الفعل إلى فئات غامضة من الناس.[53]كانت روما تراقب اليهود بحذر شديد حتى ولو لم يكن ذلك ظاهرا، لأنها رأت أن العالم الروماني أصبح له عاصمتان روما وأورشليم وهناك شعب روماني وثني يدين بالولاء للإمبراطور، وشعب يهودي يدين بالولاء ليهوه.أصبح الرومان يضيقون ذراعا بهذا الجسم الغريب، ويتحينون الفرصة للقضاء على رأس هذا التنظيم الإيديولوجي المنظم، الذي يستمد كل فرماناته وقراراته من مجامع صغيرة تسمى synagogue، وهذه المجامع ترتبط مع المحكمة العليا "السنهدرين" ومركز القرار اليهودي في اورشليم الذي حكم فيه على المسيح عيسى عليه السلام بالصلب. بدأ تذمر اليهود بداية من ثقل الضرائب المفروضة عليهم، ومحاباة الرومان للإغريق على حساب اليهود، وكراهية الرومان لليهود. لذلك في عام 38 ميلاد يرفض يهود الإسكندرية تقديم القرابين لتمثال الإمبراطور الروماني كاليجولا، وازدادت وتيرة التوتر بشكل سريع ووصلت ذروتها عندما اقنع إلي عازربن الكاهن الأعظم أنانياس القائمين على هيكل أورشليم بمنع كل من يريد تقديم القرابين لتمثال الإمبراطور،وكان هذا بمثابة رفضاً وتمرداً على سلطة الإمبراطورية الرومانية وشقا لرمزية وحدتها. فأرسل الإمبراطور نيرون القائد فسبسيانوس وابنه تيتوس عام 67 ميلادي لقمع هذا التمرد. [54]استطاع تيتوس في عام 70 ميلادي القضاء على الثورة اليهودية. وبعد تدمير هيكلهم، فرض عليهم ضريبة سميت بضريبة اليهود fiscusJudaicusعلى كل يهودي من عمر ثلاث سنوات وحتى ستون سنة، وعقاباً لهم ارسلت هذه الضريبة إلى معبد الإله جوبيترJupiter Optimus Maximus في روما. [55] ونقل كنوز الهيكل اليهودي إلى معبد السلام في روما وظلت هذه الكنوز هناك حتى عام 455 ميلادي. [56] لم يعتبر تيتوس نفسه عدوا لليهود وهو من هدم الهيكل الثاني، لأن بين صفوفه كان جيش يهودي صغير، وكانت عشيقته هي برنيكي أختاً لأجريبا الثاني ملك اليهود، وتدمير المعبد كان من ضرورات قمع الثورة اليهودية، لذلك رفض تيتوس أن يحمل لقب تيتوس جودايكوس TitiusJudaicus أي تيتوس هازم اليهود. وذلك بسبب صداقته للعرق اليهودي، ولذا اكتفى تيتوس بصك عملة برونزية ضرب على ظهرها عبارة جوديا كابتاJudaea Capta، أي هُزمت يهوذا، ويهوذا هنا تشير إلى الأرض وليس الشعب.[57] أدت تلك التحولات في السياسة الرومانية إلى تمرد اليهود مرة أخرى، إلا أن هذه المرة شمل التمرد بقاع واسعة من الإمبراطورية، في إقليم قورينائية، والإسكندرية، وقبرص، وأنطاكية، وميزوبوتامية (بلاد ما بين النهرين). واستهدفت هذه الحركات اليهودية تدمير المنشآت الدينية والمدنية الرومانية والإغريقية على حد سواء.

(53) حسين محمد يوسف، **نماذج من تراث العداء الذاتي اليهودي**، 112.
(54) حسين محمد يوسف، **نماذج من تراث العداء الذاتي اليهودي**، 115-136.
(55)Christopher Q Quin, **The Qrowing Split between Synagogue and Church in the 1st Century**, *The FiscusJudaicus*, (2009), 3.
(56)Procopius, ***The Vandalic War***, III. 5.3.
(57) خالد أبوشرخ، **معاداة اليهود دلالات المصطلح**.

ازدياد السخط اليهودي وسياسة التركيع الروماني لليهود

كان من أسباب هذا التمرد الذي بدأ عام 115 ميلادي عهد الإمبراطور تراجان هو شعور اليهود بنوع من التقييد، وعدم تمتعهم بحريتهم الدينية حسب تعاليم دينهم الموسوي كما كانوا سابقا،[58] مذبحة مليون يهودي في يهوذا بواسطة تيتوس في 70 ميلادي خلال حصار اورشليم أثار العديد من متمردي ومتطرفي المجتمع اليهودي في قوريني الذين وفقا ليوسيفوس كان عددهم أكثر من خمسمائة ألف، هؤلاء المتمردون كانوا يشعرون بالكبت الشديد والسخط على هذا الحكم الجائر وعلى المعاملة اللا إنسانية التي عومل بها أخوتهم اليهود.[59] وشعورهم بالظلم والإهانة من نتائج حرب 70 ميلادي التي أدت إلى فرض ضريبة على جميع الرعايا اليهود في الإمبراطورية. كانت قلوب اليهود تمتليء حقدا على الرومان الذين دمروا قبلتهم أورشليم وهيكلها، وكان حقدهم أيضا منصب على الإغريق الذين كانوا سبب ذلك الدمار الذي لحق بأرضهم ووطنهم. كما شكلت هذه الثورة الأمل التاريخي لليهود في التخلص من الجوييم وبناء دولة اليهود في أرض الميعاد على يد المسيح المنتظر.[60] يبدو أن أحداث عام 115 ميلادي كانت أكثر تنظيما من عام 66 ميلادي فيذكر كاسيوس ديو أن الأسلوب الذي اتبعه اليهود في قبرص كان مشابها لذلك الذي أحدثه اليهود في إقليم قورينائية.[61] انتهت سلسلة الاضطرابات هذه بتمرد شمعون باركوخبا في عام 132 ميلادي في محاولة لتأسيس دولة يهودية مستقلة في مملكة يهوذا، تمكن باركوخبا في البداية من دحر الرومان وتأسيس دولة مستقلة استمرت ثلاث سنوات حتى تمكن الرومان من تدمير مملكته وقتله في عام 135 ميلادي.[62] وبذلك انتهت الدولة اليهودية–التي كانت بدايتها من عودتهم من الاسر البابلي في عام 539 فقد عاد حوالي خمسون ألفا إلى يهوذا واسموا أنفسهم باليهود تمييزا لأنفسهم عن بقية بني إسرائيل– وطرد اليهود ودمرت أورشليم وأقيمت مكانها مدينة رومانية سميت إيليا كابيتولينا Aelia Capitolina وشيد معبداً جديداً للإله جوبيتر مكان الهيكل اليهودي[63] وأصبحت تبعيتها لمجلس الشيوخ الروماني. وهكذا أصبحت المدينة الرومانية الجديدة مدينة وثنية بالكامل، كما أن وضع تمثال هادريانوس في وسط إيليا، وكان هذا بحد ذاته بمثابة تدنيس لاورشليم اليهودية.[64] وبسبب ما سببه اليهود للعالم الروماني من نكبات تم فرض ضرائب على اليهود وبكل صرامة وتمت ملاحقة كل من اخفى أصله ولم يدفع ضريبة شعبه.[65] كما أعدم الإمبراطور دوميتيانوس ابن عمه تيتوس فلافيوس كليمنس Titus Flavius Clemens عام 95 ميلادي بسبب اتهامه باعتناق الديانة اليهودية، وأختان كاليهود.[66] دوميتيانوس الذي حكم في الفترة بين 81 و 96 ميلادي، وسع نطاق الضريبة ليشمل ليس فقط مواليدااليهودأومن اعتنق المسيحية من اليهود، ولكن أيضا على أولئك الذين أخفوا حقيقة أنهم يهود أو

(58) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، 127-130.
(59) Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 4.
(60) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، 127-130.
(61) Cassius Dio, ***Roman History, Epitome of book*** LXVIII, 3-32.
(62) Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 4.
(63) Cassius Dio, ***Roman History, Epitome of book*** LXIX, 12.
(64) Peter Schafer, ***The History of the Jews in the Greco- Roman World***, (Routledge, 2003), 159.
(65) Suetonius: ***De Vita Caesarum –Domitianus***, 13.
(66) Suetonius: ***De Vita Caesarum –Domitianus***, 15.

يمارسون العادات اليهودية، ويروي سوتونيوس أنه عندما كان رجل يبلغ من العمر 90 عامًا، تم فحصه لمعرفة ما إذا كان قد خُتِن أم لا. [67] هذا يذكرنا بمحاكم التفتيش التي أقيمت للمسلمين في إسبانيا– مما يدل على أنه خلال هذه الفترة تم فرض الضريبة حتى على من هم فوق سن 60. وفي عام 139 ميلادي قام البرايتور Gnaeus Cornelius Scipio Hispanus المعروف ب هيسبانوس بطرد المنجمين (الكلدانيين واليهود) من مدينة روما.

فشل التمرد والثورة اليهودية أدى إلى تدمير مملكتهم واستعبادهم، وبسبب كثرتهم كما يقول كاسيوس ديو نافسوا الخيول في سوق الخليل [68]خلال هذه الفترة تغيرت نظرة الرومان والشعوب الأخرى لليهود، وأصبح غير مرحب بهم في العديد من مناطق العالم الروماني بعد المجازر التي قاموا بها، في قوريني ومصر وبلاد ما بين النهرين وقبرص وغيرها من الأماكن التي وجدوا بها، من تدمير للمدن والأرياف والقتل والتنكيل بأهلها. لذلك فر اليهود إلى أماكن نائية وبعيدة عن مركز السلطة الرومانية، وخوفا من انتقام سكان تلك البقاع التي دمروها.

التوجه غربا وإعادة التكوّن اليهودي في أفريقيا الرومانية "اورشليم الغرب"

كان الفينيقيون تجار رائعين مهتمين بالمنافع الاقتصادية ولا يلتمسون الحرب، وتعد مدينة صور المسئولة عن تأسيس مدينة قرطاجة في عام 814 قبل الميلاد أكثر المدن الفينيقية الساحلية نشاطا حيث تتميز بعلاقاتها التجارية الواسعة بشقيها البري والبحري وتشهد مدينة كركوان في شمال تونس على أثارهم، ولكن لا توجد كتابات فينيقية تسمح بالتعرف على الفينيقيين، كل المعلومات عن ثقافتهم وحضارتهم وصلت عن طريق الرومان. هذا ربما يقودنا لحقيقة مفادها أن أهداف الفينيقيين عموما كانت تجارية واقتصادية أكثر من كونها ثقافية. فعلى الرغم من أن حياتهم الثقافية كانت فقيرة جداً، إلا أنهم كانوا مهرة في أشياء مؤكدة فالرومان كانوا منبهرين بتصاميم منازلهم وخصوصا أثاثهم؛ الأسرة والكراسي والوسائد. كان الفينيقيون متميزين كذلك في صناعة الزجاج والفخار والأصباغ. وهم عموما كانوا مشهورين بالمنحوتات الرخامية، ودقة صقل وتقطيع الأحجار الثمينة.[69]

[67] Suetonius: ***De Vita Caesarum –Domitianus***, 13.
[68] Cassius Dio, ***Roman History, Epitome of book*** LXIX, 12.
[69] Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 1,2.

بعد عمليات المطاردة والانتقام من قبل الرومان وسكان المدن والولايات الرومانية الأخرى الذين تضرروا من جراء الثورات اليهودية. آثر اليهود الفرار إلى أماكن هادئة وآمنة وبعيدة عن أماكن التوترات. كان من بين الأماكن التي نزح إليها اليهود هي شمال أفريقيا. لا تظهر أسباب واضحة ومحددة لاختيار اليهود لهذه المنطقة بالذات. إلا أنهم عندما وصلوا هناك، وجد اليهود الهاربين المطاردين الأمل لنشر مذهبهم بين الفينيقيين المقهورين و الامازيغ "البربر" المطرودين من أرضهم. لقد وجد اليهود التشابه التاريخي بينهم وبين الفينيقيين حتى من حيث المصير ذاته. فحضارة قرطاجة تم القضاء عليها عام 146 قبل الميلاد من الرومان، وحرثوا أرضها ملحاً، واستعبدوا سكانها، ولعنت آلهة الرومان وطنهم. ولم يعد للفينيقيين أي أثر سوى بعضاً من الثقافة وقليلاً من الأساليب الحضارية التي تركوها،التي حاول الرومان جاهدين لتدمير كل آثار الشعب الفينيقي، لكن ذلك كان بدون فائدة، فقد كانت الثقافة واللغة البونية التي يتحدثون بها الأهالي منتشرة في كل مكان، ولديها جذور مغروزة في كل مكان، ولم تستطع الثقافة واللغة الرومانية أن تحل محل اللغة والثقافة البونية. [70] ووفقا لسانت أوغسطين أن الناس في عصره لازالوا يتكلمون اللغة البونية–ولا كلمة لاتينية–وهي اللغة الحية في القرن الرابع في الأرياف وفي دواخل أفريقيا الشمالية.[71]دُمرت مملكة يهوذا، واحرق هيكلها، وطرد سكانها اليهود خارجاً، وتحولت بلدهم إلى ولاية رومانية وثنية. فالفينيقيون اختفوا خلال القرون الأولى من الفترة المسيحية، وجد الشعب البوني نفسه في وضع مشابه للشتات اليهودي، فاتجهوا للإتجار عبر البحار والقارات والتي كانت الركيزة الأساسية لحياتهم. لذلك كانوا في معاشهم كانوا كاليهود. وعلى هذا الأساس عدد من المؤرخين وصلوا لنتيجة مفادها أن عدد من الطبقات الفينيقية تهودت. ربما بسبب الخبرة المتشابهة لكل من اليهود والفينيقيين.فالتقارب اليهودي الفينيقي لم يكن تاريخي فقط، بل أن الفارق الثقافي والاجتماعي لم يكن بعيداً. فاللغة التي يتكلمون بها الفينيقيون في الوطن الأم إضافة للمستعمرات الفينيقية المنتشرة عبر البحار كانت اللغة السامية التي كانت قريبة الشبه للغات التي يتكلم بها اليهود العبرية والآرامية، هذا التقارب بين شعبين مقهورين سهل على اليهودية التغلغل في شمال أفريقيا؛لذلك استجاب العديد من سكان قرطاجة الرومانية والمستعمرات الفينيقية الأخرى لليهودية، حيث مارسوا عادة ختان الذكور التي كانت من علامات اعتناق اليهودية. [72] لم يستجب الفينيقيون فقط لليهودية، بل أنه ابتداء من القرن الثاني عدد من القبائل الأمازيغية التي كانت في تقبع جنوب قرطاجة الرومانية اعتنقت اليهودية بالكامل، والبعض الآخر عملوا جزء من التعاليم اليهودية وأصبحوا يوصفون بخائفي السماء(تصف أعمال الرسل أولئك الذين انتشروا في القرن الأول منهم

[70]Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 3.
[71]Augustinus,***Epistula***, 17.2.
[72]Jennifer Patai et Raphael Patai, ***The Myth of the Jewish Race***, (Wayne State University Press Detroit, 1989),65-66.

وهم الوثنيون الذين لم يتحولوا بالكامل من "اليهودية" إلى المسيحية وربما يسبق عليهم قول مذبذبين). ليس لدينا معلومات عن الحياة الدينية والروحية للمستوطنين اليهود الأوائل في أفريقيا، وخلال قرون حافظوا دائما على علاقات قوية مع المدينة المقدسة. عمل عكيفا عدة رحلات من المدينة الأم إلى شمال أفريقيا، ومعه عدة حاخامات آخرين مثل الحاخام إسحاق وحانان وابا الذين ولدوا في قرطاجة. كما أن اليهود والقبائل البربرية المتهودة لتلك الفترة اعتادوا ممارسة صيغ وأشكال حية من اليهودية، وهو شكل من التوفيق يقتضي تبني عدد من العادات الوثنية (الشركية) تعود لأصل بربري. هذا يشبه ما حدث زمن النبي إرميا في القرن السابع قبل الميلاد في الشرق، فالوثنيون المتهودون تعودوا توجيه صلواتهم للربة كايلستس ربة السماء. بسبب أن اليهود ليس لهم اصنام أو تماثيل أو أشياء تمثل إلههم الغير مرئي والغير مادي الذي يتوجهون إليه بالصلاة والدعاء، لذلك استنتج الأفارقة والإغريق والرومان أن هؤلاء كانوا يتعبدون للسماء التي كان موجود بها إلههم بدل معابدهم الخالية من الالهة كان اليهود يسمون إلههم من بين الأسماء أيل عليون الذي يعني "الرب الأعلى" .[73]

لقد نافست اليهودية المسيحية في شمال أفريقيا ، حيث كانت الديانة اليهودية زمن الإمبراطور سبتميوس سفيروس وابنه كاراكلا ديانة شرعية religio licita بينما الديانة المسيحية لم تكن دين شرعي religio licitaكما أن اليهود عندما بشروا بها وجدت تلك الأمم المقهورة ضالتها المنشودة التي كانت تبحث عنها ولم تجدها في المسيحية حيث مثلت اليهودية رمز المقاومة ضد الاحتلال الروماني وهذا ما جعل منها منافسا قويا وشرسا للمسيحية. وبما أن اليهودية دين رسمي لذلك العديد من الوثنيين الذين جذبتهم واستهوتهم المسيحية اعتنقوا اليهودية حتى يصبحوا طائفة مسيحية. كما يمكن أن يكون هجوم القديس ترتوليانوس وغيره من اللاهوتيين المسيحيين على اليهود واليهودية بسبب التوسع والانتشار الذي حظيت به اليهودية ولم تحظ به المسيحية كما أن نجاحها في جذب الكثير من المعتنقين جعلها موضع حسد من المسيحيين.[74] ويعود سرعة انتشارها إلى الحياة الدينية التوحيدية والمكثفة التي كان يعيشها اليهود والتي قادتهم للتأثير على البربر الوثنيين في الإقليم،حيث تشير قطعة رخامية وجدت بمنطقة الأوراس بالقرب من لمبيزي تذكر أحد الوثنيين الذي تهود، ويبدو أن اليهود قد بشروا باليهودية بين قبائل المنطقة على عكس زعمهم بعدم قيامهم بذلك، واستجاب لهم عدد كبير، ووصلت المجامع اليهودية إلى القيصرية التي وجدت بها طائفتان يهوديتان الأولى بتيبازة حيث وجدت بها آثار تعود إلى منتصف القرن الرابع الميلادي، ويرجح أنه مجمع يهودي قبل أن يتحول إلى كنيسة، والثانية بقيصرية التي ذكر بها اسم رئيس المجمع ومعه مجموعة من اليهود. [75]هذه السياسة اليهودية للتضييق على المسيحية التي كانت تنتشر أيضا بسرعة جعلت رجال الفكر المسيحي يشنون حملة ضد اليهود فذكر المحامي

[73]Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 3.
[74]Jennifer Patai et Raphael Patai, ***The Myth of the Jewish Race***.,66.
[75] عمران عبد الحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم –النشاة والتطور- (180- 430م)**، (قسنطينة، جامعة منتوري، 2010)، 69.

المسيحي ترتوللليانوس في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث أن من أشد الناس عداوة للمسيحيين في قرطاجة هم اليهود: **كل هو من خارج نطاق الكنيسة هم أعداءها، وخصوصا اليهود بسبب غيرتهم الشديدة لنا.** [76]**ويصفهم بأنهم لو اغتسلوا يوميا لما تطهروا لأن أيديهم ملطخة بدماء الأنبياء، وأساءوا إلى الرب نفسه** (أي حتى الرب لم يسلم من شرهم).[77]حتى أنه في بداية تجدده، واعتناقه المسيحية، كانت ترسم صور ساخرة للسيد المسيح وتعرض في شوارع قرطاجة، تصوره رجل بآذان حمار، وأقدام لها حوافر، يحمل كتاب ويلبس رداء التوقا منقوش عليها: رب المسيحيين يرقد في مربط حمار[78] ويقول ترتوللليانوس أن من يفعل مثل هذه الرسوم المسيئة هم اليهود.[79]وعلى الرغم من ذلك استمرت اليهودية في الانتشار حتى أعلن قسطنطين العظيم في عام 313 ميلادي بأن المسيحية هي الدين الرسمي لكل الإمبراطورية. وبذلك أنهى سياسة التسامح تجاه اليهود وبدأت أسس سلسلة من الإجراءات القمعية تجاه اليهود، جعلت من الصعب عليهم البقاء، والنجاح منفردين، هذه الإجراءات كانت معززة بواسطة مجادلات ضد اليهود من ترتوللليانوس والقديس كوبريانوس والقديس امبروز والقديس اوغسطينوس والقديس جون كريسوستوم وآخرين الذين كان اهتمامهم فقط منصب عن كشف النقاب عن اليهودية الغامضة في ذلك الوقت.[80]

الشواهد الأثرية والأدبية على زيادة المد اليهودي في قرطاجة الرومانية وما حواليها

كمية الأدلة التي بين أيدينا سواء المادية أو الأدبية بالنسبة للثقافة اليهودية في أفريقيا تكون محدودة جداً خصوصا إذا ماقورنت بغنى الأدلة الشاهدة على الوجود اليهودي في مصر أو إقليم قورينائية[81] حيث كوّن اليهود جاليات يهودية تُسمىpoliteuma وذلك ضمن سياسة التسامح التي اتبعها البطالمة مع الأقليات التي لا تتمتع بحق المواطنة، من منحهم كغيرهم من الجاليات نوعاً من الحرية في إدارة شئونها الخاصة.[82]حيث تمكن اليهود في الإسكندرية أو مدن إقليم قورينائية من تكوين مجتمعات خاصة بهم ذوات ثقافة إغريقية، وبفضل جالياتهم وبيعهم استطاعوا المحافظة على كيانهم الخاص. [83] كما أنهم تحصلوا على امتيازات ضريبية، وكذلك على حرية الاعتقاد وممارسة طقوسهم الدينية. وهذا يدل على أن الجاليات اليهودية التي انتشرت في العالم الإغريقي ومن بعده في العالم الروماني كانت تحظى باهتمام هذه الأمم. تعتبر معلوماتنا

---

[76]Tertullian,***Apologeticum,*** 7.
[77]Tertullian, ***De Oratione***, 14; ***De Baptismo***, 15.
[78] Stuart A. Donaldson, ***Church Life and Thought in North Africa 200 A.D.***, (Cambridge, 2013), 106 .
[79]Tertullian,***Apologeticum,*** 16; ***Ad Nationes***, 1, 14.
[80]Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 5.
[81]Claudia Setzer, **The Jews in Carthage and Western North Africa, 66-235 CE**, *The Cambridge History of Judaism: The Late Roman- Rabbinic Period*, Vol. 4, (Cambridge University Press,2006). 68
[82]الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، 74.
[83]عمران عبدالحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم**، 69.

الأدبية عن الشتات اليهودي في شمال أفريقيا ضعيفة جداً، ولكن وجودهم مثبت من خلال عدد كبير من الآثار والنقوش اليهودية التي تعود للفترة الرومانية.[84] يعزز ذلكوجود مقبرة يهودية كبيرة في قرطاجة في منطقة قمرت تقع على منحدر جبلي في الشمال الغربي لمدينة قرطاجة تحتوي على عدد كبير من القبور اليهودية.[85]التي تعود للقرن الثالث الميلادي وجدت بها رموز يهودية منقوشة كالشمعدانmenorah، والبوق اليهوديshofer وجريد النخيلlulav والاتروجة Etrog. كما عثر بهذه المقبرة على أعداد كبيرة من الأواني الخزفية، والآجر المطلي والمصابيح التي تزينها الشمعدانات. حجم المقبرة يوحي بأن المجتمع اليهودي كان معروفاً ومتميزاً عن بقية السكان. [86] كان الاعتقاد السائد أن هذه المقبرة مشتركة بين اليهود والمسيحيين، [87] ولكن عندما وجد ديلاتر يرمز الشمعدانmenorah المفضل لدى اليهود على بعض اللوحات التذكارية stelaiاعاد تسميتها باليهودية "juives".[88]

تحتوي مقبرة قمرت على أكثر من مائة قبر، كل قبر يحتوي على ما بين 15 إلى 17 مدفن ولكن لسوء الحظ أن الموقع لم يكتشف بالكامل. فقط المعروف من النقوش التي على القبور حوالي من 35 إلى 40 نقش. غالبية النقوش تعود للقرن الثاني والثالث على الرغم من أن أحدها ذو كتابة palaeography قديمة تعود لبداية الإمبراطورية. [89] وهذه النقوش المكتشفة في المقبرة والموجودة على القبور مكتوبة بلغات كاللاتينية والعبرية واليونانية. من بين هذه النقوش نقش مكون من اسم، وعبارة " نم بسلام" بلغتين اليونانية والعبرية (IJ no. 18). بينما الثلاثة النقوش الأخرى لديها كلمة Shalom مكتوبة بالعبرية(IJ nos. 4–22). كل هذه النقوش مزينة بالرموز اليهودية التقليدية الشمعدان ... هذه الرموز تظهر أيضا على بعض النقوش اللاتينية. واخيراً ست نقوش لاتينية أخرى وظفت العبارة اللاتينية "بسلام in pace من المحتمل أنها ترجمة للكلمة العبرية Shalom (IJnos,35,36, 48, 50, 51, 54, 57, 58). بقية النقوش لا تحتوي على إشارات محددة للرموز اليهودية. من بين أربعين اسم من الأسماء الموجودة على القبور، سبع وعشرين منها كتب باللغة اللاتينية (IJ nos. 20, 26–49, 51, 52, 56, 57)، وواحد باللغة اللاتينية وبألقاب عبرية (IJ no. 26)، وأربعة باللغة الإغريقية (IJ nos. 25, 35, 50)، وأربعة أسماء فقط باللغة العبرية (IJ nos. 18, 25, 28). كل الأسماء الإغريقية والعديد من الأسماء اللاتينية الواردة في هذه النقوش ربما كانت تطلق على أناس ذوي مكانة اجتماعية منخفضة كالعبيد والمتبنيين. فاسم سيدونيوس Sidonius بدون شك يشير لأصله (IJ no.

(84)Claudia Setzer, **The Jews in Carthage and Western North Africa.,** 68.
(85)Decret, F., &M.Fantar,***L'Afrique Du nordDansL'antiquite*,** (Paris, Payat,1981), 195.
(86)Claudia Setzer, **The Jews in Carthage and Western North Africa.,**68- 71.
(87)Rives, ***Religion and Authority*.,** 215.
(88)PèreDelattre, ***Gamartou La NecropoleJuive de Carthage***, (Lyon, 1895), 36.
(89)Rives, ***Religion and Authority*.,** 215.

26).[90] نقش آخر كتب على قبر اسم اسياتيكوس Asiaticus بن Annianos (Hanania) واسم Tiberieus باللغة الإغريقية وربما اسم Tiberias جاء من اسم منطقة موجودة في الجليل (IJ no. 28). هذه الأسماء والتي على شاكلتها يرجح أنها هجرات جاءت من فلسطين إلى قرطاجة.[91] كما عثر على مقبرة يهودية كبيرة في محيط مدينة قرطاجة بجبل الخاوي وجد بداخلها مائة سرداب محفور بالجبل عبارة عن قبور يهودية منقوش عليها رمز لشمعدان ذو السبع رؤوس. [92] تشير هذه الرموز إلى تمسك اليهود بالرمزية التقليدية الدينية اليهودية، كما تشير مقابرهم بارتباطهم الوثيق بوطنهم الأم والمدينة المقدسة. و يشير بير ديلاتري استناداً على تحليلاته أن مقبرة قمرت ليست يهودية فقط وإنما كذلك تعود لأصول فلسطينية في بداية المسيحية في شمال أفريقيا، وأن اليهود المسيحيون الذين سافروا من الأرض المقدسة إلى شمال أفريقيا مباشرة ، بعد موت المسيح نفسه. قد جلبوا معهم لاهوتهم وعاداتهم وتقاليدهم.[93] وهم من أوجدوا البدايات الأولى للتقاليد اليهودية في شمال أفريقيا التي استمر وجودها إلى يومنا هذا. [94]الغريب أن مقبرة قمرت اليهودية والتي تعود إلى الفترة الرومانية تتشابه كثيرا في عملية الدفن التي كانت متبعة في فلسطين، وتبين أن المقابر يهودية بسبب رمز الشمعدان ذي السبع فروع المفضل لدى اليهود. [95] وهذه الأدلة الأثرية التي سبق وأن ذكرناها تؤكد أن اليهود لم يظهروا كمجتمع مميز قبل القرن الثاني الميلادي [96]وحتى التابوت الحجري اليهودي الذي عثر عليه في قرطاجة ووجدت عليه نقوش تعود للقرن الثالث قبل الميلاد، لا يعتبر دليل قوي على الوجود اليهودي كمجتمع، لأن الفينيقيين ربما استوردوه من الشرق بحكم العلاقات التجارية القوية لديهم.[97]حتى نصوص القرن الأول التي ذكرت مواقع اليهود سواء الدينية مثل أعمال الرسل[98] الذي ذكرت مدينة قوريني في ليبيا. أو الأعمال الأدبية مثل أحد أعمال فيلو السكندري[99] الذي تعرض لذكر مدينة الإسكندرية في مصر وذكر منطقة Catabathmos (خليج السلوم) وإقليم قوريني الذي يحدهما جنوبا اثيوبياEthiopia، لم يأت على ذكر يهود في قرطاجة ولا حتى في أفريقيا.[100]حتى القرارات التي أصدرها الإمبراطور أغسطس فيما يخص الإمبراطورية: مثل الضرائب وحق المواطنة في إقليم قورينائية والجالية

---

[90]Rives, ***Religion and Authority.***, 218.
[91]Rives, ***Religion and Authority.***, 219.
[92]عمران عبدالحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم**، 69.
[93]PèreDelattre, ***Gamartou La NecropoleJuive de Carthage***., 49.
[94]Karen B. Stern, ***Inscribing Devotion and Death Archaeological Evidence for Jewish Populations of North Africa,*** Religions in the Graeco-Roman World, Vol. 161, (Leiden)
[95]PèreDelattre, ***Gamartou La NecropoleJuive de Carthage***., 36.
[96]Claudia Stezer, **The Jews in Carthage and Western North Africa.,** 69.
[97]Rives, ***Religion and Authority.***, 216.
[98]**أعمال الرسل** 2: 10.
[99]Philo, ***Flaccus***, 6.
[100]Frank E. Romer,***PomponiusMela's Description of the World*****,** (University of Michigan Press, 1998), 46.

اليهودية فيها، لم تتطرق إلى الجالية اليهودية في إقليم المدن الثلاث أو قرطاجة، وهذا يؤكد عدم وجود اليهود هناك كجالية أو هيئة مستقلة، كما لا توجد أي إشارة إلى أن أي من اليهود في قرطاجة وما حواليها قاموا بدفع ضريبة الهيكل وأرسلوها إلى أورشليم، وليست هناك إشارات تاريخية تشير إلى أنهم شاركوا في ثورات اليهود من عام 66–115 ميلادي.[101] هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن اليهود ربما وصلوا إلى قرطاجة البونية في الفترات المبكرة من التاريخ، حيث أشار إلى ذلك المؤرخ يوسيفوس [102] لكن من المحتمل أن هذه الأعداد الصغيرة من اليهود لم تشكل مجتمعا بالمعنى المفهوم للمجتمع.[103]وأنهم أتوا إلى قرطاجة على شكل أفراد أو على هيئة جنود مرتزقة أو تجار ينقلون السلع من مكان إلى آخر أو يمارسون التجارة في الموانئ. هذا الظهور المفاجئ لليهود في الفترة الإمبراطورية من خلال الأدلة المادية المؤكدة، يجعلنا نفترض أن اليهود عاشوا كجماعة منظمة في شمال أفريقيا فقط في العصر الروماني ربما أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي، خصوصاً إذا علمنا أن أقدم مجمع يهودي synagogue موجود في منطقة حمام الأنف بالقرب من جبل بوقرين بتونس مؤرخ بأواخر القرن الرابع ميلادي.[104]كما أن تواجدهم على شكل أفراد وليست تجمعات أو جاليات في الفترة البونية، يعود إلى عدم وجود الفارق الثقافي والاجتماعي بينهم وبين الفينيقيين، عكس ما حدث بين اليهود وبين الإغريق المتواجدين في إقليم المدن الخمس من نزاع وفتنة انتهت بحرب بينهم.[105]كما أن حجم مقبرة قمرت والظهور المفاجئ لها؛ ربما يقودنا إلى الرواية التي تقول أن القائد تيتوس (قائد بارز قبل أن يصبح إمبراطورا 79–81) بعد تدمير مدينة اورشليم وتدمير المعبد الثاني في عام 70 ميلادي أسر عدد ثلاثين ألف يهودي تم نقلهم من فلسطين في الشرق لشمال افريقيا في الغرب وانتشروا على شمال أفريقيا بعد أن حررهم رجال دينهم من الاستعباد لذلك اتخذ هذا الرقم الكبير افريقيا ملجأ لهم فيما بعد، بعد أن ذاقوا الأمرين في بلدهم.[106]

من خلال المعطيات الأثرية تبين أن اليهود كان لديهم نشاط اقتصادي واسع في الإمبراطورية، فقد مارسوا العديد من الحرف والصناعات وامتهنوا التجارة. حيث اشتغل اليهود بالقطاعات الحرفية داخل المدن حيث تم العثور على نقش لاسم يهودي اشتهر بصناعة المصابيح بمدينة حضرموت "سوسة حاليا" والمسمى ب ساباتيكوس Sabbaticus وكانت منتجاته منتشرة في منطقة واسعة وصلت إلى حدود الجم والقيروان. وبسبب المزايا التجارية التي قدمها الرومان لهم ساهم ذلك في إثرائهم. حيث عثر على اهداءات مقدمة من

---

(101) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**،100-104.
(102) Flavius Josephus, ***Contra Apion***, 2.16.
(103) Rives, ***Religion and Authority.***, 217.
(104) Claudia Stezer, **The Jews in Carthage and Western North Africa.**, 68.
(105) الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، 84-85.
(106) Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 4.

أشخاص لمجمع حمام الأنف تمثلت في تبليط أرضيات ورسومات جدارية زينت المجمع من الداخل، ومن خلال حجم الأنفاق هذا يبين أن المنفقين كانوا ينفقون بسخاء على أماكن العبادة، وهذا يشير بطبيعة الحال على نمط حياتهم الاقتصادية التي تميزت بالرخاء إما تجاراً أو حرفيين. [107] وتشير العديد من النقوش والتي يعود اغلبها إلى العهد السويري 193–235 ميلادي[108] إلى حصول اليهود على دعم هذه الأسرة التي كانت ذات أصل أفريقي وثقافة سامية وكانت تدعم اليهود والتاريخ اليهودي، لذلك عاش اليهود فترة من الازدهار في عهد هذه الأسرة فقد كانوا قادرين على نشر معتقداتهم في كافة أنحاء الإمبراطورية بدون أية قيود وخصوصا بين القبائل الأمازيغية. هذا القانون السخي – قد توقف فقط خلال أوقات الاضطهاد الشديدة– ضمن لليهود كل حقوق ومزايا المواطن اليهودي، وحتى كانوا معفيين من كل الواجبات التي ربما تتعارض مع طقسية إيمانهم اليهودي. وتحصلوا على الدعم لتعهد التجارة التي تعتبر مهنة رئيسة التي لا يستحقها اليهود الذين ولا تليق بهم لأنهم من عامة الناس، لأن ذلك يحتاج إلى أشخاص نافذين ومن طبقات عليا ولديهم dignitas الذي يوفر لهم الدعم والتغطية الاجتماعية.[109]

ختاما: لا نصوص دينية أو أدبية، ولا نقوش أو أدلة أثرية تدعونا نفترض أن اليهود سكنوا شمال أفريقيا في فترة ما قبل الميلاد كجالية أو كمجتمع مميز. إلا أن علاقات وتعاون كانت قائمة في شرق المتوسط بين سكان فلسطين "الكنعانيين"و سكان الساحل اللبناني"الفينيقيين"وبنو إسرائيل ،في المجال التجاري و الاقتصادي وكذلك الثقافي. وصلت ذروته في الألف الأول قبل الميلاد نتج عنه رحلات مشتركة بين بني إسرائيل "اليهود" والفينيقيين إلى مصر والبحر الأحمر وشمال أفريقيا. وبما أن الفينيقيين لم يكونوا شرسين بل كانوا أقواما يطلبون السلم حيثما كانوا لتمرير تجارتهم وبيع بضاعتهم . فهم كانوا يكوّنون علاقات مهمة وقوية مع الشعوب التي جاءوا إليها. ولا ادل على قوة الثقافة الفينيقية أنها انتشرت في المدن التي على الساحل بل تغلغلت في المناطق الداخلية للشمال الأفريقي، واستمرت هذه الثقافة حتى بعد زوال الحضارة القرطاجية بخمسمائة سنة. بعكس الحضارة والثقافة الرومانية التي جوبهت بمقاومة شديدة من الأهالي المقهورين الرافضين للقوة والقسوة التي كانت تمارسها روما تجاههم.

تعرضت اليهودية للإبادة عدة مرات على مر التاريخ، مما جعل اليهود يفكرون ملياً في نشر فكرهم ودينهم والتخلي عن نظرتهم التعصبية والعرقية فذهبوا بإرثهم الديني إلى أماكن بعيدة ونائية عن مراكز السلطة الرومانية للحفاظ على ما تبقى من هذا الميراث من الاندثار ومقاومة خطر الإبادة، كالأم من خوفها على

[107] عمران عبدالحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم**، 69.
[108] Claudia Stezer, **The Jews in Carthage and Western North Africa.**, 68.
[109] Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***., 4.

وليدها تخبأه في أماكن بعيدة. كالعائلة التي تخاف على نفسها من الانقراض فتحث أفرادها على التناسل والتكاثر مغبة الاندثار. فالفكر اليهودي بعد السبي البابلي انتقل باليهودية من الإطار الميتافيزيقي الغيبي إلى الإطار العملي. أعادت الديانة اليهودية استبدال الرب المعبود بالمجتمع لجعل الناس أكثر قدرة على رؤية أهمية الدين في حياتهم وأكثر قدرة على التمييز بين المقدس والدنيوي، وأن الشعائر التي يقوم بها المتدينون والمعتقدات التي يتمسك بها لا غنى عنها من أجل زيادة التماسك الاجتماعي فضلا عن التضامن الاجتماعي. تعزز ذلك بالوطن"أرض الميعاد" التي أصبحت رمزية للشعب اليهودي، فرمزية اليهود "الأرض"التي تمحور حولها يهود العالم، والقبلة التي كانوا يُصلّون إليها.وما الاشتراكات التي كان يرسلها اليهود لأورشليم إلا رسوماً للمواطنة والهوية اليهودية. كان علماء اليهود يسعون لتأسيس فكر ديني– وليس لمجرد شعائر وطقوس– يستطيع أن يعيش في أي مكان وتحت أي ظروف، يقاوم التغيرات، مواكبا للأحداث التاريخية ويتعاطى معها، لا ينطبق عليه قانون الفناء أو الانقراض الذي يجري على الأمم وسائر الكائنات العضوية، ينتقل بحرية من مكان لآخر. يجمع كل يهود العالم بغض النظر عن جنسياتهم وألوانهم وأماكن إقامتهم، يهدف لنصر نهائي وسيادة اليهود.فبدأت اليهودية تتنصل من عرقيتها وديانتها القومية المتعصبة إلى الفكرة الكونية أو العالمية لتصبح منافساً قوياً للديانة المسيحية التي تؤمن بالعالمية، وهذا بالتالي أدى إلى زيادة التبشير في أنحاء متفرقة من العالم الروماني خصوصا في شمال أفريقيا لقطع الطريق أمام المسيحية التي كانت تنتشر بسرعة.

المصادر والمراجع :

أولاً المصادر الأدبية:

أ- المصادر العربية

- الكتاب المقدس (أسفار العهد الجديد) : **سفر أعمال الرسل.**
- الكتاب المقدس (أسفار العهد القديم) : **سفر الأخبار الثاني،سفر التثنية،سفر التكوين، سفر الملوك الأول، والثاني،سفر يشوع.**
- الرواية الشفوية (التلمود) : **المشنا**

ب- المصادر الأجنبية

- Augustinus: ***Epistula*** XVII.
- Cassius Dio: ***Roman History, Epitome of book*** LXVIII, LXIX.
- Flavius Josephus: ***AntiquitatesJudaicae,Contra Apion,De Bello Judaico.***
- Philo: ***Flaccus.***
- Procopius: ***The Vandalic War***.
- Suetonius: ***De Vita Caesarum –Domitianus***.
- Tertullian: ***Apologeticum,Ad Nationes,De Baptismo,De Oratione.***

ثانيا المراجع:

أ- المراجع العربية

- إبراهيم عثمان، قبس النوري، **التغير الاجتماعي**، (القاهرة، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، 2010).
- الطيب محمد احمادي، **اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني**، (بنغازي،
- منشورات جامعة قاريونس، 2008).
- توماس تومسن، **أسفار العهد القديم في التاريخ، اختلاق الماضي**، ترجمة عبدالوهاب علوب، (المجلس الأعلى للثقافة، 2000).
- حسين محمد يوسف، **نماذج من تراث العداء الذاتي اليهودي من خلال ما دونه يوسف عن الحرب اليهودية الأولى**، الآخر في الفكراليهودي، (مصر، دار العلوم).
- خالد أبوشرخ، **معاداة اليهود دلالات المصطلح**، الحوار المتمدن، (2011).
- زيدان عبد الباقي، **علم الاجتماع الديني**، (مكتبة غريب، 1981).
- سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة السيد يعقوب بكر، (بيروت، دار الراقي، 1986).
- سيد فرج راشد، **السامريون واليهود**، (الرياض، دار المريخ).

- عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، المجلد الثاني، (القاهرة، دار الشروق، 1999).
- عمران عبدالحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم – النشاة والتطور– (180– 430م)**، (الجزائر، قسنطينة، جامعة منتوري، 2010).
- فراس السواح، **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم**، (دمشق، دار علاء الدين، 1997).
- كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطيني**، ترجمة سحر الهنيدي، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978).
- هاني عبدالعزيز السيد جوهر، **اليهود في فلسطين في العصرين البطلمي والسلوقي**، (مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2005).
- ه. ج. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، المجلد الثاني، (الهيئة المصرية العامة للكتاب).

ب– المراجع الأجنبية:

- Christopher Q Quin, **The Qrowing Split between Synagogue and Church in the 1st Century**, *The FiscusJudaicus*, (2009).
- Claudia Setzer, **The Jews in Carthage and Western North Africa, 66-235 CE**, *The Cambridge History of Judaism: The Late Roman- Rabbinic Period*, Vol. 4, (Cambridge University Press,2006).
- Decret, F., &M.Fantar***,L'Afrique Du nordDansL'antiquite,*** (Paris,
  - Payat,1981).
- E. Mary Smallwood, ***The Jews under Roman rule: from Pompey to Diocletian: a study in political relations***, second edition, (Leiden Brill, 1981).
- Emma Klein, ***Lost Jews: The Struggle for Identity Today***, (Palgrave Macmillan, 1996).
- Frank E. Romer,***PomponiusMela's Description of the World,*** **(**University of Michigan Press, 1998).
- H. Jacob Katzenstein& S David , **Encyclopedia Judaica: Phoenicia Phoenicians**, *Jewish Virtual Library*, (The Gale Group, 2008).
- J. B. Rives**, *Religion and Authority in Roman Carthage from Augustus to Constantine***, (Oxford,1995)**.**
- Jennifer Patai et Raphael Patai, ***The Myth of the Jewish Race***, (Wayne State University Press Detroit, 1989).
- Karen B. Stern, ***Inscribing Devotion and Death Archaeological Evidence for Jewish Populations of North Africa,*** Religions in the Graeco-Roman World, Vol. 161, (Leiden).
- Leonard Victor Rutgers, **Roman Policy towards the Jews: Expulsions from the City of Rome during the First Century C.E.**, *Classical Antiquity*, Vol. 13, No. 1 (University of California Press, 1994).
- Miriam Greenblatt, ***Human Heritage: A World History***, (McGraw-Hill Glencoe, 2000).
- Père Delattre, ***Gamart ou La Necropole Juive de Carthage***, (Lyon, 1895).

- Peter Schafer, ***Judeophobia***: ***Attitudes toward the Jews in the Ancient World***, (Harvard University Press, 1997) .
- Peter Schafer, ***The History of the Jews in the Greco- Roman World***, (Routledge, 2003).
- Robert Louis Wilken, **Jews as the Romans saw them**, *First Things*, (2008).
- Sarah Taieb- Carlen, ***The Jews of North Africa from Dido to de Gaulle***, translated by: Amos Carlen, (University Press of America, 2010).
- Stuart A. Donaldson, ***Church Life and Thought in North Africa 200 A.D.,*** (Cambridge, 2013).

الصادرات الجرمنتية من خلال النصوص الأدبية والمخلفات الأثرية

إعداد :
د. فاطمة سالم العقيلي .
عضو هيئة تدريس بجامعة بنغازي .

تمهيد:

الجرمنت، أو "الجرمنتس"، أو "الجرميون"، هم قبائل ليبية استوطنت الجنوب الليبي وتحديداً منطقة "فزان"، وكان "هيرودوتوس" أول من تحدث عنهم كونهم يستوطنون إقليم البدو الرعاة الداخلي حيث أشار إليهم كقبيلة كبيرة العدد والعدة تمارس الزراعة والتجارة، كما ذكرهم الجغرافي "سترابو" وحدد موطنهم علي مسافة عشرة أيام من "أوجلة"، ولم تتضح صورة موطن "الجرمنت" في العالم القديم إلا في القرن الأول الميلادي، ومن خلال المؤرخ الروماني "بللينى"، وذلك من خلال وصفه للحملة الرومانية التي شنها الرومان بقيادة القائد الروماني "كورنيلوس بالبوس"، ومن خلال الوصف الذي قدمه "بللينى" تعرفنا علي عاصمة "الجرمنت"، وهي "جرمة"، كما ورد ذكر أكثر من ثلاثين مدينة وقبيلة كانت كلها امتداداً للجرمنت. .

لقد كشفت الآثار علي أن أول مستقر للجرمنت كان في جبل "زنككرا"، ويعود ذلك إلي الألف الأول ق م، ولكنهم ومع بداية القرن الأول ق م كان "الجرمنت" مستقرين في بطن الوادي بعد تأسيس عاصمتهم "جرمة" .

وعن أصل "الجرمنتس" تعددت الآراء الحديثة حولهم، بين قائل إنهم من شعوب البحر التي تراجعت إلي الصحراء واستقرت داخل إقليم فزان، في حين يري فريق آخر أن أصلهم من فلسطين، في حين يرجح فريق ثالث أنهم من واحة "سيوة"، وقد فروا منها بعد قدوم الحملة الفارسية إليها، في حين يري فريق رابع أن "الجرمنت" هم من أصل ليبي، وذلك استناداً علي أوجه الشبه بينهم وبين سكان الصحراء الغربية في مصر، أو إلي التشابه الواضح بينهم وبين الطوارق .

لقد سمحت لنا المصادر الكلاسيكية بمعرفة شي من عاداتهم وتقاليدهم، ولكن الحفريات الأثرية التي بدأت ربما منذ خمسينيات القرن السابق، كشفت عن الكثير مما كنا نجهله عنهم، وبعد حفرياتٍ عدة منها حفريات "محمد سليمان أيوب" و "تشارلز دانيلز" و"الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية"، يعكف عالم الآثار البريطاني "ديفيد ماتنجلي" وفريقه، ومن خلال منحةٍ علمية ممولةٍ من الاتحاد الأوربي، علي دراسة آثار ومخلفات "الجرمنت" من خلال مشروعٍ كبير عرف باسم The archaeology of Fazzan 2003 ثم The archaeology of Fazzan 2007.

ركزت أعمال المسح والتنقيب الآثارية التي قام "ماتنجلي" بتنفيذها في وادي الآجال وهو الوادي الوسط من حزام الواحات الثلاث الأساسية التي تؤلف فزان، والمعروفة بكونها قلب أرض الجرميين وتضم عاصمتهم في مدينة "جرمة"، "جاراما" سابقاً.

كما أجرى "ماتنجلي" كذلك أعمال مسح آثاري في وادي الآجال، والتي ألقت الضوء على السر الغامض لمواقع الإقامة الجرمية، والتي ظل مشكوكاً فيها مع الجبانات العديدة الهائلة على امتداد جرف السلسلة الجبلية. يشير الكشف عن العديد من مواقع الإقامة في مركز الوادي التي تعود إلى تاريخ "جرمة"، والمؤلفة من قرى نووية وقد قدر "ماتنجلي" بأن الحد الأقصى للسكان تراوح بين100/50 ألف نسمة.

وقد أسفرت النتائج الأولية لهذا المشروع عن معلومات غاية في الأهمية، لخصها "ماتنجلي" بقوله: ((إنه، وبفضل البراعة البشرية للجرمنت، وضد كل الصعاب تمكن سكان أكبر صحاري العالم من إنشاء حضارة مزدهرة وناجحة في واحدة من أكثر المناطق البرية جفافاً، وأشدها حرارةً علي الأرض. لقد أحب الرومان النظر إلي الجرمنت علي أنهم من الليبيين البسطاء، ولكن كل الأدلة الجديدة تضع الأمور في نصابها الحقيقي وتبينهم بأنهم كانوا أولئك المزارعين الرائعين، والمهندسين أصحاب الحيلة والتجار المغامرين الذين انتجوا حضارةً رائعة)).

وتسهيلاً لهذه الدراسة سوف يكون التركيز في هذه البحث علي جزئية محددة في الجانب الاقتصادي ألا وهي التجارة، حيث سنبحث تحديداً في الصادرات الجرمنتية من خلال النصوص الأدبية والمخلفات الأثرية.

أولا : العلاقات الجرمنتية التجارية .

1_ العلاقات الجرمنتية بالقبائل الليبية :

ارتبط الجرمنت بعلاقات تجارية منذ وقت مبكر مع من جاورهم من القبائل الليبية (1) سواءً القبائل الواقعة علي الساحل أو الداخل (2)، ولا شك أن الأمر في البداية اقتصر علي التبادل التجاري البسيط من سلع مصنعة محلياً، ثم تطورت تلك السلع بعد احتكاك القبائل بغيرها من الشعوب سواءً في المنطقة المجاورة ــ أي المصريين والقرطاجيين، أو منطقة البحر المتوسط، وبالتالي تم جلب العديد من البضائع المصنعة خارج المنطقة (3).

لقد أكدت العديد من الشواهد التاريخية علي وجود علاقة بين الليبيين _ وخاصة إقليم قورينائية وسكان جزر البحر المتوسط وتحديداً كريت ــــــــــ (4)، كما عُثر في "كريت" علي قلائد من العاج والتي شُكّلت علي هيئة قردة وأختام عاجية، بالإضافة إلي بيض النعام الذي كُشف عنه في مقابر الأتروسكيين (5).

ومن الدلائل علي التواصل الحضاري أيضاً، ظهور السيوف البرونزية عند الليبيين في حروبهم ضد المصريين زمن الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر(6)، حيث ذكر عن الفرعون المصري "مرنبتاح" استيلاؤه علي ما لا يقل عن 9111 سيف برونزي من الليبيين(7)، بالإضافة إلي العربات التي ظهرت لاحقاً عند الجرمنت، والمصنوعة من الحديد(8)، ومن المعروف أن البرونز والحديد معادن لم تتوفر في ليبيا (9)، وفي السياق نفسه يشير أحد الباحثين إلي أن "الاسلوب الطائر"، أو "العدو الطائر" والذي ظهرت به العربات في موطن الجرمنت علي الرسوم الصخرية، يشير إلى أن هذا النوع من الرسم لا يوجد سوي في الحضارة المينوية في كريت"(10) .

لقد تحدث "هيرودوتوس" عن الخط التجاري الصحراوي _ وسط الصحراء _الذي امتد من مصر وتحديداً في "ممفيس" بمصر والممتد حتى سواحل الأطلسي(11)، وهو خط تقع محطاته التجارية على مسافة كل عشرة أيام من المسير، ولاشك أن هذا الخط التجاري قد ساهم في التبادل التجاري بين القبائل. ومن جهة أخري لم يصلنا أي شي من المصادر يشي بحدوث صدامات بين القبائل الليبية بل علي العكس، كثيراً ما نجدها تدخل في تحالفات ومواثيق فيما بينها، وقد حدثنا "هيرودوتوس" علي اسلوب التعاهد والميثاق عند

"النسامونيس"(12)، كما أشارت المصادر أيضاً إلي التحالفات التي تعقدها فيما بينها لدفع أخطارٍ تهددها، أو لشن حروبٍ علي عدو لها مشترك، ولعل أقوي هذه التحالفات ما كان بين قبيلة النسامونيس (Νασαμῶνες) والمكاي(Μακαι) (13)، وما بين الجرمنت والمارماريدي (Μαρμαρίδης) (14).

2_ العلاقات الجرمنتية القرطاجية :

لا نستطيع تحديد تاريخ محدد لبدء العلاقات القرطاجية الجرمنتية، إذ نعلم واستناداً إلي فقرة من جستين (Justin) أن "قرطاجة" قد بسطت نفوذها علي المناطق الواقعة إلي الغرب منها في القرن السادس ق م (15)، كما أن "استرابو"(Στράβων) قد أورد ما يدعم ذلك حيث تحدث عن تأسيس مالا يقل عن ثلاثمائة مدينة فينيقية علي ساحل "موروسيا" الغربي، وهي المنطقة التي أسماها "امبوريكوس" (Εμπορικος)، أي التجاري، وقد دمرت هذه المدن لاحقاً علي يد قبائل الفاروسين (Φαρουσιοι) والنغريتي (Νιγριται)في موروسيا (16).

ويبدو أن توسع قرطاجة علي السواحل الغربية منها وصولاً إلي منطقة الأطلسي قد ترافق مع بسط نفوذها علي السواحل الشرقية منها، وتحديداً علي المدن الثلاثة وصولاً إلي منطقة ساحل سرت الغربي (17) ، ويبدو أن ذلك قد تم في أعقاب قضاء قرطاجة علي المحاولة الاستيطانية التي قام بها المغامر الاسبرطي دوريوس (Δωριεύς) في "ليبيا"، وقيامه بإنشاء لمستعمرة علي نهر كينيبس (وادي كعام) (18) .

ورغم أن هناك من ينفي علاقة قوريني بمحاولة تأسيس المستعمرة، وأنها كانت مغامرة فردية لقيت دعماً من ثري منفي في مدينة "أبولونيا" يدعي "فيليبوس ابن بوتاكيدس"، وقد دعم هذه المحاولة بالمال والسفن (19)، فأن الثابت ومن سياق الأحداث أن قرطاجة كانت تنظر إلي هذه المستعمرة بمثابة خطر محدق بمناطق نفوذها، ولأنها ما كانت لتقبل بامتداد رقعة التواجد الإغريقي حتى يجاور مناطق نفوذها، لهذا جاء استنجادها بقبيلة المكاي وما جاورها من قبائل ،بمثابة فرصة للقضاء علي هذا الخطر الإغريقي، وفعلاً تم ذلك بعد مرور سنتين فقط علي إنشاء هذه المستعمرة، أي في حدود عام 512 ق م(20)، ويؤكد "أكصيل" أن قرطاجة قد فرضت نفوذها علي الساحل الشرقي منها واعتبرته منطقة نفوذ خاصة بها" . (21)

لقد حمت قرطاجة مناطق نفوذها في المنطقة، وأبعدت أي خطر يهدد مصالحها التجارية، وقد وصلنا أنه في عام 509 ق م. وقعّت قرطاجة مع روما معاهدة جددتها عام 348 ق م (22)، وقد نصت المعاهدة علي تحديد مسار السفن الرومانية أثناء المرور بالأقاليم الخاضعة لقرطاجة، وقد اتفق الطرفان علي أنه لا يجوز للرومان ولا لحلفائهم أن يتجاوزوا الرأس الجميل (رأس علي المكي بتونس) إلا لأسبابٍ اضطراريةٍ كالعواصف أو الاحتماء من القراصنة أو الأعداء، وأنه لا يجوز للقادمين إلي السواحل القرطاجية أن يقوموا بشراء أو اقتناء أي شي إلا ما كان ضرورياً لترميم سفنهم أو إصلاحها، أو لإقامة الشعائر الدينية. وعلي كل الأحوال لا يحب أن يبقوا أكثر من خمسة أيام.(23)

لقد أكد نص سالوست (Sallust) علي ما سبق، فقد أشار إلي حدوث حروب عديدة ، بين قرطاجة وقوريني ، وكل ذلك من أجل السيطرة ومد نفوذها علي حساب الآخر، وكانت منطقة ساحل سرت

الكبير (Μεγάλη Σύρτις) محوراً للصراع، والذي لم ينته إلا بتحديد النفوذ بينهما بواسطة سباق العدائين(24).

كما حرصت قرطاجة علي استقطاب هذه القبائل، خاصة قطبي منطقة "السرتيس"، وأقصد النسامونيس والمكاي، حيث عقدت تحالفات معهما، ودعمتهما، كما استخدمتهما في ضرب أعداءها في المنطقة، أي إغريق قورينائية، وقد دلل علي ذلك نقش موجود في قوريني خلّد انتصار خمسة قادة عسكريين إغريق علي تحالف النسامونيس والمكاي، والملفت في هذه الحرب أنها كانت حرباً بحرية مما يؤكد علي تورط قرطاجة فيها (25).

من جهةٍ أخري ارتبطت قرطاجة بالقبائل الليبية الواقعة إلي الداخل، حيث حرصت علي التحالف مع قبائل الجرمنت كونها أقوي القبائل الداخلية، ولم تحاول أن تفرض نفوذها بالقوة عليها، ولعل هذا ماقوي روابط التحالف بين الطرفين والارتباط التجاري بينهما، حيث كان الجرمنت سادة التجارة الصحراوية، واكتفت قرطاجة بدور الموزع لهذه السلع (26)، وحقيقة كان هذا الاسلوب منهجاً عند القرطاجيين، وهو ما تجسد في التجارة الصامتة التي تحدث عنها هيرودوتوس، فطالما كانوا يتحصلون علي سلع التجارة لم يحاولوا فرض نفوذهم علي الشريك التجاري لهم (27).

ومن دلائل التحالف القرطاجي الجرمنتي أن "إثينايوس" (Ἀθήναιος) قد ذكر سفر تاجر قرطاجي يدعي ماجو(Μαγο)مع قوافل الجرمنتية ثلاث مرات(28)، ولم يقتصر التحالف علي التجارة فقط، بل كان أيضاً تحالفاً سياسياً وعسكرياً(29)، وفي هذا الصدد أكدت مصادرنا الأدبية دعم الجرمنت لقرطاجة في كل حروبها ضد الرومان، حيث أورد بولبيوس(Πολύβιος) أن الجرمنت كانوا ضمن تركيبة هانيبال (30)، كما أن "سليوس اتاليكوس" (Silius Italicus) تغني بمشاركة القبائل الليبية ومن بينها الجرمنت في الحرب البونية الثانية (31).

وعند محاولة تصور سلع التجارة التي تاجر بها الجرمنت مع قرطاجة، فأن أول شي ذكرته المصادر هو حجر "الكاربونيكل" (carbuncle)(32)، بالإضافة للجلود والحيوانات والذهب(33)، وبمعني آخر نقلوا كل ما كان يتم تسويقه عبر قرطاجة، وما كان متوفراً لديهم والأسواق العالمية آنذاك تطلبه .

3_ العلاقات الجرمنتية الرومانية :

عند الحديث عن العلاقات التجارية التي ربطت الجرمنت، فأننا نجد أن الجرمنت قد وجدوا أنفسهم وعقب تدمير قرطاجة عام 146 ق م.(34)، وقد فقدوا أقوي حليفٍ تجاري لهم في المنطقة، ويبدو أن الجرمنت، ولمعرفتهم السابقة بسياسة الرومان ومنهجهم المعادي، قرروا انتهاج سياسة تمثلت في اتجاهين متوازيين، الأول : تدعيم ارتباطاتهم التجارية مع المدن الثلاث، أما الثاني فقد تمثل في التحالف مع القبائل الليبية المجاورة وعلي رأسها النسامونيس والجيتولي ودعمها في صراعها مع الرومان، كذلك دعم كل من يخرج علي الرومان، وبمعني آخر كان الهدف الأول والأساسي للجرمنت هو إبعاد خطر الرومان عن موطنهم وإشغالهم بحروبٍ ومنازعاتٍ مع قوي أخري .

ويمكن أن نجمل الأسباب التي أدت إلي الصراع ما بين الرومان والجرمنت بالاتي :

1_ تعد سياسة الاحتلال وفرض الهيمنة الرومانية من أولي أسباب الصراع بينهم وبين الجرمنت خاصة والقبائل الليبية عامة، لقد كان الرومان يعتبرون أنه وبحق الاحتلال كان يجوز لهم استعباد وإخضاع ما عداهم من الشعوب، وقد تلقت القبائل الليبية عامةً أسوأ معاملة، خاصة تلك الرافضة لاحتلال الرومان، ووفقاً للقانون الروماني صنفت القبائل في خانة "الغرباء" أو الأجانب (pérégrins déditices).(35)، وهم بنظر الرومان "الرعايا الخاضعين والمهزومين بقوة السلاح" .

2_ العداء الشديد الذي نتلمسه في المصادر الرومانية تجاه كل ما هو غير روماني، وفي هذا المجال تحضرنا هنا خطبة الأمير النوميدي "يوجرثا" (Jugurtha) في جيشه، ولأجل استمالة صهره "بوكوس" ملك "المور"، حيث قال : ((إن الشعب الروماني شعب ظلوم، وبخله لا حدود له، وهم أعداء البشرية، وأنهم يحاربونه هو وأمم أخري بجيوشهم لسببٍ واحدٍ هو رغبتهم في التسلط، الأمر الذي جعلهم خصوماً لكل الدول، اليوم أنا وبالأمس القريب القرطاجيين، والملك "بيرسي"، وغداً كل من يتبينون أنه الأغنى سيكون عدوهم)).(36)

3_ كثيراً ما جسدت النظرة الرومانية في المصادر قدراً كبيراً من التحامل علي الجرمنت ووصفتهم بأوصافٍ منها "شرسون"، "همجيون" يغيرون علي غيرهم يردمون آبار الصحراء يتجنبون الحديث عن موطنهم؛ كما يصفوهم بكونهم يعيشون في مشاعية جنسية فلا يعرفون مبدأ الزواج، كما يسيرون عراةً (37)، ويقول "ديفيد ماتنجلي" إن ما كشفت عنه الحفريات يؤكد مدي التحامل الشديد الذي طال الجرمنت من قبل الرومان (38).

4_ تعد الضرائب الرومانية علي القبائل ومحاولة تحصيلها قسراً من أولي الأسباب إلي اندلاع الثورات الكبرى من قبل القبائل الليبية، وقد شمل ذلك الجرمنت، ومن المعروف أن الرومان لم يتركوا أي شي إلا ووضعوا عليه ضرائب في كل الأقاليم التي احتلوها، ولم تكن التجارة بمعزل من ذلك، وبناءً علي ما ذكرته المراجع فقد فرضت ضرائب علي بيع العبيد قدرت 5% (39)، وكان هناك ضريبة مضاعفة في حالة بيع العبيد في روما(40)، كذلك كانت هناك ضريبة علي بيع الملح (41)، وعلي بيع الجلود وبيع الحيوانات(42)، والمفارقة أن كل ما سبق كان من ضمن صادرات الجرمنت .

لقد تفجر الصراع الجرمنتي الروماني في بداية العصر الإمبراطوري، وتحديداً في عصر الإمبراطور "أوغسطس"، حيث جرد الرومان حملة عسكرية في الرابع الأخير من القرن الأول ق م. وتحديداً عام 19 ق م. ضد الجرمنت بقيادة القائد الروماني "كورنيليوس بالبوس"، والذي انطلق من المدن الثلاث علي رأس جيشٍ اتجه صوب الجنوب الليبي، وذلك بقصد تحقيق أهدافٍ منها تأديب القبائل الجرمنتية لدعمها ثورة قبائل الجيتولي، ولكسر شوكتهم بعد أن أصبحوا قوةً لا يستهان بها. ومحاولة السيطرة علي منابع التجارة الصحراوية وكسر احتكار الجرمنت لهذه التجارة (43).

لقد ذكر بللييني _ وهو مصدرنا الوحيد عن هذه الحملة _ مالا يقل عن ثلاثين مدينة وقرية وقبيلة. ومن المدن ذكر فزانيا (Phazania) واليلن(Alelen) وكليبا (Cillibam)وكيدامس (Cidamum).كما ذكر قبائل

مثل نيتريس(Niteris)وفيبابو (Bubeium)قبيلة انيبي (Enipi) وتاميجاي (Tamiagi).كما ذكر أيضاً عاصمتهم "جارما"(44)، ولكن، هل قضت حملة "بالبوس" علي خطر الجرمنت؟

حقيقةً لا، فقد رجّح العديد من الباحثين أن الحملة كانت محدودة النتائج (45)، والدليل علي ذلك انه لم يقبل عام 15 ق م. حتى اندلعت ثورة عارمة، حيث تحالفت قبائل الجرمنت والمارماريدي ، وقد تصدي الرومان لهذه الثورة بتكليف حاكم قوريني "بوبليوس سولبيكوس كويرينوس" Publius Sulpicius (Quirinius)للقضاء عليهم . (46).

وتؤكد الأحداث اللاحقة علي استمرار العلاقات العدائية بين الرومان والجرمنت، الذين ربما دعموا ثورة الجيتولي(Gaetuli)، والموسولامي (Musulames)عام 6 ق م (47)، وهي الثورة التي قمعت بصعوبة من قبل "كورنيليوس لينتولوس"(Cornelius Lentulus) .

وفي عام 17 ميلادي اندلعت ثورة "تكفاريناس"(48)، الذي توعد الرومان بحرب لاهوادة فيها ما لم يمنحوا قبيلته "الموسيلامي" أراضٍ مناسبة بعد أن جردهم الرومان من أغلب أراضيهم،ــ وتشير المصادر إلي أن ملك الجرمنتس قد دعم هذه الثورة بشكلٍ غير مباشر ، حيث انضمت إلي تكفاريناس فرق قتالية غير نظامية خفيفة التسليح، واكتفي ملك الجرمنت بالاحتفاظ لتكفاريناس بغنائمه التي كان يغتنمها من الرومان(49)، وبعد هزيمة تكفاريناس، وخوفاً من قيام الرومان بالهجوم علي موطن الجرمنت، تذكر المصادر أن الجرمنت قد أرسلوا وفدا للاعتذار عما بدر منهم تجاه الرومان (50) .

ولكن يبدو أن العلاقات الجرمنتية الرومانية ما لبثت أن ساءت من جديد عقب حادثة الصراع بين مدينتي أويا ولبتس ماجنا عام 68_ 69 م(51)، وكان الصراع بين المدينتين قد استفحل بينهما بدرجة دفعت مدينة "أويا" إلي الاستنجاد بالجرمنت(52) الذين لبوا ندائها بسرعة حيث حاصروا مدينة "لبتس" وعاثوا فساداً في أراضيها، ولقد نجح الرومان في طرد الجرمنت بعد أن أوكلت المهمة إلي القائد الروماني "فاليريوس فستوس" (Valerius Festus)، والذي بعد أن نجح في عقد صلح بين المدينتين قام بمطاردة الجرمنت بأن سلك طريقاً آخر غير الذي سلكه "كورنيليوس بالبوس"، وهو طريق قصير يستغرق قطعه أربعة أيام، وقد اسماه بليني بطريق الصخرة (52).

ويبدو أن حملة "فستوس" قد نجحت وحققت نتائج باهرة، ولعل جزءاً كبيراً من هذا النجاح يعود إلي عنصر المفاجأة، وقد رجح الكثير من الباحثين أن صور الأسري المجسدة في "فسيفساء زلطن" قد تكون تمثل أسري جرمنت (53)، ومن جهة أخري يبدو أن السلام بين الطرفين المتحاربين قد حل عقب هذه الحملة (54) ، حيث استند في ذلك علي نص "بطليموس الجغرافي" الذي أشار فيه إلي سفر ملك يدعي ميرسين لمقابلة الإمبراطور الروماني "دومتيانوس" في روما (55)، ورغم ذكر المصادر أنه كان ملك النسامونيس (56)، فأن هناك ترجيحات أن يكون هذا الملك جرمنتي، وقد دلل علي ذلك كون الإمبراطور "دومتيانوس" قد تفاخر في مجلس الشيوخ بهزيمته للنسامونيس، وأنه لم يعد لهم وجود "I have forbidden the Nasamones to exist."(57).

وبناءً علي نص لبطليموس الجغرافي، فقد وصلنا قيام قائد الفرقة الأوغسطية الثالثة "سبتموس فلاكوس" (58) بالتوجه من المدن الثلاث صوب "جرمة" ومنها اتجه جنوباً إلي بلاد الأثيوبيين التي وصلها بعد ثلاثة اشهر، وقد رجحت الآراء حدوثها في عهد "الإمبراطور دومتيان" .

وفي بداية القرن الثاني الميلادي، وتحديداً في عهد "الإمبراطور ترجان"، حدثت حملة قادها "جوليوس ماتيرينوس"، والذي اختلفت الآراء في تحديد حقيقة وضيفته، وهل هو قائد فرقة عسكرية أم تاجر؟ (59)، وقد تحرك من لبدة إلي جرمة ثم سار مصطحباً معه ملك الجرمنت وقواته في رحلة دامت أربعة أشهر وصل فيها إلي منطقةٍ تدعي "اجيسمبا"، حيث عاد "ماتيرنوس" مصطحباً معه الحيوانات البرية، وكان أغربها حيوان وحيد القرن، ولكنه كان بقرنين .(60).

ثانيا نظم التجارة الجرمنتية :

ارتكزت منظومة التجارة الجرمنتية علي الآتي:

1_الطرق التجارية الجرمنتية :

عرف الجرمنت شبكة طرق ساحلية وداخلية ربطتهم بالمراكز التجارية سواء في أواسط افريقيا أو مع المراكز الساحلية، أو مع خط التجارة الصحراوي الممتدة من ممفيس بمصر وحتى منطقة المحيط الأطلسي غربا، كما ارتبط الجرمنت كذلك بشبكةٍ من الطرق الفرعية سهلت تجارتهم مع المناطق المجاورة لهم (61)، وقبل الخوض في الخطوط التجارية وجب التنويه بما يلي :

1_ إن الطرق الصحراوية لم تكن دروبها سهلة، بل كانت محفوفة بالمخاطر والمتاعب لصعوبتها ووعورة مسالكها وبدائية وسائل الموصلات، لذا كثيراً ما تطلب الأمر في بعضها حمل كميات كبيرة من المياه في تلك الطرق الوعرة، ولكن وبعد أن خبر الجرمنت مسالك الطرق واتقنوها جيدا _وهنا نرجح قيامهم بوضع علامات مميزة علي جوانب الطرق لتمييزها _ وذلك من خلال أدلاء أصبح الأمر سهلاً ميسراً .

2_ كشف أحد المصادر عن أنه كان للجرمنت أدلاء صحراء، ولاشك أن مهمتهم كانت قيادة قوافل التجارة البرية، والتعرف علي مواطن المياه الجوفية، وفي هذا الصدد ذكر "تاكيتوس" "أن الجرمنت اعتادوا طمر آبار المياه الجوفية والواقعة في الطريق المؤدي إلي موطنهم" (62).

3_ كانت الطرق التجارية الجرمنتية تمر عبر محطات برية ، اعتادت القوافل أن تحط رحالها عند هذه الآبار طلبا للراحة ولسقي الدواب ، وقد تطورت هذه المحطات فيما بعد لتصبح مراكز تجارية ثم تطورت إلي مدن مثل مدينة "كيدامس" (63)، غدامس الحالية .

4_ لقد أقام الجرمنت سلسلة من الحصون لحماية طرق القوافل في الصحراء، وتوفير الإمدادات اللازمة من أماكن إقامة للتجار ولتخزين بضائعهم التجارية وتوفير الأمن لهم بالإضافة إلي فرض الضرائب علي السلع(64) .

وعن الطرق التجارية نجد أنها تمثلت في الآتي:

- **الطرق الصحراوية الداخلية :**

1_ امتد طريق من مدينة جرمة إلي "تساوا" حيث توجد أطلال قلعة جرمنتية، ثم إلي مدينة "شربة" ثم تخترق صحراء "مرزق"، ومنها عبر جبال تيبستي، ومنها إلي مرتفعات "كورا"، ثم "أجدز"، ومنها إلي ضفاف نهر النيجر، ومن المرجح أن يكون هذه الطريق هو الذي سلكه القائد الروماني "جوليوس ماتيرنوس" وبصحبته ملك الجرمنت عام 100 م.

2_ طريق ربط جرمة بمنطقة "بحيرة تشاد" وكان يمتد من جرمة إلي تساوا ومنها يتجه شرقا إلي "البدير" و"تراغن" ثم "الواوات" فالكفرة ومنها يتجه جنوبا إلي "العوينات" فجبل اندي ثم منطقة بحيرة تشاد .

3_امتد طريق آخر من العوينات إلي سليمة بالقرب من وادي حلفا، كما أن هناك طريق يتجه من جبل "اندي" إلي جبل "ميدوب" بكردفان بالسودان، ثم إلي مروي (65).

وهناك الطريق الصحراوي الذي كان يمر عبر الواحات في وسط الصحراء، وهذا الطريق كان هيرودوتوس قد أشار إليه عندما تحدث عن خط الواحات، حيث ذكر انه وابتداء من ممفيس وعلي مسافة مسير عشرة أيام نجد تلاً ملحياً وأشجار نخيل وماءً وأناساً يعيشون بها، وهو خط يمتد حتى أعمدة هرقل وسواحل الأطلسي (66)، ولعل هذا الطريق الصحراوي هو الذي تدفقت من خلاله أواني "ممفيس"، والتي كانت منتشرة في مصر خلال القرن الأول ق م. وعثر عليها في جرمة (67)

- **الطرق الرابطة بين الجرمنتيس والساحل الشمالي، أو الطرق المؤدية إلي المدن الثلاثة :**

1_ طريق ربط جرمة إلي "أدري" ثم عبر صحراء أوباري ومنها إلي غدامس فصبراتة.

2_ طريق آخر ربط جرمة ثم إلي "تكرتيبا" ثم عبر صحراء أوباري ومنها إلي طريق واحات "الدوادة" ومنها إلي "برجن" ثم عبر "وادي زجزا" و"مسعودة" ثم إلي "الشويرف" ثم غريان ومنها إلي أويا .

3_ طريق ثالث سار شرقاً من "وادي الأجال" إلي سبها، ثم إلي "دبدب" بوادي الشاطئ، ثم عبر وادي "زيزامنت" ثم "جرزة" ثم إلي لبدة (68).

4_ من المرجح أنه كان هناك طريق ربط ما بين الجرمنتيس واقليم قورينائية، ربما كان يمتد عبر الواحات الشمالية مثل الجفرة ثم ودان وهون ربما إلي ساحل سرت الشرقي، ومنها إلي المدن الإغريقية. ولعل ما يمكن أن يدعم ذلك، ما أشار "أندرو ويلسن"Andrew Wilson من أن الطرق والمسالك الجرمنتية، ربما كانت أكثر تعقيداً مما نعلم، إذ أننا ربما نتعامل مع شبكة من الطرق الفرعية القصيرة ،والتي استخدمها الجرمنت في التبادلات القصيرة (69)

2_ وسائل التجارة الجرمنتية :

تمثلت وسائل التنقل في قوافل التجارة في الآتي:

1_ الثيران : استخدمت الثيران كأقدم وسيلة للنقل والتنقل عبر الصحراء، وذلك قبل عصور الجفاف. من جهة أخري صنفت رسوم الثيران علي الرسوم الصخرية في "تادرارات أكاكوس" بالدور الرعوي القديم

والذي حدده "موري" بشكل مطلق للفترة الممتدة من 7082 وحتى 2800 ق م (70)، وفي السياق نفسه أظهرت الرسوم الصخرية مشاهداً لنساء يمتطين ثيران . (71)

2_ الحمير: عرف الجرمنت الحمير كما استخدموها في قوافل الصحراء،(72)، وقد وردت إلينا إشارات من المصادر المصرية بخصوص ذلك، حيث أشار التاجر "حرخوف" harkhuf علي جدران مقبرته بأسوان أنه كان يستعين بالقوافل الليبية ليصل إلي بلاد "يام ووات"، وأن تلك القوافل كانت تضم ثلاثمائة حمار(73)، ويرجح كذلك أن مغامرة الشبان النسامونيس لاستكشاف افريقيا، قد تمت علي ظهور الحمير (74)، وقد استمر استخدام الحمير في القوافل حتى بعد ظهور الخيول، حيث أشار "أثيناوس" إلي أن تاجر قرطاجي كان يدعي ماجو قد عبر ثلاث مرات مع قافلة جرمنتية كانت مكونة من الحمير(75).

3_ الخيول : لا نستطيع تحديد تأريخ محدد لظهور الخيول في منطقة الصحراء الكبرى، ولكن ظهور العربات التي تجرها الخيول ،والمجسدة في مشاهد علي الرسول الصخرية، تؤكد علي أنها تعود لوقت مبكر، (76)، وأنها استخدمت في القتال والمطاردة، وأيضاً في التجارة، ولعل اهتمام ملوك الجرمنتيس بالخيول وتعشيرها،(77) راجع إلي أن جزءاً منها كان يستخدم في القوافل التجارية، وقد مكنها هذا الأمر من السيادة علي التجارة الصحراوية، وقد استمر استخدام الخيول في التجارة حتى القرن الثاني الميلادي حيث حل محلها الجمل الذي كان قادراً علي تحمل الجفاف الذي أصاب الصحراء وتحمل المسافات البعيدة بين نقاط التزود بالمياه (78).

3_ العملة : يري بعض المؤرخين أن الجرمنت لم يستخدموا العملة في التجارة، وأنهم استخدموا في تجارتهم نظام المقايضة (79)، حقيقةً قد يبدو أن ذلك كان في بداية تجارة الجرمنت، وربما ينطبق علي تجارتهم مع أواسط افريقيا، خاصةً وأن العبيد كان يتم مقايضتهم بالملح(80)، ولكن الأمر لا يبدو مقبولاً في التبادلات التجارية مع قرطاجة والمدن الثلاثة ثم الرومان بعد ذلك، ولعل ما يدعم ذلك ثبوت وجود صناعات تعدينية في جرمة ومنها الذهب، والدليل الثاني هو عثور "محمد أيوب" في حفرياته بجرمة علي قطع عملة نقدية (81)، لذا لا يمكن القول بشكل حاسم بعدم معرفتهم للعملة، وربما تسفر الحفريات عن نتائج تجعلنا نعيد النظر في الكثير من المعلومات السابقة عن حضارة الجرمنت .

ثالثا الصادرات الجرمنتية :

انقسمت الصادرات الجرمنتية إلي نوعين : الأول منتوج محلي أنتج داخل أراضيها وفائض تم تصديره، والثاني سلع تم جلبها من مناطق بعيدة مثل أواسط إفريقيا وأعيد تصديرها إلي خارج مناطق الجرمنت، وقد تمثلت صادرات الجرمنتية في الأتي :

1_ **العبيد** : عرف الجرمنت Γαράμαντες تجارة العبيد ومارسوها منذ وقت مبكر من تاريخهم (82) وفي القرن الخامس ق م أفادنا المؤرخ الإغريقي هيرودوتس " بأن الجرمنت وهم قوم كثيرو العدد اعتادوا مطاردة سكان الكهوف "الترجوليديت" (Τρωγλοδύται الاثيوبيين (Αί θιοπία بعربات تجرها أربعة خيول، ويرجع ذلك لأن سكان الكهوف كانوا أسرع في الجري من جميع البشر الذين سمعنا حولهم روايات"(83).

ونتبين من نص هيرودوتوس أن حملات المطاردة التي كان يشنها الجرمنت، كانت منتظمة وذلك لأجل جلب العبيد الذين كان يتم استخدامهم في البيوت والمزارع،(84)، وليباع الجزء الأكبر منهم في الأسواق الخارجية (85)، وفي السياق نفسه دعمت الرسوم الصخرية ما سبق وذكره "هيرودوتوس" حيث جسدت مناظر العربات المسرجة إلي خيول في "تين تازرافت" و"أم اتوامي" بجبال تاسيلي وهي تطارد أشخاصاً، كما أظهرت أيضاً مشاهد قتالية بين أشخاص(86).

لقد أشارت المصادر اللاتينية إلي قبيلة كانت مجاورة للجرامنتيس كانت تدعي الجمفزانتيس (*Gamphasantas*) وهي قبيلة أخطا هيرودوتوس في رسم اسمها فأطلق عليها اسم الجرمنت (87) ليعود ليستدرك الأمر في فقرة 183، وما يهمنا من ذلك هو ما ذكرته المصادر عن هذه القبيلة بكونهم " يبتعدون عن كل البشر، ولا يملكون سلاحاً حربياً ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم "(88). جعلت البعض يفترضون وقوع هذه القبيلة تحت سيطرة قبائل الجرمنت القوية بحيث تم استعبادهم، وقد اعتمد في التدليل علي هذا الرأي، ما كشفت عنه المقابر الجرمنتية التي أكدت علي انه كان يعيش في مواطن الجرمنت أربع سلالات بشرية، اثنان منها تنتمي لجنس البحر المتوسط، أي بيضاء، وأخري سوداء، ورابعة خلاسية، أي مزيج بين السلالة البيضاء والسوداء (89).

لقد شكلت الحروب مصدراً آخراً للعبيد، وكثيراً ما عثرنا علي مشاهد قتالية مجسدة في الرسوم الصخرية تعود إلي الجرمنت(90)، كما أكدت المصادر الأدبية كذلك علي دخولهم في حروب عدة (91)، سواءً بشكل مباشر أو بدعم غير مباشر لحلفاءها، وفي هذا الصدد وردنا من المؤرخ الروماني تاكيتوس أن ملك الجرمنت ورغم عدم اشتراكه بشكل مباشر في حرب تكفاريناس، فقد أمده بمقاتلين مسلحين بأسلحة خفيفة، كما أنه كان يحتفظ لتكفاريناس بكل الغنائم التي كان يغتنمها في حربه ضد الرومان (92)، ولاشك في أن جزءاً كبيراً من الغنائم كان أسري وقعوا في يد تكفاريناس، فهل كان للجرامنتيس دور في التصرف بهؤلاء الأسري ؟

إن الإجابة علي هذا التساؤل ربما يكون من خلال نص لتاكيتوس نفسه، الذي ذكر في كتابه "التواريخ"، أنه وأثناء النزاع بين مدينتي لبتس ماجنا وأويا، استنجدت أويا بالجرمنت ضد لبتس ماجنا. وقد لبي الجرمنت نداء أويا وحاصروا مدينة لبتس ودمروا حقولها، ورغم انسحابهم عقب تصدي القائد الروماني فستوس لهم ومحاولته استرداد بعض الغنائم منهم، إلا أن الجرمنت قاموا ببيعها، أثناء تراجعهم إلي موطنهم، للقبائل البعيدة (93)، ويبدو أن هذا كان اسلوباً جرمنتياً للتخلص من الأعداء .

وتعتبر التجارة مع أواسط إفريقيا وغيرها من المناطق المصدر الرئيسي لتجارة الجرمنت في العبيد. وفي هذا الصدد يؤكد الباحثون علي أنه ومقابل منتجات البحر المتوسط، كان الجرمنت يتحصلون علي العبيد والذهب والجلود ،وغير ذلك من المنتجات الأفريقية .(94) وقد كان الأولاد والبنات صغار السن من المفضلين لدي تجار العبيد.

لقد اندفعت قوافل التجارة الجرمنتية بكل سلعها التجارية شمالاً سواءً إلي سواحل المتوسط شرقاً وتحديداً إلي منطقة السرتيس حيث النسامونيس سادة التجارة البرية، ومنهم تنقل السلع إلي إقليم قورينائية أو إلي طريق الواحات (أوجلة وجالو واجخره) ومنها إلي مصر عبر خط التجارة الصحراوي الذي أشار إليه

هيرودوتس، أو تتجه القوافل من جرمة باتجاه الساحل صوب المدن الثلاث ومنها يتجه خط آخر صوب الأراضي القرطاجية (95).

لقد تدفق العبيد علي الأسواق الرومانية، وأصبحت البيوت الرومانية مكتضةً بهم، ولم يعد دورهم قاصراً علي الخدمة في البيوت والمزارع فقط، بل أصبح منهم المربون والموسيقيون والأطباء(96)، ومن جهة أخري طغت شهرة الجرمنت كسادة للتجارة الصحراوية، خاصة في العبيد، حتى أن صفة "العبد" أو مصطلح "نيجرو" (Nigri)، أي "عبد" قد ألصقت بهم، فنجد أن بطليموس الجغرافي يقع في خلط بخصوصهم فيقول إنهم شديدو السواد (97)، ثم يقول هم قليلو السواد (98)، رغم تأكيد الأبحاث الأثرية علي أن الجرمنت لم يكونوا سود البشرة، ويعتبر "ديزانج" (G Desanges) أنه لمن قبيل التحامل الواضح جداً اعتبار الهياكل العظمية شبه الزنجية التي وجدت في المقابر الجرمنتية هي هياكل عبيد(99).

ظل الجرمنت ولفترة طويلة من بعد الميلاد سادة التجارة الصحراوية عامة وتجارة العبيد خاصة وقد وصف أحد النقوش عبد جرمنتي بأنه "بلون القار"(100)، وهو وصف مطابق لعبيد أواسط إفريقيا الذين جلبهم الجرمنت عبر التجارة، ولعل من أجمل ما وصلنا بهذا الخصوص قصيدة شعرية من القرن الثالث الميلادي تعود الي مدينة "هادروميتوم" (سوسة الحالية بتونس)، تصف عبد جرامنتي فتقول :

Faex garamantarum nostrum processit axem et piceo gaudet corpor verna niger , quem nisi vox hominem labris emisa sonarat , terreret visu norrida lava viros dira, harumeta, tuum vapiant custodem hunc ditis debet habere domus .

((يأتي حثالة الجرمنت إلي عالمنا، ويفخر العبد الأسود بجسده الداكن، إن لم يكن من الصوت البشري الصادر من شفتيه، فأن هذا الشيطان بوجهه المروع سيخيف الرجال، ويسمح لغضبٍ من الجحيم أن يأخذ الوحش لأنفسهم، بيت العالم السفلي يجب أن يكون هذا الشخص حارسه.)) (101)

ويبدو أن تجارة العبيد عند الجرمنت قد استمرت حتى القرن السادس الميلادي، حيث أشار الشاعر لوكسوريس(Luxorius)، وهو شاعر عاش في قرطاجة في الفترة من 490_534 م. من حكم الوندال، في احدي قصائده إلي : استيراد نساء جرمنتيات كعبيد في قرطاجة (**Ut tibi non placeat pontica, sed garamas)** (102).

2_ الحيوانات :

تأتي الحيوانات في المرتبة الثانية بقائمة الصادرات الجرمنتية، وهي تنقسم بطبيعتها إلي قسمين : الحيوانات المدجنة، والحيوانات البرية المتوحشة، وبالنظر إلي النوع الأول من الحيوانات نجد أن الخيول تأتي في قائمة الحيوانات التي قام الجرمنت بتربيتها والمتاجرة بها (103)، وقد أرجع "أيوب" ظهورها في إفريقيا إلي القرن السابع عشر ق م،. كما أظهرت الرسوم الصخرية العديد من مشاهد الخيول بالعديد من الوضعيات تجر عربات أو تطارد أشخاص، أو في مشهد قتالي أو سباق(104).

لقد دللت المصادر الأدبية علي وجود الخيول لدي القبائل الليبية ومن بينهم الجرمنت، وبناءً علي ما أورده "هيرودوتوس" ،فقد اعتاد أفراد قبيلة الجرمنت مطاردة سكان الكهوف "الترجولديت" بعربات تجرها الخيول (105)، من جهة أخري يبدو أن حرص الجرمنت علي تربية الخيول كان كبيراً حيث أفادنا الجغرافي

سترابو " بأن ملوك الجرمنت كانوا يمارسون تربية الخيول بشغف واهتمام كبيرين، حتى أن عدد الأمهار قد يصل إلي مائة ألف مهر سنوياً(106).

وفي السياق نفسه أوردت المصادر" بأن الخيول الليبية تميزت بكونها حيوانات وديعة تروض بسهولة يمكن للأطفال امتطاؤها، وهي حساسة لصوت المزمار الذي كان يستخدم في بعض الأحيان لتوجيه حركتها وضبط سرعتها، ورغم صغر حجمها ونحافتها إلا أنها كانت شديدة المقاومة للإعياء عند الضرورة، وقادرة علي القيام بأسفار طويلة وسريعة العدو"(107) .

لقد نوه "اكصيل" (S. Gsell) إلي أن للخيول الليبية خصائص ،ربما لم يدركها القدامى _ حسب وجهة نظره _ وهي تتمثل في القدرة علي الصبر والتحمل حتى أنها تتحمل إذا استلزم الأمر العطش والجوع (108)، ولعل هذا يفسر لنا كيف ازدهرت تربية الخيول عند القبائل الليبية في المناطق الداخلية ذات المناخ الصحراوي الصعب.

وتأتي الثيران الجرمنتية في المرتبة الثانية بعد الخيول، وقد دللت الرسوم الصخرية في الجنوب الليبي علي انتشار تربية الأبقار والثيران بين سكان الدواخل، ولعل من أجمل المشاهد الصخرية ذلك المجسد في "تشوينيت" بالأكاكوس، ويعود تاريخه إلي الدور الرعوي المتوسط (7082_ 4730) ق م. (109).

لقد حدثنا "هيرودوتوس" عن ثيران الجرمنت "التي كانت ترعي وهي متراجعة إلي الخلف " حيث يعلل ذلك بقوله " للسبب التالي حيث أن لها قروناً منحنية إلي الأمام، فهي ترعي وهي تسير إلي الوراء، إذ لا يمكن أن تسير للأمام لأن قرونها عندئذ ستنغرز في الأرض " .

وبخلاف ذلك يشير هيرودوتوس إلى أنها " لا تختلف عن باقي الثيران سواء في سمك جلودها أو ملمسها" (110)، ولقد ظل صدي شهرة هذه الثيران يتردد من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي في المصادر (111)، لذا لا نستبعد اتجار الجرمنت بها، ووجودها ضمن السلع الصادرة منهم .

3_ الحيوانات البرية :

دللت المصادر القديمة علي مدي غني ليبيا بحيواناتها البرية، ومنذ عصور ما قبل التاريخ أظهرت الرسوم الصخرية مشاهد الحيوانات المختلفة وأساليب صيدها، كما أكدت صلاية الأسد والعقبان وصلاية صيد الأسود علي مدي براعة الليبيين في الصيد(112)، حتى أنه في عهد الأسرات المصرية كان الملوك يفرضون عليهم الجزية من خلال ما كانوا يصطادونه وفي هذا الصدد أشارت المراجع إلي أن الملكة "حتسبشوت" من الأسرة الثامنة عشر قد فرضت علي قبيلة التمحو جزية تمثلت في سبعمائة سن فيل وعدد كبير من جلود الفهود (113).

لقد أشارت المصادر الكلاسيكية إلي مدي غني ليبيا بالحيوانات البرية، حيث ذكر أرسطو طاليس (Ἀριστοτέλης) في كتابه "الحيوان" أن (الحيوانات المتوحشة أكثر توحشاً وجسارةً في أسيا منها في أوروبا، ولكن في ليبيا تبدي الأشكال الحيوانية غنيً وتنوعاً أشد. (114).

وفي القرن الخامس قبل الميلاد قدم لنا هيرودوتوس وصفاً شيقاً للحيوانات البرية في إقليم البدو الرعاة _ حسب تسميته للمنطقة الممتدة من غرب مصر وحتى بحيرة تريتون _ حيث ذكر بأنه توجد الأنواع التالية

"الضباء والتياتل وبقر الوحش والحمير والضباء الوحشية، والتي من قرونها تصنع جوانب الربابة الفينيقية لان حجم هذا الحيوان يشبه الثور " (115)

ويستطرد هيرودوتوس فيذكر وجود " الثعالب والخنازير البرية والقنافذ والكباش وأبناء آوي والنمور والتماسيح البرية " (116)، وفي السياق نفسه تغني كاليماخوس القوريني (Καλλίμαχος) بلذة لحم الغزلان الليبية (117)، وهي التي ذكر عنها "أليان" بأن لها أرجل رقيقة ورشيقة، ولكنها غير سريعة حتى أنها تُصطاد بالشباك، أما الماعز البري فقد تمركز وجوده في الجبال والتلال(118).

لقد كشفت الرسوم الصخرية في الجنوب الليبي عن مشاهد لطيور النعام، والتي كانت منتشرة بدرجة كبيرة في ليبيا ، وقد أكد مشهد في جبال العوينات، ويعود إلي الدور الرعوي القديم، بأنه جرت محاولات لتدجينه وذلك لأجل ريشه وبيضه، فضلاً عن جلده ولحمه(119)، وبناءً علي ما ذكره "لوكان" (Lucian) فإن الجرمنت كانوا يصطادون طيور النعام في الجهات الجنوبية منهم(120)،كذلك ظهر مشهد لطيور النعام في فسيفساء زلطن (121)، وقد عثر في المقابر الجرمنتية علي عقود صنعت من حبات بيض النعام (122).

وبجانب ما سبق، مارس الليبيون صيد الأسود، وبناءً على ما ذكره "ديوشيستوم" Dio (Chrysostom) فإن منطقة سهول سرت كانت تعج بها (123)، من جانب آخر جسدت الرسوم الصخرية صور الزراف، وعنها ذكر ديودورس الصقلي أنه يوجد بليبيا نوع من الزراف يتميز برقبة أقصر من رقبة الجمل (124)، كذلك أكد كل من "إيليان" و"لوكان" علي قيام الجرمنت بحملات لصيد للفيلة في المناطق الجنوبية منهم (125).

ويتوافق العديد من الباحثين علي أن الجرمنت اعتادوا مبادلة سلعهم التجارية _ سواء المحلية أو سلع منطقة البحر المتوسط_ مع سلع مناطق أواسط افريقيا، والمتمثلة في الذهب والأحجار الكريمة والجلود وربما الملح والتوابل (126)، كما استجلبوا الحيوانات المفترسة الغير موجود بموطنهم، وفي هذا الصدد أشار بطليموس الجغرافي إلي حملةٍ قام بها شخص يدعي "جوليوس ماتيرنوس" إلى المنطقة الجنوبية من الأراضي الجرمنتية ، وقد عاد جوليوس ماتيرنوس ومعه العديد من الحيوانات البرية التي قام باستعراضها في روما، وقد أثار حيوان وحيد القرن الاستغراب (127).

لقد جلب الجرمنت الحيوانات البرية ومن بينها الفيلة إلي المدن الثلاث (128)، ومنها تم تصديرها إلي ايطاليا، ويبدو أن هذا الأمر كان من المشاهد المعتادة التي شاهدها الرومان في موانيهم حتى أنهم جسدوها في مشهد فسيفساء يعود إلي القرن الثالث أو الرابع الميلادي في مدينة "فياي" (Veii) فنري عملية نقل فيل إفريقي علي سفينة رومانية. (129).

ولأجل متعتهم واستعراضاتهم، قتل أباطرة الرومان الآلاف من الحيوانات البرية في ميادين الألعاب وعلي مسارح الأمفيثياتر، حتى أننا إذا صدقنا ما أورده الكتاب الرومان فأننا نتحدث عن أرقام مهولة في ضخامتها (130) .

4_ **العاج** : أشارت المصادر إلي قيام "الجرمنت" بشن حملات لصيد الفيلة في المناطق الجنوبية، وفي هذا الصدد يذكر "أيليان" أنهم كانوا يطاردون الفيلة حتى تسقط في الحفر المعدة لاصطيادها " (131) كما أشار إلى " أن هذه المطاردة قد تستمر يومين حتى تسقط الفرائس من الإعياء "(132) .

وقد كان الطلب علي الفيلة لأجل الاستعراضات ولأجل الحصول علي العاج، لهذا حرص الجرمنت علي استجلابها في إطار التبادل التجاري مع مناطق أواسط إفريقيا .(133)

ومن المرجح أنه كانت هناك فرق مختصة من الجرمنت في التعامل مع هذه الحيوانات حية، وذلك لأجل نقلها شمالاً صوب المدن الثلاثة،، ويكشف نقش ولوحة فسيفساء في ميدان الشركات Square of the Corporations في ميناء "أوستيا" القديم Ostia Antica أن مدينة "صبراتة" كانت مختصة في تجارة الفيلة حتى أنها اتخذت من الفيل شعاراً لتجارتها مع ايطاليا(134).

لقد وصلنا نقش من لبدة يفيد بتقديم شخص يدعي "بورفيوس" (Honours porfyrius) لثلاثة أفيال حية إلي المدينة(135)، وقد رجح "رستوفتزف" أن هذا الشخص كان مورداً للحيوانات المفترسة (136)، ولا شك أن ذلك كان يتم من خلال الجرمنت.

لقد ذكر بلليني في القرن الأول الميلادي أن الصيد الجائر للفيلة جعل من العاج سلعةً باهظة الثمن137، حيث أكد علي تناقص المخزون العاجي في إفريقيا وآسيا ما عدا الهند ، ويعلل بلليني سبب ذلك بأن" الصيادين كانوا يقطعون عظام الفيلة لتحل محل العاج" (138). كما ذكر أيضاً " أن لحم الفيلة، وخاصة حول الأطراف الغضروفية، يعد من أفضل الوجبات التي اشتهر بها المطبخ الروماني" (149)، ويبدو أن الطلب علي العاج كان كبيراً حيث استخدم في صناعة تماثيل الآلهة وصناعة الأبواب والأختام والعقود والأكواب . (140)

5- الذهب :

تاجر الجرمنت مع أواسط إفريقيا، وقد كانت خطوط التجارة تتفرع في المنطقة خلف الصحراء الكبرى فتتجه إلي السودان والي تشاد والنيجر، ومقابل كل منتجات البحر المتوسط المتمثلة في الزيت والنبيذ والزجاج والقمح والذرة والتمور تحصل الجرمنت علي المعادن وعلي رأسها الذهب والعاج والجلود والأحجار الكريمة (141)

6- أحجار الكاربونيكل .

تؤكد المراجع علي قدم معرفة الليبيين بالأحجار الثمينة ومتاجرتهم بها، ولعل أقدم الأمثلة علي ذلك الحجر الذي أطلق عليه المصريون القدماء "حجر التمحو"، من "واوات" نسبة إلي قبيلة التمحو التي كانت تقوم باستخراجه وبيعه للمصريين (142)، وبناءً علي ما ورد في بردية "هاريس" فإن الفرعون رمسيس الثالث قد اهدي إلي المعابد المصرية قطعتين من أحجار التمحو تزن كل واحدة منها ثلاث كيتات (143).

لقد دعمت المصادر الكلاسيكية معرفة الليبيين بالأحجار الكريمة، حيث أكد الجغرافي سترابو علي قيام الجرمنت بالمتاجرة بنوع من الأحجار الكريمة قائلاً : ((إنه ومن خلال الجرمنت يجلب القرطاجيون الأحجار الكريمة)) (144) ، أما بلليني فقد ذكر ما يأتي:

((تحتل المرتبة الأولي من بين هذه الأحجار "الكاربونيكل"، وهو اسم بسبب مظهرها الناري علي الرغم من أنها لا تتأثر بالنار، وبالتالي تعرف باسم (Acaustoe) أي غير القابلة للاحتراق، وهناك نوعان من الكاربونيكل الهندي والجرمنتي وكان الأخير يدعي بالقرطاجي _ كما أسماه الإغريق لأنه ارتبط بثروة قرطاجة العظمي"(145).

لقد ذكر "محمد أيوب" أن أحجار الكاربونيكل هي ما نعرفه الآن بالفيروز الأخضر(146)، وعن مناطق استخراجه ذكر استرابو أن مصدره بلاد الجرمنت (147)، في حين حدد بليني موطنه في اثيوبيا، وأنه كان يتم جلبه عن طريق سكان الكهوف الأثيوبيين، ثم يحدد بليني في فقرة أخرى مكان استخراجه بجبل "غيري" أو "جيري" (148).

وفي النسق نفسه ذهب "محمد أيوب" إلي منطقة استخراج أحجار الكاربونيكل كان من منطقة "واو الناموس" والواو الكبير، وقد دلل علي ذلك بنتائج بعثة فرنسية استكشفت المنطقة الممتدة من واحة الكفرة وشرق فزان حيث خلصت نتائجها بعثورها علي محاجر للفيروز الأخضر في المنطقة المسماة بتلال "ايغي زوما"، ويخلص أيوب إلي أن ايغي زوما هي المكان الذي استخرج منه التمحو الأحجار، كما يذهب إلي أن اسم "غيري" الذي ذكره بليني هو تحريف لكلمة "ايغي" ، وأن "زوما" بلغة التبو تعني الفيروز(149).

وتبين المصادر أن المتاجرة بالأحجار لم تكن حكراً علي الجرمنت فقط، بل عرفتها قبيلة النسامونيس أيضاً، وبناءً علي ما ورد فقد كان النسامونيس يخرجون للبحث عنه عندما يكون القمر بدراً وذلك لاعتقادهم بكونه حجر إلهي، وهم يعثرون عليه بسهولة كونه يعكس أي إشعاع يسقط عليه، ويبدو أن هذا الحجر قد أُطلق عليه اسم اشتق من اسم النسامونيس، وهو اسم "النسامونتاي"(Nasamonitis)وتعني حجر النسامونيس(150).

من جهة أخري تكشف مقارنة نصي كل من بليني وسيلينوس (Gaius Julius Solinus) عن حجر النسامونيس أنه " كان عبارة عقيق أحمر ذو لون ناري مع عروق سوداء"،(151)، في حين نجد أن ما أورده "بلليني" حول حجر الجرمنت، وعن موطنه، يشير إلي معرفة الجرمنت للعقيق الأحمر والذي كان يجلب من منطقة الواوات، ولحجر الفيروز الأخضر ومصدره كان بلاد الاثيوبيين (152) .

لقد تاجر الجرمنت والنسامونيس علي حدٍ سواء في الأحجار (153)، ولكن كان لحجر الجرمنت الشهرة الواسعة كونه ارتبط باسم قرطاجة التي نقلته ضمن سلعها التجارية إلي كل أنحاء العالم القديم وأخذ بالتالي اسمها، أي "الحجر القرطاجي" (154).

7 الملح :

أفادنا هيرودوتس في حديثه عن موقع موطن الجرمنت بقوله :" إنه وبعد مسافة عشرة أيام مسير من أوجيله (Αυγίλα) يوجد تل ملحي آخر وماء وأشجار نخيل كثيرة ومثمرة كما هو في الأماكن الأخرى وبشر يسكنون هذا المكان يكون اسمهم الجرمنت وهم قوم كثيرو العدد وهؤلاء يزرعون التربة بعد أن يبسطوها فوق الملح "(155)

وتعود معرفة الجرمنت بالملح إلي وقت مبكر من تاريخهم، ربما إلي الألف الأول ق م وفي هذا الصدد أشار مارك كورلانسكي (M.kurlansky) أن قوافل التجارة الصحراوية التي كانت مكونة من الثيران والحمير قد نقلت الملح ولكن ابتداء من القرن الثالث ق م حلت الخيول محلها(156).

ويشير ديفيد ماتينجلي (mattinglyD.) إلي أن إنتاج الملح الصخري، كان يتم في المنطقة جنوب الصحراء منذ الألف الأول ق م، كما يؤكد علي انه لا يظهر في داخل الأراضي الجرمنتية. وبالنسبة إلي إنتاج الملح عند الجرمنت فقد كان يتم عن طريق بحيرة في شمال شرق مدينة جرمة وتعود إلي عصور ما قبل التاريخ ، ويشير أيضاً إلي أن الملح الجرمنتي ليس نقياً، لهذا كان يحتاج إلي إعادة تنقية، وذلك يتم بطريقتين : من خلال استخدام كلورايد الصوديوم القابل للذوبان بشكل اكبر وذلك بإضافة الماء ثم تبخر المحلول الملحي الناتج في أحواض الملح الكبيرة، أو عن طريق تسخينه بشكل مكثف (157).

لقد أظهرت الأقمار الصناعية مدي البراعة التي تميز بها الجرمنت في استخراج بلورات كلوريد الصوديوم من خلال تقنية سخرت بها إمدادات الفجارات (foggara) وهي أنابيب فخارية أمدت المزارع الجرمنتية بالمياه، ويشير "كورلانسكي" إلي أن الجرمنت، كانوا يعزلون بلورات الملح الخاص التي توضع بعد ذلك في اسطوانات بيضاء يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام، حيث تصبح بعد ذلك جاهزة للتصدير(158).

والي جانب بحيرة جرمة كانت هناك العديد من السبخ والبحيرات الملحية في مناطق أخري مثل وادي الشاطي وتراغن والقطرون جنوب غرب فزان وأيضاً إلي الجنوب الغربي وتحديدا غات، وفي السياق نفسه عثر في وادي ادري علي رواسب ملحية، كانت تغطي مساحة 35 كم وبقشرة 40 سم. وهي سماكة تمكن من تبخرها واستخراج ملح صالح منها، كذلك عثر علي رواسب أقل سماكة إلي جنوب غات ،ومن اسم الموقع القديم وهو اجرام (Aghram) والذي يعني مدينة الملح ، يرجح استخدام ملحها في التجارة (159).

لقد رجح ماتنجلي قيام الجرمنت بتصدير الملح المستخرج إلي أواسط إفريقيا، ولكنه يري أن هذا الملح لا يملك القدرة التنافسية للملح المصنع في الساحل، وبالتالي فهو يرفض قبول احتمالية تصديره إلي منطقة المدن الثلاث (160).

8- النطرون :

النطرون هو مكون خليط من كربونات الصوديوم وكبريتات الصوديوم، ويظهر في قاع البحيرات ويترسب أيضاً علي حواف البحيرات، ومن بينها بحيرات بحر الرمال بالزلاف وهي تقع شمال جرمة . وبحيرة القطرون وبحيرة النطرون .، وهن بحيرات ثبت استغلالهن في القرن الثامن عشر وحتى العشرين وقد كان النطرون يجمع في شهر يوليو .

ويري ماتنجلي انه ورغم عدم وجود معلومات محددة ودقيقة حول إذا كان تم جمع النطرون وتصديره من قبل الجرمنت ، فأنه واستناداً علي أن الطلب كان كبيراً عليه في العصر الروماني خاصةً وأن صناعة الزجاج كانت تقوم عليه، وقياساً علي قلة الأماكن المنتجة له والمتمثلة في وادي النطرون بمصر والبحيرة بالإضافة إلي بحيرة pikrolimni في بلاد اليونان، يرجح نقل الجرمنت للنطرون إلي منطقة البحر المتوسط عبر المدن الثلاث (161).

9-الشب (Alum) :

تم العثور علي رواسب "الشبة" بالقرب من "ساردليس" (162) أو العوينات بالجنوب الغربي من ليبيا، حيث يظهر "الشب" في أحواض التبخر في هيئة سبخ صغيرة طبيعية يتراوح طولها بين 20 إلي 30 متر، تم جمع الشبة من هذه السبخ استخدمت قديماً محلياً في دباغة الجلود التي يتم تصديرها إلي غات وسبها، وقد قدر الإنتاج بحوالي 10 أطنان سنوياً (163).

ومن المرجح قيام الجرمنت باستغلال هذه السبخ وجمع الشب منه، ولعل ما يؤيد هذه الفرضية أن الجرمنت تاجروا في جلود الحيوانات سواءً محلياً أو مع أواسط إفريقيا، ونعلم جيدا أن الشب كان مادة تسخدم في دباغة الجلود، ، فهل استخدم الجرمنت الشب محلياً أم صدروها ضمن بضائعهم الثمينة إلي العالم القديم ؟ حقيقة يبدو أن صحة الاحتمالين واردة.

10_الكبريت (Slpur) :

عثر علي رواسب الكبريت داخل جبال الهروج السوداء في شمال مدينة فزان، ويسمي المرتفع الذي كشف عنه باسم "جبل الكبريت"، ويقع علي بعد 250 كلم من "زله"، وقد ثبت استغلاله في القرن العشرين من قبل السكان(164)، وكان يستخدم كعلاج للإبل من الأمراض (منها الجرب)، ومن المرجح أن تكون القبائل الليبية والجرمنت قد استغلوا هذا المنتج واحتمالية تصديره واردة.

11التمور :

أشارت المصادر الأدبية إلي أشجار النخيل في بلاد الجرمنت (165)، وقد أورد هيرودوتس عن ذلك قائلاً : ((إنه توجد أشجار نخيل كثيرة ومثمرة)) (166)، كما ذكر ديودورس الصقلي" إن تمور ليبيا الداخلية صغيرة وجافة " (167)، ولكن بلليني يعاكس قوله حيث ذكر "بأن المناطق الداخلية من إفريقيا إلي موطن الجرمنت مغطاة بأشجار النخيل الرائعة الحجم وثمارها اللذيذة "(168).

وفي السياق نفسه نوه "ثيوفراستوس" إلي أن التربة الملحية ،في ليبيا ومصر وفينيقيا تناسب أشجار النخيل (169)، وقد اجمع العديد من الباحثين علي أن التمور كانت ضمن قائمة صادراتهم سواءً المتجهة إلي أواسط إفريقيا أو إلي المدن الثلاث (170).

12_القمح والذرة والقطن :

أورد هيرودوتس أقدم إشارة إلي الزراعة عند الجرمنت بقوله "وهم يزرعون التربة، بعد أن يبسطوها فوق الرمال " (171)، كما أشار العديد من الكتاب إلي أشجار النخيل في موطن الجرمنت (172)

علي الصعيد الأثري كشفت تنقيبات "تشارلز دنيلز" في "زنككرا" عن توفر بيئة زراعية منذ الألف الأولى ق. م. زرعت من خلالها أشجار النخيل المروية بالإضافة إلي قمح الخبز والشعير وكروم العنب وأشجار التين ، ثم أضيفت محاصيل أخري لاحقاً وهي الدخن والذرة السكرية، ونظراً إلي أن كل المحاصيل المزروعة كانت تحتاج إلى ري، فقد اتبع الجرمنت نظام ري متطور سمي بنظام "الفجارات" .

ويصف "ماتنجلي" نظام الفجارة بأنها "قناة تحت الأرض تسد المياه الجوفية (حنفية)، عادة في منحدر تل أو في منطقة السفح، وتقود الماء إلى سطح الأرض بعيداً أسفل التل عن طريق نفق قليل الانحناء. السمة التي تميز تشييد الفجارة أن النفق لا يكون أفقياً من طرف التل، لكن، بدلاً عن ذلك، تحفر ممرات عمودية (أشبه بالبئر) على بعد مسافات محددة وتحفر الأنفاق بمسافات قصيرة بين قاع ممرين. تسمح الممرات بإزالة الأوساخ وتهوية النفق أثناء أعمال الحفر، وتسمح لعدد من فرق الحفر العمل في وقت متزامن، وتسمح لاحقاً بإجراء عمليات الصيانة وعمليات تنظيف الأنفاق. الرديم المستخرج من الممرات والأنفاق يكوم حول فم مداخل الممرات، خالقاً خطاً متميزاً من الحلقات"

ومن خلال النتائج البيالوثية التي أسفر عنها مشروع فزان، تم التأكيد علي معرفة الجرمنت لزراعة القطن،ولعل ما ساعد علي ذلك نظام الري المعروف باسم الفجارات.

والتساؤل الذي يطرح نفسه في هذا المقام: هل تاجر الجرمنت بمحاصيلهم التي قاموا بإنتاجها؟

إن الإجابة علي ذلك هي "نعم"، فقد تاجروا بكل ما فاض عن حاجتهم ،لأجل استجلاب ما كان غير متوفر لديهم .

الخاتمة :

1_ تعتبر حضارة الجرمنت أول حضارة ليبية أصيلة وعريقة في ليبيا وهي مستقلة في نشأتها عن الحضارات التي سادت في منطقة حوض البحر المتوسط، وقد امتد تأثيرها الحضاري في أنحاء الصحراء الكبرى، وقد عاصرت الحضارتين الإغريقية والرومانية في الفترة الممتدة من 500 ق م وحتى 500 ميلادي .

2_ كشفت الأبحاث الأثرية عن أن الجرمنت سيطروا في أوج قوتهم، علي ما لايقل عن 250 ألف كلم من الأراضي الصحراوية ، وأنهم وبعد نجاحهم في انجاز اكبر نظام متقدم في الري وهو نظام الفجارات أصبح لديهم نظام زراعي متطور وعاشوا رغم الظروف المناخية وسط نظام حضاري مدني لم يكن ليختلف عن أي مدينة متوسطية .

3_ في القرن السادس ق م. كان الجرمنت قد سيطروا علي طرق التجارة الداخلية وأصبحوا سادتها ورغم وجود قرطاجة كقوة عالمية آنذاك فقد فضلت أن تتعامل مع الجرمنت كزعماء لهذه التجارة واكتفت بلعب دور الوسيط التجاري، فنقلت منتوجاتهم وبادلتها مع العالم القديم، وقد حمل بعض هذه المنتوجات اسم قرطاجة .

4_ يبدو أن الجرمنت قد اكتسبوا خبرة كبيرة في نظم التجارة، ومتطلبات الأسواق العالمية آنذاك، وقد سخروا هذه الخبرة في إرضاء متطلبات شركائهم التجاريين سواء في أواسط إفريقيا أو في المدن الساحلية، وقد حققوا بالتالي ثروات هائلة دللت عليها مخلفاتهم الأثرية، كما انعكست علي كل مظاهر حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

5_ دافع الجرمنت عن حقوقهم كسادة للتجارة الصحراوية بين الساحل وأواسط إفريقيا بكل ما استطاعوا ليتطور الأمر إلى صدام مسلح مع الرومان ، في محاولة منهم لكسر هذا الاحتكار .

المصادر والمراجع :

1_ مصطفي كمال عبد العليم ،دراسات في تاريخ ليبيا القديم ،الطبعة الأهلية ، بنغازي ،1966،ص66, رجب عبد الحميد الاثرم ،محاضرات في تاريخ ليبيا القديم ، منشورات جامعة بنغازي ،بنغازي 1994 ،ص 218.

2__Oric Bates,The Eastern Libyans,Cornell University Library, London,1914,p101.

3_ يوحنا بطرس ثريغه ، تاريخ قوريني، ترجمة سليمان إبراهيم الجربي، منشورات مجلس الثقافة العام ، بنغازي ، 2006، صص243_ 247.

4_ عن العلاقات بين إقليم قورينائية ومنطقة البحر المتوسط ومصر، انظر :

رجب عبد الحميد الأثرم ، "العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني عام 631 ق م "

مجلة البحوث التاريخية ، السنة الرابعة عشر ، العدد الثاني ، 1992 م, صص91_ 108 .؛ فؤاد سالم أبو النجا, "هل كان هناك استيطان إغريقي في قورينائية قبل نزوح الثيرانيين إليها عام 631 ق م " مجلة البحوث التاريخية , السنة الثالثة عشر , العدد الثاني , 1991, صص125_164 .

5_O.Bates,op .cit,p,101.

6_ حسين امراجع عبد العال, العلاقات الليبية الفرعونية منذ عصر ماقبل الأسرات وحتى حكم الليبين لمصر, منشورات دار أماني ,سوريا 1989,الطبعة الأولي , ص125 .

7_رجب عبد الحميد الأثرم ،مرجع سابق ،بنغازي 1994 ، ص 61 .

8_ باربارا باريش ," حفريات جديدة في جبل الأكاكوس" ترجمة مكاييل محرز, مراجعة عماد الدين غانم ,الصحراء الكبري ،منشورات مركز الجهاد الليبي , طرابلس , 1979, ص 133.

9_رجب الأثرم ، مرجع سابق , ص 86.

10_جوزيف كي زيربو، تاريخ افريقيا السوداء، ترجمة عقيل الشيخ حسين ، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والأعلام ، مصراتة ،2001، الطبعة الأولي , صص 168_ 169.

11_ Herodotus , The historys ,Vol . Iv . Translated by Godly . A . D . (L . C . L) Harvard University . Press , London . 1971 ,iv,185.

12_ Herodotus,iv,172.

13_لقد خلد تحالف النسامونيس والمكاي في نقش بمبني القادة بقوريني وهو يتحدث عن انتصار حققه خمسة من القادة العسكريين علي هاتين القبيلتين في معركة بحرية يقول النقش : (عشر الغنائم من مكاي وناسامونيس نصيب ابولو من القادةهرميساندروس ثيارو ،زينيس براكسيادا ، ثيوفيديس ياسيوس ، مناسارخوس ثيوخريستو، تيليسارخوس مناسيوس) راجع : SEG,ix,77,

جود تشايلد ، قوريني وابولونيا ,منشورات ادارة البحوث الأثرية , طرابلس , 1970, الطبعة الأولي , ص 115,عبد السلام محمد شلوف , نقوش ونصوص من ليبيا منشورات مركز جهاد العرب الليبين , طرابلس , 1994, الطبعة الأولي , ص175.

14_ Florus, Epitome of Roman History,William Heineman Ltd. New York,1947II,31,IV,12,40.

15_Justin, Historires Philippiques ,paris,libarie Hachette etcie 1873,

16_ Strabo , Geography , No 1 . Viii , Translated by Harace London 1961,XVII,3,2_3.

17_اصطيفان اكصيل ، تاريخ شمال افريقيا القديم , ترجمة محمد التازي سعود , الجزء الثاني مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية , الرباط, 2007, الطبعة الأولي , صص213_ 233.

18_ Herodotus, V,42.

19_فاطمة سالم العقيلي ،: القبائل الليبية في ضوء المصادر الأغريقية والمخلفات الأثرية من عام 631 ق م حي 96 ق م" رسالة ماجستير قدمت استكمالاً لمتطلبات درجة التخصص العالي الماجستير ، جامعة بنغازي ، 2001، غير منشورة ، ص 58

20_ Herodotus, V,42.

21_ اكصيل , مرجع سابق , ص 74.

22_ سيد الناصري ،تاريخ الرومان من القرية الي الأمبراطورية ، دار النهضة العربية ،القاهرة ،1976 ، ص 156.

23_ احمد صقر، مدنية المغرب في التاريخ ، الجزء الأول ، دار بوسلامة ، تونس ، 1959، ص 94.

24_ Sallust , Bellum Iugurthinum. Loeb Classical Library,

25_SEG,IX,77.

26_فيصل الجربي ، الفنيقيون في ليبيا من 1100 ق م وحتي القرن الثاني الميلادي الدار الجماهيرية للنشر ، سرت،1425، الطبعة الأولي، ص ص 158،66_166 .

27_ Herodotus,IV,196.

28_ Athenaeus: The Deipnosophists, Loeb Classical Library; Revised edition K 1, 1969, II, 22.

29_ اكصيل , مرجع سابق، ص 262_264

30_Polybius, The Histories, Loeb Classical Library, Harvard University Press,1966 , I. 19, 2-4.

31_ Silius Italicus: Punica, Loeb Classical Library,Harvard University Press, 1934, III.275_279.

32_ o. Bates,op. cit, 102.

33_ فرانسوا ديكريه ، قرطاجة او امبراطورية البحر ، ترجمة عز الدين عزو ، الاهالي للطباعة ، دمشق ، الطبعة الاولي ،1996، ص ص 122_ 133.

34_ ابراهيم نصحي ، تاريخ الرومان، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،2009، صص 270_ 274.

35_ عمر ممدوح مصطفي ، القانون الروماني ، دار المعارف ، مصر ، 1959، الطبعة الثالثة ، ص 175.

36_ Sallust, LXXX.

37_Baudet, Louis,Géographie de Pomponius Mela,Harvard University,**C. L. F. Panckoucke, Paris,**1843,I,47؛Tacitus,Annalus, Loeb Classical Library, 1989,74

38_ ديفيد ما تنجلي ، "البحث عن الجرمنتيين حضارة مفقودة في الصحاري الليبية " نص محاضرة ألقيت بمقر السفير البريطاني ، طرابلس ، في 24_فبراير 2000، ص 2_ 3.

39_وضعت الدولة الرومانيية ضريبة علي بيع العبيد اعتبرها الباحثين اعلي ضريبة قدرت ب5 % وربما كان ذلك بناءا علي الارباح الخيالية التي كان يحققها تجار العبيد اذ تفأوتت اسعار العبيد من 330 الف سسترتس الي السبعمائة سسترتس . راجع : باتريك لوروأ ، الأمبراطورية الرومانية ، ترجمة جورج كتورة ، دار الكتاب الجديد ، لبنان ،2008، الطبعة الأولي ،ص 260؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد الثاني _ الجزء الثاني ، دار الجيل، بيروت – لبنان،1988 ،صص 242_243.

40_ كرستينا فيلبس غرانت ، بادية الشام ، ترجمة خالد احمد عيسي، دار رسلان للطباعة ، سوريا ، 2011، ص 54.

41_ Rostovtzeff's ,Social and Economic History of the Hellenistic World,The clarendon press,1966, p966.

42_كريستنا فيلبس ، نفسه.

43_ Pliny , Natural History Loeb Classical Library,Harvard University Press ,London,1947,V,36_ 38.

44_Ibid.

45_ محمد سليمان ايوب ، "حملة كورتيليوس بالبوس علي فزان عام 19 ق م "، مجلد ليبيا في التاريخ ، الجامعة الليبية ، كلية الأداب المؤتمر التاريخي ، 1968 م ، ص 207 ؛ احمد انديشة، التاريخ السياسي والأقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر ن مصراتة ، 1993، الطبعة الأولي ,71.

46_ Erich S. Gruen, "The Expansion of the Empire under Augustus" in The Cambridge Ancient History, Volume X: The Augustan Empire, 43 BC – AD 69, (Cambridge University Press, 1996) page 168.

47_ انديشة، مرجع سابق ، ص 71_ 72.

48_ Tacitus,annuals,IV,23.

49_Tacitus, ibid.

50__ Tacitus,annuals,IV,26.

51__ Tacitus,Histories,V,50.

52__ Tacitus,ibid.

53_Christine Kondoleon,Domestic and Divine: Roman Mosaics in the House of Dionysos, cornell university,1995,p280.

54_ احمد انديشه ، مرجع سابق ص85

55_ Ptolémée (I, 8, 4

محمد سليمان ايوب ، جرمة من تاريخ الحضارة الليبية ، ص 147.

57_Dios, Roman History,**Cambridge, Mass. : Harvard University Press ; London**,1914 ,VIII,lxvii,6.

58_Fage, JD. The Cambridge History of Africa Volume 2. Cambridge University Press. Cambridge, 1979,p127.

59_ ايوب , مرجع سابق ص180_181.

60_Ptolémée ,I, 8, 4 ؛J. Desanges, Agisymba,*Encyclopédie berbère, 2Ad – Ağuh-n-Tahlé*, Aix-en-Provence, Edisud, 1985, p. 259-261 .

61_ ايوب , جرمة ، صص 199_ 201

62_ pliny,V,5,38..

63_ ايوب ، نفسه

64_ ماريو ليفراني , أغرام نظاريف والحدود الجنوبية للمملكة الجرمية ، ترجمة اسامة عبد النور ,مقالة منشورة في موقع اركامي .

65_ ايوب ، نفسه.

66_Herodotus,iv,181.

67_محمد ايوب ، مرجع سابق ، ص 98 ؛ تشالز دانيلز، " اعمال الحفر والتنقيب في مواقع الجرامنت" ترجمة مصطفي عبد الله الترجمان ،مجلة اثار العرب ، الجزء الثاني ، العدد الرابع ، منشورات مصلحة الاثار طرابلس ، 1991 ص 39..

68_ايوب ، نفسه .

69_Andrew Wilson,Azania Archaeological,researchin Africa,vol47,2012,pp409_449.

70_ فابريتشيو موري ، تادرارات اكاكوس الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ ، ترجمة عمر الباروني وفواد الكعباري ، منشورات مركز جهاد الليبين ، طرابلس 1988،ص 239.

71_ هورست منشسينغ، "هل تزحف الصحراء " الصحراء الكبري ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبين ، طرابلس، 1979،ص ص 265_ 290.

72_ اكصيل ، مرجع سابق ، الجزء الخامس ، ص 156؛ ايوب ، مرجع سابق ص 210.

73_ ايوب مرجع سابق ، ص 208.

74_Herodotus,Histories,2.32–33.

75_ Athenaeus, II, 22.

76_ C. Daniels,The Garamantes of southern Libya,the oleander press,1969,p14.

77_ Strabo.XVII,3,19.

78_ محمد سليمان ايوب ، "جرمة في عصر ازدهارها من 100 الي 450"، ليبيا في التاريخ ،ص 186_187 .

79_ Eamonn Gearon,The Sahara: A Cultural History,Oxford University Press,New york,2011,p40

ايوب ، جرمة من تاريخ الحضارة ، ص 213 .؛

80David Mattingly,_" The Garamantes of FazzanAn Early LibyanState with Trans–Saharan Connections",Money, Trade and Trad e Ro utes in Pre–Islamic North Africa Printed and bound in UK, 2011,pp,49_60.

81_ M.S .Ayoub,Excvation at germa the capital of the garamants, july,1962,pp,18_23.

82_ John wright,The trans Saharan slave Trade ,Routledge first published, New york,2007,p13_ 14,41.

83_Herodutos,IV,183.

84_ايوب،جرمة من تاريخ الحضارة ،ص 157؛

85_J.R. Willis, Slaves Slavery in muslim Africa, frank cass company,London ,2005,p,54.

86_ عماد غانم , الصحراء الكبري ، ص ص 148، 162 .

87_ Herodotus,IV,174.

88_ Herodotus,IV,174,pomponius mela,I,23, pliny,v,8,1_2.

89_ C.Danialis, op. cit,p17, محمد ايوب , جرمة , ص 88

90_ غانم , مرجع سابق, ص 162.

91_Erich S. Gruen,op. cit,p168.

92_ Tacitus, Histories,IV,50.

93_ Tacitus, Annals,IV,2,3.

94_ D. J. Mattingly,Tripolitania,p375

95__ R.C.C.Low, The garamantes and trand Saharan ,journal of history ,VIII,1967, ,pp181_200.

96_ اميل لودفيغ ، البحر المتوسط ، ترجمة عادل زعيتر ، موسسة هنداوي ، المملكة المتحدة، 2017، ص 219.

97_ptolemy,I,9,7.

98_Ptolemy,I,8,5.

99جيان ديزانج" البربر الاصليون " تاريخ افريقيا العام ،تحرير جمال مختار ، اليونسكو ، 19 ، ص 438.

100_Frontinus: Stratagems, Aqueducts of Rome, Harvard University PressLoeb Classical Library, 1925,I,ii,18.

101_N.m. Kay , Epigrams from the anthologia latina ,text,translation and commentary , first publishes,London,2006,p60.

102_Alaxander riese ,Anthologia latina, sive poesis latinae ,university of Toronto,1869,p131.

103_Herodotus,IV,170_171,180,Strabo, XVII,3,21.

104_عماد غانم , الصحراء الكبري ، ص ص 148.

105_ Herodotus,IV,183.

106_ Strabo, XVII,3,21.

107_Strabo,xvii,3,19, Aelian, De Natura Animalium, Harvard University Press,Loeb Classical Library, 1974,III,2,XV,10.

108_ اكصيل ، مرجع سابق ، ص 193_ 197.

109_ غانم ، مرجع سابق ص 134_ 135

110_ Herodotus,IV,183.

111_ Herodotus,IV,183, Pomponius Mela,I,45,pliny,VIII,70,1.

112_موري ، تادرارات , صص 179, شكل 81, ص 194, شكل 102,

113_ O. Bates, op .cit,p,93,99.

114_ Aristotle, Generation of animals, Harvard University Press, Loeb classical library , 1943,VIII,28.

115_ Herodotus,IV,192.

116_ibid

117_Callimacuhs,Fragments Of uncertain location, Harvard University Press, Loeb classical library, 676

118_ Aelian,xiv,14.

119_ موري ، نفسه.

120_Lucian,Dipsades,2

121_

122_Ayoub,m, Excavation at garma,p p 18 _ 19 .

123_Diodours of sicily,Library of history,Harvard University Press, Loeb classical library,London,1967,II,50.

124_Dio pectacula,discourses,Harvard University Press,Loeb classical library,London,1955, xv.

125__Aelian,vi,65,xiv,5_6,Lucian,Dipsades,2

126_ D.J.Mattingly and athers, Trade in the ancient sahara and beyond , Cambridge university press, 2017,pp24_25,, A. Wilson, Azania,,pp 409_ 449, __ R.C.C.Low, ,op.cit,pp181_ 200.

127_ Ptolémée ,I, 8, 4.

128_ احمد انديشة , مرجع سابق ص ص 175_ 177.

129_Howard Hayes Scullard,The elephant in the Greek and Roman world,Cornell University Press, 1974,p253.

130_ يمكن الرجوع في ذلك الي :

William Christopher, Animal pectacular of the Roman Empire,2002

131 _Aelian,xiv.

132 – Aelian, vi,56.

133_Lucian,Dipsades,2 .

134– David J. Mattingly, Tripolitania,B.t .Bats ford limited,London,,1995,p177,209._*Aurigemma, Salvatore*, I Mosaici di *Zliten (Rome, 1926*

135_ E.L. Haynes,The antiquites of Tripolitania.4th Edition,1981,p92.

136 _ RostovtzeffS',Op.cit,324.

137 _ pliny,VIII,9,32.

138_ibid

139_pliny,VIII,10.

140_ انديشة ، مرجع سابق ، ص177.

141_David J. Mattingly,op .cit ,p375.

142_ محمد سليمان ايوب , جرمة من تاريخ الحضارة الليبية ص 213.

143_O. Bates, op . cit., p 48_ 49 .

144_ Strabo,XVII,3,19.

145_ Pliny,XXXVIII,25,1.

146_ محمد ايوب ، جرمة في عصر ازدهارها " ليبيا في التاريخ ، ص188_189.

147_ Strabo,xvii,3,19

148_pliny,V,5,34.

149_ محمد سليمان ايوب ،نفسه.

150_Pliny,XXXVII,64,10.

151_Gaius Julius Solinus,100,27.

152_Pliny,XXXVii,30,1,,XXXVii,64,10.

153_Strabo,xvii,3,19,Pliny,XXXVii,30,1.

154_ R. C. C. Law,op.cit,p,187

155_ Herodotus,IV,183.

156_Mark kurlansky, The salt history,Toronto,canda,2002,p47.

157_David J. Mattingly, Trade in the ancient sahara,p199.

158_Mark kurlansky, ibid.

159_ ibid

160__David J. Mattingly,op cit,p,198_ 199.

161_Mattingly,Ibid.

ديفيد ماتنجلي ، البحث عن الجرمنتيين ، ص 9.

162_ تعني كلمة ساردليس العوينات او العيون الصغيرة وهي منطقة عثر بها علي عربات تجرها الخيول انظر : سالم محمد الزوام ، المعجم الجغرافي للأماكن الليبية ، مكتبة دار الشعب ، مصراته ، 2005، 84، 170_ 171.

163_Mattingly,op cit,p200.

164_ibid.

165_Herodotus ,IV,183,Diodours of sicily,II,53,5,pliny,Xiii,33,1.

166_Herodotus,ibid.

167_Diodours of sicily,II,53,5.

168_pliny,Xiii,33,1.

169__Theoprastus,Enquiry in to plant,IV,3,5

170_ R. C. C. Law, op.cit,p,187,D. J. Mattingly,Tripolitania,p375,. Mattingly, Trade in the ancient sahara,p25.

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

مملكـــــــــــة الأنـــبـــــاط

587ق. م/106م

إعداد :

د. فاطمة على الشيخي
جامعة بنغازي

المقـــــــــــــــــــــــــــــدمة :

يتناول هذا البحث قيام دولة الأنباط وأصولها وملوكها، ومدى تأثيرها وتأثرها الحضاري بالحضارات المجاورة لها، وعلاقاتها الاقتصادية مع الدول الأخرى، والتي اختلفت باختلاف المصالح، بعضها اقتصر على التبادل التجاري، وبعضها الآخر تطور إلى صراع سياسي عسكري من أجل السيطرة على طرق التجارة، وبالتالي دخول الأنباط في أحلافٍ مع الدولة السلوقية في الشام والسبئية في اليمن، في الوقت الذي تحالف فيه البطالمة مع المدن التجارية المهمة على الساحل الغربي للبحر الأحمر مثل ديدان (العلا)[1] واللحيانيون[2]. وقد أدى هذا التنافس التجاري مابين الأنباط والبطالمة إلى حدوث حروب ومعارك استنزف فيها الطرفان قوتهما، انتهت بتحالف الأنباط مع الدولة الرومانية لإسقاط المملكة البطلمية، وذلك سنة 30 ق.م. ثم سقوط مملكة الأنباط بدورها على يد الدولة الرومانية عام 106م.

Kingdom of the Nabateans:

This research deals with the establishment of the Nabatean state, its origins and its kings, the extent of its influence and its cultural impact on its neighboring civilizations and its economic relations with other countries, which differed according to different interests, some of which were restricted to trade exchange, and others developed into military political conflict for control of trade routes. The Nabateans were in alliance with the Seleucid state in the Levant and the Levant in Yemen, while the Ptolemies allied themselves with important commercial cities on the west coast of the Red Sea. This trade rivalry between the Nabataeans and the Ptolemaic led to wars and battles in which the two sides exhausted their strength, ended with an alliance of the Nabataeans with the Roman state to bring down the Ptolemaic kingdom in 30 BC. Then the fall of the Nabatean kingdom in turn in the hands of the Romanian state in 106 AD.

[1])- مستوطنة أنشأها المعينيون الجنوبيون في القرن الخامس قبل الميلاد لحراسة قوافلهم تقع في شمال الحجاز وقد عرفت في النصوص القديمة بأسم معان مصران : أي معين المصرية تميزاً لها عن معان الأم في الجنوب اليمني.

[2])- دولة عربية صغيرة تقع شمال الحجاز وجنوب بلاد الأنباط المنافسة في تجارتهم. فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، 1952،ص 92.

أولاً: نشـــــــــــأة مملكـــة الأنبـــاط:-

بعد موت الإسكندر، وتقسيم مملكته بين قادته الأربعة، وخضوع سوريا للسلوقيين، لم تمض فترة طويلة حتى بدأ الضعف يدب ويظهر على الدولة السلوقية في بلاد الشام، لذلك اغتنم الأنباط هذه الفرصة وكونوا دولتهم المعروفة[3]. ويذكر بعض الباحثين أن وجود دولة الأنباط في الشام يرجع إلى حوالي 587ق.م. فكانت في البداية محطة للقوافل التجارية بين الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والعراق، حيث سيطروا على جنوب بلاد الشام، أي جنوب سوريا وشمال خليج العقبة، وكامل المناطق الخصبة المشرفة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط .[4]

وفي أواخر القرن الرابع ق.م 312ق.م، أصبحت هذه الدولة نواة مملكة عربية عظيمة تمت لها السيطرة على الشام كلها، عندما هزمت خليفة الإسكندر، القائد العسكري انطغيوس وأبادت جميع قواته .[5]

اتخذ الأنباط مدينة البتراء[6]عاصمة سياسية وتجارية لهم، كما اتخذوها حصنا منيعا ضد الغزوات، فكانت هذه المدينة من أهم المحطات التجارية، وكانت البتراء من أشهر مدن العالم القديم، تقع آثارها اليوم في وادي موسى، وكانت محصنة من جهاتها الثلاث الشرق والغرب والجنوب، كما كانت مسيطرة على الطريق المؤدية إلى غزة في الغرب إلى دمشق وبصرى في الشمال وإلى أيلة على البحر الأحمر وعلى الخليج العربي عبر الصحراء. تمتاز البتراء بأنها مدينة غنية بالماء، وفيها كثير من البساتين، ومن المدن الأخرى الحجر، وتقع على شريان التجارة في العالم القديم.[7]

ثانياً: ملـــــــوك الأنبـــــــــاط:-

حاول الباحثون في تاريخ مملكة الأنباط ضبط أسماء ملوكهم، ومن المرجح أن مؤسس هذه المملكة أرتاس، كان الملك الحارث الأول قد حكم المملكة حوالي عام 169ق.م، يليه الملك زيدال(زيدايل) حوالي عام 146ق.م، وخلفه الملك الحارث الثاني(110-96ق.م) وقد اغتنم فرصة ضعف الأوضاع السياسية والعسكرية في مصر والشام فهاجم الاثنين معا وغنم منهما غنائم كثيرة. يليه الملك عبادة الأول 93ق.م، ثم الملك رب أيل الأول حكم (87-86ق.م) كانت فترة حكمه قصيرة. الملك الحارث الثالث، ويعتبر من أشهر ملوك الأنباط،حكم(85-60ق.م) أو من (87-62ق.م) توسع بمملكته بعد انتصاره على الملك السلوقي انطيوخوس الثاني عشر، فاستولى على دمشق وسهل البقاع، وكون جيشاً قويا مدربا، نظامي يعتمد عليه.

الملك عبادة الثاني، تولى السلطة بعد أبيه الحارث الثالث، حكم من عام (62-60ق.م)، الملك مالك الأول،وقد أختلف المؤرخون في تحديد فترة حكمه. الملك عبادة الثالث(30-9ق.م) ويذكر أنه قتل بالسم مع وزيره ومستشاريه. الملك الحارث الرابع (9ق.م-40م) وكان متأثرا بالثقافة والحياة الهللينية. الملك الحارث

---

[3]- باشميل،محمد أحمد، العرب في الشام قبل الإسلام،دار الفكر،بيروت،1973،ص62.

[4]- علي، أحمد أسماعيل،تاريخ بلاد الشام(منذ ماقبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي)،دار دمشق للنشر والتوزيع،ط2،سوريا،1994م،ص77.

[5]- المرجع نفسه،ص77.

[6]- اسمها القديم (هاسلع)، والبتراء تعني الصخر، تبعد 50ميلا إلى الجنوب من البحر الميت. باشميل، المرجع السابق،ص24.

[7]- علي، المرجع السابق،ص77.

الثاني(40-75م) ثم الملك رب أيل الثاني(75-101م) وآخر ملوك الأنباط الملك مالك الثالث (101-106ق.م).[8]

ثالثاً: أنســـــــــاب البطالمـــــــة:-

أختلف المؤرخون والباحثون في نسب الأنباط، يذكر المسعودي أنهم سريانون، حيث يذكر أن أهل بابل وملوكهم هم النبط، وأنهم أبناء نبيط بن ماش بن آرم بن سام بن نوح[9]. وهم بقايا الشعوب القديمة الناطقة بلهجات عربية، ولكن بركاكة أعجمية وبلكنة ظاهرة[10]. فكانوا يتكلمون ويدونون كتاباتهم باللغة الآرامية[11]. ومما يؤكد كونهم عرباً أسماء ملوكهم عربية،وكانوا مثل أهل قريش يعبدون الأصنام، كما أن خط النبط قريب جداً من خط القرآن الكريم[12]. ثم أن مؤرخي اليونان الذين عرفوهم، كانوا يذكرونهم ويسمونهم عرباً.[13]

رابعاً: العلاقات الاقتصادية بين الأنباط والدولة البطلمية:-

عاصرت دولة الأنباط الصراع السلوقي البطلمي، ويظهر إنها غالباً ما كانت تميل إلى البطالمة وتتأثر بنفوذهم مع المحافظة على استقلالها، لذا استغلت ذلك الصراع وتوسعت شرقاً إلى غزة وجنوباً إلى آيلة[14] وسيطرت على طرق التجارة المتجهة إلى مصر البطلمية وأقامت معها علاقات تجارية قوية. وفي عام 312ق.م، حاول انطيغونس السلوقي استمالتها إلى جانبه في صراعه مع بطليموس الأول إلا أن محاولته تلك باءت بالفشل، ثم اعد حملة أخرى للانتقام من الأنباط فلم ينجح، وعاد أدراجه قانعاً بما قدمه الأنباط له من هدايا .[15]

كان البطالمة يحصلون على البخور والطيوب من الأنباط الذين يسيطرون على الطريق البري (طريق البخور). وقد أشار المؤرخ اليوناني زينون في برديته (وثائق زينون) والتي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد إلى قيام البطالمة بعقد صفقات تجارية مع الأنباط، وذكر ازدهار التجارة على طول الساحل الفلسطيني وعبر وادي عربة .[16]

---

8)- علي، المرجع السابق،ص81.
9)- المسعودي، مروج الذهب،بيروت،1974م،ج1،صص129ومابعدها.
10)- باشميل، المرجع السابق،ص30.
11)- جواد علي، المرجع السابق،ج3،ص11.
12)- زيدان،جورجي، تاريخ العرب قبل الإسلام،صص94-95.
13)- باشميل، المرجع السابق،ص30.
14)- سالم ، سيد عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار النهضة للطباعة والنشر ، القاهرة ،د .ت، ج 1، ص 160 .
15)- سالم، المرجع نفسه،ص160.
16)- نصحي، ابراهيم ، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة، مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ، 1959م،ص150 .

أدرك البطالمة أهمية بلاد الأنباط وأثرها على التجارة الخارجية المصرية، كما أدركوا صعوبة الاستيلاء عليها مع حاجتهم المتزايدة للبخور والطيوب لذلك عزموا أن يتركوا لهم استقلالهم [17]. إلا أن العلاقات بين البطالمة والأنباط بدأت تتدهور في الحقبة ما بين 284– 246ق. م، بسبب رغبة بطليموس الثاني (فيلادلفوس 308– 248ق. م)[18] تحويل التجارة البرية المارة بأراضي مملكة الأنباط إلى طريق البحر الأحمر. أولاً عقاباً للأنباط لانضمامهم إلى جانب السلوقيين في الصراع البطلمي السلوقي[19]. وثانياً لاحتكار تجارة التوابل والبهار التي كانت رائجة في ذلك العصر، لذلك اهتم بالاستكشافات الجغرافية، وأرسل أرسطو ليستكشف ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على البحر الأحمر حتى المداخل الجنوبية لهذا البحر لخدمة مصالحه التجارية، الأمر الذي زاد من مخاوف الأنباط .[20]

خامساً: الطرق التجارية البرية والبحرية التي يسيطر عليها الأنباط:

جمع الأنباط ثروة عظيمة، واكتنزوا الذهب والفضة بفضل اشتغالهم بالتجارة، وموقع بلادهم الممتاز، كونها عقدة مواصلات برية وبحرية، فالطرق البرية كانت عماد القوافل، حيث كانت السلع تجمع من اليمن في أرض سبأ وتنقل إلى معين[21]، ثم إلى يثرب وديدان (العلا) التي كانت بمثابة مركز توزيع تجارة اليمن وإفريقيا والهند وبقية آسيا لتنقل إلى الشام ومصر[22]عبر الحجر وتيماء ثم إلى آيلة على خليج العقبة، ثم ينقلها آهل الأنباط إلى عاصمتهم البتراء، ومنها يخرج طريق إلى غزة أو ارسينوي ، ومن غزة يتجه طريق آخر شمالاً إلى موانئ فينيقيا، ومنها إلى الموانئ المصرية [23]فكانوا يحصلون على الأموال الكثيرة من جراء الوساطة في عملية البيع والشراء ، وفرض الضرائب الباهظة على القوافل التجارية، مقابل السماح لها بالمرور عبر أراضيها والتعهد بحمايتها[24]. حتى أصبحوا مهيمنين على الطرق التجارية منذ القرن الرابع ق.م. ويذكر أنه في حوالي عام 85ق.م استولى الأنباط على دمشق التي كانت آنذاك عاصمة المملكة السلوقية.[25]

---

17)- العلي، احمد صالح ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ،1967م، ص39 .

18)- شعث، شوقي، مدن القوافل في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام محطات لتبادل السلع والأفكار والفنون والعادات والتقاليد، مجلة التراث العربي ،دمشق،2004م، ص 6.

19)- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ،بيروت، 1976م، ج 2، ص ص 32،35.

20)- يحيى، لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،د. ت، ص423 ؛ يوسف، فرج الله احمد ، طرق التجارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة الفيصل ، مطابع هلا ،الرياض ،2002م، ص 81 .

21)- كان المصريون يرتبطون بعلاقات تجارية وحضارية مع المعينيين ويسقوطهم على أيدي السبئيين خسر المصريون أصدقائهم في الجنوب لذلك احيا البطالمة هذه الصداقة مع مستوطنتهم ديدان في الشمال، التي صارت مملكة مستقلة معادية للأنباط لسيطرتهم على الطرق التجارية .أنظر: الناصري ، سيد احمد علي ، الصراع على البحر الأحمر في عهد البطالمة ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني ، الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ،الرياض،1984م، ص412 .

22)- يوسف، المرجع السابق، ص 81 .

23)- عبد العليم، مصطفى كمال، تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود،الرياض، 1984م،ص 202 .

24)- جواد علي، المرجع السابق، ج 3، ص 139

25)- علي، المرجع السابق،ص78.

لقد عمل ملوك الأنباط على الاستفادة من هذه الطرق، واستغلالها لمصلحة الدولة، مما دفعهم لوضع حراسة قوية لحماية القوافل، وتقديم التسهيلات الضرورية لأصحابها، والاتفاق مع الدول المجاورة لضمان سلامتها مقابل مبالغ تدفع لهم عند المرور. وقاموا بتوسيع أنظمتهم ومركزهم بإقامة مراكز لحماية القوافل ومحطات لاستثمار المواد المعدنية، ولم يكتفوا بمياه ينابيعهم، بل أصبحوا بارعين – نتيجة لخبراتهم– في استخراج المياه الجوفية، وفي استخدام مياه الأمطار رغم قلتها، من ثم في قدرتهم على حفظها.[26]

كما شيدوا في حوران شبكة طرق تتجه إلى الجنوب إلى بصرى التي كانت سوقاً تجارية نبطية. وأصبح طريق القوافل الممتد من بصرى والمتجه نحو الجنوب ماراً بعمان حتى يصل إلى خليج العقبة من أهم الممرات التجارية، كما وجدت طريق من بصرى إلى اذرعات، وطريق أخرى تصل إلى دمشق، وأخرى تصل إلى صلخد، ومنها إلى قلعة الأزرق.[27]

نجح الأنباط في إنشاء دولة قوية وولّوا عليها ملوكاً ووزراء وموظفين، كما ضربوا النقود، وفرضوا الضرائب على التجارة، وتمكنوا من الأخذ بالأساليب الحديثة في الحياة، وتمكنوا نتيجة ذلك من استغلال أرضهم، وما فيها من موارد طبيعية، كما تعلموا استغلال مناجم النحاس والحديد، ومنهم انتقلت المصنوعات النحاسية والحريرية إلى اليمن.[28]

سادساً: الصراع التجاري بين البطالمة والأنباط وتغير طرق التجارة:

كانت دولة سبأ تتحكم في جنوب البحر الأحمر، واتجهت إلى التجارة مع الهند، واحتكرت تجارة البضائع الشرقية والبهارات، وتعاونت مع الأنباط الذين كانوا يتولون توزيع البضائع في الشمال عبر ميناء ايلة أو عبر عاصمتهم البتراء. في نفس الفترة سعى البطالمة إلى إقامة علاقات تحالف وصداقة مع المدن التجارية الهامة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية الغربي، من بينها مدينتي ديدان واللحيان. كما تحالف أهل الأنباط مع جرها (الإحساء ، البحرين) وتقع على الخليج العربي مقابل جزيرة تيلوس.[29]

وقد انفرد الأنباط بتجارة البهار ونقله بين سبأ وخليج العقبة منذ القرن الخامس قبل الميلاد[30]، ومن هنا كان اهتمام بطليموس الثاني (285 – 246 ق . م) بإقامة موانئ على شواطئ البحر الأحمر المصرية[31]، كما قام بتأسيس وتشجيع ورعاية عدد من المستوطنات اليونانية على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية لتأمين الخط التجاري البحري في البحر الأحمر.[32]

---

[26]- علي، المرجع نفسه،صص78-79.

[27]- علي، المرجع نفسه، ص81.

[28]- علي، المرجع نفسه، ص78.

[29]- المحيسن، زيدون، البتراء مدينة العرب الخالدة،عمان، د. ت، ص 88 .

[30]- الناصري، سيد احمد علي،الصراع على البحر الأحمر في عهد البطالمة، دراسات تاريخ الجزيرة العربية،الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الاسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض،1984م، ص 418 .

[31]- زيادة ، نقولا، دليل البحر الارثري وتجارة الجزيرة العربية البحرية ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الاسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض،1984،ص 260 .

[32]- يحيى، لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية،د . ت، ص424.

وبذلك نجح بطليموس فيلادلفوس في تحويل جزءاً من تجارة البهار والبخور والعطور إلى ميناء في خليج العقبة، كان تابعاً للأنباط في ذلك الوقت [33]لصالح حليفته دولة معين، اذ ربطه بخط ملاحي يرتبط بالموانئ المصرية على الساحل المصري للبحر الأحمر، مما الحق ضربة اقتصادية كبرى بسبأ وحلفائها الأنباط[34]، إذ أن السلع كانت تأتي بحراً للموانئ النبطية على البحر الأحمر ومنها برا إلى البتراء أو تنقل التجارة الواصلة إلى البتراء من العراق والخليج العربي أو اليمن إلى الموانئ النبطية، لتصدر إلى مصر وحوض البحر المتوسط .[35]أصبحت التجارة تصل رأسا بالطريق البحري إلى ميناء ميوس هرموس على الساحل المصري المقابل ومنها بالطريق البري إلى النيل ثم إلى الإسكندرية مما اثر بشكل سيئ على اقتصاديات الأنباط.[36]

اخذ الأنباط يتعرضون للسفن التجارية البطلمية والاستيلاء على حمولتها، إذ أزعجتهم حركة إحياء النفوذ المصري في البحر الأحمر على يدي بطليموس الثاني الآمر الذي دفعه إلى إنشاء أسطول بحري لحراسة السفن التجارية البطلمية، ودخل معهم في معركة حاسمة نجح في إدخال سفن الأنباط مصيدة بحرية دمرها عن آخرها وذلك عام 278 – 277 ق.م .[37]

كما حاول احتلال البتراء لكنه فشل واكتفى باحتلال الساحل الشرقي للبحر الميت[38]، فحرمهم من استغلال ثرواته خاصة القار (الإسفلت) والذي يوجد بكميات كبيرة في البحر الميت خاصة الأجزاء الشرقية منه. وكان الأنباط قد جنوا منه الثروات والأرباح الكبيرة في تجارتهم مع المصريين، الذين كانوا يستعملونه لتحنيط موتاهم، وفي صنع العقاقير وتلوين المعادن وصناعة السفن .[39]

ومنذ تلك الهزيمة اخذ الأنباط بالانكماش اقتصادياً وعسكرياً، ولم يجرؤوا على التجارة في البحر الأحمر لدرجة أن مدينة جرها كانت تمدهم بالبهارات والتوابل عن طريق ساحل عمان الطويل، لكي تتفادى الطريق البحري الذي سيطر عليه الأسطول البطلمي[40]، لذلك تحالفوا مع السلوقيين للانتقام من البطالمة، وكان بطليموس الرابع يخشى خطر الأنباط، لذا فقد قام بتحصين ميناء ارسينوي وبنى حوله الأسوار، وكون فرقة عسكرية من عرب سيناء، للدفاع عن المنطقة ضد أي هجوم يشنه الأنباط، فالتقى معهم في معركة حدثت في رفح عام 217 ق. م، وفيها هُزم الأنباط والسلوقيين والسبئيين، وكان يقودهم الملك السلوقي انطيوخوس الثالث، وانتصر البطالمة وحلفائهم المعينيون اللحيانون.[41]

---

33)- جواد علي، المرجع السابق، ج 2، ص 23.

34)- يحي، المرجع السابق، ص 329.

35)- حوراني ، جورج فضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمهُ وزاد عليه يعقوب البكر ، مراجعة يحي الخشاب ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية ، مطابع الكتاب العربي ،القاهرة ،د.ت، ص 86.

36)- سالم، المرجع السابق، ص 162 .

37)- الناصري، المرجع السابق،ص410.

38)- احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ، دار الحرية للطباعة ،بغداد ،1972م، ص 107؛ سليم، احمد امين ، جوانب من تاريخ حضارة العرب ، دار المعرفة ، القاهرة، 1997م، ص 192 .

39)- الناصري، المرجع السابق، ص 410 .

40)- زهدي، بشير، الفن السوري في العصر الهلنستي والروماني، ط2 ،دمشق ،1972م، ص 3 .

41)- الناصري، المرجع السابق، ص 418 .

سابعاً: التحالف النبطي الروماني ضد البطالمة:

ازداد ضغط السلوقيين على البطالمة، بعد انفصال فارس والعراق عن الدولة السلوقية، وقيام دولة الفرثيين التي آخذت تضغط على الدولة السلوقية من الشرق، إذ سيطر الفرثيين على مسالك التجارة في الخليج العربي الذي كانت الدولة السلوقية تسيطر عليه .[42]

أدى عودة الاهتمام السلوقي بالمسالك الغربية إلى وقوع الخلاف بينهم وبين حلفائهم الأنباط، ولذلك اتجه الأنباط للتعاون مع الرومان للقضاء على الدولتين السلوقية والبطلمية معاً.[43]

وفي القرن الثاني ق. م بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة البطلمية، فضاعت من أيدي البطالمة في عهد بطليموس الخامس 205 – 180 ق. م مقاليد الطريق البري، الذي كان يربط الدلتا بالحجاز. كما ان مينائهم (بيرينيكي) على العقبة وجد منافسة قوية قضت عليه من جانب ميناء الأنباط أيلة، وذلك لان تجارة الهند والجنوب العربي تحولت إلى الطريق المحاذي لشاطئ البحر الأحمر الشرقي، الممتد حتى ميناء ليوكي كوما النبطي ومنه إلى البتراء، ومنها إلى الساحل السوري وخاصة غزة .[44]

ونتيجة لانحسار نفوذ البطالمة في شمال شبه الجزيرة العربية؛ فقد توسع نفوذ الأنباط ، وامتدت دولتهم في شمال الحجاز في معان مصران وفي سيناء حتى نهر النيل. وهذا مما دفع البطالمة في عهد بطليموس الخامس للتوجه نحو جنوب البحر الأحمر في استكشافات جغرافية كبيرة [45]، خاصة بعد ضعف وتدهور دولة السبئيين المعادية للبطالمة إذ فقدت سبأ سيطرتها على البحر الأحمر وسواحل إفريقيا، وانتقلت التجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والرومان ثم دخلوا في صراع مع الريدانيين من حمير، انتهى بانتصار أهل ريدان، وسقوط الدولة السبأية عام 115 ق.م، وقد تلقبوا بلقب(ملوك سبأ وذي ريدان) وهؤلاء هم الحميريون [46] الذين تحالفوا مع البطالمة مما سهل عليهم التوسع جنوبا بعد فترة انحسار طويلة نتيجة لهزيمة البطالمة في شمال الحجاز على أيدي الأنباط ، وفي هذه الحقبة تحالف الأنباط مع الرومان وشاركوا معهم في حروبهم ضد البطالمة وحلفائهم الحميريون، سيما بعد سقوط الدولة السلوقية في سوريا عام 64 ق.م[47] ومما يدل على هذا التحالف أن ملك الأنباط مالك الأول 50 – 27 ق.م شارك بقوات من جيشه لمساعدة يوليوس قيصر في حصاره للإسكندرية عام47 ق.م .[48]

وقد أدى ضعف البطالمة إلى مهاجمة الأنباط للسفن التجارية المصرية في جنوب البحر الأحمر، كما قام الأنباط حلفاء الرومان بإحراق الأسطول البطلمي عند ميناء كليوباتريس قرب السويس عام30 ق.م. عندما كانت الملكة المصرية كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة تستعد للانسحاب بأسطولها البحري إلى جنوب

---

[42]- سالم، المرجع السابق، ص 116 .

[43]- العلي، المرجع السابق، ص 40 .

[44]- الناصري، المرجع السابق ، ص 420 .

[45]- الناصري، المرجع نفسه.

[46]- الجميلي، رشيد، تاريخ العرب قبل الإسلام ،بغداد ،2001م، ص 57 .

[47]- يوسف، المرجع السابق، ص 81 .

[48]- باشميل،المرجع السابق، ص 26 ، 28 .

البحر الأحمر[49]، في تلك الفترة جهز الرومان حملة لاحتلال اليمن عام24 ق.م لإسقاط حكم الحميريين حلفاء البطالمة، وبعد سقوط الأخيرة سارع الأنباط لمساعدتهم فأمدهم عبادة الثالث30 –9 ق.م بوزيره صالح سايلوس ليكون دليلا لهم في هذه الحملة، ورغم فشل الحملة عسكريا؛ إلا أنها نجحت في إنزال ضربة مؤلمة بأحوال الحميريين الاقتصادية.[50]

ثامناً: التأثيرات الحضارية:-

لقد تأثر الأنباط تأثيراً كبيراً بالثقافة اليونانية، وكانوا مولعين بحياة الترف واللهو والشراب، حيث نجد لصور الكروم مكانة بارزة في النقش والنحت عندهم، كما برعوا في فن الحفر على الألواح كما كان للمرأة منزلة رفيعة عندهم[51]. وسكوا النقود على الطراز الهيللينى وأخذوا العيار البطليموسي للعملة [52]، كما تأثروا بالحضارة المصرية ومن ذلك تأثير الفن المصري على عناصر بعض الواجهات في البتراء، كالمسلات في مدفن المسلات والكرنيش**(Cavetto)** الذي يعود لجذور مصرية، وظهور الآلهة ايزيسس على واجهة الخزنة، وقد رمز لها بقرص الشمس فوق المثلث المنحوت على واجهة الخزنة، ووجد لها تمثال آخر في منطقة مدخل وادي السيق، وآخر قرب منطقة جبل هارون في البتراء[53]. وكان طريق انتقال هذه التأثيرات بشكل كبير هو شبه جزيرة سيناء التي كانت بمثابة النافذة للحضارة المصرية القديمة[54]. أما التأثير النبطي فيتضح في انتشار النقوش النبطية في صحراء مصر الشرقية انتشارا واسعا من ساحل مصر الشمالي حتى المناطق الواقعة إلى الجنوب من وادي الحمامات.[55]

الخـــــاتمة :

كانت التجارة من أهم عوامل قيام وانهيار مملكة الأنباط في الوقت نفسه، إذ كانت مملكة البطالمة القوية تهدد مصالح الأنباط التجارية، لهذا السبب تحالف الأنباط مع السلوقيين والسبئيين ثم مع الرومان للقضاء على البطالمة، أو بمعنى القضاء على النفوذ التجاري لها، ثم حدث صراع بين الأنباط وبين الرومان، كان النصر حليف أعدائهم، وبالتالي كانت نهايتهم[56]. عام 106ق.م عندما قضى تراجان على استقلال المملكة، وجعلها تحت سلطة حاكم سوريا الروماني، وأطلق عليها اسم الكورة العربية، ونقل مقر الحكم من بتراء إلى بصرى.[57]

---

49)- يوسف، المرجع السابق، ص80 ، 81 .

50)- حتي، تاريخ العرب، ص 56 .

51)- علي، المرجع السابق، ص78.

52)- العلي، المرجع السابق، ص 41 .

53)- الحيسن، المرجع السابق ، ص 57 ، 58 ، 59 .

54)- العلي، المرجع السابق ، ص 41 .

55)- عبد الحليم، عبد المنعم ،الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود ،الرياض،1984م، ص 353.

56)- علي، المرجع السابق،ص78.

57)- باشميل، المرجع السابق، ص31.

قائمة المصـــــادر والمراجـــــع :

1. احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1972م.
2. باشميل، محمد احمد، تاريخ الشام قبل الإسلام، بيروت، 1973م.
3. الجميلي، رشيد، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 2001م.
4. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1976م.
5. حوراني،جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى،ترجمه وزاد عليه يعقوب البكر، مراجعة يحيى الخشاب، الناشر مكتبة ألانجلو المصرية، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة،د. ت .
6. زهدي، بشير، الفن السوري في العهد الهلنستي والروماني، ط 2، دمشق، 1972م.
7. زيادة، نقولا، دليل البحر الارتيري وتجارة الجزيرة العربية البحرية، دراسات التاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1984م.
8. زيدان،جورجي، تاريخ العرب قبل الإسلام،طبعة بيروت،د.ت.
9. سالم، سيد عبدالعزيز،دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام،دار النهضة للطباعة والنشر،ج2 ، القاهرة، د. ت.
10. سليم، احمد أمين، جوانب من تاريخ حضارة العرب ، دار المعرفة ، القاهرة ، 1997م.
11. شعث، شوقي ، مدن القوافل في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام محطات لتبادل السلع والأفكار والفنون والعادات والتقاليد، مجلة التراث العربي، دمشق، 2004م.
12. عبد الحليم، عبد المنعم، الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1984م.
13. عبد العليم، مصطفى كمال ، تجارة الجزيرة العربية قبل الإسلام مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1984م.
14. علي، أحمد اسماعيل، تاريخ بلاد الشام(منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي)، دار دمشق للنشر والتوزيع،ط2،سوريا،1994م
15. العلي، احمد صالح، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967م.
16. فيليب حتى، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع،1952م.
17. المحيسن، زيدون ، البتراء مدينة العرب الخالدة، عمان، د.ت .
18. المسعودي، مروج الذهب،ج1،طبعة بيروت،1974م.
19. الناصري، سيد احمد علي، الصراع على البحر الأحمر في عصر البطالمة، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1984م.
20. نصحي، إبراهيم، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1959م.
21. يحيى، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،د.ت .
22. يوسف، فرج الله احمد، طرق التجارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة الفيصل، مطابع هلا، الرياض، 2002 م .

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

الساحات العمومية بالجزائر أثناء الفترة الرومانية

إعداد :

د. بنت النبي مقدم

جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر

ملخص:

الفوروم"Forum" عند الرومان مثله مثل الأجورا"Agora" لدى الإغريق، إنه يمثل مركز المدينة والقلب النابض لروما القديمة، ولكل المدن الرومانية، وترجع أهميته التاريخية، الدينية والسياسية لكونه يمثل المركز الذي تدور به وتتم أهم الأحداث المميزة والهامة في المدينة: حفلات الأعراس، الاحتفالات الدينية والاستعراضات العسكرية وحتى الخطب السياسية، ولكن خلال العهد الإمبراطوري سيشهد النموذج القديم للفوروم تطوراً سريعاً ولكن ما يهمنا في هذه الورقة البحثية هو التعرف على الساحات العامة التي عرفت بالجزائر القديمة، ومحاولة إحصائها .

Abstract :

The forum among the Romans as the Agora among the Greeks, it is the main square and the living center of ancient Rome, and of every Roman city, Its historical, religious and political importance makes it the place around which all life of the city is articulated: celebration of weddings, ceremonies and religious festivals, military parades, political proclamations; but at the time of the Roman Empire a fairly rapid evolution will change the old type of the forum; But what is important for us in this article is to identify the public squares known in ancient Algeria and try to list them .

مقدمة:

الساحة العامة أو الفوروم "Forum" هي واحدة من معالم المدينة بالجزائر القديمة خلال العهد الروماني. وهي تكتسي أهميتها اليوم، من كونها معلماً من المعالم الأثرية والحضارية التي تدلنا على غنى ومعالم الفترة الرومانية في الجزائر القديم، باعتبارها واحدة من المقاطعات الرومانية، ولذلك حاولنا تتبع هذا المعلم التاريخي والأثري، في منطقة الجزائر بهدف مسح وإحصاء كل الساحات العمومية سواء تلك التي لا تزال آثارها شاهدة عليها، أو تلك التي ذكرتها النقوش دون إمكانية التعرف عليها حتى يومنا هذا.

ومصطلح الفوروم لغوياً حسب فيستوس[1] "Festus" له ستة معاني، فحين نجدها تسمى باسم أحدهم فهو الشخص الذي قام ببنائه بغرض البيع والشراء، وثانياً هي مكان للعدالة وللاجتماعات وحيث تتحدث السلطة مع الشعب، وثالثاً يجتمع فيها حاكم المقاطعة بحكام الأقاليم، ورابعاً يشير إلى أن الأقدمين سموا دهليز القبر بالفوروم وخامساً هي جزء من السفينة، وسادساً جمع فوروم الذي هو فوري "Fori" يقصد به ألعاب السيرك، واشتق منه كلمة فورولي" Foruli" لترمز للعروض الصغيرة .

أما المهندس الروماني فيتروف "Vitruve"[2] فقد وضع شروطاً لبناء هذا المعلم المدني، بإشارته إلى أن الساحات العامة عند اليونان مربعة، ومن حولها من الجهات الأربع أروقة مزدوجة وواسعة، أعمدتها قريبة من بعضها البعض، وهذا النموذج لا يمكن أن يُعتمد في ايطاليا لأنه من العادات القديمة للرومان، حضور الشعب للساحة العامة للفرجة على القتال بين المتصارعين، ولهذا يتوجب أن تكون المسافة بين الأعمدة أعرض بكثير. وتحت الممرات العلوية محلات المتبادلين، أما الأروقة فيجب أن تتوفر على المساحة اللازمة لتساعد على التبادل التجاري، وتحصيل الضرائب، ويجب أن يتوافق اتساع الساحة العامة مع نسبة السكان بالمدينة حتى تستطيع استيعاب المجتمعين بها؛ وحول الساحة العامة تقوم أهم الأبنية الدينية، والمدنية كالكابيتول والمعابد والبازيليك ومنصات الخطابة والمحلات التجارية والسجن وغيرها من مرافق المدينة المختلفة، وغالباً ما تكون مستطيلة حسبما توضحه اللوحة التدعيمية بكتاب الهندسة لفيتروف (اللوحة XLII) التي نراها بالملاحق المرافقة لهذا المقال، وقد اتضح لاحقاً وبعد الحفريات الأركيولوجية أن اللوحة التخطيطية تمثل مخطط فوروم بومبيا .

وهكذا يمكننا القول إن الساحة العامة هي مركز المدينة الاقتصادي، السياسي، القضائي والديني وحتى الاجتماعي الذي يلتقي به الكل ليتحدثوا في الشؤون العامة والخاصة أو حيث يمكنهم التسلية، والتسامر بطاولات اللعب "Tabulae lusoriae" كتلك التي عثر عيها بالساحة العامة لمدينة تيمقاد، وهي عبارة عن طاولة تحتوي 36 مربعاً، كل مربع مكتوب عليه حرف، وبقراءة مجموع حروف المربعات في نفس السطر تحصل على كلمة ذات معنى ومدلول، بحيث يستمتع اللاعبين بها بتغيير الأحرف والكلمات المشكلة، وتعتبر الأجمل بين بقية طاولات اللعب المشابهة لهذه، والتي عثر عليها بمختلف مناطق بلاد المغرب القديم حسب وانسو "L.Poinssot"[3] بسبب الأشكال التي زينت بها، والعبارة المفرحة التي كتبت عليها والتي تلخص فلسفة الحياة السعيدة .

وبما أن الساحة العامة تتوسط المدينة، فهي تعتبر نقطة التقاء الكاردو(شمال- جنوب) بالديكومانوس (شرق - غرب) وهي مبلطة بالحجارة، ويمنع على العربات المرور بها، ومغلقة بسور من الأروقة والمباني العامة، ويلاحظ أنه بالمدن الساحلية ذات الموانئ يوجد أحياناً ساحتين فإلى جانب الساحة العامة، التي تتوسط المدينة نجد ساحة تجارية قرب الميناء، غير أنها تعتبر ثانوية، وطابعها تجاري اقتصادي، ومستوحاة من الساحة اليونانية

1. Festus , De la signification des mots , VI , trad. , M.A.Savagner , Panckoucke , 1846
2 . Vitruve , De l'Architecture , I , 1
3. Poinssot(L), Inscriptions inédites de Lambèse et Timgade , CRAI , 1884 , p 92

التي كانت تستغل كسوق والمسماة آغورا "Agora"؛ ولكن هذا لا ينف ممارسة التجارة بالساحة العامة أو الفوروم حيث نجد أنه كثيراً ما كانت تقام أسواق متخصصة وفي أيام محددة بها[4]، كما تزين أحياناً الساحة العامة بعين مائية أو حوض مائي في الوسط .

ويلاحظ أن الساحة العامة أو الفوروم عرفت ببلاد المغرب القديم عموماً تطوراً واختلافاً، يمكن حصره في ثلاثة نماذج[5]، حيث يتميز كل نموذج أو نوع بخصائص ينفرد بها، وتميزه عن النموذج الآخر وهي مبينة في الجدول التالي :

النموذج	الخصائص المميزة	الفترة
النموذج التقليدي	- ساحة مبلطة - ساحة مستطيلة الشكل - بهو يحيط بالساحة من الجهات الأربع	عهد أنطونينوس
نموذج العهد السفيري	- انعدام المعبد - ذات طابع سياسي اقتصادي	العهد السيفيري
النموذج المُرّكب	- كثرة القاعات حول الساحة - وجود حدائق وأحواض	العهد الأسفل

بقيت بعض آثار الساحات العامة لبعض مدن الجزائر القديمة شاهدة على حضورها لغاية يومنا هذا، غير أن البعض الآخر منها لم يبق منه شيئاً، ولهذا لا يمكن إحصاء كل الساحات التي كانت موجودة آنذاك وموقعها بالضبط من المدينة وما أحاط بها من بنايات دينية ومدنية غير أنه يمكننا التطرق لبعض من تلك التي بقيت أطلالها، وحتى لبعض من تلك التي لم يعثر بها إلا على نقوش أو إشارات بمصادر أدبية معينة ويمكن حصر أهم الساحات العامة بالجزائر القديمة في ما يلي :

1 – فوروم عنابة : يرجع بنائها إلى القرن الأول الميلادي، حيث أن حفريات 1935 بحواف الفوروم كشفت عن إهداء للإمبراطور كلاوديوس يرجع تاريخه للنصف الثاني من سنة 42 م، في حين يرى البعض أنه يمكن إرجاع تاريخ بنائها إلى تاريخ نقيشة البروقنصل كايوس باكيوس أفريكانوس[6] "C.Paccius Africanus" التي عثر عليها في أكتوبر سنة 1947، والتي نقشت على بلاط الساحة العامة بعنابة حوالي 77 – 78 م، ولكن رغم هذا التضارب لا يمكننا استبعاد أن هذا التاريخ يمكن أن يكون تاريخاً لتجديد بلاط الفوروم .

2 – فوروم تبسة : يرجح بناء الساحة العامة لتبسة سنة 77 م أي خلال عهد فيسباسيانوس، رغم أنه لم يبق من أطلالها اي شيء، ولكن وبناءاً على شهادات بعض الضباط الفرنسيين[7] فإن آثارها ظلت لغاية 1859، حيث

4 . منى يوسف نخلة ، علم الآثار في الوطن العربي ، منشورات جروس برس ، طرابلس لبنان ، ص 154 – 156

5 . سيدي محمد العيوض ، موقع بناصا الأثري ، مساهمة في دراسة مدن المغرب القديم ، مطبعة رباط نت المغرب ، 2010 ، ص 41

6 . Marec(E), « Les fouilles d'Hippone » , CRAI,1948 ,V.92, N°4 , p 559-560

7 . أنظر علي سلطاني ، تبسة ، الوكالة الوطنية للآثار و المعالم و النصب التاريخية ، مؤسسة الطبع الجديدة ، تبسة ، 1999 ، ص 67 – 68

نقلت أحجار الفوروم لاحقاً لبناء الثكنة العسكرية، وحالياً يوجد بمتحف المدينة بقايا الفوروم كبعض الأحجار المنحوتة والتيجان وأعمدة من الرخام وإفريز يرجع تاريخه لسنة 77 – 78 م .

3 – فوروم تيمقاد : بنيت في عهد تراجانوس، شكلها مستطيل، ويقدر طول هذا المستطيل ب 50 م وعرضه ب 43 م، أما إذا أدرجنا ما يحيط بالساحة من مباني وأروقة نجد طولها 110 م وعرضها 60 م. مدخلها الرئيسي يطل على طريق الدوكيمانوس ماكسيموس "Documanus Maximus"، غير أنه تنبغي الإشارة إلى أن أرضية الدوكيمانوس وأرضية الساحة ليستا بنفس المستوى، حيث ترتفع هذه الأخيرة عن الأولى بحوالي 2 م، ولذلك تم بناء درج مكون من 10 درجات ليتمكن الداخل للساحة العامة من الدخول مثلما نشاهد بالصورة؛ كانت الساحة المزينة بالكثير من التماثيل والغير مغطاة محاطة بأربعة أروقة بأعمدة كورنثية الطراز، ويلاحظ بالجهة الغربية لها الكوري "Curie" حيث تقام اجتماعات المجلس البلدي، وبالجهة الشرقية البازيليك القضائية كما يبدو واضحاً بمخطط فوروم تيمقاد، أما بالجهة الجنوبية للساحة فتتواجد مجموعة من الدكاكين[8] في حين خصص شمالها الشرقي لإقامة مراحيض عمومية .

4 - فوروم جميلة (Ciucul) : تعتبر جميلة واحدة من المدن التي عرفت ارتفاعاً في عدد سكانها خلال منتصف القرن الثاني الميلادي وبداية الثالث، مما أدى لانتشار المباني الخاصة والعامة وتوسيع مخططها الهندسي غير المنظم، ولذلك فهي من المدن التي وجدت بها ساحتين عامتين مثلما نرى بمخطط المدينة: واحدة قديمة صغيرة والثانية جديدة شُيِّدت عرفت بساحة السفيريين؛ مساحة الفوروم القديمة حوالي نصف هكتار يحاذيها الكاردو ماكسيموس الذي يمر على طول المدينة، عثر بساحتها على الكثير من الإهداءات لبعض المعبودات مثل جوبيتر "Jupiter"، مارس "Mars" وغيرهما، وأيضاً لبعض الأباطرة كهادريانوس وفلافيوس كلوديوس يوليانوس "Flavius Claudius Julianus" (361 – 363) وكذا لشخصيات مرموقة شغلوا منصب ليغاتوس وحاكم المدينة، وإهداءات لشخصيات محلية جارجيليا ماركيانا "Gargilia Marciana"[9] التي أهدى لها زوجها وأبنائها الثلاثة سنة 225 تمثالاً وضع في الساحة العامة؛ تطل على الكابيتول من الشمال الشرقي وسوق كوزنيوس من الشمال الغربي أما من الجهة الغربية فبازيليك يوليا، في حين معبد جنتريكس "Genitrix" المهدى لفينوس الأم من الناحية الجنوبية الغربية .

أما الساحة الجديدة "Forum novum" أو ساحة السفيريين[10]، فمحاذية من الجنوب الشرقي لمعبد خصص لعبادة الأسرة الامبراطورية سنة 229 م في عهد ألكسندر سفيروس، وبعض المباني العامة والمعالم المدنية غرباً كقوس النصر المهدى لكراكلا، وبالقرب منه بني سوق الأقمشة "Basilica vestiaria" سنة 365 م أما شمالاً فيحدها بعض المنازل كمنزل كاستوريوس "Castorius"، ولقد تمّ ترميم رواق الفوروم الجديد أو ساحة السفيريين سنة 281 م بتمويل الفلامنيكوس توليوس ماكسيموس "Tullius Maximus" .

5 – فوروم زانة (*Diana Veteranorum*)[11] : تقع قرب زانة البيضاء التابعة لولاية باتنة، كانت الساحة العامة بهذه المدينة مبلطة ومستطيلة الشكل، غير أنه خلال العهد البيزنطي بني مكانها كنيسة بحجارة المباني

8. Gsell(S) , Monuments antiques de l'Algerie , T.I , Paris , 1901 , pp 121 – 125
9. Lancel (S) , L'Algérie antique . , p 101
10 .Gsell(S) , op.cit , p 126 ; Drici(S) , « Djemila , l'antique Ciucul » , in l'Algérie en héritage , art et histoire ,Institut du monde Arabe/Actes sud , France, Arles ,2003 , p 145 – 146
11. Gsell(S) , op . cit , p 127

المدنية الرومانية التي كانت محيطة بالفوروم، يحتمل أنه كان يزين مدخل الساحة العامة شرقاً قوس صغير، والذي عثر على عموده الأيمن بالواجهة الأمامية للكنيسة البيزنطية، أما قوس النصر ذو الثلاثة مداخل الذي شيد في عهد ماكرينوس "Marcus Opellius Macrinus" (217 – 218 م) فكان موقعه يحاذي الجهة الشمالية للفوروم عند تقاطع الكاردو ماكسيموس، أما قوس المدخل الذي كان يطل على الدوكيمانوس فيعتقد أنه أقدم من القوسين الآخرين بحوالي نصف قرن .

6 – فوروم عنونة (Thibilis) : مدينة عنونة تقع على بعد 25 كم جنوب غرب قالمة، ساحتها كبيرة ومستطيلة، مدخلها الرئيسي مزين بقوس مثلما نرى بصورة الفوروم وهي محفوفة بثلاثة أروقة ويحيط بها معبد وبازيليك ومنزل لعائلة الأنتيستي "Antistii" الثرية[12]، والتي اشتهرت خلال عهد ماركوس أوريليوس وكومودوس بفردين منها شغلا منصب قنصل .

7 – فوروم خميسة (Thubursicu Numidarum) : عرفت الساحة القديمة "Platea Vetus" بهذا الاسم من خلال نقيشة لاتينية[13]، ويبدو أن الساحة كانت موجودة في الحي الشرقي للمدينة آنذاك، كان يحاذيها معبد ذو طابع معماري بونيقي بأعمدة قصيرة وعريضة؛ أما الفوروم الحقيقية حسب ستيفان غزال[14] فبنيت في الجهة الغربية من المدينة، وكان مدخلها مزين بقوس بثلاثة أبواب، وبالقرب منها حمامات وهذه الحمامات ليست الوحيدة في المدينة حيث عثر على أخرى في الجنوب الشرقي للمدينة قرب الساحة القديمة.

8 – فوروم تازولت (Lambaeses)[15] : يبدو أن الساحة العامة لهذه المدينة كانت مربعة الشكل، ومحاطة بأروقة، ويوجد من حولها كابيتول ومعبد والكوري .

9 – فوروم تيبازة : هي عبارة عن ساحة غير مغطاة، طولها 50 م وعرضها 25 م، مدخلها الرئيسي من الجنوب، ويمكننا الدخول إليها أيضاً من الجنوب الغربي عن طريق الكريبتوبوتيكوس" cryptoporticus " أو الرواق المغطى والرابط بينها وبين البازيليك؛ يحيط بالساحة العامة ثلاثة أروقة من الجهات : الشرقية، الجنوبية والغربية، ولم يبق من معالم هذه الأروقة إلا قواعد الأعمدة التي كانت ترتكز عليها السقوف، ومثلها مثل بقية الساحات العمومية في الجزائر القديمة، كانت تتوسط مجموعة من المباني المدنية[16] العامة كالكابيتول من جهتها الشمالية والكوري من الناحية الشمالية الشرقية والبازيليك القضائية من الجهة الجنوبية .

10 - فوروم تيديس (Castellum Tidditanorum)[17] : تقع على بعد 30 كم شمال غرب قسنطينة. ويتضح من خلال ما تبقى من أطلال الساحة العامة الصغيرة ثلاث قاعات، واحدة منهن كانت مخصصة لاجتماعات المجالس البلدية، ونظراً لطبيعة المدينة الجغرافية باعتبارها منطقة جبلية يمكن القول أن جزءاً من المدينة، كان منخفضاً عن الفوروم المرتفع، مما أدى لبناء درج يحتوي ما يقارب 40 درجة ليربط هذا الجزء المنخفض من المدينة والدوكيمانوس ماكسيموس بحي الفوروم المرتفع .

وأما بالنسبة لبعض الساحات العمومية الخاصة بمدن الجزائر القديمة الأخرى، فلازال لا يُعرف عنها أحياناً إلا ذكرها من خلال بعض النقوش أو بعض المصادر الأدبية، لأنه لم يبق من آثارها أي شيء، مثلما هو

12. Ibid , p 119 – 120
13 .CIL VIII , 4878
14. Gsell(S) , p 61 ; 118
15. Ibid , p 128 ; 129 n° 1
16. Bouchenaki(M) , Tipasa , éd., ENAG , A lger , 1988 , p 53 – 57
17. Lancel(S) , op.cit , p 116 – 117

الأمر بالنسبة لفوروم قسنطينة (Cirta) التي ذكرت في نقيشتين[18]، وفوروم مداورش (Madauros) التي ورد ذكرها في رسالة الخطيب ماكسيموس للقديس أوغسطينوس[19]، وفي رد هذا الأخير عليه، أما فوروم قالمة (Calama) فتمت الاشارة إليها من خلال نقيشة ترجع للقرن الرابع الميلادي، في حين نجد نقيشة أخرى ترجع للقرن الأول الميلادي تتحدث عن فوروم سكيكدة (Rusicade)، ونقيشة تذكر فوروم سور الغزلان (Auzia) وأخرى تشير لفوروم بجاية (Saldae)، أما فوروم هنشير القُصات[20] الواقعة جنوب شرق خنشلة فتم التعرف على فورومها من خلال نقيشة ترجع لفترة متأخرة .

الخاتمة:

تعتبر الساحات العمومية معلماً من المعالم التاريخية والأثرية، التي تشهد على حقبة تاريخية ثرية ومميزة ، تشير إلى تعايش الأجناس والأثنيات رغم اختلاف أصولها، وتدل على حسن استغلال مساحة المدينة والتنويع في معالمها المدنية والحضارية، من خلال اختيار مركزها للفوروم، ومهما اختلفت مساحتها من مدينة الى أخرى وسواء أطل موقعها على البحر، أو كانت بمكان مرتفع في المدينة أو منخفض، فإنما أنشئت بغرض تيسير مهمة اللقاء وتبادل الأحاديث ومختلف الاهتمامات لجماعة المواطنين، وحتى تساهم في تسهيل مهمة انخراط الفرد في المجتمع.

18. CIL VIII , 7046 ; 7013
19 .Saint Augustin , Lettres , XVI – XVII
20 .Calama : CIL VIII , 5178 = 17268 ; Rusicade : CIL VIII , 7986 ; Auzia : CIL VIII 9067 ; Saldae : CIL VIII , 8935 ; Henchir Gouçat , CIL VIII , 10704 ; Gsell(S) , op.cit , p 129 n ° 4

الملاحق:

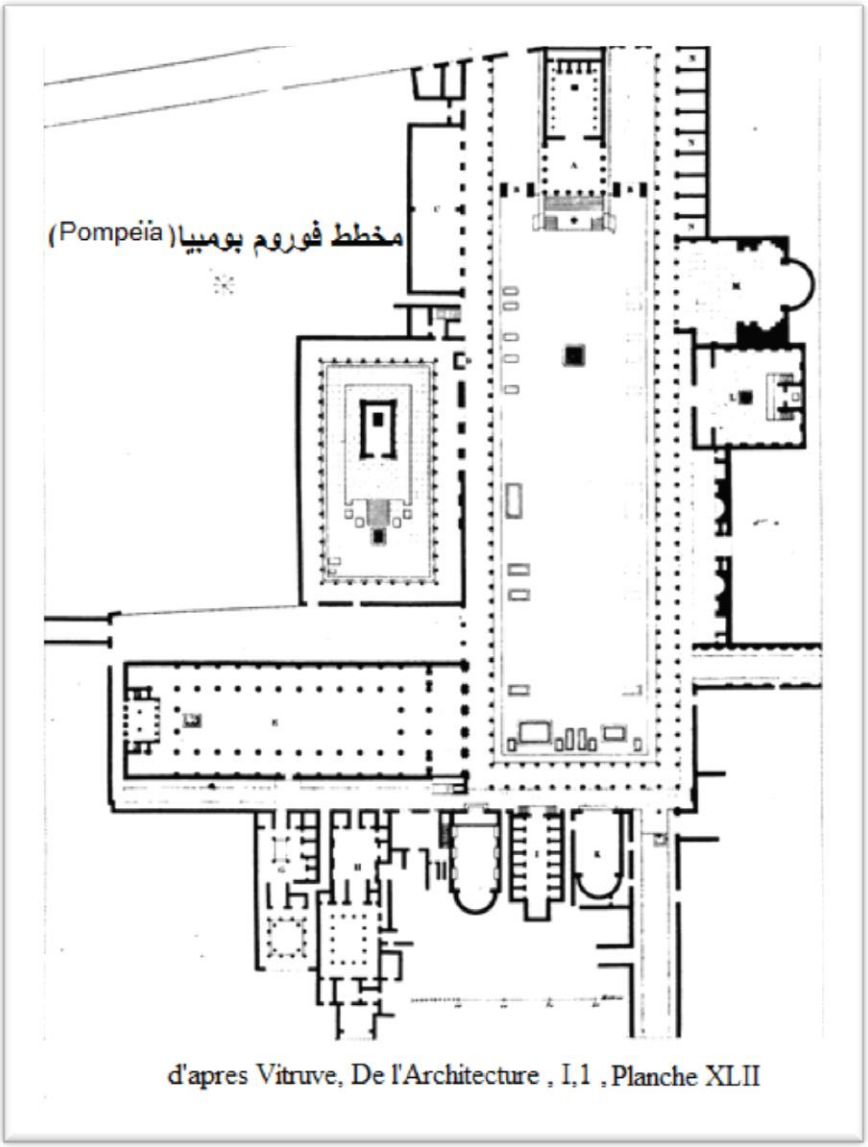

d'apres Vitruve, De l'Architecture , I,1 , Planche XLII

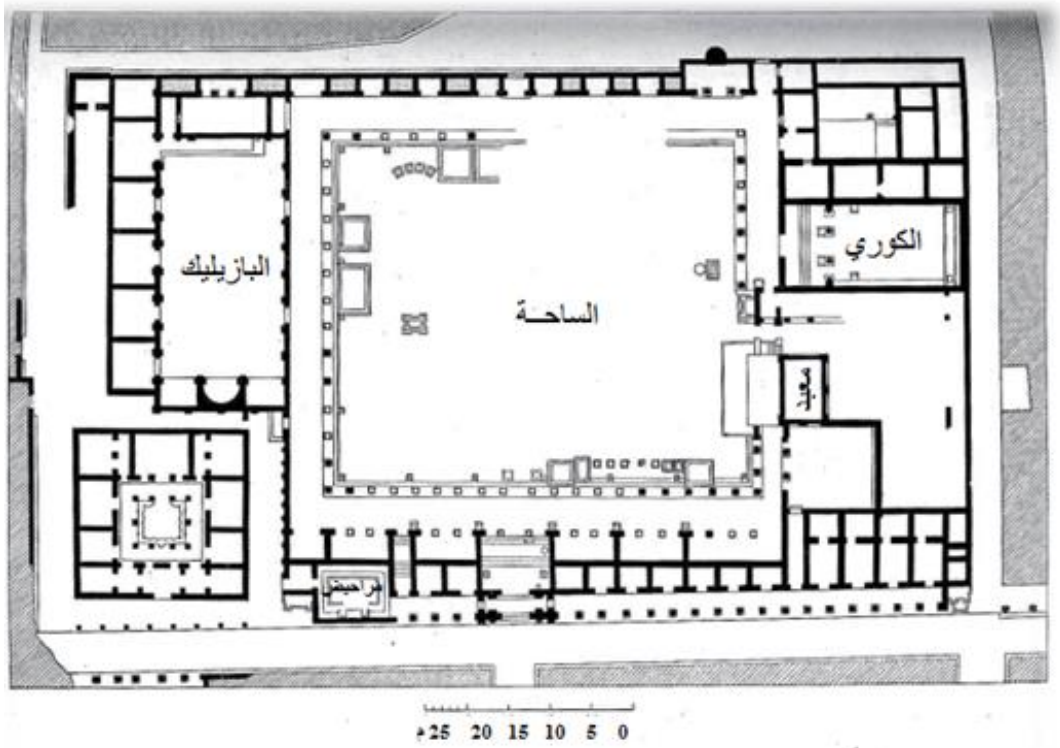

مخطط فوروم تمقاد

Gsell(S) , Les Monuments .,T.I , p 123 ,

المدخل الرئيسي لفوروم تمقاد

الفوروم القديمة بجميلة

فوروم عنونة (Thibilis)

أطلال فوروم تيديس

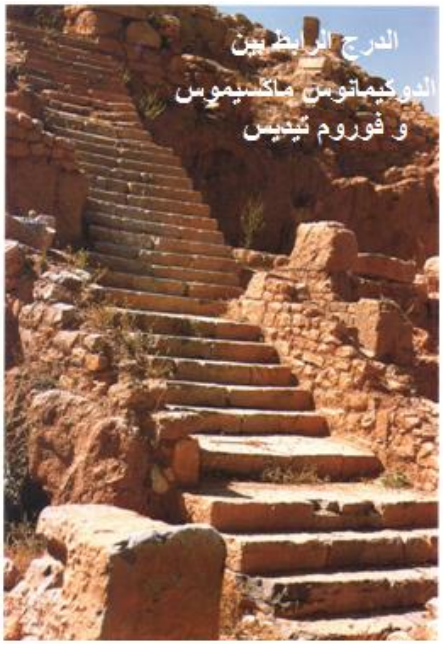
الدرج الرابط بين الدوكيماتوس ماكسيموس و فوروم تيديس

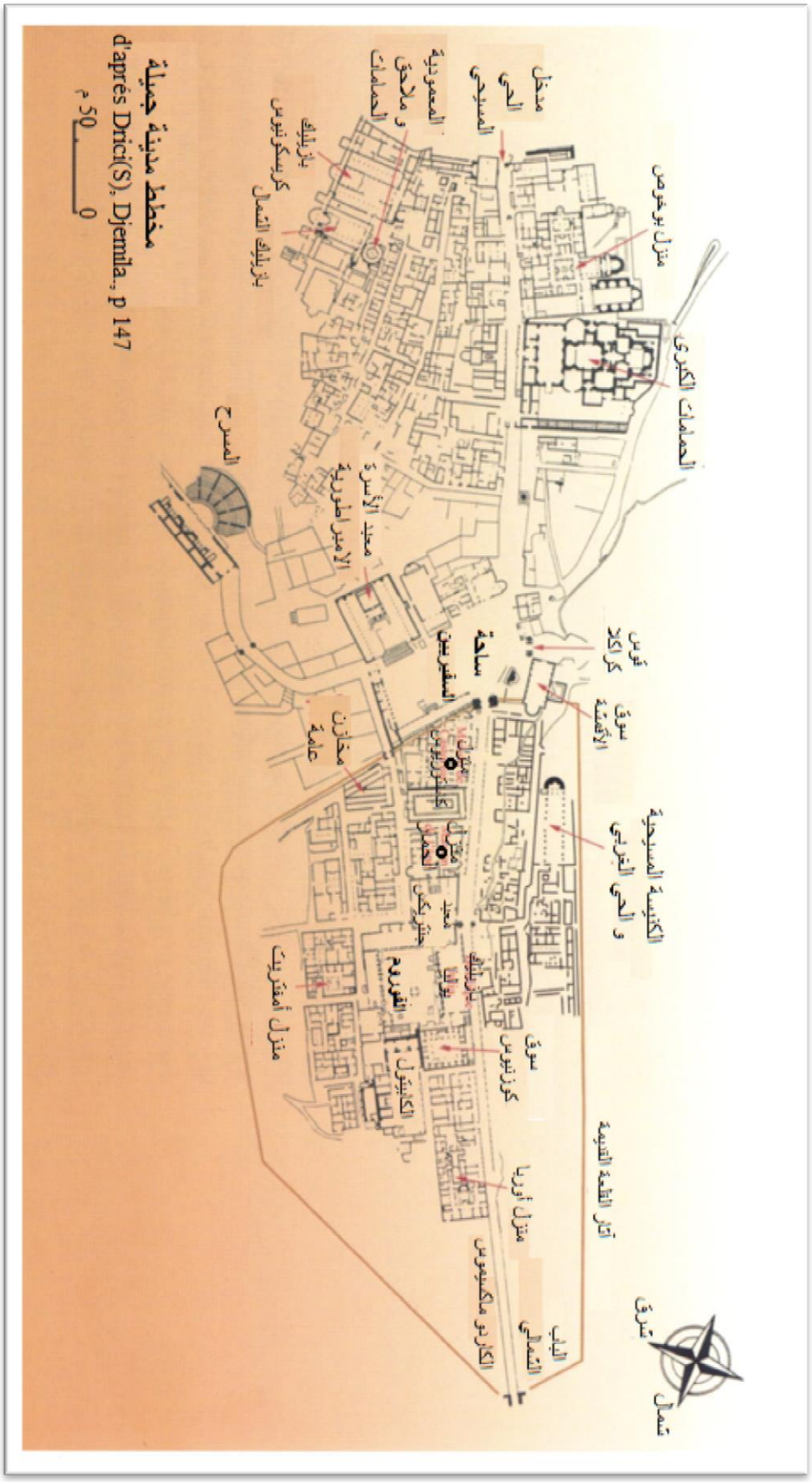
مخطط مدينة جميلة
d'après Dricí(S), Djemila., p 147
0 50 م
مدخل الحي الشرقي
المعمودية و ملحق الحمامات
بازيليك كريسكونيوس
بازيليك الشمال
منزل بوخوص
الحمامات الكبرى
المسرح
معبد الأسرة الامبراطورية
قوس كراكلا
ساحة السفرين
سوق الأقمشة
مخازن عامة
الكنيسة المسيحية و الحي الغربي
منزل الحمام
معبد
بازيليك
بوليا
سوق كرزنيوس
الفوروم
الكابيتول
منزل أمفتريت
منزل أوربا
الكاردو ماكسيموس
أثار القلعة البيزنطية
الباب الشمالي
شرق
شمال

السلطة الزمنية بالإمبراطورية البيزنطية ورسمها للسياسة الدينية بالكنيسة المسيحية بين عقيدة التوحيد والثالوث المقدس فيما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين

The temporal authority of the Byzantine Empire and its formulation of religious policy in the Christian Church between the doctrine of monotheism and the Holy Trinity between the first and fifth centuries AD

د. سعيد محمد سعيد غريدة
أستاذ التاريخ الأوربي الوسيط والعلاقات بين الشرق والغرب
عضو هيأة التدريس بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية البيضاء - ليبيا

(السلطة الزمنية بالإمبراطورية البيزنطية ورسمها للسياسة الدينية بالكنيسة المسيحية بين عقيدة التوحيد والثالوث المقدس (فيما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين)

(The temporal authority of the Byzantine Empire and its formulation of religious policy in the Christian Church between the doctrine of monotheism and the Holy Trinity between the first and fifth centuries AD)

Abstract :

The early Christianity has written many scientific studies ,However , studies including issues of unification and triangulation Although the doctrine of Trinitarianism has become a Christian doctrine to the present day , the study of history tells us that the doctrine of Trinitarianism was not the prevailing doctrine of Christians in the early ages , but the doctrine accepted and accepted by the temporal authority of the Byzantine emperor Constantine I (306-337AD) and during his reign he fought with followers of the monotheistic approach , including rev, Arius of the Arian sect , who denied the divinity of Christ and the doctrine of the Holy trinity in the Byzantines , which is in favor of the doctrine of trpartism and temporal authority , thus exposing them to deprivation and wxile , All this is part of the religious policy of the Christian Church at that time in accordance with the polisy and the temporal authority over every one , Hence , this study examines the temporal power of the Christian Church and its policy and doctrine trinity and the Holy trinity .

تقديم :

بسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله القائل { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } سورة آل عمران (19)

وقال سبحانه وتعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا } سورة النساء (171)

لقد كُتب عن المسيحية الأولى الكثير من الدراسات العلمية ، ومع ذلك فإن الدراسات عن هذا الموضوع لم تستنفذ بعد ، وخاصة الدراسات المتعلقة بمقارنة الأديان ، لقد كانت فكرة الكتابة حول هذا الموضوع تداعبني منذ سنوات ، وكنت كلما درست شيئاً عن تاريخ المسيحية اجد في نفسي رغبة للبحث في الانحرافات التي ادخلت على الرسالة السماوية التي جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام دعوة إلى توحيد الله تعالى ، ورأيت أن هذا الجدل احتدم بين المسيحيين انفسهم خاصة المسيحيين الأوائل حول قضايا كثيرة، ومنها قضايا التوحيد والتثليث ، وعلى الرغم من أن عقيدة التثليث أصبحت عقيدة مسيحية سائدة إلى يومنا هذا ، وأصبح المسيحيون الموحدون أقلية بين الطوائف المسيحية الأخرى، إلا أن التاريخ يخبرنا أن عقيدة التثليث لم تكن العقيدة السائدة لدى المسيحيين في العصور الأولى المسيحية ، ولكنها كانت العقيدة التي لاقت تأييدا واستحسانا من السلطة الزمنية المتمثلة في الإمبراطور البيزنطي ، منذ عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول الذي تولى حكم الإمبراطورية البيزنطية في سنة 306 ميلادية حتى سنة 337 ميلادية.

وخلال فترة حكم هذا الإمبراطور عمل بكل ما يستطيع من قوة لترسيخ أسس عقيد التثليث ، كذلك سار على نهجه بعض الأباطرة البيزنطيين فحاربوا أتباع المنهج التوحيدي ومنهم القس أريوس صاحب المذهب الأر يوسي، الذي ينكر ألوهية السيد المسيح وعقيد الثالوث المقدس ، وينكر كل من يخالفه ، حيث وقف ضد أراء الكنيسة المؤيدة لعقيدة التثليث والسلطة الزمنية المتمثلة في الإمبراطور البيزنطي التي دعمت اثناسيوس بطريرك كنيسة الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، الذي تصدى للآراء القس أريوس فيما يراه في العقيدة المسيحية ، وبذلك تعرض أريوس للحرمان والنفي ، وكل ذلك كان على ما نعتقد يأتي في رسم للسياسة الدينية للكنيسة المسيحية آنذاك، وبما يتماشى وسياسة وبقاء السلطة الزمنية وخضوع الجميع لها ، بما فيها الكنيسة المسيحية .

ومن هنا كانت هذه الدراسة التي نناقش من خلالها تدخل السلطة الزمنية في أمور الكنيسة المسيحية ورسمها لسياستها بما يتماشى وسياسة الإمبراطور البيزنطي تحت عنوان **السلطة الزمنية بالإمبراطورية البيزنطية ورسمها للسياسية الدينية بالكنيسة المسيحية بين عقيدة التوحيد والثالوث المقدس فيما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين** ، وقد قسمت الدراسة إلى ثلاثة مباحث تناول المبحث الأول انتشار المسيحية في الإمبراطورية البيزنطية والاعتراف الأول بمرسوم ميلان سنة 313م

. والمبحث الثاني يناقش موقف السلطة الزمنية ورجال الكنيسة من أراء القس أريوس في عقيدة التوحيد .أما المبحث الثالث فهو بعنوان المجامع الكنسية وسياسة التحول من التوحيد إلى عقيدة التثليث .

وتكمن أهمية الدراسة في كشف النقاب عن التدخل المباشر للسلطة الزمنية ، أي سلطة الإمبراطور البيزنطي و تكييفه لقرارات الكنيسة المسيحية بما يتوافق وسياسة الإمبراطورية البيزنطية ، وفرض الهيمنة السياسية على الكنيسة الشرقية .

هدف الدراسة يتركز في توضيح الغموض الذي يكتنف الدور الحقيقي للكنيسة وموقفها من تدخل السلطة الزمنية في مسائل الكنيسة والقضايا الجوهرية التي تمس العقيدة المسيحية الصحيحة ، وخاصة مسألة عقيدة التوحيد ، وكذلك اضافة دراسة جديدة في تاريخ الكنيسة المسيحية بالعصور الوسطى .

اشكالية الدراسة : تقع اشكالية الدراسة في محاولة الاجابة عن التساؤلات الآتية:

من أين جاءت عقيدة التثليث أو الثالوث المقدس ؟ وماهي الجذور التاريخية لهذا المعتقد ؟ وكيف اتفقت السلطتين الزمنية والروحية على محاربة عقيدة التوحيد ؟ ولماذا رسمت هذه السياسة لفرض معتقد الكنيسة على الطوائف الأخرى ؟ وما هو الغرض من تلك السياسة ؟ وما مدى استمرار هذا الموقف ضد أتباع معتقد التوحيد ؟

المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج السردي التاريخي ومقارنة المعلومات من المصادر والمراجع بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية .

هذا ومن الله التوفيق

المبحث الأول /

المسيحية في الإمبراطورية البيزنطية والاعتراف الأول بمرسوم ميلان 313م

مثل اعتراف الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول Constantine I (306-337م)[1] بالديانة المسيحية كدين معترف به من بين الأديان بالإمبراطورية الرومانية فيما سمي (بمرسوم ميلان عام 313م)[2]، بداية دخول الدين تحت سلطة الدولة ، أي رسم السلطة الزمنية لسياسة السلطة الروحية أو سلطة الكنيسة ، وهو ما شهد تطورات لاحقة، خلفت آثاراً عميقة على الجانبين الجانب الروحي والجانب الزمني على حد سواء، فقد كان الإمبراطور قسطنطين الأول يعمل بسياسة أنه نائب الله على الأرض ، وموكل من قبل العناية الإلهية بأمر عظيم ،ويعمل على ترسيخ هذا المفهوم في الإطار السياسي والديني والاجتماعي [3] فهذا التحول للإمبراطورية الرومانية من الاضطهاد الديني لاتباع الديانة المسيحية ومناوئة الدين الجديد إلى الاعتراف به في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول ، يعتبر نوع من التطبيع في العلاقة بين الديانة المسيحية والإمبراطورية (أي السلطة الزمنية)حين ذاك ، وقد ابتهل وسر بذلك أتباع الدين المسيحي المستضعف، وبثت فيهم أملاً وحماساً ، حينما تصالح الإمبراطور معهم ومع عقيدتهم ، ولكنه دفع بالبابوية إلى مستوى ثانوي ، وإلى دور تابع جراء نفوذ الإمبراطور البيزنطي القوي ، حيث استمرت تلك الغلبة للسلطة الزمنية قرونا عدة ، إلى حدود مطلع القرن الثامن الميلادي، حتى لاحت بوادر تنافس بين السلطتين الدنيوية والكنسية، أفرزت جدالات وصراعات طاحنة ، ودخلت العقيدة جراء ذلك في أوضاع مضطربة .[4]

وكانت مواقف أباء الكنيسة الأوائل وخاصة الموقف (الأوغسطيني)[5] في بداية الأمر قد خيم بظلاله على القرون الوسطى، وامتد إلى عصر القديس (توما الأكويني)[6]، ومهد إلى الفصل البين بين الكنيسة والعالم الدنيوي ، لكن دعوة القديس أوغسطين، بقيت في الواقع منحازة لخضوع السلطة الروحية إلى السلطة الزمنية ،[7] وهو ما تجلى في موقفه المناوئ للحركة (الدوناتية) [8]، التي حكم الكاثوليك الروم على أتباعها لكونهم أفارقة أولا، ثم مسيحيين ثانيا بأنهم مناوئين للكنيسة الكاثوليكية ، [9] وكذلك رفضهم رومنة المسيحية، فاعتبرتها روما من الفرق المهرطقة الضالة.

ومهما تكن طبيعة التحول الذي أقدم عليها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول ، فإن اعترافه بالديانة المسيحية وإيمانه بالإرث الروماني ، دفعاه إلى الاقتناع بأن عليه أن يأخذ بزمام المبادرة لإيجاد وحدة عقيدية وتنظيمية داخل الكنيسة المسيحية ، ولهذا فقد دعا وترأس أول مجمع مسكوني عرفته الكنيسة المسيحية في مدينة نيقيه سنة **325م** ، وعلى هذا النحو جسد الإمبراطور قسطنطين الأول التفاهم بين الكنيسة والإمبراطورية ،[10] وقد وضع (الأسقف يوسبيوس Euesbius)[11] أسس نظرية السيادة المسيحية مؤكداً على عدم الاختلاف البين بين المدينتين (أي المدينة الدنيوية الدولة والمدينة الدينية الكنيسة) وعلى الإمبراطورية المسيحية باعتبارها حقاً زمنياً ، وإن كانت في الوقت ذاته مقدسة لكونها أداة إلهيه يحكمها إمبراطور يعد نائباً للإله على الأرض ، ومن ثم فإن لقب " الحواري الثالث عشر " أو قرين الرسل يعبران بصدق عن مكانة الإمبراطور قسطنطين الأول . [12]

فلما تم الاعتراف بالمسيحية في ميلان كان لابد أن تطرأ بعض التغيرات ، ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية الرومانية الإرث والتقاليد ، أقدمت في القرن الرابع الميلادي على التسامح مع المسيحية ، ثم اتخذتها عقيدة رسمية وابطلت العقائد الأخرى في زمن الإمبراطور البيزنطي ثيودسيوس الأول الذي حكم من (378-395م) ، بعد أن كان الاعتراف بها من ضمن الأديان في الإمبراطورية زمن الإمبراطور قسطنطين الأول ، فقد ترك هذا الاعتراف بالحقوق المسيحية أثاراً واضحة على السلطة الزمنية في اتجاهين ، الاتجاه الأول هو أن المفاهيم الهلنستية عن السلطة الإمبراطورية كان لابد أن يعاد النظر فيها ، وأن توضع من جديد في إطار الأفكار والعقيدة المسيحية ، والاتجاه الثاني أن الكنيسة المسيحية بمتطلباتها الخاصة وادعاءاتها بالسيادة على كل المسيحيين ، كان لابد من دمجها في إطار أداة الحكم أي السلطة الزمنية .[13]

أما فيما يتصل بسلطة الإمبراطور فإنه لم يكن من الصعب ملء هذه المساحة وتصدر المكانة ، فلم يعد ينظر للإمبراطور البيزنطي على أنه إله فحسب ، بل أصبحت تُرى فيه القداسة إمبراطوراً مقدساً اختير من الله ليكون ممثلاً لله على الأرض ونائباً عنه أمام الرعية ، وتفيض الآداب والأعراف البيزنطية بتوضيح هذه الصلة الوثيقة بين الله ونائبه ، وهذا تؤكده نظرية يوسيبوس القيصري في القرن الرابع الميلادي التي تقول **" بأن رسالة المسيحية هي أن تحل على الأرض مملكة مسكونية "** (أي مملكة دينية)، وقد اصبح عند البيزنطيين تشبيه المسئوليات الإمبراطورية أي أعمال السلطة الزمنية بتلك التي تتعلق بالقديس (بطرس الرسول) [14] **" فحيث أن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية ، كما قضت بذلك مشيئته ، فقد أمرنا أيضاً مثل ما أمر بطرس الرسول ، أن نطعم شعبنا المؤمن "** [15]

لكنه في حقيقة الأمر أن سلطة الإمبراطور الممثل للسلطة الزمنية ، تعدت سلطته سلطة بطرس الرسول أي سلطة الكنيسة ، من حيث الواقع التاريخي لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، حيث يبرهن التاريخ أن الكنيسة كانت جزء من الدولة ، كما كانت في جميع الوجوه تحت الإشراف العام للإمبراطور البيزنطي ، ولم يكن التمييز بين ما لقيصر وما لله واضحاً تماماً في الإمبراطورية المسيحية **Imperium Christianum** ، خاصة في الإمبراطورية الشرقية التي عاصمتها القسطنطينية .[16]

وجرت العادة أن يتوج الإمبراطور البيزنطي بيد بطريرك الكنيسة في القسطنطنية وكان هذا بعد عصر الإمبراطور قسطنطين الأول ، مع اختلاف الآراء حول المغزى من التتويج طالما أن السلطة العليا هي سلطة الإمبراطور البيزنطي ، فرأى البعض أن التتويج يعد شيئاً جوهرياً وأنه يمنح السلطة الإمبراطورية الشرعية ، بينما اعتبرها أخرون أن السلطة الإمبراطورية كانت هي السائدة ومستقلة عن التتويج الذي يتم بيد البطريرك ، وهو لم يكن شيئاً ثابتاً وجامداً ، بل كان عرضة للتغيير ، أي يدخل في نظام البروتكولات الإمبراطورية ،[17]

ويقول نورمان بينز أن هذا التتويج كان يتم باعتبار الإمبراطور ممثلاً للناخبين أي الشعب وليس ممثلا للكنيسة وهو لم يكن امراً اساسياً .[18] فقد كان الإمبراطور يتحمل مسئولية كل شيء ، فهو من يراقب تطبيق القانون والنظام بين رعاياه ، الكنسيين والعلمانيين على السواء ، وهو الذي يختار رجال (الأكليروس)[19] ومنه يخرج مرسوم رسامة بطريرك الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية ، ويعلن بنفسه

نص المرسوم ،كما ذكرته المؤرخة هسي في كتابها العالم البيزنطي " تم تعيين هذا الرجل أسقفاً لكنيسة القسطنطينية بنعمة الله وبسلطتنا المستمدة من فضل الله " [20] ويرى بيوري J.B.Bury أن الأباطرة ينظرون إلى التتويج على أنه أمراً حيوياً بالنسبة لهم ، فإن البطريرك بصفته الإكليروسية ومركزه في الكنيسة يؤدي طقس رسامة الإمبراطور كنائب للمسيح ، [21] وفي اعتقادي أن المؤرخ بيوري يرى أن التتويج من واجبات البطريرك ، وأنه من البروتكولات وهو في بيزنطة لا يعني إلا نوع من المراسيم والاحتفالات .

المبحث الثاني /

موقف السلطة الزمنية ورجال الكنيسة من أراء القس أريوس Arius وإرساء عقيدة التثليث :

ترأس الإمبراطور قسطنطين الأول المجمع الكنسي الأول الذي دعا إليه في مدينة نيقيه سنة **325م** ، وبذلك استن سياسة جديدة في المجامع الكنسية وإدارة جلساتها برئاسة الإمبراطور الممثل للسلطة الزمنية ونائب الله على الأرض ، برغم أن الإمبراطور قسطنطين إلى هذه الفترة لم يكن مسيحياً ولم يعمد إلا وهو على فراش الموت ، [22] الأمر الذي يجعلنا نتسأل كيف يكون رئيساً للمجمع ديني كنسي عالمي ، يعقد لأول مرة على مستوى العالم المسيحي آنذاك وهو لم يكن مسيحياً برغم اعترافه بالمسيحية سنة 313م في مرسومه الذي اصدره في ميلان ، هكذا وضعت السلطة الزمنية يدها على الكنيسة المسيحية واصبحت المجامع الكنسية تعقد بدعوة من الإمبراطور البيزنطي وتحت رئاسته .

وفي هذا يقول المؤرخ سعيد عبدالفتاح عاشور : أما المشكلة الكبرى التي قسمت المسيحيين وبالتالي العالم الروماني ، وأثارت البغضاء الدينية والسياسة بينهما ولمدة قرنين من الزمان، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب ، ذلك أنه حدث خلاف بين أثنين من رجال الكنيسة بالإسكندرية وهما (أريوس)[23] **Arius** وهوكاهن اسكندري مثقف يرى " أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن ، ولما كان المسيح الابن مخلوق للإله الأب فهو إذن دونه ، ولا يمكن باي حال أن يعادل الابن الإله الأب في المستوى والقدرة ، وبعبارة أخرى فإن المسيح مخلوق وليس إله بمعنى هذه الكلمة المطلق ، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة إلهين ،[24] وكان (أثناسيوس) **Athanasius** [25] يقول بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن الابن مساوياً للإله الأب تماماً في كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد ، وإن كانا شخصين متميزين ، وهكذا كان أنصار أريوس من الموحدين ، ومن المثقفين لأنه كان يريد يقيم العقيدة المسيحية على المنطق والعقل ، في حين كان المذهب الأثناسيوسي يستقيم وتفكير الكنيسة وتأثيرها على عامة الناس من البسطاء .[26]

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع وشغل كنائس الشرق والغرب ، وقف الإمبراطور قسطنطين في مجمع نيقيه الأول سنة 325 م مع (381) من الأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية ، ليعلن **قانون الإيمان** الذي جعل المسيح إلهاً ومساوياً للأب الإله في المكانة والمنزلة والقدرة ، وماعدا ذلك يعتبر هرطقة ، فالمسيح في قانون الإيمان " إله من إله ونور من نور وإله حق من إله حق ومولود غير مخلوق

" وأدان المجمع أريوس Arius وحرم تداول آرائه وكتاباته وتقرر نفيه ، برغم رفض الأريوسيين لهذه القرارات وهذه الأحكام الصادرة في حق القس أريوس .[27]

ويلخص لنا المؤرخ السيد الباز العريني نتائج هذا الحدث المهم والعظيم في تاريخ الكنيسة المسيحية ، أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول لم يقف عند حد دعوة المجمع الكنسي في نيقيه والوقوف على أعماله وترأس جلساته فقط ، بل كان له أثر بارز ، ودور كبير، على القرارات التي اتخذها هذا المجمع الديني ، على الرغم من أن الإمبراطور لم يكن وقتذاك من رجال الكنيسة ، لأنه لم يتنصر ولم يتم تعميده وتنصره إلا على فراش الموت سنة 337م ، وقد تصرف على أنه زعيم للكنيسة ، وبهذا التصرف والإجراء أوجد سابقة سار عليها من جاء بعده من الأباطرة البيزنطيين كسادة للكنيسة المسيحية ، وأهم المسائل التي ناقشها المجمع آراء القس أريوس السكندري ، الذي أعلن بطلانها وقرر أن المسيح إله وأنه من نفس جوهر الأب ، ومن ثم أخذت العقيدة الدينية المسيحية تتخذ صورتها وشكلها ، التي رسمها الإمبراطور .[28]

وقد أيد المجمع المسكوني الذي اقيم في القسطنطينية الذي انعقد في سنة 381م ما وضعه الإمبراطور قسطنطين من سياسة التعاون بين الكنيسة والدولة ، استفاد منها الجانبان ، السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، إذ أن الكنيسة المسيحية وهبت الإمبراطورية البيزنطية وحدة روحية قوية ، وأمدت الاستبداد الإمبراطوري بتأييد أدبي قوي ، أما الكنيسة فازدادت ثروتها بما حصلت عليه من الدولة من الأملاك والأموال والحبوب فظلاً عن اعفائها من الضرائب والواجبات [29]

وأسهمت السلطة الزمنية في مساعدة الكنيسة على القيام بالأعمال التبشيرية ، وفي الوقوف معها ضد أعدائها ، وهذا التأييد يدل على أن الكنيسة اعتمدت اعتماداً كبيراً على السلطة الزمنية ، كما أن السلطة الزمنية تدخلت فيما وقع بين المذاهب الكنسية من مجادلات دينية ، فالجدل في الكنيسة لم يعد أمراً خاصاً بالكنيسة وحدها ، بل تأثر بسياسة السلطة الزمنية ، ولا نريد هنا أن ندخل في الصراع بين السلطة الزمنية والمذاهب المناهضة للكنيسة الأرثوذكسية ، فذاك الصراع قد استمر خاصة أن أراء القس أريوس لم يقضي عليها ما أصدره مجمع نيقيه ببطلانها ، بل أن الإمبراطور قسطنطين أدرك قوة هذا المذهب ، وتبين له مدى انتشاره في الشرق ، بل أنه تسرب إلى دوائر القصر الإمبراطوري نفسه، ودان به عدد كبير من رجال الحكومة ، وبذلك غير الإمبراطور اتجاهه وسياسته في التعامل مع الأريوسية ، وألزم الكنيسة بأن تعفوا عن أريوس وتقره في كنيسته ، رغم اعتراض أثناسيوس على عودته والإعفاء عنه إلا أن الإمبراطور قسطنطين استدعاه وهو على فراش الموت ليعمده على مذهبه كما تؤكد العديد من المصادر التاريخية .[30] ويشار إلى أنه كان قد عقد مجمع ديني جديد في صور سنة 334م اعفى فيه عن أريوس واتباعه [31]، وهذا التصرف من جانب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين يؤكد الرأي القائل بأن الإمبراطور كان على استعداد تام لتغيير ميوله الدينية والمذهبية وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية ، وهذا ما كان عند الأباطرة البيزنطيين .[32]

المبحث الثالث /

المجامع الكنسية وسياسة التحول من عقيدة التوحيد إلى عقيدة التثليث :

تأتي أهمية دراسة المجامع الكنسية في الديانة المسيحية كونها تتصل بقضية التثليث في العقيدة ، فهي التي بُني من خلالها التطور الفلسفي واللاهوتي للعقيدة المسيحية ، والتي نصت عليها قرارات المجمع المسكوني الأول الذي عقد في مدينة نيقيه سنة 325م ، وهو ما جرت عليه الكنائس المسيحية والمجامع المسكونية من عقيدة ونظام ، وبذلك كان هدف المجامع المسكونية هو التأكيد على ترسيخ عقيدة التثليث ، وبطلان كل ما يخالفها من أراء في العقيدة وحرمان كل القائلين بغير ذلك .[33]

وحسب رأي بعض المؤرخين أن فكرة عقد المجامع الكنسية المسيحية ، جاءت بعد ترك السيد المسيح لأتباعه لنشر الدعوة التي بشر بها ، وبعد حوالي أثنين وعشرين سنة تقريباً من تركهم للسيد المسيح عليه السلام ، قاموا بعقد مجمعاً في مدينة القدس ، ومن خلال هذا المجمع قرر التلاميذ (أي تلاميذ السيد المسيح) عدم التمسك بشريعة التوراة وما بعدها من الأسفار الخاصة بالعهد القديم ، وحول هذا يقول سفر الأعمال الإصحاح الخامس عشر : أنهم سنوا للمسيحيين طريقة جمع المجامع لتدارس ما يتصل بمسائل العقيدة المسيحية .[34]

وإن أهم المجامع التي لها صلة بقضايا العقيدة وخاصة عقيدة التوحيد وعقيدة التثليث هي أربعة مجامع كنسية أولها المجمع المسكوني الأول في نيقيه سنة 325م ،[35] والسبب الذي عُقد من أجله والمشكلة الأساسية هي فلسفة القس أريوس Arius في الأبن والأب ووحدانية الله وهي عقيدة التوحيد ، الذي قال أن الابن لا يمكن أن يساوي الأب جوهراً وقدسية وأزلية ، [36] ويعتقد البعض أن أراء أريوس مستمدة من مدرسة أنطاكية ، التي مارست نشاطها منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ، وإن المؤسس لتلك المدرسة الفكرية يدعى لوقيان Lucian السوري .[37]

وكانت القرارات التي اصدرها مجمع نيقيه هي رفض الآراء الأريوسية ، كما ذكرنا سابقاً ، وأكد المجمع على أنه لا يمكن أن يكون المسيح نصف إله أو مخلوق متفوق ، بل هو إله من إله ونور من نور ، وأنه أزلي وليس مخلوق وهو من نفس جوهر الأب ، كما نظر المجمع إلى شؤون الكنيسة التنظيمية فأعترف بثلاثة مراكز كبرى (بطركيات) بالكنيسة المسيحية على أن روما والإسكندرية وأنطاكيه في المراتب الأولى ، وفي المرتبة الرابعة تأتي القدس ولو أنها كانت تابعة لبطريكيه هرقليا، لأنها المحل الذي صلب المسيح فيه ورفع إلى السماء ، ولم يتعرض المجمع لكنيسة القسطنطينية لأنها حتى ذلك التاريخ لم تنشأ بعد .[38]

والمجمع المسكوني الثاني هو مجمع القسطنطينية سنة 381م في عهد الإمبراطور البيزنطي ثيودسيوس الأول (378-395م) ،[39] على أن هذا المجمع عمل على توسيع قرارات المجمع السابق في نيقيه وأكد عليها ، وعالج بصورة خاصة الضلع الثالث من الأقانيم الثلاثة وهو الروح القدس **Holy Spirit** وأكد على أنها في مرتبة الأب والابن ، وبذلك تصبح الأقانيم الثلاثة المعتمدة الأب والابن والروح القدس أقانيم العقيد المسيحية المقدسة ، ثم تم تعديل بعض القرارات التي صدرت في المجمع

الأول فيما يخص البطركيات ، حيث أن القسطنطنية أصبحت عاصمة الإمبراطورية ، لذا تقرر وضع كنيستها قبل كنيسة الإسكندرية في المكانة البطريكية ، أي أن تكون في المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، كما أن أسقف القسطنطنية تكون له شرف المرتبة الثانية بعد أسقف كنيسة روما .[40] وبذلك صدر قانون ثيودسيوس ضد الهراطقة الخارجين عن الكنيسة ، حيث حرم على من لم تصح عقيدته عقد الاجتماعات ، وسلم كل الكنائس الثالوثيين لأصحاب عقيدة التثليث [41]

وجاء مجمع أفسوس Ephesius سنة (431 م) المجمع المسكوني الثالث، الذي عقد في مدينة (أفسوس)[42] نتيجة أنه ظهر في انطاكية في أواخر القرن الرابع الميلادي مذهب يشير إلى أن الطبيعتين الإلهية والبشرية لم تتحد اتحاداً كاملاً في السيد المسيح ، وتطور هذا المذهب إلى القول بأن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة ، ونهى أرباب هذا المذهب عن تسمية العذراء بوالدة الإله ، واستبدل بها اسم "والدة المسيح" لأنها لم تلد إلهاً بل ولدت إنساناً،[43] وعند تولي بطريركية القسطنطنية (نسطوريوس)[44] تعصب لهذا المذهب وفرضه في الكنيسة ، وقام بمخاطبة الإمبراطور طالباً منه أن يطهر الأرض من المتهرطقين (يقصد أصحاب عقيدة التثليث)، فهاج الناس ضده بالقسطنطنية فقابلهم نسطوريوس بالشدة [45] ولكن كانت معارضة كيرلس بطريرك كنيسة الإسكندرية لنسطوريوس أشد وأقوى ، حيث تغلب عليه دينياً وسياسياً بفضل تأييد بابا كنيسة روما ومساعدة الرهبان له ، وعلى الرغم من أن الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (408- 450م) كان يؤيد نسطوريوس ، فإن ذلك لم يمنع المجمع المسكوني الثالث من الحكم عليه بالزندقة والإلحاد والنفي [46]

وقد تقرر في مجمع خلقيدونية سنة (451م)، وهو المجمع المسكوني الرابع بطلان رأي أصحاب مذهب (الطبيعة الواحدة) وهو ما سمي بالمذهب المونوفيزتي، فقال اتباعه : أن للمسيح طبيعة إلهية، منكرين أن للمسيح طبيعة بشرية، إلا أن كنيسة الإسكندرية التي كانت مهد المذهب المونوفيزتي لم تأبه لتلك القرارات. [47]

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي زينون (474-491)، التوفيق بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، وبين أصحاب مذهب الطبيعيتين، فنشر في يوليو سنة 482 م ، وبموافقة بطريرك القسطنطينية أكاسيوس، المرسوم الشهير المعروف باسم هينوتيكون أي مرسوم الاتحاد أو (الوحدة)، واعترف هذا المرسوم بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى، السابقة لمجمع خلقيدونية (451م) ، وقد تحاشى هذا المرسوم ذكر تعبير (مذهب الطبيعة الواحدة)، كمحاولة لإيجاد حل وسط ، الغرض منه اعادة الهدوء إلى مختلف الكنائس المسيحية ، والواقع انه كان من الصعب الوصول إلى أي توافق في المسائل الدينية، فلم يرض المرسوم أتباع مجمع خلقيدونية ، ولا أتباع المونوفيزتية ومن ثم زاد الخلاف بين الفريقين ، فضلا عن ذلك أعلن البابا فيلكس الثالث (483-492) بابا كنيسة روما ، رفضه لمرسوم الاتحاد، وأصدر قرار الحرمان ضد بطريرك القسطنطينية ، فرد الأخير بأن حذف ذكر أسم البابا من الشعائر الدينية، الأمر الذي أدى إلى شقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية .[48]

وهكذا رسم الأباطرة البيزنطيين سياستهم على الكنيسة المسيحية ووقفوا ضد عقيدة التوحيد واتباعها أينما كانوا ، ويعزي بعض المؤرخين واقع تسلط السلطة الزمنية على الكنيسة الشرقية ،

وخروج الكنيسة الغربية من نفوذ الأباطرة الشرقيين في نهاية القرن الخامس ، إلى ضعف الأباطرة الرومان ثم إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة (476م) ، وبذلك زادت سلطة البابوية وارتفع شأن البابا في روما ،[49]

ويذكر فشر[50] أنه لو ظل الأباطرة في روما لما أستطاع الباباوات في الكنيسة الغربية أن يتجنبوا المصير الذليل الذي آل إليه واقع الكنيسة الشرقية، بسبب تسلط الأباطرة الشرقيين حكام القسطنطينية .[51]

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن هناك فرق واضح بين علاقة السلطة الزمنية بالكنيسة الشرقية ، وعلاقتها بالكنيسة الغربية وخاصة بعد سقوط مدينة روما سنة 476 م ، وأن البابوية في الغرب نجت من تسلط الأباطرة في الشرق من حادثتين سياسيتين متداخلتين ، تغيرت بسببهما أوربا الغربية ، وهما انهيار الإمبراطورية الغربية ، و الغارات الجرمانية على الغرب ، ذلك أن اختفاء الأباطرة في الغرب مكن الباباوات من الحلول محل الأباطرة في الغرب .[52]

كما يجب أن نوضح أن هذه الظروف التي تهيأت للكنيسة في الغرب ، وابتعدت عن قوة وتسلط الأباطرة البيزنطيين ، واصبح الباباوات في روما يرون في أنفسهم لهم نفس مكانة الأباطرة في الشرق ، وأن لهم الحق في ممارسة سلطات شبيه بسلطات الإمبراطور، حتى أن البابا في روما اتخذ لنفسه لقب "الحبر الأعظم " الذي كان الأباطرة الرومان يتخذونه لأنفسهم ، إلا أن هذا التحول ومحاولة الاستقلال عن السلطة الزمنية في الشرق من قبل الكنيسة الغربية ، لم يأتي إلا في نهاية القرن الخامس الميلادي ، أي بعد سقوط مدينة روما ، كما أنه قبل هذا التاريخ كانت الكنيسة الغربية تحت سيطرة وسياسة الأباطرة في الشرق ، وقد شاركت في اعتماد سياسة المجامع الكنسية السابقة ، التي شكلت العقيدة المسيحية في شكلها النهائي.

وبعد هذه المغامرة البحثية، في هذا الجانب المعقد، من تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، رأينا أن السياسة والسلطة الزمنية بالإمبراطورية الرومانية الشرقية هي التي لعبت الدور الأكبر، في تحريف رسالة السيد المسيح، وهي التي رسمت السياسة الكنسية ، وشجعت وأثارت الخلافات المذهبية، خدمة لأهداف الأباطرة والباباوات، على السواء. وكان بإمكان رسالة السيد المسيح أن ترى النور ، وكان بالإمكان أن تتلاشى الخلافات المذهبية، لولا أن السياسة تدخلت وأفسدت كل شيء ، فأصبح العالم المسيحي شطرين: الشطر الأول- شرقي أرثوذكسي يوناني إغريقي بيزنطي ، والشطر الثاني- غربي كاثوليكي لاتيني روماني.

الخاتمة :

تبين لنا من خلال تناولنا لهذا الموضوع والذي ناقشنا من خلاله تدخل السلطة الزمنية بالإمبراطورية البيزنطية السياسية الدينية بالكنيسة المسيحية وتأكيدها على عقيدة التثليث ونبذها لعقيدة التوحيد

- إن اعتراف الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول (306 - 337 م) بالديانة المسيحية كدين معترف به من بين الأديان بالإمبراطورية الرومانية بموجب المرسوم الذي صدر في

مدينة ميلان عام 313م ، مثل بداية دخول الدين تحت سلطة الدولة ، أي رسم السلطة الزمنية لسياسة السلطة الروحية و سلطة الكنيسة.

- كان الأباطرة البيزنطيين يعملون بسياسة أنهم نواب الله على الأرض ، وموكلين من قبل العناية الإلهية بحكم الناس وسياسة أمورهم الدنيوية والدينية ،ويعملون على ترسيخها في الإطار السياسي والديني والاجتماعي ، وبذلك طبقوا هذا المفهوم من خلال رسمهم لسياسة الكنيسة المسيحية .
- إن تحول الإمبراطورية الرومانية من الاضطهاد الديني لاتباع الديانة المسيحية ومناوئة الدين الجديد إلى الاعتراف به في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول ، يعتبر نوع من التطبيع في العلاقة بين الديانة المسيحية والإمبراطورية حين ذاك .
- إن رضوخ الكنيسة المسيحية للسلطة الزمنية ووقوعها تحت سلطتها وتصرفها دفع بمركزها إلى مستوى ثانوي ، وإلى دور تابع جراء نفوذ الإمبراطور البيزنطي القوي.
- ساعد تغير مواقف أباء الكنيسة الأوائل وخاصة موقف القديس أوغسطين المتمثل في ضرورة خضوع السلطة الروحية إلى السلطة الزمنية ، بعد أن كانت أرائه تتمحور في الفصل البين بين الكنيسة والعالم ، هذا التغير كان له شأو كبير في رضوخ الكنيسة للسلطة الزمنية ولسيادتها عليها حتى الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي ، أي حتى سقوط مدينة روما عام (476م).
- مثل تاريخ سقوط مدينة روما على يد القبائل الجرمانية ، محاولة لخروج كنيستها من تسلط الأباطرة البيزنطيين ، ولو أن خروجها من تحت عباءة السلطة الزمنية جاء متأخراً ، خاصة بعد تحالفها معها لوضع سياسة العقيدة المسيحية في صورتها التي رسمتها السلطة الزمنية المتمثلة في عقيدة التثليث .
- أصبح الأباطرة البيزنطيين على رأس الكنيسة يعقدون مجالسها ويصدرون القرارات باسمها ، وبذلك استنوا سياسة جديدة في المجامع الكنسية وإدارة جلساتها برئاسة الإمبراطور الممثل للسلطة الزمنية ونائب الله على الأرض ، وقد كانت البداية من ترأس الإمبراطور قسطنطين الأول المجمع الكنسي الأول الذي دعا إليه في مدينة نيقيه سنة 325م .
- رسم الإمبراطور قسطنطين من خلال ترأسه لمجمع نيقيه الأول سنة 325 م ،السياسة الدينية والمعتقد الذي يجب أن يكون عليه المسيحين وتقره الكنيسة المسيحية ،وهو قانون الإيمان الذي جعل المسيح إلهاً ومساوياً للأب الإله في المكانة والمنزلة والقدرة ، وماعدا ذلك يعتبر هرطقة وغير مقبول ، فالمسيح في قانون الإيمان " إله من إله ونور من نور وإله حق من إله حق ومولود غير مخلوق " وبذلك أخذت العقيدة الدينية المسيحية تتخذ صورتها وشكلها ، التي رسمها لها الإمبراطور .
- أيد المجمع المسكوني الذي اقيم في القسطنطينية والذي انعقد في سنة 381م ما وضعه الإمبراطور قسطنطين من سياسة التعاون بين الكنيسة والدولة ، استفاد منها الجانبان ، السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، إذ أن الكنيسة المسيحية وهبت الإمبراطورية البيزنطية وحدة روحية قوية ، وأمدت الاستبداد الإمبراطوري بتأييد أدبي قوي ، أما الكنيسة فازدادت ثروتها بما حصلت عليه من الدولة من الأملاك والأموال والحبوب فظلاً عن اعفائها من الضرائب والواجبات .

- عقدت المجامع الكنسية في الديانة المسيحية تباعا لفرض عقيدة التثليث ، فهي التي بُني من خلالها التطور الفلسفي واللاهوتي للعقيدة المسيحية ، وهو ما جرت عليه الكنائس المسيحية والمجامع المسكونية من عقيدة ونظام ، وبذلك كان هدف المجامع المسكونية هو التأكيد على ترسيخ عقيدة التثليث ، وبطلان كل ما يخالفها من أراء في العقيدة وحرمان كل القائلين بغير ذلك
- إن أهم المجامع التي لها صلة بقضايا بتوثيق عقيدة التثليث هي أربعة مجامع كنسية أولها المجمع المسكوني الأول في نيقيه سنة 325م ، ومجمع القسطنطنية سنة (381م) والمجمع المسكوني الثالث (431م) والمجمع الرابع مجمع مدينة خلقودنية سنة (451م)
- رسم الأباطرة البيزنطيين سياستهم على الكنيسة المسيحية ووقفوا ضد عقيدة التوحيد واتباعها أينما كانوا .
- تهيأت للكنيسة في الغرب الفرصة لابتعادها عن قوة وتسلط الأباطرة البيزنطيين ، إلا أن هذا التحول ومحاولة الاستقلال عن السلطة الزمنية في الشرق من قبل الكنيسة الغربية ، لم يأتي إلا في نهاية القرن الخامس الميلادي ، أي بعد سقوط مدينة روما
- اصبح الباباوات في روما يرون في أنفسهم لهم نفس مكانة الأباطرة في الشرق ، وأن لهم الحق في ممارسة سلطات شبيه بسلطات الإمبراطور، حتى أن البابا في روما اتخذ لنفسه لقب "الحبر الأعظم " الذي كان الأباطرة الرومان يتخذونه لأنفسهم .

الهوامش :

(1) – الإمبراطور قسطنطين الأول : من اقليم ايلليريا , ولد في بلدة نيش حسب بعض الأراء عام 274م أو 280م , ووالدته تدعى هيلينا التي اشتهرت بقصة العثور على خشبة الصليب ببيت المقدس أثناء حكم قسطنطين , والده قسطنطيوس كان غلاما عند الإمبراطور دقلديانوس 284-305م , ثم عينه دقلديانوس قيصراً على الغرب عندما اتخذ الإمبراطور النظام الرباعي في الحكم , فقرر إرسال إبنه قسطنطين إلى الشرق لكي يكون بصحبة الإمبراطور , وعرف قسطنطين أثنا رحلاته مع الإمبراطور سيادة المسيحية في الأقاليم الأسيوية , وشهد ما تعرض له المسيحيون من اضطهاد على يد الإمبراطور دقلديانوس , ولما تنازل دقلديانوس عن الحكم اصبح رهينة في يد جاليريوس الذي اعقبه على الحكم بالشرق , غير أنه لحق بوالده في الغرب , فلما مات والده عام 306م نادى الجيش بقسطنطين إمبراطوراً فحكم الإمبراطورية البيزنطية وانتقل إلى الشرق من عام 306 إلى عام 337م وشيد مدينة القسطنطنية التي حملت اسمه واصبحت عاصمة عام 330م . الباز العريني تاريخ أوربا العصور الوسطى , دار النهضة العربية , بيروت (1968), ص 47

(2)- (مرسوم ميلان313م) راجع كولتون: عام العصور الوسطى في النظم والحضارة , ترجمة جوزيف نسيم يوسف , دار المعارف ,1976 ص247

(3) - راجع مؤلف "حين غدت أوروبا مسيحية 312-394م" للمؤرخ بول فاين.
Paul Veyne, Quando l'Europa è diventata cristiana (312-394), Garzanti, Italia 2008

(4) Beau De Loménie, La chiesa e lo stato, Edizioni Paoline, Catania 1959, pp. 26-27

(5) (الأغسطيني) مصطلح للفكر يقصد به فكر القديس أغسطين وهو أحد أبرز أباء الكنيسة , وهومن هيبو (354-430م) صاحب كتاب مدينة الله وكتاب الاعترافات . Giuseppe,Leziroli: Lineamenti di Storia dei sisteme di relazione fra state e chises Editrice unrersitaria ferrara ,1976, p23

(6) (توما الأكويني) ينحدر من عائلة نبيلة من صقلية , ولد سنة 1224م بمدينة روكايسكا Rocaseca قرب مدينة نابلي الإيطالية التحق منذ شبابه بدير جبل كاسينو البندكتي , وفي الرابعة عشرة التحق بجامعة نابلي ,وفي التاسعة عشرة التحق بدير الرهبان الدومنيكان الذي أرسله لجامعات باريس لدراسة اللاهوت والفلسفة الأرسطية حتى وصل لدرجة الأستاذية واحتل مكانة مرموقة في تاريخ الفلسفة وله مجموعة من الشروح والرسائل الفلسفية التي تخدم المسيحية .كامل محمد عويضة : توماس الأكويني الفيلسوف الثاني في العصور الوسطى , دار الكتب العلمية , بيروت , 1993,ص32

(7) Sant 'Agostino , La città di Dio, Rusconi, Milano 1984, pp. 691-92.

(8) (الدوناتية) حركة دينية تزعمها دوناتوس الذي ولد في القرن الثالث الميلادي في شمال إفريقيا، ويعتبر من أهم الزعماء البرابرة الذين واجهوا الرومان بكل ما أوتي من علم ومن قوة. وهو أيضا من أهم المدافعين عن العقيدة المسيحية في الوسط الأمازيغي، وهو قس وراهب في قرية بربرية، وصار بعد ذلك أسقفا وزعيما دينيا كبيرا في إفريقيا الشمالية، وله أتباع كثيرون يدافعون عن المذهب الذي أسسه نظرية وممارسة. كان يدعو إلى مذهب ديني جديد يقوم على إقرار المساواة بين الناس، ويعمل على مساعدة الفقراء ولا يعترف بأية سلطة غير سلطة الإله الخالق، وكان يأمر الأمازيغيين بطرد كبار الملاك من أراضيهم وأصحاب النفوذ من المسيحيين الكاثوليك من بلادهم. وقد انتشرت الدوناتية في الكثير من الولايات والممالك الأمازيغية وخاصة في ولاية أفريكا وولاية نوميديا ، وتشكلت ميدانيا مجموعة من التنظيمات العسكرية التي كانت تهاجم

مزارع الأرستقراطيين الرومان لتحرير عبيدها وأقنانها المظلومين.و هو كذلك مؤلف كتاب ديني تحت عنوان"الروح القدس"، بله عن كونه زعيم المذهب الديني الدوناتي . محمد بوكبوط: الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات، صفحات من تاريخ الأمازيغ القديم، مركز طارق بن زياد ، المطبعة فيدبرانت، الرباط، ، 2002م، ص:76.

(9) Giuseppe Leziroli, Lineamenti di storia dei sistemi di relazione fra stato e chiesa, Editrice Universitaria, Ferrara 1976, p. 23.

(10) ج.م. هسي : العالم البيزنطي , تقديم وترجمة وتعليق لرأفت عبدالحميد الشيخ ,عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية , القاهرة , 1997 ,197

(11) (الأسقف يوسيبيوس Eusebius) وهويعرف بيوسبيوس القيصري أسقف قيسارية بفلسطين حوالي سنة (313- 340م) أشهر أساقفة الكنيسة في نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي ,شهد مرحلتين من مراحل وفترات تاريخ الكنيسة , مرحلة الاضطهاد الأعظم ثم اعتراف الدولة بالمسيحية زمن الإمبراطور قسطنطين الأول , واعرب عن التزاوج بين الكنيسة والدولة في أوائل القرن الرابع , ألف كتابين الأول في تاريخ الكنيسة والثاني حياة قسطنطين الذي رفع فيه الإمبراطور قسطنطين إلى مصاف الحواريين . Vasilive , A , the Byzantine Empire .Madison History. New York ,1905, p119 , هسي :العالم البيزنطي , ص ص77-78

(12) ج.م. هسي :, المرجع نفسه ص77

(13) ج.م. هسي :, المرجع السابق, ص78

(14) (بطرس الرسول) او القديس بطرس هو سمعان بن يونا الملقب بسمعان بطرس Πέτρος باليونانية (بالعربية الصفا وبالسريانية شمعون كيفا) وبالإنكليزية Simon Peter ومعنى اللقب بطرس هو الصخرة وقد نال لقبه هذا من السيد المسيح بحسب رواية الكتاب المقدس . كان بطرس الرسول واحد من نخبة الرسل الإثنى عشر الذين اختارهم المسيح من بين أتباعه وسميوا بالتلاميذ . ولد ونشأ في قرية بيت صيدا في فلسطين و عمل هناك صيادا للسمك مع اخيه أندراوس قبل أن يدعوه يسوع ليكون أحد اتباعه . وأصبح بعد ذلك قائدا لبقية رسل المسيح , كما أن الكنيسة الاولى أقرت بسلطته وأصبح أولباباوات كنيسة روما. يعتقد بأنه قتل صلبا بيد السلطات الرومانية . وكما تبين ايضاً من الآثار التاريخية المكتشفة حديثاً في روما. أن بطرس ذهب إلى روما بالأتفاق مع بولس. وبعد أن أسس كنيستها أستشهد في عهد نيرون عام 67. يوسيبيوس القيصري : تاريخ الكنيسة , ترجمة القمص رفيق داوود , مكتبة المحبة , ط2, القاهرة , 1976ص70. ينظر، فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، منشورات علاء الدين، دمشق، 2004 ، ص. 133

(15) ج. م. هسي : المرجع السابق , ص198

(16) نفسه : ص202

(17) ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية , ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد , الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , 2002, ص68

(18) نورمان بينز , الإمبراطورية البيزنطية , , ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد , القاهرة , 1950 , ص88

(19) (الأكليروس) هو نظام كهنوتي خاص بالكنائس المسيحية , وهو مرتبه كهنوتية لرجال الدين أو الكنيسة , ولم يظهر هذا النظام إلا في القرن الثالث الميلادي وتتفق الكنيسة الكاثوليكية مع الكنائس المسيحية في درجات النظام الكهنوتي إلا أن مرتبة البابا في الكنيسة الكاثوليكية يتمتع بسلطات أعلى على جميع الكنائس المسيحية لأنه بابا الكنيسة الأم (كنيسة روما). الأب يعقوب الخوري : الدرجات الكهنوتية في القرون المسيحية الأولى , معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي , جامعة البلمند ,(بد.م),2013 , ص 1-12

(20) ج.م. هسي : العالم البيزنطي , ص202

(21) Bury ,J.B,:A History of the Later Roman Empire , Vii I , London, 1923, p.125

(22) عزيز سوريال عطية : تاريخ المسيحية الشرقية , ترجمة أسحق عبيد ,المجلس الأعلى للثقافة , القاهرة , 2005,ص 56

(23) **(أريوسArius)** : ترجع أصول الكاهن الإسكندري أريوس على رأي بعض المؤرخين إلى الأصل الليبي وأنه ولد بعد القرن الثالث الميلادي و تلقى تعاليمه اللاهوتية بمدرسة أنطاكية مع بعض الرفقاء الذين ساندوه ودعموه في سبيل المضي في نشر أرائه حول العقيدة ومكانة المسيح وألوهيته , ويقال أنه قد جمع بين تعاليم مدرسة انطاكية ومدرسة الإسكندرية المختلفتين , استوطن إسكندرية حيث رسمه البابا بطرس كاهناً , ويقال أنه كان منظماً للأسقف المنشق أسقف ليكوبوليس (أسيوط) ولهذا جرد من رتبته الكهونتية التي أعيدت له في زمن البابا أخيلاوس خليفة البابا بطرس , وما لبث أريوس أن عمل على تأييد أنتخاب القس الكسندروس بطريركا لكنيسة الإسكندرية , إلا أنه اصطدم معه في سنة 318 م بسبب أراء أريوس المخالفة والأختلاف حول تفسير الكتاب المقدس حول ألوهية السيد المسيح والثالوث المقدس . أثناسيوس الرسولي : المقالات الثلاثة ضد الأريوسية , ترجمه عن اليونانية أ. صموئيل كامل عبد السيد , راجعه د. جوزيف موريس فلتس , مركز الأرثوذكس للدراسات الأبائية , القاهرة ,2015 , ص15

(24) عبد الفتاح سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى التاريخ السياسي , مكتبة الأنجلو المصرية ط10, 1986 , ص ص56-57

(25) (أثناسيوس) قس كنيسة الإسكندرية كان معاصر للمشكلة الأريوسية عارض أفكار أريوس بكل قوة وكان يقول بألوهية المسيح وبالثالوث المقدس , يعتقد أنه ولد سنة 296م بمدينة الإسكندرية اعتنق المسيحية في سن مبكرة , وكان له شغف بالعلم وخاصة علم اللاهوت والكتاب المقدس , رسم قسا لكنيسة الإسكندرية حوالي سنة 328م , كان له الدور الكبير في مواجه أفكار أريوس وانعقاد المجمع الكسي الأول في مدينة نيقية سنة 325م . الأب متى المسكين : القديدير القديس اثناسيوس الرسولي , مطبعة أنبا مقار , وادي النطرون , القاهرة , 1980 ,ص 40

(26) عبدالفتاح سعيد عاشور : المرجع السابق , ص57

(27) Cambridge , Medieval . History , Vol s ,(Combridge.1924) pp.122-25 كذلك محمد محمد مرسي الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية , جامعة الإسكندرية, 1997 , ص22

(28) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية , دارالنهضة العربية , بيروت , 1965, ص32 كذلك Vasilive , the Byzantine,p54

(29) Vasilive : op, cit ,pp 52-53

(30) Ostrogorowski : p 45 . Gwatkin,H M:Studies on Arfanism ,Cambridge ,1900 p, 57 الباز العريني , ص33

(31) Chadwick, H : The early Church London (1947) ,p.116 . Lot : The end or the Ancient World, p45

(32) Vasilive : op cit , Tom 1 , pp, 70-71 . سعيد عاشور : مرجع سابق , ص58

(33) رؤوف شلبي : أضواء على المسيحية ,منشورات المكتبة العصرية , بيروت , 1975 ,ص93

(34) المرجع نفسه , ص 94
(35) المرجع نفسه , ص95
(36) Ostrogorsky : op ,cit , p 44
(37) Vasiliev : op,cit p . 55 / عبدالقادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية ,منشورات المكتبة العصرية , بيروت , 1984 ,ص ص 16 17-
(38) عبدالقادر أحمد اليوسف , ص37 ؛ Ware : p 31
(39) Kats , S :The Decline of Rome and the Rise of MediaevalEurope , New York , 1955, pp.87-88 . عبدالفتاح سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى , ص59
(40) عبد القادر أحمد اليوسف , المرجع السابق , ص 37
(41) أحمد علي عجيبه : البابوية وسيطرتها على الفكر الأوربي في العصور الوسطى ,مطابع الشناوي , طنطا , مصر ,1991,ص7
(42) (أفسوس) (باليونانى Ἔφεσος و بالتركى Efes) في منطقةِ ليديا التاريخيّة الواقعة في الجهة الغربيّة من الأناضول، وتشرفُ على نهر كيستر الذي يصبُّ في بحر إيجه في أسيا الصغرى وهي إحدى أهمّ المدن الإغريقيّة اسست في القرن العاشر قبل الميلاد , بقيت مدينة أفسس تحتَ حمايةَ الرومان حتّى سيطرَ القوطيّون عليها في عام 263 للميلاد، وبذلك اصبحت المدينة ذات ثقافات متعددة فهي أغريقية تتحدث اليونانية وفارسية ورومانية تتحدث اللاتينية , لها مكانة مسيحية زارها القديس بولس في سنة 52م ومكث بها سنتين كتب بها مجموعة من رسائله , عقد بها المجمع المسكوني الثالث سنة 431م . ماهر كامل : المدن الهامة في تاريخ المسيحية , مكتبة المهتدين, القاهرة , 2008 , ص16-17
(43) أسد رستم : الروم ,ج1, ص123
(44) (نسطوريوس) ولد فيما بين (386 – 451 م) بطريرك كنيسة القسطنطنية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في سنة (428م) مهتم بعلم اللاهوت الذي تعلمة في أنطاكية , يقول بأرائه عن اختلاف الطبيعتين عند السيد المسيح وبعدم القول أم الإله , قاوم البدع والهرطقات التي كانت في عصره ومنها أراء القس أريوس , وقام بقطع الترانيم التي المتعلقة بمولد الإله من أم الإله العذراء وصلبه وقيامه وصعوده للسماء . اتهم بالهرطقة لفساد أرائه اللاهوتية , تصدى له القس كيرلس قس كنيسة الإسكندرية (المتوفي سنة 435م), إلى أن تدخل الإمبراطور ثيودسيوس الثاني في مجمع أفسوس 431م وتم طرده وحرمانه .جمال أحمد محمد حسن : المسيحية النسطورية في البحرين قبل الإسلام, الجامعة العالمية الإسلامية , لندن , ,رسالة دكتوراه, غير منشورة , 2017, ص61
(45) أسد رستم : المرجع السابق , ص123
(46) الباز العريني : ص51 ؛ انظر كذلك Vasliev : p 98 ؛ أسد رستم : المرجع السابق , 125
(47) عبد القادر أحمد اليوسف, مرجع سابق, ص: 41
(48) محمود محمد الحويري, مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني, , ط 2, المكتب المصري, القاهرة, 2002ص 40
(49) أحمد علي عجيبه : المرجع السابق , ص 10
(50) فشر : أوربا العصور الوسطى
(51) عبدالفتاح سعيد عاشور , مرجع سابق , ج1 , ص51
(52) نفسه , ص109

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر والمراجع العربية :

- أحمد علي عجيبه : البابوية وسيطرتها على الفكر الأوربي في العصور الوسطى ،مطابع الشناوي ، طنطا ، مصر ،1991.
- الأب متى المسكين : القديديرالقديس اثناسيوس الرسولي ، مطبعة أنبا مقار ، وادي النطرون ، القاهرة ، 1980 .
- الأب يعقوب الخوري : الدرجات الكهنوتية في القرون المسيحية الأولى ، معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي ، جامعة البلمند ،(بد.م)،2013 .
- الباز العريني تاريخ أوربا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ،1968.
- جمال أحمد محمد حسن : المسيحية النسطورية في البحرين قبل الإسلام، الجامعة العالمية الإسلامية ، لندن ، ،رسالة دكتوراه، غير منشورة ،2017
- رؤوف شلبي : أضواء على المسيحية ،منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، 1975 .
- عبد الفتاح سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى التاريخ السياسي ، مكتبة الأنجلو المصرية ط10، 1986 .
- عبدالقادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية ،منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، 1984 .

- عزيز سوريال عطية : تاريخ المسيحية الشرقية ، ترجمة أسحق عبيد ،المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005.
- كامل محمد عويضة : توماس الأكويني الفيلسوف الثاني في العصور الوسطى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1993.
- محمد بوكبوط: الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات، صفحات من تاريخ الأمازيغ القديم، مركز طارق بن زياد ، المطبعة فيدبرانت ، الرباط، ، 2002م .
- محمد محمد مرسي الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، جامعة الإسكندرية، 1997 .
- فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، منشورات علاء الدين، دمشق، 2004 .
- **المصادر والمراجع العربية المترجمة :**
- أثناسيوس الرسولي : المقالات الثلاثة ضد الأريوسية ، ترجمه عن اليونانية أ. صموئيل كامل عبد السيد ، راجعه د. جوزيف موريس فلتس ، مركز الأرثوذكس للدراسات الأبائية ، القاهرة ،2015 .
- ج.م. هسي : العالم البيزنطي ، تقديم وترجمة وتعليق لرأفت عبدالحميد الشيخ ،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، 1997.
- ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2002 .
- كولتون: عام العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، دار المعارف ،1976 .
- نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد ، القاهرة ، 1950
- يوسيبيوس القيصري : تاريخ الكنيسة ، ترجمة القمص رفيق داوود ، مكتبة المحبة ، ط2، القاهرة ، 1976

المصادر والمراجع الأجنبية :

- Beau De Loménie, La chiesa e lo stato, Edizioni Paoline, Catania,1959 Bury, Cambridge , Medieval . History , Vol s ,(Combridge.1924) .
- Chadwick, H : The early Church London (1947 .
- Giuseppe Leziroli, Lineamenti di storia dei sistemi di relazione fra stato e chiesa, Editrice Universitaria, Ferrara 1976.
- Gwatkin,H M:Studies on Arfanism ,Cambridge ,1900 .
- Paul Veyne, Quando l'Europa è diventata cristiana (312394), Garzanti, Italia 2008 .
- J.B,:A History of the Later Roman Empire , Vii I , London, 1923.
- Sant 'Agostino , La città di Dio, Rusconi, Milano 1984 .
- Kats , S :The Decline of Rome and the Rise of MediaevalEurope , New York , 1955.
- Ostrogorowski,G :History of the Byzantine state English Trans ,Heis say ,Oxford ,1956
- Lot : The end or the Ancient World and the Beginning of the Middle ages,
- London 1966.
- Vasilive , A , the Byzantine Empire .Madison History. New York ,1905

التطور العمراني لمدينة الكوفة في القرن الأول الهجري

إعداد :

د. عبد السلام سالم سعيد محمد

جامعة السيد محمد بن على السنوسي الإسلامية

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فقد أدّت النجاحات التي حققتها عمليات الفتح العربي الإسلامي على جبهة العراق إلى تفكير المسلمين في تطوير هذه العمليات بحيث تشمل ما تبقى من أراضي الدولة الفارسية، لكن طول ووعورة خطوط الإمداد بين شبه الجزيرة العربية وبلاد العراق كانت حائلاً دون ذلك.

فهذه الإشكالية أدت إلى إدراك الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بأن هناك أهمية استراتيجية لإنشاء مراكز استقرار على تخوم العراق، لتكون قواعد أمامية يستفاد منها في إدارة الجيوش الإسلامية المجاهدة وتحشيدها من أرسال الامدادات، ومن ثم تكون مستقراً لعائلاتهم.

ومن هنا انبثقت فكرة تكوين وإنشاء المدن التي منها مدينة الكوفة، بالرغم من الطابع العسكري وراء نشأة هذه المدينة والتي تحولت وتطورت فيما بعد وأصبحت مركزاً إدارياً رئيساً وعمرانياً مزدهراً.

فالتأثر الهائل واللامحدود الذي أحدثه الفتح الإسلامي في هذ المنطقة كان قد تجلّى في ظهور هذه المدينة وأدّى إلى غرس نواة الحضارة العربية الإسلامية آنذاك ومن ثم توالى على بناءها وتطويرها المسلمون لتزداد بهاءً وتألقاً.

أولاً- التسمية والموقع الجغرافي:

أ- التسمية:

لقد اختلفت الآراء حول تفسير معنى كلمة الكوفة وتضاربت الأقوال في أصل تسميتها فهناك من يقول بأنها (سميت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب) : (رأيت كُوفَاناً، وكَوفَاناً، بضم الكاف وفتحها، للرميلة المستديرة) [1].

وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها في قولهم: قد تكوف الرمل إذا ركب بعضه بعضاً[2] وقيل أنها الأرض التي فيها الحصباء مع الطين، والرمل يسمى كوفة[3].

وهناك من يرى بأنها سميت كوفة نسبة إلى اسم موضع كان موجوداً في منطقة اسمها كوفية ابن عمر[4] عليها، وسميت بجبل صغير كان فيها يسمى كوفان[5].

وهناك آراء تجمع على أن اسم الكوفة مأخوذ من صفات التربة التي اتسمت بها المنطقة فيقال أن الأرض التي يكون فيها المريخ من الحصباء والطين والرمل تسمى أرض كوفة[6].

وقد قيل أيضاً (التكوف، والاجتماع، وقيل المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفان) [7].

ويقال بأنها سميت كوفة لأنها قطعة من البلاد، أخذاً من قول العرب: أعطيت فلاناً كيفة أي قطعة، ويقال: كِفْتُ أَكِيفُ أَكِيفُ كَيفاً إذا قطعت، فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ما قبلها[8] وقيل: (الكُوفَة الرملة الحمراء وبها سميت الكوفة) [9].

وقد ورد في بعض المصادر التاريخية عند الحديث عن بعض الفتوحات ذكر أن سعداً لما افتتح القادسية، نزل المسلمون الأنبار فآذاهم البقّ، فخرج، فارتاد لهم موضوع الكوفة، وقال تكوَّفوا في هذا الموضع أي

اجتمعوا[10] فأمر (سعد بن أبي وقاص) بتأسيس الكوفة على هذه البطحاء من الأرض الخصبة الطينية التي اكتسبت اسمها فيها.

ولم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تعميرها من قبل العرب المسلمين، وليس في موقعها ما يشير إلى أنها كانت في يوم من الأيام مستوطناً من المستوطنات العربية أو العراقية القديمة، وإنما كان موضعها جزءً سهلياً من الضفة اليمنى للفرات الأوسط، وإلى الجهة الشمالية الشرقية من الحيرة[11]. ويفهم من تسميتها بالكوفة بعد تمصيرها من التكوف وكوفان، وكوفة الجند (لأنها أسست لتكون قاعدة عسكرية يجتمع فيها الجند)، وقد قال فيها أحد الشعراء هذا البيت:

إن التي وضعت بيتاً مهاجراً

بكوفة الجند غالت ودَّها غُولُ[12].

ولعل أرجح هذه الأقوال، أن تسمية المعسكر بالكوفة، قد اشتقت من لفظين مشهورين في المنطقة، وهما كوفان، وكويفة بن عمر، وهي موضع فلابدّ أنّ المسلمين قد سمعوا باسمها يتردد على ألسنة سكان المنطقة، حين كانوا يقومون بمسح المنطقة، بهدف إقامة معسكرهم في أفضل مواضعها، فاشتقوا من اسم أحدهما اسماً أطلقوه على مدينتهم في أثناء تمصيرها[13].

وإجمالاً لما تقدم يتضح أن اسم الكوفة هو اسم عربيٌ كان قد برز بعد اتخاذها معسكراً للعرب المسلمين، وجاءت تسميته مأخوذة من التكوف، أي الاستدارة.

فقد كان للكوفة مكانة كبرى في الإسلام حيث أقام فيها كثير من الصحابة بلغ عددهم حوالي سبعين رجلاً من صحابة رسول الله ﷺ من شهدوا بدراً، وثلاثمائة من أصحاب الشجرة[14].

وكان من أوائل من نزلها من صحابة رسول الله ﷺ عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، ﷺ فقد أرسلهما عمر بن الخطاب ﷺ ليكون الأول أميراً، والثاني معلماً ووزيراً[15].

ب- الموقع الجغرافي:

لاشك أن اختيار موقع الكوفة لم يكن عفوياً، وإنما جاء نتيجة عدة عوامل طبيعية وسياسية فهذه العوامل جعلت الكوفة تنفرد بموقعها في التطور الحضري من حيث التمدين، فكان ظهور هذا التجمع البشري متدرجاً في الزيادة، وتم تخطيطها الحضري وتطورها العمراني استجابة لزيادة عدد السكان لتستوعب هذه الأعداد البشرية الكبيرة وبعد حوالي أربعة أشهر من الإقامة في المدائن ظهرت علامات التعب على المسلمين وهذا ما جاء في كتاب حذيفة[16] إلى الخليفة عمر (أن العرب قد أتْرفت بطونها، وجفت أعضادها وتغيرت ألونها) [17] فبلا شك أن لهذا عامل طبيعي، حيث إن العرب المسلمين لم يتكيفوا بالمناخ واعتبروه مضراً بصحتهم ومتعفنا ووخيماً[18] وبعض المصادر ذكرت مراراً اسم (الأنبار) وهي الحاضرة التي أنشأها سابور، وقد مر بها سلمان[19] دون أن يتوقف، فأقام سعد بها مدة وأراد أن يتخذها منزلاً، فكثر على الناس الذباب[20].

ويُفهم من هذا أن اختيار موقع الكوفة تم على يد سليمان الفارسي وحذيفة بن اليمان ﷺ، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، وقد كان للظروف المناخية دور في انتقال المسلمين لاختيار الموقع والمكان الصحي بحيث

يكون بعيداً عن المستنقعات والرسوبات[21]. وهذا بلا شك كان تنفيذاً لسياسة الخليفة عمر وذلك كما أشرنا سابقاً.

وتقع الكوفة في الإقليم الثالث، وبُعدها عن خط المغرب تسع وستون درجة ونصف، وعن خط الاستواء إحدى وثلاثون درجة وثلثان، وهي على نهر الفرات[22] وبالأحرى على الضفة اليمنى منه في موضع لا يبعد كثيراً عن مدينة الحيرة[23] وكان يحيطها من الشرق زروع ونخيل وأشجار الفرات وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة، والنجف، ومنتزهات، ودير كثيرة[24].

وقد توسطت في موقعها الحيرة، والفرات وهو ما أكده سعد بن أبي وقاص في كتابه إلى الخليفة عمر حينما نزل الكوفة بعد انتصاره في القادسية قائلاً:

(إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً وبحرياً) [25].

وأما عن مسافتها فكانت المسافة من الكوفة إلى المدينة نحو عشرين مرحلة، ومن الكوفة إلى مكة أقصر من هذا الطريق نحو ثلاث مراحل[26] وأما عن بغداد فهي تبعد بمسافة 165كيلومتراً[27] وعلى شرقي مدينة النجف 18كيلومتراً[28] وقد قامت على بسيط واسع من الأرض على ضفة النهر جوار الحيرة المدينة العراقية القديمة، وترتفع عن سطح البحر بنحو (22)م يُحدّها من الشمال (محافظة بابل) ومن الشرق (محافظة الديوانية) ومن الغرب كري سعد، ومن الجنوب ناحية الحيرة[29].

غير أن أهم ما يميز موقع الكوفة هو قربها من نهر الفرات حيث يؤمن هذا الموقع عنصراً مهماً من عناصر الحياة في المدينة، فكانت العلاقة وثيقة منذ بدء التأسيس بين الكوفة والماء، مع وقوعها على حافة صحراء الجزيرة العربية إذ لا يفصل بينها وبين الحاضرة ماء أو جسر[30] وذلك ليسهل ربط العاصمة بقواتها الحربية، وليكون الخليفة على اتصال دائم بها، إضافة إلى صفاتها المناخية الحسنة كصفاء الجو، وعذوبة النسيم وبخاصة إذا كان شمالياً غربياً[31].

وهكذا فإن ما يتمتع به هذا الموقع من ميزات، ومعطيات كان له الفضل في تجمع العدد الهائل من القبائل العربية التي كانت قد أتت من بعيد وقريب وساهمت بدور فاعل في صنع تاريخ وحضارة وثقافة إسلامية أدت به إلى الاستقرار والتمدن.

ثانياً- خطط المدينة ومعالمها العمرانية:

أ- تخطيط المدينة:

لقد كانت الوظيفة العسكرية في مرحلة إنشاء وظهور الكوفة واضحة، حيث كان المقاتلون العرب قد استقروا في خيام وفساطيط كما هو الحال في البصرة.

وتؤكد الروايات التاريخية المختلفة والمتعلقة ببداية تخطيط مدينة الكوفة أنها كانت متشابهة مع تلك التي وجدت في البصرة عند اختيارها، وأهمها: بضعة أشكال للمنشآت، ومؤسسات الإدارة، وعدد من البيوت المتفرقة التي ينظمها نظام قبلي، ووحدات عمرانية قليلة البساطة في هيئة الموضع[32]. فلا تكاد تُبنى الكوفة حتى نرى تخطيطاً قائماً على أساس من توزّع القبائل، فقد كان المشرفون على تنظيم الكوفة جديرين أن يوزعوا أرضها

بين الناس من حيث هم أفراد في هذا المجتمع المدني الناشئ الذي يقبلون عليه، لا من حيث هم أعضاء في المجتمع القبلي الذي جاءوا منه ... ولكن الله لم يشأ أن يخالف العرب عن الفطرة، وبذلك أخذوا بهذه الخطوة المزدوجة: خرجوا من قبيلة الصحراء إلى قبيلة المدينة، أي إنهم حققوا قدراً من التطور يتمثل في محو ما كان من آمادٍ بعيدة أو قريبة بين قبائل البادية تحول بينها وبين أن تأتلف أو تتقارب[33].

فقد كانت عبقرية الخليفة عمر، تبرز في كل شيء، حتى في تخطيط المدن، بل ذهب إلى أكثر من ذلك في مراعاة تخطيطها[34]. فكتب إلى سعد بن أبي وقاص الذي بدوره أرسل إلى (أبي الهياج) فأخبره بكتاب عمر في الطريق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبعة أذرع[35].

فقد عُمل بذلك حيث جعلت عوارض الشوارع الرئيسة أربعين ذراعاً أو ثلاثين حتى لا يحجب هواء البادية عن العرب الذين نشأوا في الجزيرة العربية وجُعل وسط المدينة ميداناً فسيحاً بنى فيه المسجد، وأحاطها بحدائق النخيل والزرع المتنوعة والمختلفة[36] فقد جُعلت الأزقة سبعة أذرع وتفرع من المسجد خمسة عشر منهجاً: من شماله خمسة، ومن قبلته أربعة، ومن شرقيه ثلاثة ومن غربيه ثلاثة أيضاً، ثم وزعت القبائل من حول المسجد على هذه المناهج، وبدأت قوالب اللَّبن ترفع القواعد من بنيات هذه المدينة الناشئة، فبهذا يكفيهم في هذه المرحلة أنهم انتقلوا من حياة البادية إلى حياة المدينة[37].

ويذكر الطبري شيئاً عن التخطيط وتحديد البناء فيقول :

((قام رجلٌ وهو رامٍ شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمي من بين يده ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين فترك المسجد في مربّعه غلوت[38]. من كل جوانبه.وبني ظُلَّه في مقدمة ليست لها مجّنبات ولا مواخير[39]))

ومن هنا كان التخطيط بمثابة النواة التي عملت على الاتجاه الذي سيكون عليه التطوير، وقد كان التخطيط بناء بسيط يلبي الحاجة[40].

فوضعت اللبنات الأولى لخطط المدينة، تلك الخطط التي تميزت بها المدن الإسلامية في هذه المرحلة وأولها المسجد الجامع ودار الإمارة وبيت المال ثم بيوت الناس وخططهم[41].

ولا شك أن مضمون التخطيط لهذه المدينة سار على نهج التخطيط الإسلامي، حيث كان المسجد رمز الدولة الإسلامية فهو أول ما اختطه المسلمون في هذه المدينة، ويُعَدُّ نابعاً من مفهوم وظيفي إسلامي مرتبط بوظيفة المسجد الجامع باعتباره تكويناً معمارياً رئيساً عاماً يتوجه إليه جميع من يؤدي الصلاة الجامعة وحتى يكون علماً واضحاً وقريباً من كل أطراف المدينة ونواحيه[42].

وهناك من يرى أن تخطيط الكوفة جاء دائرياً وربما جاء محاكياً للمدن القديمة مثل (أور وأشور) الأمر الذي يوفر في اقتصاد المساحة[43].

وهذا ما لا يبدو على الموقع إذ يرى أحد الباحثين المحدثين بأن تخطيطها الأول كان باتجاه طولي حيث إنها لو استمرت بذلك سيكون امتدادها لا نهاية له فقد تطورت الكوفة تخطيطاً باتجاه الغرب[44].

وربما يرجع هذا الرأي وذلك لوقوعها بالقرب من نهر الفرات أو بالأحرى على الضفة اليمنى لهذا النهر، وهو ما يتحكم في امتداد تخطيط المدينة، حيث إن نمو التخطيط الحضري بالقرب من النهر الذي يعد مصدراً من مصادر المياه اعتمد عليه السكان في استقرارهم، وخاصة بعد انتهاء المسلمين من الفتوحات.

ب- بناء الكوفة:

لقد كان أساس إقامة هذه المدينة مأخوذاً من المنطلق العسكري الحربي كما أشرنا سابقاً، لتكون معسكراً للمقاتلين للانطلاق منه ومواصلة فتوحاتهم الإسلامية في المنطقة، حيث كانت حياتهم الأولى في هذا المعسكر حياة الخيام، ولكن بعد استقرارهم في المنطقة ونزوح عدد من السكان إليها رأى المسلمون ضرورة تطوير مسكنهم لكي يلائم المجتمع الجديد، فاستخدموا مواد البناء لغرض تطوير بيوتهم، وهذه المواد تمثلت في القصب واللَّبِنُ.

1- البناء من القصب:

لقد أورد الطبري رواية مفادها أن العرب الساكنين في الكوفة استأذنوا من الخليفة في مسألة استخدام القصب لبناء وتشييد منازلهم، فكان جواب الخليفة على طلبهم هذا (العسكر أجَدُّ لحربكم وأذكى لكم، وما أحبُّ أن أخالفكم) فسأل (وما القصب؟) قالوا: العِكْرش إذا روى قصّب فصاراً قصباً، قال فشأنكم) [45].

ويُفهم من النص السابق الذي ورد عن الطبري أن سيدنا عمر بن الخطاب ليس له دراية ومعرفة بالقصب، ويبدو أنه يفضل الإقامة في الخيام إلا أن تزايد عدد المقاتلين والقادمين إلى هذه المنطقة جعله يوافقهم على استخدام هذا القصب في البناء، وخاصة عند كثرته حول الفرات وفي تلك المنطقة، ومن هذا إن القصب قد ساعد المسلمين في سرعة استعماله في البناء، ومن ثم خلعه عند مواصلة فتوحاتهم، وبذلك فإن هذه المادة قد حافظت على خصوصية المجال العسكري الحربي.

إلا أن هذا النمط من البناء لم يثبت أمام الظروف الطبيعية، وعاديات الزمن، فقد وقع في هذه المدينة الناشئة حريق دمر ثمانين عريشاً، ولم يبق فيه قصبة في شوال[46].

2- البناء من اللَّبِن:

لاشك أن هذا الحريق كان هو الدافع الذي حذا بأهل الكوفة إلى التفكير في البناء الذي يقاوم تحديات الطبيعية والزمن ويكون أكثر مقاومةً وملاءمةً للاستقرار في هذه المدينة الناشئة، الأمر الذي كان قد طالب به أهل الكوفة أن يؤذن لهم في البناء الصُلب (اللَّبِنُ) الذي يعني الطين[47].

ويبدو أن سعد بن أبي وقاص قد خشى معارضة الخليفة، وأدرك أن معارضته في هذه المرة ستكون أشد، فلم يكتب إليه كما فعل في المرة السابقة، وإنما بعث إليه وفداً منهم، يخبره بالحادث الأليم، ويستأذنه في هذه الخطوة[48].

وعلى أية حال فقد رأى سيدنا عمر أن في هذه الخطوة خطراً على الجيش المقاتل من حيث أن هذا الجيش يجب أن يظل مقيماً على الحياة الخشنة الأولى وأن تعدد بناء البيوت سوف يأتي من ورائه نعومة في الترف الذي يتأتى فيما بعد، ولكن يبدو أن التيار كان جارفاً، وليس من الحكمة معارضته فسمح لهم بذلك ولكن بشروط، لكي يحافظ على جيشه من الحياة الخشنة ولكي يبعده عن الترف والإسراف فقال لهم (أفعلوا، ولا

يزيدنّ أحدكم على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة) [49] وبهذا يمكن القول أن منطلق التخطيط للبناء تزامن مع قرار البناء باللَّبِن[50].

ونستنتج مما سبق أن مرحلة البناء في بداية تخطيط هذه المدينة قد كانت من القصب وذلك خلال الخمس السنوات الأولى من إنشائها في أثناء ولاية (المغيرة) [51] (التي امتدت من سنة 22-24ه/642-644م) ظهرت مواقع الخيام المصففة بصورة دائمة، في تشكل حيطان صغيرة من لبن، وبداية من سنة (50ه/670م) وقع الشروع في البناء بمادة الأجر وذلك في زمن ولاية زياد[52].

ومن ثم نجد أن في الفترة الأولى كان التخطيط والبناء بصفة عفوية فوضوية (بدون تخطيط) ولكن التخطيط المدبر لإنشاء مدينة حقيقة وبقوة تمَّ عند الشروع في البناء[53] الصلب[54].

وهذا هو البناء الذي كان تخوف منه سيدنا عمر بن الخطاب وذلك حرصاً على مواصلة الفتوحات الإسلامية، لأنه يبدو أن البناء باللَّبِن قد جاء مبكراً في زمن انطلاق هذه الفتوحات، ولا يرى عمر مانعاً من ذلك لو جاء بعد مسيرة طويلة من فتوحات المسلمين، ووفقاً للشروط التي كان فرضها في عدم الإسراف في هذا البناء خوفاً من الابتعاد عن حياة الخشونة التي همُ في حاجة إليها في ذلك الوقت والدخول في حياة الترف التي هم في غنى عنها في تلك الفترة التأسيسية، التي كانت قد أرست لهم حياة التطور والتخطيط العمراني على مختلف العصور.

ج- المعالم العمرانية:

تتفق المدن الإسلامية في مظهرها العمراني العام، أي في طريقه تخطيطها وتوزيع مراكزها العمرانية وفي ضيف شوارعها وتعرجها وتشعب طرقاتها[55]. حيث إن من المنشآت العمرانية ما يحقق أغراض الحياة الدينية، ومنها ما يحقق أغراضاً مدنية[56]وكان لمدينة الكوفة معالم عمرانية نذكر منها المسجد الجامع ودار الإمارة، والأسواق، والقصور، والحمامات، وغير هذه المعلم تعكس جوانب التطور فيها وهذا تفصيل لها:

1- المسجد الجامع:

يُعَدُّ المسجد الجامع النواة الإسلامية في تخطيط المدينة الإسلامية، فقد كان أول ما اختط فيها، ومن حوله كان تُخطَّطُ المدينة وتنتهي إليه شوارعها وسككها وأزقتها، وكانت مدينة الرسول ﷺالمثال الأول لذلك، ومن ثم سارت (الأمصار) الناشئة والتي منها الكوفة على هذا المنهج في اختيار موضع متوسط في المدينة لإقامة المسجد الجامع، فأصبح هذه الاتجاه قاعدة تقليدية في المدن الإسلامية الأخرى المنشأة بعد ذلك، مثل: مدينة واسط، وبغداد، وفاس[57]. وكانت قد عُلّمِت حدود هذا المسجد بأمر من سعد بن أبي وقاص في سنة (17ه/638م) [58]. واستناداً إلى ما ذكره البلاذري فإن حدوده قد ثبتت بواسطة رجل يحمل قوساً ونشاباً رمي سهماً باتجاه القبلة إلى الجنوب وعلّم على موقعه وكذلك فعل بالنسبة إلى باقي الجهات[59].

وكان المسجد مربع الشكل ومحاطاً بخندق وخالٍ من الجدران، وكانت هناك ظلة تغطي بيت الصلاة طولها 200 ذراع تمتد بامتداد الجانب الجنوبي، فقد بقي المسجد على هذه الحالة إلى سنة (41ه/661م)[60]، وقد وصف الطبري ذلك بقوله: (ترك المسجد في مربّعه غلوة من كل جوانبه، وبني ظلة في مقدمتّه، ليست لها

متجنبات ولا مواخير، والمرُبعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا، وكذلك المسجد الحرام فكانوا لا يشبهون به المساجد تعظيماً لحرمته)[61].

وهكذا يبدو أن المرحلة الأولى لبناء هذا المسجد كانت مرحلة بدائية، حيث لم تكن هناك جدران مرتفعة، وبدون أروقة في معظم جوانبه، فكان ابن أبي وقاص قد هدم هذا المسجد ونقله إلى قرب القصر وذلك بسبب سرقة بيت المال الذي كان ملحقاً بالقصر[62]. ولعل السبب في ذلك أن تقوم على المسجد حراسة تكون بالليل والنهار وتمنع تكرار حادثة السرقة[63].

وعلى العموم فكان هذا المسجد أول ما اختط بالكوفة وذلك حسب ما ورد عن الطبري في قوله (فأول شيء خطّ بالكوفة وبني حين عزموا على بناء المسجد، فوضع في موضع أصحاب الصابون، والتمارين من السوق)[64]، وبعد أن اختط المسجد الجامع تم توزيع الخطط الأُخرى حوله واتخذ مركزاً لتلك الخطط[65].

وخطط المسجد ليسع أربعين ألف مصلي، وظّل بهذه المساحة حتى ولاية زياد بن أبيه لتصبح إمكانيتها أوسع، وذلك ليسع ستين ألف مصلي، وهذا ما يفهم من قول ياقوت الحموي: (فلما قدم زياد فيه عشرين ألف إنسان وجاء بالأجر وجاء بأساطينه من الأهواز)[66].

وعندما زار ابن جبير المسجد أثناء زيارته للمدينة كان قد اندهش من ارتفاع الأعمدة الرخامية لهذا المسجد التي تحمل سقوفه بصورة مباشرة، وبدون استعمال الأقواس التي كانت قد اعتادت في سقوف بعض المساجد بالأقطار الإسلامية، فقد قال عنه (الجامع العتيق آخرها مما يلي شرق البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق، وهو جامع كبير في الجانب القبلي منه ستة أبلطة، وفي سائر الجوانب بلاطات، وهذه البلاطات على أعمدة من السواري المصنوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص[67].

ويبدو أن زياداً كان قد اهتم بتطوير بنائه فقام باستدعاء بنائين من الفرس قائلاً إنه يرغب في تشييد بناء فريد، فأجابه أحد بنائي كسري أنه لا يمكنه تحقيق ذلك إلا باستعمال أعمدة من جبل الأهواز بعد تجويف طبلاتها وخلطها بالرصاص، ووضع الأوتاد الحديدية على أن يكون ارتفاع السقف 30ذراعاً وبناؤه بأروقة جانبيه، وأروقة خلفية، وقد أدهش ارتفاع السقف كل من شاهده، أما زياد ابن أبيه فقد قال فيه: هذا ما كنت ابتغي ولكني لم أستطع التعبير عن ذلك) [68].

وفي هذا الشأن ورد عن البلاذري قوله: (زاد المُغيرة) في مسجد الكوفة وبناه ثم زاد فيه زيادة، وكان ذلك بسبب إلقاء الحصى فيه وفي مسجد البصرة فإن الناس كانوا يصلون، فإذا رفعوا أيديهم وقد ترتب نفضوها، فقال زياد: ما أخوفني أن يظن الناس على غابر الأيام أن نَفْضَ الأيدي سنةٌ في الصلاة فزاد في المسجد ووسعهُ، وأمر بالحصى فجمع والتي في صحن المسجد[69].

وعلاوة على ذلك يعد هذا الجامع البناء العام لأهل هذه المدينة، فهو مركز يقيم فيه الناس صلاة الجمع والصلوات الأخرى، وإلى جانب هذه الوظيفة الأساسية فقد تعددت له وظائف أخرى، حيث كان يجتمع فيه الوالي بالناس لتبليغ ما يقتضي تبليغه، ويجلس فيه القاضي للنظر في القضايا المعروفة عليه، وفيه أيضاً يجتمع الناس ويتحدثون في الأمور الخاصة، ويتناقشون في الأمور السياسية والفكرية، فهو مكان يستريح فيه البعض، وهو مركز للحياة الدينية والإدارية والاجتماعية والفكرية[70].

إضافة إلى ذلك فقد كان لهذا المسجد الدور الفاعل في ظهور النهضة العلمية بهذه المدينة، والتي صاحبت الاستقرار، وخاصة عندما نزل الكوفة أعداد كبيرة من أصحاب الرسول ﷺ وكان أشهرهم في العلم على بن أبي طالب ﷺ وعبد الله بن مسعود[71]أكثر الصحابة تأثيراً ونشراً للعلم في ظلال المسجد[72].

2- دار الإمارة:

دار الإمارة "قصر الملك" ومختصة في موضوع القضاء المتصل بمسجد الكوفة من جهة القبلة من الخارج وجَعُل فيها بيت المال وسكن فيها سعد بن أبي وقاص، وكانت منزلاً خالصاً للخلفاء والأمراء من بعد سعد حيث كانت لها مؤتمراتهم ومشاوراتهم[73]، فقد أوجبت الضرورة الوظيفية مجاورة دار الإمارة للمسجد الجامع، ويبدو ذلك في حادثة السرقة التي كانت قد حدثت في بين المال بعد أنثقب جدارها أحد اللصوص وسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، وهو مال عام يخص المسلمين جميعاً، وكان قد شكا سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب[74] بذلك فأمره أن يجعل حائط القبلة ملاصقاً للدار التي يسكنها، وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً معمارياً في قصور الخلفاء ودور الإمارة في المدن المختلفة، وقد استتبع تأمين دار الإمارة عزلتها عن المساكن العامة والأسواق التي جرت عليها العادة بإنشائها قريباً من المسجد الجامع، وبهذا يتضح التركيز على وضع المسجد الجامع ودار الإمارة في قلب المدينة، باعتبار أنها تمثل مركز الإدارة في المدينة وهو اتجاه يبرز أهمية المدينة الإدارية من جهة، ويؤكد على أن المدينة كان لها جهازها الإداري الذي يشرف على جميع شؤونها من جهة[75].

ومما يذكر أيضاً أن سعد بن أبي وقاص كان قد بنى على قصره باباً من الخشب، وخص على القصر خصاً من قصب، ولما سمع الخليفة عمر بذلك أرسل من أحرق هذا الباب والخص المحيط بالقصر، حيث يورد الطبري في هذا الشأن (وغُلّقَ باب القصر وكانت الأسواق تكون في موضعه بين يديه، فكانت غوغاؤهم تمنع سعداً الحديث، فلما بني أدعى الناس عليه ما لم يقل، وقالوا: قال سعد: سكّن عن الصويت، وبلغ عمر بذلك وأن الناس يسمونه قصر سعد، فدعا محمد بن مسلمة) فسرحه إلى الكوفة وقال: أعمر إلى القصر حتى تحرق بابه، وكان قد سلم كتاب عمر إلى سعد الذي يقول فيه: (بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً، ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك، ولكنه قصر الخبال، أنزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وألقه ولا تجعل للقصر باباً تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم) [76].

ويفهم من هذا النص إصرار الخليفة عمر على عدم عزل أو حجز عامة الناس عن الأمير وذلك حتى تكون الأمور في طريقها مع تشاور المسلمين، وحتى يكون الأمر مباشراً مع ما يحدث في الساحة الإسلامية.

ومن اللاّفت للانتباه أن دار الإمارة في مدينة الكوفة تعد أقدم دار عربية إسلامية قد تم اكتشافها حتى الآن، وقد دلت كل الأعمال التنقيبية التي أجريت فيها على أن الدار كانت قد شيدت في أرض لم يسبق لأحد أن سكنها وكان قد أعيد بناءها في العصر الأموي في زمن ولاية زياد ابن أبيه[77].

3- الأسواق:

كانت الأسواق هي الأخرى عنصراً أساسياً في المساحة المركزية على جانب الرحبة، وكانت مثلها محيطة بالمركب (المعلّمي) المتكون من القصر والمسجد[78].

ورد عند الطبري أن الكوفة عند تخطيطها في المرحلة الأولى قد خصص صحنها ليتضمن المسجد الجامع ودار الإمارة والأسواق، وبقي كذلك كي لا تتجاوز عليه القبائل أو الأماكن السكنية[79].

ومن الجدير بالملاحظة أن الملامح الرئيسة للمدن أصلاً ذات طابع تجاري وبعض الباحثين يعزو نشأة المدن إلى أنها مراكز للتبادل التجاري، كانت تنشأ عند ملتقى طرق التجارة حيث تمثل الأسواق مراكز النشاط التجاري بصوره، ومراحله المختلفة التي انعكست مباشراً على نمطية الأسواق وأنواعها، فقد وجدت الأسواق الموسمية كتلك التي كانت للعرب قبل الإسلام وظهرت فيما بعد الأسواق الأسبوعية[80].

وقد كان نظام الأسواق في البداية لا بناء فيها سوى ظلال (بواري) من الحصير كان يصنعها الباعة في الأماكن التي يختارونها للبيع والشراء[81].

وإضافة إلى ذلك كانت غير محددة بمكان واحد، ولا يضمها بناء واحد، وذلك اعتماداً على قول الخليفة عمر أن الأسواق، على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم فيه إلى بيته أو يفرغ من بيعه[82].

ويبدو أن أسواق الكوفة بقيت على هذه الهيئة غير مستقرة فترة من الزمن، لكنها اشتملت فيما بعد على سوق يبدأ من قصر الأمير، والمسجد الجامع إلى دار الوليد ثم إلى القلائين، وإلى دور ثقيف وأشجع[83]. فهذه الأسواق أقيمت في الكوفة منذ البداية فهي من عطاءات الحضارة العربية الإسلامية الأكثر تميزاً، فكانت من أسمى المواضع الحيوية الاجتماعية، والثقافية العربية[84].

ويبدو أن هذا قد تمثل في موقعها الذي هيأها لتكون محطة مهمة في طريق الحج وملتقى القوافل القادمة من الصحراء، وكان في الكوفة مركزان تجاريان هما دار الرزق والكناسة، أما دار الرزق فكانت تقع على الضفة اليمنى للفرات وكانت في البدء مركزاً لجمع الغنائم التي تجلب من الحرب والقيام ببيعها، وأيضاً جباية الضرائب على الإنتاج الزراعي وإعادة توزيعها في إطار الرزق والغنيمة، ثم تطورت حتى أصبحت مركزاً تجارياً يمتد من جسر الكوفة إلى مركز المدينة.

أما الكناسة أو سوق الكناسة فكان عند الباب الغربي لمدينة الكوفة مركزاً للتجارة مع الجزيرة العربية، وقد كانت الكناسة أرض عراء واسعة في خلافة سيدنا علي ﷺ ولكن في بداية ولاية زياد ظهرت وظيفتها التجارية في بيع وشراء النوق والبغال[85] ويبدو أن هذه التجارة قد تركزت بصورة طبيعية حيث كانت مكاناً لحط الرحال وحمل الأثقال بالنسبة لقوافل الجمال[86] ومن ثم فقد كانت الأسواق إلى جانب كونها مراكز لتبادل السلع، مركزاً لتبادل الأفكار والشائعات لما يحدث من مناقشات في أمور السياسة، والاقتصاد[87].

وقد تزايدت حوالي سنة 100ه لقاءات الشعراء فيها[88] فقد زاد الاهتمام بهذه الأسواق خاصة في عهد الأمويين حيث عملت سياسة الدولة إلى تعمير المدن دفعاً للتطور الاقتصادي[89] حيث كانوا قد ركزوا على إنشاء أسواق المدن، واهتموا بتأمين التجارة وقوافلها[90].

ثالثاً- التطور العمراني والتحول الاجتماعي لمدينة الكوفة:

أ- التطور العمراني:

لقد أرسى سعد بن أبي وقاص في أثناء إمارته قواعد مجتمع حضري كانت قد تمثلت فيه الأنشطة الدينية والعسكرية المدنية، فكان هذا المجتمع في واقعه يمثل حجر الأساس الذي وضع الكوفة على عينة التطور نحو

المدينة[91] إذ بلا شك أن دور التأسيس يعّد أصعب المراحل في أي عمل من الأعمال فما بالك بتأسيس نواة مجتمع بشري هائل تسبب في توسيع رقعة الدولة الإسلامية والتي كان المسلمون في أمس الحاجة إليها من أجل بناء وازدهار حضارتهم العالمية الفريدة.

وبذلك أخذ التطور العمراني بداية في هذه المدينة يلتمس طريقَهُ نحو شكل المدينة الثابت فكان ذلك قد وضح بروزه في إمارة المغيرة بن شعبة سنة (22ه/642م) الذي كان قد أدخل مادة الأجر لأول مرة وبشكل محدود في بناء بعض الدور فيها[92].

وقد استمر التطور العمراني للكوفة، حيث استكمل مقوماته على عهد زياد بن أبيه وأَضحت المدينة لها معالمها الحضارية الأساسية[93].

وكانت المادة الرئيسة المستعملة في البناء آنذاك هي مادة الأجر، حيث إن هذه المادة تستخدم باختيار التربة النقية الخالية من الأملاح، فيتم تجفيفه بواسطة الهواء، وأشعة الشمس ثم يدخلونه بالتنانير بغية فخره[94]. فأخذ المسلمون يشيدون دورهم به بدلاً من الطين والين[95]. وهو ما يؤكد ظهور وصمود العمران بالمدينة العربية الإسلامية.

ومن ناحية أخرى فإن زياداً قد أعاد بناء المسجد ودار الإمارة بالأجر، وأدخل بعض التعديلات والتحسينات عليهما، فوسع المسجد وزاد[96] فيه[97].

إذ كانت الإضافات والتعديلات التي شهدها المسجد هي تلك المتعلقة ببناء الأبواب والجدران التي بلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكان قد قام بسقفه، وجعل له مجنبات ومواخر، وبذلك يكون هو الذي جعله كما يذكر (ماسينون) أكبر وأجمل مسجد إسلامي آنذاك[98].

وظل هذا المسجد على هذه الحالة حتى ولاية الحجاج بن يوسف على الكوفة (75ه/964م) الذي قام بهدمه وإعادة بنائه بصورة جديدة من جديد[99].

أما بالنسبة للقصور فكان أهمها قصر زياد الذي كان تطور، وأصبح كمركب به ما كان في المرحلة الأولى من البناء (عبارة عن القصر الأول– أي قصر سعد).

ثم تطور على يد زياد معمارياً فكان توسطه قاعات الاستقبال والإيوانات والقباب، والي تؤكد قوة الحكم ووظيفته، فكان يتركب مما أقيم بأجنحته من دون أن يقسم إلى حجرات[100].

ثم استع العمران بالكوفة وتفنن أهلها في البناء، فبني طلحة ابن عبد الله داراً بالكوفة بالأجر والجس[101]، وكذلك تواصل العمران بالمدينة في عهد "عبيد بن زياد" الذي كان قد اهتم بتطور البناء معتمداً على مادة الأجر، متبعاً سيرة أبيه في التعمير والإنشاء، وكان أبرز منشآته بالكوفة "البيضاء"[102][103].

وقد واكب اتساع العمران وتطوره اتساع وامتدادها، حيث انتشرت هذه الشوارع وذلك مع تعدد وتطور أحوال العمران بالمدينة، فقد كانت شوارع مدينة الكوفة تبلغ في اتساعها سبعة أذرع بداية بنائها، ثم زاد اتساعها إلى ستين ذراعاً، عندما كبر حجم المدينة، وتحولت إلى مركز من المراكز الحضارية، فكانت هذه الشوارع تؤدي دورها في سبيل الوصول إلى مرافق المدينة بحيث كانت تتصل بالمسجد الجامع الذي يشكل نواة المدينة، وكذلك كانت تتصل وتتفرع منها السكك، والأزقة الفرعية المتصلة بها[104].

وإلى جانب هذا كانت هناك الأسواق التي أقيمت في الكوفة منذ البداية كما هو معلوم، وهذه الأسواق من إفرازات الحضارة العربية الإسلامية، لأنها تعد من أسمى المواضع الحيوية الاجتماعية والثقافية، حيث لاقت الاهتمام هي الأخرى، وخاصة في عهد الأمويين الذين أولوا اهتماماً كبيراً بتطويرها من حيث بنائها وإكسابها صبغة معمارية، كفلت وجود حوانيت للتجارة، ولعل ذلك قد تحقق ما بين سنة (50ه–100ه/670–718م) حيث كان تحولاً عاماً في زمن زياد، وكذلك أيام الحجاج، إلا أن تطورها قد اتسع في ولاية خالد القسري (105ه/723م) الذي كان قد صاحب أعمال المشاريع النفعية حيث ورد عند البلاذري قوله (بني خالد حوانيت أنشأها، وجعل سقوفها أزاجا معقودة بالأجر والجص) [105] وأما اليعقوبي فيذكر أنه (بني الأسواق وجعل لأهل كل بياعه داراً وطاقاً وجعل غلالها للجند) [106] ولا شك أن التطور العمراني قد رافق جميع المنشآت العامة وخاصة بعد دخول المواد الصلبة في البناء.

ومما زاد في نمو هذه المدينة وتطورها استراتيجية موقعها حيث تقع أو تمثل نقطة تلاقي الطرق البرية بين شمال العراق وجنوبه، وتلك التي تتجه غرباً إلى شبه الجزيرة العربية[107]. وكذلك قربها من ضفاف الفرات ووجود شبكة من القنوات جنوب الكوفة[108].

وهذه المظاهر الطبيعية كانت هي القوة الفعالة في تطوير المدينة وتحضرها، وكان لها الدور الأمثل في استقرار السكان بها، فوجود عنصر الماء بالكوفةمثلاً قد زاد من فرصة استقرار وتمركز التجمع البشري بها وبذلك مهد لقيام حضارة هذه المدينة ورقيها حيث إن الماء هو العامل الأساسي لقيام أية حضارة من حضارات العالم.

بالإضافة إلى هذا فإن المدينة قد حظيت باهتمام حفر وتوسيع الأنهار بها مثل نهر (الجامع) ونهر (خالد) حتى يتم تزويد المدينة فيحصل سكانها على الماء دون مشقة وعناء بعدما كانوا في بعض الأحيان يعتمدون على السقائين، وبعض الآبار[109].

ب– التحول الاجتماعي:

إن استقرار السكان في مدينة الكوفة كان عاملاً أساسياً في ظهور ممارسات التمدن الاجتماعي، والتي تمثلت في العمران، وتقسيم العمل ودور التعليم[110]. فقد أدى هذا إلى بنية الإطار الحضري للمدينة العربية الإسلامية والذي كان عبارة عن نسيج متماسك، نتج عن طبيعة التطور الحضري الذي تبينت وبرزت به المدينة الإسلامية[111].

الخاتمة :

صفوة القول: بالرغم من الانشغال المستمر للمسلمين بالفتوحات الإسلامية في بلاد العراق من أجل نشر الإسلام، وما كان من اصطدام وفوضى وقساوة في المعارك، لم يسجل في تاريخ المسلمين بهذه المنطقة أي سلوك تدميري لأي بناء في قرية أو مدينة، بل على العكس كانوا مشيدين ومعمرين، مما أدى إلى تواصل هذا التشييد والبناء في ظهور وإنشاء عديد المدن والعمارة بصفة عامة في نفس هذه المنطقة.

وبهذا يمكن القول أن مدينة الكوفة قد حققت كل الأهداف التي أنشئت من أجلها، بل وفاقت أهميتها فيعد ذلك نقطة تحول في تاريخ الإسلام نحو الاستقرار والتطور.

وما تقدم ذكره في هذا البحث فإن مدينة الكوفة لم يكن في بنائها الصورة العفوية أنما وفق استراتيجية ومعطيات كانت قد أملتها الضرورة الحربية بحيث كانت قاعدة عسكرية، وامتداداً لتواصل الفتح الإسلامي في بلاد العراق وقد بلغت مدينة الكوفة أقصى تطورها في العهد الأموي حيث برزت العناصر المعمارية والمنشآت والشوارع ومعالم المدينة.

قائمة المصادر والمراجع :

1- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر بيروت، بدون تاريخ، 490/4 .
2- البكري: أبو عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلد والمواقع، تحقيق السقاء، عالم الكتب (بيروت، 1983م) 1141/3 .
3- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن الكامل في التاريخ، مؤسسة التاريخ العربي (بيروت، 2/994) 528/2 .
4- عبد الجبار ناجي: دراسات في المدن العربية الإسلامية، طبع جامعة البصرة، 1986م .
5- البكري: المصدر السابق، 1141/3، 1142 .
6- عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص156 .
7- البلاذري: أبو الحسن، أحمد بن يحي بن جابر، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية (بيروت، 1991م) ص275 .
8- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص491/4 .
9- محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار المعارف (القاهرة، بدون تاريخ ص583 .
10- البكري: المصدر السابق، ص 1، 254 .
11- ابن الفقيه: أبوبكر أحمد بن محمد الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، طبع مدينة ليدن المحروسة (بدون مكان، 1885م) ص163 .
12- ياقوت الحموي، المصدر السابق، 491/4 .
13- مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية، دار الرشيد (القاهرة، 1982م) ص83.
14- محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار السعادة (القاهرة، 1962م) 96/8 .
15- شرف الدين على الراجحي، في اللغة عند الكوفيين، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية، 2002م) ص12 .
16- حذيفة: هو حذيفة بن اليمان العبسي، يكنى حذيفة أبا عبد الله، لم يشهد بدراً وشهد أحد، وقتل أبوه مع رسول الله ﷺ وكان صاحب الرسول ﷺ لقربه منه وثقته به وعلو منزلته عنده، وولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، المدائن فأقام بها إلى حين وفاته سنة ثلاثين، ينظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة (بدون تاريخ، 2004م) 129/1 .

17- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (القاهرة، 1990م) 40/4 .
18- هشام جعيط: الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (الكويت، 1986م) ص94.
19 سلمان: هو سلمان الفارسي يكنى أبا عبد الله من أهل أصبهان أسلم في السنة الأولى من الهجرة وأول مشهد شهد مع رسول الله ﷺ يوم الخندق ولم يزل بالمدينة حتى فتح المسلمون العراق فخرج إلى فتح المدائن ونزلها حتى مات بها سنة ست وثلاثين في خلافة على بن أبي طالب، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المصدر السابق، ص130/1 .
20- البلادري: فتوح البلدان، المصدر السابق، ص274.
21- حسين الحاج صالح: حضارة العرب في العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، (بيروت، بدون تاريخ) ص171 .
22- إسحاق بن الحسين: أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ص38 .
23- عبد الجبار ناجي: دراسات في المدن الإسلامية: المرجع السابق، ص155 .
24- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، (بيروت، بدون تاريخ) ص154 .
25- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، ص43/4 .
26- ياقوت الحموي، المصدر السابق، 493/4 .
27- جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، 178/1 .
28- طارق الجنابي: دار الإمارة في الكوفة، مجلة سومر، المجلد التاسع والثلاثون، العراق، سنة 1983م، 225/2 .
29- كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس (بدون تاريخ) بغداد، 1954م، ص101 .
30- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، العبر، جار الكتب العلمية، (بدون تاريخ، 1992م) 321/3 .
31- مصطفى الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة المدن، المرجع السابق، ص85 .
32- عبد الجبار ناجي: دراسات في المدن الإسلامية: المرجع السابق، ص160 .
33- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، ط3، دار العلم للملايين، (بيروت، 1973م) ص102 .
34- فرج الهوني: النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية، مطابع دار الحقيقة (بنغازي، 1976م) ص124 .
35- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، ص44/4 .
36- محمد عبد الفتاح عليان: الخلفاء الراشدون، دار النهضة المصرية (القاهرة، 1986م) ص83 .
37- يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، نهاية القرن الثامن للهجرة، دار الكتب العربي (القاهرة، 1968م) ص26.
38- تعني الخلوة "مسافة رمية سهم" ابن منظور، لسان العرب، ص132/15 .
39- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، ص44/4 .
40- محمد عبد الفتاح عليان، الخلفاء الراشدون، دار النهضة المصرية (القاهرة، 1986م) ص83 .
41- عبد الجبار ناجي: دراسات في المدن الإسلامية: المرجع السابق، ص160 .
42- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، دار الأفاق العربية (القاهرة، 1991م) ص141 .
43- على ثويني: تمصير الكوفة والمنهج الإسلامي للعمران، مجلة المدن الثقافي (www.almada-paper.com).
44- ينظر هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص184.
45- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، ص43/4 .
46- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، ص44/4 .
47- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص123 .
48- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ص411/2 .
49- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ص412/2 .

50- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص123 .

51- المغيرة: هو المغيرة بن شعبه بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عبد الله، أحد دهاة العرب، وقادتهم وولاتهم صحابي يقال له (مغيرة الرأي) ولد في الطائف بالحجاز فلما ظهر الإسلام تردد في قبوله إلى أن كانت سنة (5ه) فأسلم شهد الحديبية واليمامة، وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك وشهد القادسية ونهاوند وهمدان وغيرها، وولاه عمر بن الخطاب ﷺ على البصرة ففتح عدة بلدان وعزله ثم ولاه الكوفة وأقر عثمان على الكوفة ثم عزله ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها المغيرة وحضر مع الحكمين ثم ولاة معاوية الكوفة فلم يزل فيها إلى ان مات سنة (50ه/678) أنظر إلى الذهبي، أعلام النبلاء 4/214-225 وكذلك إلى ابن حبيب: المجر ص184 .

52- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص117 .

53- البناء الصلب: وهو يتمثل من اللبُن وهو الطوب المجفف، وكذلك الأجر وهو لفظه فارسية معربة وما يعرف في وقتنا الحاضر بالطابوق ويستعمل لبناء الحدران والأرضيات ويمر الأجر بمراحل عدة قبل أن يكون صالحاً للاستعمال يبدأ باختيار التربة النقية الخالية من الأملاح، ثم تعباً قوالب الأجر الخشبية بالطين، وبعد جفافه بواسطة الهواء وأشعة الشمس يدخلونه بالتنانير بغية فخره وكذلك الجص وهو مادة رابطة ويستعمل في طلاء الجدران ويستخرج من حرق مادة الجبس وذلك على طريقتين الأولى كشط قشرة الأرض الجبسية حتى يكون الجص قابلاً للاستعمال، والطريقة الثاني وضع كتل الجبس داخل التنور الكتل. علاء الدين أحمد العاني: المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، المؤسسة العامة للأثار والتراث (بغداد، 1982م) ص78/ 79 .

54- علاء الدين أحمد العاني: المرجع نفسه، ص124 .

55- السيد عبد العزيز سالم: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة، ص7 .

56- محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص233 .

57- محمد عبد الستار، المرجع نفسه، ص234 .

58- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1964م) 1/219 .

59- البلاذري: فتوح البلدان، ص280 .

60- طارق جواد الجنائي: دار الإمارة في الكوفة، مجلة سومر، العراق، المجلد التاسع والثلاثون، 2/225 .

61- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 4/44، 45 .

62- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 4/46 .

63- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص136 .

64- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 4/44 .

65- عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص161 .

66- الأهواز: وهي جمع هَوْز واصله حَوْزَ فلما كثر استعمال الفرس لهذه اللفظة غيرتها حتى أذهبت أصلها جملة لأنه ليس في كلام الفرس جاء مهملة، وإذا تكلموا بكلمة فيها جاء قلبوها هاء، وعلى هذا يبكون الأهواز اسماً عربياً سمُي به في الإسلام وكان أسمها في أيام الفرس خوزستان، فالأهواز كورة بين البصرة وفارس، وصوف الأهواز من مدنها، ياقوت الحموي، المصدر السابق، 1/184، 185.

67- ياقوت الحموي، المصدر السابق، 4/491 .

68- ك كريزويل: الأثار الإسلامية، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، (دمشق، 1984م) ص28 .

69- البلاذري: فتوح البلدان، ص276 .

70- صالح العلي: إمتداد العرب في صدر الإسلام، ص24 .

71- هو عبد الله ابن مسعود بن غافل بن حبيب، ويكنى أبا عبد الرحمن كان قد أسلم قبل دخول رسول الله ﷺجار الأرقم وكان أول من أفشى القرآن بمكة، شهد بدراً وضرب عنق أبي جهل شوهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺوكان صاحب سواد رسول الله ﷺ يعني سره ووسادة يعني فراشة وسواطه ونعليه وذلك عند السفر وكان ابن مسعود من أجود وأطيب الناس ريماً حيث كان يُعرف بريح الطيب، وفي صفاته كان رجلاً نحيفاً خفيف اللحم قصيراً أشد الأدمة وكانت وفاته سنة أثنين وثلاثين ومات بالمدينة ودفن بالبقيع، ابن سعد: الطبقات الكبرى 7/6 .

72- سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، (القاهرة، 1986م) ص276 .

73- عبد الجبار ناجي: دراسات في المدن العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص163 .

74- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 46/4 .

75- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص238 .

76- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 47/4 .

77- طارق الجنابي، مجلة سومر، دار الإمارة بالكوفة، ص225 .

78- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص150-151.

79- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 45/4 .

80- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص252 .

81- اليعقوبي: أحمد بن أسحاق بن واضح، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي (بيروت، 1988م) ص75

82- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 45/4-46 .

83- اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص75 .

84- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص373 .

85- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص377 .

86- ما سنيون: خطط الكوفة، ترجمة السامرائي المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت، 1981م) ص53 .

87- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص253 .

88- الشابشتي: أبو الحسن على بن محمد، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مكتبة المثنى (بغداد، 1966م) ص23.

89- منير حجاب، الداعية السياسية في العصر الأموي، مؤسسة سعيد الطباعة، (بدون مكان، 1986م) ص53 .

90- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص255 .

91- مصطفى الموسوي: عوامل نشأة المدن الإسلامية، ص89 .

92- ماسنيون: خطط الكوفة، ص9 .

93- على حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص297-298.

94- علاء الدين أحمد العاني: المشاهد ذات المخروطة في العراق (بغداد، 1982م) ص78 .

95- ياقوت الحموي: معجم البلدان، 491/4 .

96- كان قد خط على أربعين ألف، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف (ياقوت الحموي: معجم البلدان، 491/4).

97- البلاذري: فتوح البلدان، ص277 .

98- ماسنيون: خطط الكوفة، ترجمة السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت، 1981م) ص28 .

99- عبد الجبار ناجي: دراسات في المدن الإسلامية: المرجع السابق، ص162 .

100- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص286، 293 .

101- يستخدم الجص في الأبنية كمادة رابطة ويستعمل في طلاء الجدران ويستخرج من حرق الجبس وهو متوفر في مناطق كثيرة في العراق، علاء الدين العاني، المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، ص79 .

102- ابتنى دار بالكوفة وهي مشهورة به هذا الوقت والمعروفة الأن بالكناسة، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مكتبة العصرية، بيروت، 1987م، 233/2 .

103- ابن قتيبة: الأيام والسياسة، 22/2 .

104- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المرجع السابق، ص176 .

105- البلاذري: فتوح البلدان، ص284 .

106- اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص75 .

107- السيد خالد الطري: دراسات في مدن العالم الإسلامي، ص66 .

108- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، 99/6 .

109- البلاذري: فتوح البلدان، ص283 .

110- نزار الحديثي: العراق عند مجيء الإسلام، ص24 .

111- هادي عبد المحسن العنكبي: الابعاد الاجتماعية للتخطيط العمراني، مطبعة اليرموك (بغداد، 1999م) ص12-13 .

أنماط التغيرات الاقتصادية للاندلس خلال عصر ملوك الطوائف

إعداد :

د.فرج إبراهيم محمد العقوري

جامعة عمر المختار

نبذة مختصرة:

هذا المقال يوفر دراسة تحليلية عن الأوضاع الاقتصادية لدول الطوائف من اجل معرفة مدى الانهيار الذي تعرضت له المنظومة الاقتصادية والمالية خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس. تهدف هذة الدراسة أيضاً إلى تسليط الضوء على النزعة التوسعية التى اتبعها ملوك الطوائف على حساب بعضهم البعض وما تبع ذلك من تحالفات هشة والتزامات إقتصادية غير مدروسة أثرت سلباً على استقرارها وسرّعت في استنزاف خزينتها وفتحت المجال واسعاً أمام الممالك المسيحية لتنفيذ عمليات عسكرية شملت معظم بلاد الأندلس معلنة بدأ انطلاق ما يعرف بحروب الاستعادة.

Abstract:

This article provides an analytical study on the economic conditions of the Taifa kingdoms in order to identify the extent of the collapse of the economic and financial system during this turbulent period in the history of al-Andalus. This study aims also to highlight the expansionist tendency followed by the kings of the Taifa-s at the expense of each other, in conjunction with fragile economic alliances and non-thoughtful obligations, which negatively affected its stability, accelerated the depletion of its treasury and opened the way for the Christian kingdoms to carry out military operations that included most of al-Andalus, declaring the start of the so-called wars of restoration.

المقدمة:

شكلت الاتجاهات الاقتصادية، باعتبارها جانباً مكملاً للأبعاد الاجتماعية والسياسية، بعدًا هامًا للتطورات التاريخية العامة خلال حقبة ملوك الطوائف. فمن ناحية، حددت العوامل الاقتصادية التطور الداخلي الخاص بكل دولة طائفية. ومن ناحية أخرى ساهمت هذه العوامل في رسم وتحديد نمط العلاقات بين الأندلس ككيان مع إسبانيا المسيحية من جهة وبينها وبين المغرب الكبير من جهة أخرى.

وبالرغم من أهمية العوامل الاقتصادية واجماع المؤرخين بالدور الأساسي الذي تلعبه هذه العوامل في تطور تاريخ الأندلس خلال فترة ولايات الطوائف، إلا أن الدراسات التي تركز على العناصر الاقتصادية والمالية ومساهمتها في الوضع العام كانت نادرة إن لم تكن غير موجودة. تجاهل المؤرخين لأثر العوامل الاقتصادية على التطور التاريخي للأندلس خلال هذه الفترة كان مرده لعدد من الأسباب المفهومة التي ترجع في مجملها إلى عدة قيود تواجه المؤرخ عندما يحاول تحليل الجوانب الاقتصادية، ولعل أخطرها هو ندرة المصادر التي تتعامل مع التاريخ الاقتصادي، فغالباً ما يتم اكتساب المواد التاريخية المتعلقة بالجوانب الاقتصادية بشكل غير مباشر. إن ندرة المعلومات في المصادر التاريخية الأولية هي في الأساس نتيجة للنهج الذي تبناه مؤرخو العصور الوسطى عندما كانوا يهملون البعد الاقتصادي في العادة واعتبروه غير ذي صلة، مع التركيز بدلاً من ذلك على الجوانب السياسة وأنماط الحياة الاجتماعية. ومع ذلك، لا يمكن اعتبار مؤرخي القرون الوسطى مسؤولين كليًا عن جهلنا النسبي في هذا الصدد. فمن ناحية أخرى لم يتمكن المهتمون بالتاريخ الاسباني من الغربيون عمومًا من التغلب على عقبة افتقارهم إلى إمكانية الوصول المباشر إلى المصادر الأولية والسبب هو أن معرفتهم باللغة العربية أما محدودة للغاية أو لا شيء. على النقيض من ذلك، لم يبد المؤرخون الناطقون بالعربية الذين لديهم إمكانية الوصول إلى المصادر الأولية قدراً كبيراً من الكفاءة في الاستفاده من هذه المصادر في كتاباتهم. لحسن حظنا أن الاتجاهات الاقتصادية الرئيسية لفترة الطوائف أصبحت أكثر وضوحًا مع تحسن فهمنا للتاريخ السياسي وكذلك مفهومنا عن المجتمع الأندلسي، لا سيما من خلال الدراسات التاريخية والأدبية الحديثة، حيث أبدى المؤرخون الأسبان في الآونة الأخيرة اهتماماً أكبر بالتاريخ الاقتصادي للأندلس، وعلى ضوء الخطوط العامة التي رسمها هؤلاء المؤرخون سوف تحاول هذه المقالة إبراز الاتجاهات الاقتصادية الرئيسية للاندلس خلال القرن الحادي عشر الميلادي بهدف معرفة أثر سياسات دول الطوائف على مواردها المحلية ومدى المساهمة في انهيار اقتصادها وزوال أمرها.

1. العمل والموارد المادية :

كانت موارد العمل والموارد المادية في الأندلس خلال القرن الحادي عشر تتمتع بإمكانيات كاملة لدعم اقتصاد مزدهر ومتوسع. وقد رافقت مستويات التعليم العالي بشكل غير عادي في الأندلس، الدينية منها والأدبية والعلمية، مستوى متساوٍ في الحرف اليدوية الماهرة، وتقنيات الري، والأنشطة التجارية الديناميكية. ولذلك فإن أغلى رأس مال في الأندلس هو إمكاناتها البشرية التي مكنت الاستغلال الفعال لمواردها المادية. ربما كان السر وراء الازدهار النسبي للأندلسيين هو كفاءتهم وليس وفرة الموارد في الأندلس. من حيث الموارد البشرية

والمادية. شكلت الأندلس تبايناً حادًا مع كل من المناطق المسيحية الجبلية ذات الكثافة السكانية المنخفضة (في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الأيبيرية ذات الموارد الطبيعية النادرة) والمناطق الأقل تفضيلاً في المغرب.

على الرغم من اندماج المجتمع الأندلسي، إلا أن الوضع الاقتصادي اتسم بعدم مستقر وهو ما أثر سلباً على الإنتاجية العامة للأندلس بشكل كبير. ترجع أسباب عدم الاستقرار في الأندلس إلى عوامل بشرية مختلفة، ولكن نادراً ما تمت مناقشة هذا السؤال من الناحية الاقتصادية. على سبيل المثال، لم يكن النزاع العرقي خلال القرن الحادي عشر، كما كان معروفًا على نطاق واسع، السبب الرئيسي للصراع والانشقاق في المجتمع الأندلسي.[1] بحلول القرن الحادي عشر، أصبح العرب والبربر والصقالبة (السلافيين أو العبيد؟) والعناصر من أصل أسباني أكثر تماسكًا في مجتمع متناغم ثقافيًا، وإن كان غير متجانسًا عنصريًا. كان الصراع الديني والأيديولوجي مهماً في المواجهة بين حكام الطائفة والحكام المسيحيين للشمال، ولكن داخلياً، لم يكن اليهود والمسيحيون الذين يعيشون في الأندلس متسامحين معهم فقط، بل كانوا محترمين ومحميين بموجب القانون. كما كانت مساهمة المسيحيين واليهود من الناحية الاقتصادية أيضاً إيجابية خاصة في القطاع التجاري والإدارة المالية.[2]

الأهميّة الاقتصادية للإمكانات البشريّة للمجتمع الأندلسيّ يمكن أن تقدر على أفضل تقدير من خلال النظر إلى الطبقات الاجتماعية المختلفة، مستويات المعيشة، وسائل الدخل والوضع الاجتماعي كمعايير. وقد ساهمت كل من طبقة الخاصة والطبقة الوسطى والعامة بشكل مختلف في اقتصاد متمدن قائم على الزراعة والتجارة الحضرية.[3] وأخيراً، كان الاتصال بين سكان الأجزاء المختلفة من الأندلس مكثفاً كالهجرة مثلا، خصوصاً إلى المدن الكبرى المستقرة والمزدهرة. ويشهد على هذا الاتصال العدد الكبير من الشخصيات الأدبية والسياسية والقضائية البارزة، التي تشير أسماءها وعناوينها إلى مكان أصل مختلف عن المكان الذي استقرت فيه. كان لهذا تأثير هائل على تطوير مجتمع أكثر انفتاحًا وتكاملًا في الأندلس.

العلاقات بين سكان المدن والمناطق الريفية كانت أيضاً متقاربة، وعلى الرغم من وجود مساحات كبيرة في بعض دول الطوائف مثل غرناطة، فإن العديد من القرى والقلاع المزدهرة في مناطق أخرى مثل إشبيلية تشير إلى أن المجتمع الأندلسي لم يكن إقطاعيًا. تباينت البنية الاقتصادية لدول الطوائف بشكل كبير، لكنها كانت بشكل عام اقتصادات زراعية وحضرية تكمل فيها القطاعات الزراعية والتجارية بعضها البعض. وفرت المناطق الريفية المواد الخام الأساسية، ووجدت المنتجات الزراعية في المدن سوقاً لها. كما أدى التعاون والتبادل بين المناطق الريفية والحضرية إلى تحفز الإنتاجية بشكل إيجابي. ومع ذلك، فإن هذا المخطط العام

(1) عن العصبية والعلاقات الاجتماعية في الاندلس خلال فترة الطوائف راجع: بن عبود، امحمد، جوانب من الواقع الاندلسي في القرن الخامس الهجري، مطبعة النور (تطوان، 1987)، ص 9-64.

(2) من أبرز الامثله عن تولى اهل الذمة لمناصب عليا في السلطة السياسية بالاندلس خلال فترة الطوائف نجد: ابي إبراهيم بن نغرلة الذي اتاحت له كفاءته الإدارية تولى منصب وزير في ولاية غرناطة، وأيضا ابنه يوسف الذي خلفه في منصبه كوزير ومتصرف. انظر: ابن بلقين، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحقيق: علي عمر (القاهرة، 2006)، ص 53-55، 59-61. للمقارنة بين التأثير اليهودي في الممالك المسيحية في شمال اسبانيا وتأثيرهم في الاندلس انظر:
Glick, *Islamic and Christian Spain,* pp. 172-76.

3 انظر الجزء المعنون بـ Economy and Society في:
Joseph F. O'Callaghan, *A History of Medieval Spain* (New York, 1975), pp. 282-304.

ينطبق بشكل مختلف في أجزاء مختلفة من الأندلس. على سبيل المثال، في حين كانت بعض المناطق مثل ولاية إشبيلية شديدة التحضر، كانت مناطق أخرى مثل غرناطة ريفية إلى حد كبير. علاوة على ذلك، كان التعاون والاتصالات محدودًا في كثير من الأحيان ليس فقط بسبب حالة الحرب المستمرة بين دول الطائفة، ولكن بسبب العزلة السياسية والجغرافية لدول الطوائف بشكل عام. وبعبارة أخرى، فإن الاستقلالية السياسية لدول الطوائف تعني ضمناً أن اقتصاداتها كانت اقتصادات مقفلة قائمة على الكفاف على الرغم من روابطها التجارية. كان الحكم الذاتي السياسي لدول الطوائف مصحوباً بانعزالية اقتصادية جزئية والصراع العسكري بينها يسير جنبا إلى جنب مع كفاحهم الاقتصادي ضد بعضهم البعض.

كانت الموارد المادية في الأندلس وفيرة نسبياً، ليس لأن الأندلس كانت أكثر تفضيلاً جغرافياً من المناطق الأخرى في المغرب، التي لا تزال أقل من شمال إسبانيا، ولكن لأنها استغلت بالكامل نظراً لمواردها البشرية المؤهلة للغاية. وبصرف النظر عن السهول الغنية في جنوب غرب الأندلس المعروفة باسم الغرب (الغارف)، والمناطق المحيطة بنهر الوادي الكبير ونهر إبرة، وحزام رفيع يغطي جزءًا من جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط، وسواحل غرب وجنوب المحيط الأطلسي، فإن إسبانيا تغطيها إلى حد كبير جبال يتجاوز ارتفاعها 3000 قدم، وارضي جبلية وعرة تتراوح بين 1200 إلى 3000 قدم. كانت الثروة التي تراكمت في الأندلس بحلول القرن الحادي عشر، إلى حد كبير، ناتجة عن فترة أكثر ازدهارا متمثلة في الخلافة الموحدة. على سبيل المثال، تم توارث أنظمة الري المتقدمة في القرن الحادي عشر من القرون السابقة. وقد شجع الاستغلال الفعال للأراضي والموارد الطبيعية على تسهيلات الاتصال عن طريق البر، وبعض الأنهار مثل الوادي الكبير. كما حفزت التجارة بين دول الطوائف من جهة وبين الأندلس والمغرب وشمال اسبانيا من جهة أخرى، الأنشطة الاقتصادية.

ومع ذلك، وعلى الرغم من استمرار الإنتاج خلال القرن الحادي عشر فان الموارد الغنية للأندلس لم يتم توظيفها على النحو الأمثل لسببين أساسيين. الأول، والذي كان نتيجة للتشرذم السياسي في ولايات الطوائف، هو عدم وجود هيكل اقتصادي شامل في الأندلس حيث يمكن أن يعمل التنسيق والتكامل في المناطق المختلفة في انسجام. وكان السبب الثاني الخطير على الإمكانات الاقتصادية للأندلس هو الخراب الخارجي واغتصاب هذه الموارد من خلال الضغوط السياسية والعسكرية الخارجية للحكام المسيحيين، وخاصة الملك ألفونسو السادس، ومغامرين اقوياء مثل رودريغو دياز، إل سيد، أو الكونت برانجيه الثاني صاحب برشلونة.

2. انحدار الاقتصاد المحلي :

تميزت فترة ولاية الطوائف التي أعقبت فترة ازدهار السلالة الأموية والفترة الوسيطة لبني أبي عامر بالتدهور الاقتصادي التدريجي، وإن نحن اخذناه في إطار منظور أوسع فإن الإطار العام لنظام ولايات الطوائف كان هو نفسه هشاً سياسياً واقتصادياً، وبالتالي فقد كان يحتوي على بذور دماره في ذاته. ومما كان كارثياً على السياسات الاقتصادية الداخلية لدول الطائفة هو حقيقة أن حكام الطائفة يفتقرون إلى سياسة اقتصادية عقلانية. علاوة على ذلك، ساهم الصراع السياسي الداخلي والحرب المستمرة بين دول الطائفة، التي كانت الغنائم هي الحافز اقتصادي الأهم بالنسبة إليها، في زيادة التصريف المالي وتسريع الانحدار الاقتصادي الداخلي.

مع ضعف اقتصادي وسياسي لم يكن نظام دولة الطوائف قابلاً للبقاء ككيان متين، فهو لا يمكنه النجاة إلا على أساس مؤقت فقط. فبسبب هذه البيئة غير المستقرة لم يكن من الممكن صياغة سياسات اقتصادية طويلة الأجل، وبالتالي كان من الطبيعي أن يصل النظام إلى نقطة الذروة في مسار تطوره مما يجعل تحقيق التنمية الاقتصادية امرا مستحيل. فعلى الرغم من أن نظام دول الطوائف كان يمتلك السمات الجوهرية لدولة ذات سيادة فإنه كان يحمل في ذات الوقت على عناصر خفيه جعلت منه ضعيفا وغير قادر على التطور والتوسع لإنتاج كيان صلب قادر على تحمل الضغوط الداخلية والخارجية على المدى الطويل. **بادئ ذي بدء**، الحدود الإقليمية لولايات الطوائف تم تحديدها ولكن إجمالي مساحة سطحها كانت صغيرة. حتى الولايات الكبرى، مثل إشبيلية وبطليوس وسرقسطة وطليطلة، لم تكن مساحتها كبيرة بما يكفي لتشكيل دول قابلة للحياة. علاوة على ذلك واجهت ولاية الطوائف خطر الممالك التوسعية القوية ليون وقشتالة، وبعد ذلك دولة يوسف بن تاشفين الموحدة في المغرب.

الجانب الثاني هو أنه، بشكل فردي، كان لدول الطائفة عدد قليل من السكان، فعلى الرغم من حقيقة أن الأندلس ككل كانت مكتظة بالسكان نسبياً فإن النظر إلى حجم ولايات الطوائف الصغيرة في شلب، قرمونة، رندة، أركش أو الجزيرة الخضراء، سيشير إلى انخفاض أحجام سكانها على أساس فردي. كانت ولايات الطوائف الكبرى كبيرة بالمعايير الأندلسية ومع ذلك فقد كانوا يفتقرون إلى الجوهر لوجود اقتصاد دائم.

ثالثًا، كانت حكومات دول الطوائف عمومًا استبدادية فباستثناء حكام بنو جهور في قرطبة (422 / 1031-1070/463)، شكل حكام الطوائف قلب النظام وجمعوا في ايديهم كل صلاحيات صنع القرار وإنفاذ القانون والتنفيذ. لم يكن الجهاز العسكري والسياسي تحت تصرفهم فحسب، بل كان يهدف بالدرجة الاولى إلى ضمان حمايتهم وبقائهم فقط. كانت الأنظمة الحكومية الأكثر تعقيدًا في دول الطوائف الأكثر قوة مبنية على نماذج أخرى لا سيما تلك الخاصة بالدولة الأموية، ومع ذلك لم تلبي هذه النماذج الاحتياجات الحقيقية لسكان ولايات الطوائف ولكنها عملت على زيادة هيبة حاكمها، وتضخيم صلاحياتهم في صورة مبالغ فيها والتي انتشرت على نطاق واسع في الأندلس.

رابعاً، لم تكن الحكومة قادرة على فرض سلطتها بشكل كامل بين السكان ضمن الحدود الإقليمية لولاياتها. لم يقتصر الأمر على حكام الطائفية بمواجهة الثورات الداخلية فقط، بل التهديد الأكثر خطورة كان لتدخل العسكري الخارجي. وبالتالي فإن سيادة دول الطائفية الغير قابلة للتجزئة صارت مجزأة وقابلة للانقراض. كانت التداعيات الاقتصادية لفشل دول الطوائف في فرض سلطتها ضمن حدودها الإقليمية خطيرة مثلها مثل الآثار السياسية. كان التراجع الاقتصادي تطورًا طبيعيًا في وضع دول الطوائف المضطرب، فبما أن الشرط الأساسي لبقاء النظام الاقتصادي هو الاستقرار في جميع أشكاله، فإن الاقتصاد الهش أصلاً في ولايات الطائفية صار محكوماً عليه بالفشل.

لم يقتصر الأمر على اهتزاز الجهاز الاقتصادي الشامل فحسب، بل تم استبدال الجو السلمي نسبياً في الفترة الأموية بواحد من عدم الاستقرار وعدم الأمن المستمر خلال فترة الانقسام السياسي والاقتصادي في ولايات الطوائف. علاوة على ذلك، عانى النظام الاقتصادي لدول الطوائف من سوء الإدارة وتم خضعه لضغوط

مضنية من الخارج. النهج المتمحور حول الذات لدى حكام الطائفة قاد اقتصاداتهم إلى الركود وحول ولاياتهم إلى هدف جذاب لملوك ليون وقشتالة الأقوياء، ونبلاء اقوياء مثل الكونت برانجية الثاني وحتى مغامرين مسيحيين مستقلين ولا سيما رودريغو دياز.

لقد تم إنفاق ميزانية دول الطوائف على طريقتين، إما بشكل غير منتج أو على استثمارات قصيرة الأجل منخفضة المخاطر مع ربح سريع آمن. نجد أن حكام الطائفين أنفقوا ببذخ على بلاطهم وقصورهم – بعضها لا يزال قائماً – واحتياجات ورغبات شخصية أخرى. إن الإنتاج الأدبي الرائع لفترة الطوائف يصور بشكل واضح مستويات المعيشة الفاخرة للطبقة الحاكمة في دولة الطائف وأساليب حياتها الباهظة. كان العديد من الشعراء البارزين في القرن الحادي عشر يعملون في بلاط حكام الطوائف ولذلك فإن شعرهم يعكس حياة البلاط التي تشبه في بعض النواحي تتجاوز تلك التي كانت عند الخلفاء الأمويين.

كانت الإدارة البيروقراطية خاصة في ولايات الطائف الكبرى عبئا ثقيلا على الميزانية. وعلاوة على ذلك فإن العديد من المسؤولين تم توظيفهم لأغراض غير وظيفية. فعلى سبيل المثال عدد كبير من الوزراء في بلاط حكام بنو عبّاد، مثل المعتضد أو المعتمد، تم توظيفهم لشهرتهم ومؤهلاتهم الأدبية. كان لهذا الاتجاه عواقب وخيمة في المجالين السياسي والاقتصادي. هكذا كان الحال مع ابن عمار الذي أساء بشكل صارخ سلطته في إشبيلية لتوجيه سياسته الخارجية نحو تحالفات مكلفة وغير ضرورية مع ألفونسو السادس صاحب ليون وقشتالة.[4] ساعدت هذه السياسة على إضعاف دول الطائفة الأخرى مثل غرناطة وتعزيز قوة قشتالة مما أدى في نهاية المطاف إلى محاولة ضمها جميع دول الطائفة (بما في ذلك إشبيلية) في أعقاب غزو ألفونسو لطليطلة عام 1085/478.[5]

عندما يواجه حكام الطوائف مواقف غير متوقعة غالبا ما يتخذون قرارات تلقائية دون تحليل وتأمل جاد وهو ما يؤدي الى تداعيات على عمل اقتصادات الولاية. هناك العديد من الأمثلة لحكام الطائف الذين يتخذون قرارات مهمة على عجل وعلى أسس عاطفية، لكننا أكثر اهتماماً بالأساس غير الرشيدة لتوجيه سياساتهم الاقتصادية العامة، داخلياً وفي مواجهة دول الطائفة الأخرى. داخليا، زاد الحكام الضرائب بمعدل لا يمكن إلا أن يؤدي إلى انفجار نهائي للعمالة المرهقة. وستتم مناقشة هذه السياسة بمزيد من التفاصيل.

يمكن تقدير التأثيرات الفورية للحرب الداخلية بين دول الطوائف على تدهورها الاقتصادي على مستويات مختلفة. تلك التي اتخذت الهجوم العسكري والاقتصادي ضد دول الطوائف الأخرى فعلت ذلك بثمن باهظ. تألفت معظم الجيوش بالكامل أو إلى حد كبير من أنصار محليين لحكام الطوائف. هكذا كانت حالة غرناطة ومالقة وقرمونة ومعظم ولايات الطوائف الأخرى. ومع ذلك، فإن أقوى ولايات الطوائف مثل إشبيلية تحت حكم بنو عبّاد، وطليطلة تحت حكم بنو ذي النون، اعتمدت بشكل كبير على عناصر أخرى. على سبيل المثال،

(4) أبن بلقين، التبيان، ص. 79.
(5) عن غزو طليطلة انظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق. 4/ج. 1، تحقيق: احسان عباس (ليبيا – تونس، 1979)، ص. 69-168.

بعد أن أسس حكمه في إشبيلية في 1023/414، شكّل القاضي ابن عباد جيشا يتألف بشكل أساسي من المرتزقة والعبيد[6] الذين كان معظمهم من أصل مغربي وأفريقي.

الأخطر على المستوى الاقتصادي هو اعتماد حكام الطوائف على المرتزقة المسيحيين من الشمال. ومن الأمثلة على ذلك تحالفات إشبيلية المكلفة مع ألفونسو الثاني، والتي وصفها بالتفصيل الأمير عبد الله بن بلقين والتي أدت إلى تكرار الهجمات والنهب على غرناطة من قبل قوات الاشبيليين والقشتالية.[7] مشاركة الجنود المسيحيين تكون أكثر جدية عندما يدعمون الفصائل المتصارعة داخل دولة طائفية كما في حالة طليطلة عندما اعتمد القائد بن ذو النون على قوات ألفونسو لإسقاط المتوكل بن الفطاس.[8] يضاف إلى ذلك المصاريف اللازمة للحفاظ على جيوشهم النظامية والأموال السنوية التي يفرضها الملوك المسيحيين من خلال الشروط المالية والسياسية لمشاركة القوات المسيحية في كل مغامرة والتي كان لا بد من التفاوض بها بشكل فردي. ومع ذلك كانت هذه التحالفات في كثير من الأحيان بعيدة عن تحقيق أهدافها مما تسبب في ضغوط مالية كبيرة لدول الطوائف التي كانت ضحية، دون أن تفيد أولئك الذين تحالفوا مع المسيحيين. كان المسيحيون هم المستفيدون الوحيدون في نهاية المطاف.

إلى جانب العبء المالي الناجم عن الحفاظ على جيوش دول الطوائف الأكثر قوة، تسببت الحرب بين الولايات بأكبر قدر من الضرر لدول الطوائف التي تعرضت لهجمات ونهب مستمرة. قاد حكام بنو عباد من إشبيلية هجمات مستمرة ضد ولايات الطوائف الصغرى المجاورة والتي أدت في النهاية إلى تلاشيها مثلما كان الحال مع رندة وقرمونة والجزيرة الخضراء وموورور وأركش وشلب وشنتمرية الغرب.

لم يقتصر الصراع بين دول الطوائف على الهجمات التي تشنها دول الطوائف القوية على الأقل قوة، بل شمل أيضاً الصراع بين دول الطوائف الضعيفة. الأسباب كانت متباينة لكن الآثار الاقتصادية الداخلية للحرب بين دول الطوائف الضعيفة كانت مدمرة على حد سواء. ومن الأمثلة على ذلك اشتباكات غرناطة العسكرية مع ملقة.[9] تجب الإشارة الى ان الآثار الضارة للحرب لم تكن مقتصرة على دول الطوائف الضعيفة حيث أن هجمات دولة الطوائف الأكثر قوة غالباً ما أنتجت هجمات وردود فعل مضادة. على سبيل المثال، المعركة بين جيش بطليوس ضد جيش إشبيلية بالقرب من باجة في 1030/421 كان قد اعقبها في 1033/425 انتصار جيش ابن الأفطس ضد القوات الإشبيلية بقيادة إسماعيل ابن عباد (القاضي ابن بن عباد) في أراضي بطليوس.[10] ومع ذلك فإن جيش الاشبيليين ألحق في وقت لاحق هزيمة ساحقة على المظفر بن الأفطس في لبلة في 442 / 1050.[11] هجمات ابن ذو النون ضد قرطبة فشلت عندما سعى حاكم قرطبة إلى طلب مساعدة المؤتمن بن عباد في 1070/463.[12]

---

(6) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق. 2/ج. 1، تحقيق: احسان عباس (ليبيا – تونس، 1978)، ص. 16؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال (بيروت (ابن الخطيب، 1934)، 1930)، ج. 3، ص. 169-70.

(7) " فورد علينا من اقبال ألفونش مع ابن عمار هول عظيم، وصح عندنا انه لم يأتي إلا طالبا لملكنا" ابن بلقين، كتاب التبيان، ص. 74.

(8) ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 77؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق. 4/ج. 1، ص. 157-60.

(9) ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 88-95.

(10) ابن بسام، المصدر السابق، ق. 2/ج. 1، ص. 19-22؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 3، ص. 202-3.

(11) ابن بسام، المصدر السابق، ق. 2/ج. 1، ص. 23؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج. 3، ص. 210-11.

(12) ابن الخطيب، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق: ليفي بروفنسال (الرباط، 1934)، ص. 171-72.

كانت الغنيمة محفزًا اقتصاديًا مثيراً وراء الحروب بين دول الطوائف لكن في حين أنها تشكل دخلاً إضافيًا للبعض، فقد عملت على تدمير وإضعاف الآخرين اقتصاديًا. علاوة على ذلك، لم تكن الغنائم مصدرًا آمنًا للدخل ليس فقط لأن عملية مهاجمة وضم ولايات اخرى لا يمكن أن تستمر إلى أجل غير مسمى، ولكن لأن نفقات الحملات العسكرية والحفاظ على جيش نظامي لهذا الغرض غالبًا ما تتجاوز قيمة الغنائم المكتسبة. كان لنجاح الحملات العسكرية قيمة إضافية لزيادة هيبة حكام الطائفة، لكن هذه الحملات لم تكن مجدية اقتصاديًا. بغض النظر عن ذلك فإن الأمر الأكثر خطورة هو حقيقة أن هذه السياسة عملت على إضعاف دول الطوائف بشكل جماعي. كما تم تنفيذه على حساب القيام بسياسة اقتصادية شاملة طويلة الأجل تقوم على المصالح الاقتصادية للأندلس بصفة عامة، والدفاع ضد مخاطر عسكرية واقتصادية أكبر قد تأتي من الجنوب أو الشمال.

3. ازمات نقدية:

تعكس النظم النقدية المستقلة لدول الطوائف التقسيم السياسي والاقتصادي في الأندلس خلال القرن الحادي عشر. كان حكام الطائفة الأقوياء يسخرون عملاتهم الخاصة كتعبير عن استقلالهم الاقتصادي من خلال نشر صورتهم كحكام مطبوعين بألقابهم على العملات المعدنية. كانت مجموعة القطع النقدية التي تعود إلى فترة الطوائف والتي وصلت إلينا كافية لتأمين المواد اللازمة لدراسة نقدية كاملة لنقود حكام الطائفة.[13] ومع ذلك، وفي الوقت الذي نستكمل فيه تصورنا للوضع السياسي والاقتصادي والتطورات في الأندلس خلال القرن الحادي عشر فإن هذه العملات لا تشير إلى وجود نظام نقدي قوي ومستقر. سواء كانت العملة تحمل نقش اسم أو لقب المعتصم بن عبّاد أو المظفر بن الافطس، فإن قيمته كانت محددة فقط من خلال دقة ووزن المعدن في تركيبته لأنه لم يكن هناك حاجة إلى ضمان أو احتياطيات بما ان العملات تمثل القيمة المخزّنة. لذلك يمكن أن يتم تداول العملات المعدنية التي يصدرها أي حاكم في مدن الطوائف خارج نطاق الأندلس في شمال إسبانيا والمغرب. في نهاية فترة الطائف تم تداول عملات معدنية في الأندلس صدرت من قبل المرابطين.

كان النظام النقدي يعمل بشكل جيد خلال الفترة المبكرة من ولايات الطائف عندما كانت المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة وفيرة في الأندلس. حتى القرن الحادي عشر، جذبت الأندلس كميات كبيرة من الذهب والمعادن النفيسة الأخرى من الخارج، وخاصة من السودان (المنطقة من السنغال إلى تشاد). ومع ذلك، وبحلول نهاية فترة الطائفة كانت أموال الجزية المفروضة على دول الطوائف من قبل الملوك والقادة المسيحيين قد استنزفت الكثير من معادنها الثمينة، ووجد حكام الطوائف أنفسهم في وضع لم يعد بإمكانهم الوفاء بمطالب أموال الجزية من خلال اللجوء إلى الضرائب وغيرها، لذلك تم خلط معادن القطع النقدية بمعادن أخرى ذات جودة أقل، وبالتالي خفض قيمتها الاسمية. استمر إصدار هذه القطع النقدية داخليًا ولكن تم رفضها من قبل مبعوث ألفونسو إلى المعتصم بن عبّاد. كان غش العملة في ولايات الطائفية بداية لنهايتها.

---

(13) انظر:
Antonio Prieto y Vives, *Los Reyes De Taifas. Estudio Histórico-numismático De Los Musulmanes Españoles En El Siglo V De La Hégira (XI De J.C.)* (Madrid, 1926); George C. Miles, *Coins of the Spanish Muluk al-Tawa'if* (New York. 1954).

ليس من السهل تحديد القيمة الحقيقية للأموال خلال القرن الحادي عشرفعلى الرغم من بعض المحاولات التي بذلت في هذا الصدد[14] فإن المعلومات المتاحة – على الرغم من ندرتها – متناقضة. لم تكن الأسعار ثابتة وتختلف قيمة الأشياء تبايناً حادًا وفقًا للظروف المختلفة. يجب أن يعزى تقلب نظام الأسعار إلى أربعة عوامل أساسية. أولاً، أثر عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي الكبير على الأسعار وقيمة الأشياء بشكل كبير. ضاعت ثروات وأخرى كانت تجمع بسرعة كبيرة. في مناخ من انعدام الأمن الشديد، أصبحت الأسعار مصطنعة وارتفعت من جميع النسب مع قيمة الأشياء. ثانيا، تراكمت ثروات كبيرة من قبل حكام الطوائف ومؤيديهم في فترات قصيرة من الزمن. تم إنفاق الكثير من هذه الأموال السهلة بشكل غير منتج وببذخ. على سبيل المثال، أعطى المعتمد ابن عباد شعراءه مكافآت تصل إلى 500 مثقال.[15] ثالثًا، مع نهاية فترة ولايات الطوائف انخفضت قيمة العملة في الاندلس، وساهم هذا في تسريع تضخم الأسعار في ولايات الطوائف. رابعاً، انتقلت الأموال من الأندلس بمبالغ أكبر من تلك التي جلبت لها، وهذا يرجع من جهة إلى زيادة مقدار أموال الجزية التي فرضها الملوك المسيحيين على امراء الطوائف من جهة أخرى فعل الهجمات العسكرية التي يقوم بها المستردون المسيحيون. وبعبارة حديثة يمكننا القول اننا نستطيع في هذه الوضعية الكشف عن عناصر الاتجاة التضخمي المفرط في أبسط مظاهره: التشكيك، وزيادة النقد المتداول دون زيادة مماثلة في الإنتاجية، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، ليس فقط في المنتجات ولكن في المبالغ التي يتعين دفعها كأموال جزية.

إن أموال الجزية المفروضة على دول الطائفة شكلت عبئًا ماليًا شاقًا على اقتصاداتها. في البداية، تم اقتطاع مبلغ المال المدفوع للملوك المسيحيين من قبل حكام الطائفة من العوائد المتبقية بعد تغطية جميع النفقات الحيوية. كان هذا شيء يمكنهم في ذلك الحين تحمله. من ناحية اخرى فقد تم تقديم الحماية لهم في المقابل، أو التحالفات التي سعوا من خلالها إلى تعزيز مصالحهم مثل مهاجمة دول الطائفة الأخرى وضم الحصون. ومع ذلك، زاد مبلغ مال الجزية المفروضة على دول الطوائف إلى مستوى لم يكن في مقدورهم تحمله، ومع ذلك لم يكن لديهم بديل سوى الدفع لأن الجيوش المسيحية هددت بالتسبب في دمار كبير في حالة الرفض. وبحلول نهاية فترة النفوذ تجاوزت كمية مال الجزية المفروضة على دول الطوائف دخلها مما عجل بمعدل غير مسبوق من التراجع الاقتصادي وهو ما أدى إلى الإفلاس. فماهي قيمة الجزية المفروضة على دول الطائفة؟ تختلف أموال الجزية حسب الظروف التي دفعت فيها وعلى قوة دولة الطوائف التي فرضت عليها. في الواقع، بينما اشتكى بعض الحكام من عبء مالي لا يمكنهم تحمله، قام آخرون بزيادة عروضهم مقابل دعم سياسي أو عسكري. على سبيل المثال عقد ابن عمار وزير المعتمد بن عباد مفاوضات مع ألفونسو السادس بغية إقناعه بالانضمام إلى قوات إشبيلية ضد غرناطة مقابل 50 ألف مثقال.[16] يبدو أن هذا الموقف يشير إلى أن 50،000 مثقال كان مبلغًا يمكن أن تتحمله إشبيلية بسهولة أو أن المساعدة العسكرية التي قدمتها مملكة ليون وقشتالة من

(14) من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر:

E. Ashtor "Prix et salaires dans l'Espagne musulmane aux X e et XI e siècle" *Annales, Economies, Sociétés, Civilisations,* 20 (1965), pp. 664-79.

(15) ابن خاقان، قلائد العقيان في أنباء الزمان (القاهرة، 1283 هـ)، ص. 9-10.

(16) يشتكي الأمير عبد الله بن بلقين بمرارة من اضطراره الى دفع مبالغ كبيرة الى ألفونسو السادس. ابن بلقين، كتاب التبيان، ص. 76.

شأنها أن تمكن إشبيلية من الحصول على مكاسب مالية تبلغ قيمتها 50.000 مثقال على الأقل. ومع ذلك، يستند هذا المنطق على افتراض أن مبعوثو إشبيلية تفاوضوا على أساس القوة المالية لإشبيلية ومصالحها ولكن كان الامر بخلاف ذلك فالمبالغ الكبيرة التي قدمتها إشبيلية واثقلت كاهلها كان فقد لتحقيق طموحات ابن عمار الشخصية ورغبته في إضعاف غرناطة. هذا الاتهام وجه ضده من قبل عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة،[17] وصدامه الأخير مع المعتمد بن عباد يثبت وجهة نظرنا. علاوة على ذلك، ابن عمار لم يقدم لألفونسو المبلغ المذكور فقط، ولكنه تنازل أيضا عن كل الغنائم النقدية والمادية الناتجة عن الهجمات ضد غرناطة.[18] على النقيض من ذلك، كان عبد الله بن بولوجين أكثر ترددًا في تقديم أموال الجزية لألفونسو حيث رفضت دفع 10،000 مثقال في السنة لألفونسو، قبل ان يتم اخضاعه لضغوط عسكرية ونفسية وأجباره على دفع 30.000 مثقال.[19] ولذلك، استغل ألفونسو رغبة ابن عمّار في غزو غرناطة من أجل زيادة الضغط على حاكم مدينة غرناطة، وبالتالي الحصول على المزيد من المال الذي كان قد طلبه في البداية.

إن السعر المالي المرتفع الذي عرضه ابن عمار على ألفونسو لمساعدته العسكرية ضد غرناطة خلال الفترة المبكرة من فترة الطائفة كان مبررًا سياسيًا بشكل أساسي، لأن غزو الحصون في ولاية غرناطة الطائفية سيزيد من مكانة وصورة إشبيلية كدولة طائفية قوية. ومع ذلك، لم تؤخذ في الاعتبار الآثار الجانبية المالية لهذا الموقف وآثاره على المدى الطويل. ومن ثم تغير الوضع في عام 1085/478 عندما دفعت أموال الجزية السنوية المفروضة على إشبيلية بأموال منقوصة. وقد رفض المبعوث اليهودي لألفونسو، ابن شلب، هذه الأموال المنقوصة بشكل قاطع، الأمر الذي دفع المعتمد بن عباد إلى قتله،[20] مما خلق صراعاً مباشراً مع ألفونسو، الأمر الذي دفع حكام الطائفة إلى المسارعة في طلب مساعدات عسكرية من يوسف بن تاشفين.

قيمة الأموال تغيرت بالتغيرات في التطورات السياسية في الأندلس. لذلك، على الرغم من أن العملة كانت منهارة خلال فترة الطوائف، إلا أن توحيد الأندلس تحت لواء المرابطين دعا إلى وقف انخفاض قيمة العملة وتراجعها. هذا الانخفاض والارتفاع في قيمة المال يجعل المقارنات بين الأرقام على مراحل مختلفة من القرن الحادي عشر من الصعب تتبعها. هذا التناقض ربما يفسر عدم انتظام الأسعار بشكل أفضل، فعلى سبيل المثال نجد أن مبلغ 500 مثقال هو السعر المقدم للمشاركة في مؤامرة لقلب الحاكم وأيضا لتركيب قصيدة رائعة.[21] كما نجد أن حاكم ملقة، تميم بن بلقين بن زيري، أرسل الى القاضي بن سحل مبلغ صغير 50 مثقال كرشوة لتشويه سمعة أخيه عبد الله بن بلقين بحضور يوسف بن تاشفين،[22] وقد رفض ابن سهل هذا المبلغ ليس لأنه لم يكن كافياً ولكن كمسألة مبدأ. ان عدم انتظام الأسعار خلال القرن الحادي عشر يبرز في عدد من المقارنات.

(17) ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 72.
(18) المصدر نفسه، ص. 72.
(19) نفسه، ص. 75.
(20) مجهل، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار؛ عبد القادر زمامة (الدار البيضاء، 1979) ص. 42.
(21) اعطي 50 دينار لشيخ يدعى نرقان نظير مشاركته في مؤامرة دبرها يدير لإطاحة بباديس من حكم غرناطة = ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 32. وقبل ان يسلم الأمير بلقين غرناطة الى يوسف بن تاشفين، ضغط القائد المرابطي غارور على عبد الله واجبره على ان يسلمه مبالغ تتراوح مابين 500 الى 1000 دينار = المصدر نفسه، ص. 115. ومن سخرية القدر ان 500 دينار كانت هي القيمة التي دفعها المعتمد بن عباد الى شاعر اعجبته قصيدته = ابن خافان، قلائد العقيان، ص. 9-10.
(22) ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 116.

على سبيل المثال، خلال الفترة المبكرة من فترة الطائفة جلبت مدينة وادي آش في ولاية غرناطة دخلاً سنوياً قدره 15000 دينار عندما كانت تدار من قبل علي القروي في عهد باديس ابن زيري. عندما قام والي مدينة غرناطة بتكليف الوزير اليهودي أبو يوسف بن نغرالة بإدارتها، ازداد دخلها خمسة أضعاف ليصل إلى 100 ألف دينار.[23] وقد يكون الدخل الصغير لوادي آش عندما كان يديره علي قد يعود إلى حقيقة أنه احتفظ بمعظم الأرباح لنفسه، بالنظر إلى أن الحكام كانوا يتمتعون بالسيطرة الكاملة على مدنهم أو حصونهم. من ناحية أخرى، ربما كان المسؤول اليهودي أكثر كفاءة، ولكن مهما كانت الأسباب فقد كانت الزيادة هائلة.

أكبر مبلغ تم ذكره في أي مصدر من القرن الحادي عشر في الأندلس كان 150.000 مثقال، و500 بوشل من الحبوب لجنود ألفونسو السادس مقابل إعادة ابن ذو النون كحاكم لولاية طليطلة.[24] هذا كان قبل غزو ألفونسو السادس لطليطلة عام 1085/478 بوقت قصير. وقد بلغ حجم المال الذي تمكن الحكام المسيحيون من انتزاعه من حكام الطائفة ذروته سواء على شكل أموال جزية أو كشرط للتحالفات. يوضح هذا المثال الثروة التي تراكمها حكام الطائفة وكذلك استغلالهم لهذه الثروة. وعلى النقيض من هذا المبلغ الكبير كان مبلغ 16 ألف مثقال التي يزعم الأمير عبد الله بن بلقين أنه تركها بعد أن سلم غرناطة لقوات يوسف بن تاشفين.[25]

الخلاصة، يبدو أن دور المال في تحفيز الإنتاج – سواء الزراعي اوالمصنَّع – كان اساسيا في اقتصادات دول الطوائف، وخلق هذا النظام المالي الظروف لتحفيز النشاط الاقتصادي، ولكن كان هناك قوى أخرى أكثر هيمنة هي التي حددت في النهاية المسار العام نحو التدهور الاقتصادي في الاندلس.

4. حقبة الجزية:

باستثناء الهشاشة الاقتصادية لنظام دولة الطوائف وعدم وجود سياسة اقتصادية داخلية سليمة وحروب داخلية واخرى بين دول الطوائف، فإن أموال الجزية التي انتزعت من قبل الملوك المسيحيين وقادة من شمال إسبانيا شكلت أخطر قوة وراء تسارع التدهور الاقتصادي في ولايات الطوائف. أموال الجزية التي أجبرت دول الطوائف على دفعها للمسيحيين من الشمال يزداد تدريجيا بما يتناسب مع زيادة القوة التي حصلت عليها هذه القوى، ولا سيما ألفونسو السادس. كانت آثار سياسة استخراج أموال الجزية بطرق مختلفة كبيرة بالنسبة للممالك المسيحية، وخاصة ليون وقشتالة، كما كانت بالنسبة لدول الطوائف. من أجل تقدير أهمية هذا الاتجاه بشكل كامل يجب أن نشير باختصار إلى خلفيته. وراء هذه التطورات، كانت هناك قوى اجتماعية داخلية تعمل في كل من مملكة ليون وقشتالة وفي ولايات الطائف. في مملكة ليون وقشتالة، اكتسب التاج السلطة نتيجة لتحالفه مع الكنيسة الكاثوليكية، في حين تم وصف طقوس المستعربين المحلية بالهرطقية. لا يمكن للمدن أن تزدهر إلى حد كبير لأنها كانت تفتقر إلى الأرض حيث اكتسب رجال الدين مساحات شاسعة. أدت المصاعب والضغوط الداخلية إلى البحث عن فرص أفضل في أماكن أخرى، وقد تم التعبير عن ذلك في حركة الاسترداد. كان المجتمع المسيحي في إسبانيا قد تم توجيهة وتجنيده للحرب ضد الأندلس مع جعل الحصول

---

(23) المصدر نفسه، ص. 38-39.
(24) نفسه، ص. 77.
(25) نفسه، ص. 56. ومع ذلك ربما اخفى الأمير عبد الله بن بلقين حقيقة المبلغ الذي ترك له إذا اخذنا في عين الاعتبار انه كان اسيرا لدى يوسف بن تاشفين اثناء كتابته لمذكراته ولم يستطع ان ينتقده.

على ما تملكه الأخيرة من تراكم كبير للثروات ومجتمع متفوق حضاريًا ومتفوقًا ثقافيًا كهدف لذلك. وكان هذا التوجه مصحوبًا بالبحث عن أراضٍ جديدة وبالتالي بدأت الحدود المسيحية في التمدد جنوبًا على حساب أراضي الاندلس. من الناحية الأيديولوجية، أخذ الاستيلاء شكلًا دينيًا كحرب صليبية ضد الكافر، ولكن من الناحية السياسية تم توجيهها من خلال النهج العدواني والواقعي للملك ألفونسو السادس الذي تمكن من توحد القوى المختلفة من حوله. من الناحية الاجتماعية أصبحت درجة المشاركة في حرب الاسترداد ضرورية للحصول على وضع اجتماعي أفضل والانتقال الى درجة اعلى في السلم الاجتماعي. من الناحية الاقتصادية – وكان هذا هو البعد الأقوى – تم تحفيز الاسترداد من خلال الرغبة في الحصول على الثروة بسرعة وبكميات كبيرة. والوسائل التي اتخذت من اجل استرداد الاندلس كانت في الأساس سياسية وعسكرية، وكان الحافز الاقتصادي مهيمنا على المجتمع القشتالي طيلة القرن الحادي عشر حتى أن الحرب أصبحت امراً حيوياً ومصيرياً بالنسبة لهم.[26] في هذا الصدد، يقول ماكاي: "علاوة على ذلك، حتى داخل نبلاء الدم، كان هناك العديد من الذين يدينون بصعودهم الاجتماعي إلى الفرص الاقتصادية والعسكرية التي توفرها الحياة والحروب الحدودية".[27]

خدمت الحرب في قشتالة المجتمع القشتالي في العصور الوسطى على أنها تعزيز للارتقاء الاجتماعي، كما ساعدت على تبرير هيمنة طبقة النبلاء المحاربة، وأتاح للكثيرين وسيلة أسهل لضمان حياتهم أو اكتساب المزيد من الثروة. ولكن إذا كانت إعادة الفتح ترمز إلى ولادة اسبانيا المسيحية، فإن عواقبها للأندلس كانت كارثية.

كانت الآثار المترتبة على اقتصادات دول الطائفة من دفع أموال الجزية سلبية للغاية. أولاً، عانت اقتصادات دول الطوائف من ضرر كبير لسببين: حقيقة الكبرى ان الاضطرار إلى دفع المال كان عبئا إضافيا على دول ملوك الطوائف، لكن إذا كان بعض الأقوياء مثل أشبيلية يستطيعون تحمله من دون ضغوط كبيرة، فإن العبء كان أكبر من ان تتحمله دول الطوائف الضعيفة ذات الاقتصاد الهش. وهذا صحيح بشكل خاص عندما نعتبر أن المبالغ المفروضة على دول الطوائف الأضعف هي أقصى مما يمكن لاقتصادها تحمله. علاوة على ذلك، كانت الطرق المستخدمة في ممارسة الضغوط على ولايات الطوائف هي نفسها مدمرة لأنها تتألف من حملات عسكرية تهدف إلى تدمير المحاصيل والقرى، مما يؤدي إلى انهيار النظام الاقتصادي. وصف الأمير عبد الله بن بولوجين لمفاوضاته مع ألفونسو السادس ومبعوثيه وتدمير غرناطة كوسيلة لإجباره على قبول شروطهم يوضح حجم الضربات الرهيبة التي يعاني منها اقتصاد غرناطة.[28] ثانياً، الجانب الآخر من الضرر الذي سببه مال الجزية على اقتصادات دول الطائفة كان نتيجة لاتساق واستمرارية هذه السياسة التي استمرت طوال فترة

(26) من أبرز الدرسات في هذا الصدد:
Elena Lurie. “A Society Organized for War: Medieval Spain” *Past and Present*, no. 35 (1966). pp. 54-76; Angus Mackay, “La guerra como oficio. Significado y función de las guerras en la sociedad feudal castellana entre los siglos IX y XIV”, *Historia* 16, no. 34, (1979), pp. 45-54; The section entitled "The Militarisation of Social Groupings", in Angus Mackay, *Spain in the Middle Ages from Frontier to Empire, 1000–1500* (London and Basingstoke, 1977), pp. 45-57.
(27) Angus Mackay, *Spain in the Middle Ages*, p. 51.
(28) ابن بلقين، التبيان، ص. 69-76.

الطائفة. لقد استخرج فرديناند الأول أموال الجزية من الدول القوية، واستمرت هذه السياسة من قبل ابنه سانشو الثاني، وتطور أكثر من قبل ابنه الآخر، ألفونسو السادس، الذي حصل على المال من غرناطة وغيرها من ولايات الطوائف حتى بعد هزيمته في الزلاقة عام 1086/479.[29] عندما قرر يوسف بن تاشفين في 1088/481 إنهاء حصار حصن ليبط والعودة إلى المغرب ناشد حكام الطوائف يوسف أن يترك جنوده معهم للمساعدة في الدفاع ضد هجمات ألفونسو، لكن إجابته كانت: *"أصلحوا نياتكم تكفوا عدوك"*.[30]

لم تكن المخاوف التي أبداها حكام الطوائف غير مبررة على الإطلاق كما هو معبر عنه في رواية عبد الله لحملات ألفونسو، التي كانت أهدافها اقتصادية أساسًا:

"أيقنا أن الرومي لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب. كالذي كان. فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً للمال، متجنِّياً على من خالفه أن يفسد بلاده. وعاقد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق؛ فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف له عندهم. وبلغني الخبر، وزاد ذلك في غمِّي، وعلمت أنِّي فيه كراكب الأسد".[31]

تنعكس قسوة الحملات المسيحية بوضوح في عبارة عبد الله:

"كان ألبرهانش زعيم جهات غرناطة والمرية؛ وكان ألفونش قد وكَّله أمر الجهتين، من إنفاذ أمره فيها لفساد على من تعذر له عنده شيء، ولقبض المال وتوسط ما ينفعه فيها".[32]

نجاح هذه الحملات متأصل في النغمة التي يستخدمها عبد الله للتعبير عن استيفائه لشروط الملك القشتالي:

"أرسلت ألية الثلاثين ألفاً، لم أرزأ أحداً فيها درهماً".[33] وبسبب انعدام الثقة الذي ميز علاقاتهم طلب عبد الله من ألفونسو إبرام معاهدة معه مقابل الدفع، ووافق ألفونسو، ... "لأنه كان متلهفا للغاية للحصول على المال".[34]

إن المعلومات المتوفرة في المصادر التاريخية الأكثر موثوقية تمكننا من إعادة بناء السمات الشاملة للضرر الذي تسببه سياسة استخراج أموال الجزية لاقتصادات دول الطوائف. مع ذلك، لا يمكن إجراء تحليل عميق لهذا الاتجاه ومقارنة تفصيلية لتأثيراته على دول الطوائف بشكل فردي. من ناحية أخرى، من الواضح أن آثارها متعددة الأبعاد. تمت مناقشة الجانب المالي لهذه السياسة في القسم السابق المتعلق بالمشاكل النقدية لكن البعد السياسي والنفسي (مثل التهديدات بالتسبب في دمار أكبر) للضرر الذي تسببت به هذه الاستراتيجية مهمًا أيضًا وذلك لأن الضغوط على حكام الطوائف نجحت في تثبيط المقاومة الموحدة، وفي تعزيز موقف منقاد تجاه الشروط التي فرضها ألفونسو. السادس.[35]

ومع ذلك، كان هناك بعد سلبي آخر لهذا الاتجاه الاقتصادي، وهي الهدر الجسدي والمادي التي نتج عن الحملات العسكرية المنظمة ضد دول الطوائف. تباينت أسباب هذه الذرائع وحججها كما اختلفت الأشكال التي استغرقتها أو مدتها. ومع ذلك، كان ضررهم كبيرًا ليس فقط بسبب العدد الكبير من هذه الهجمات وتكرارها،

(29) المصدر نفسه، ص. 122-28.
(30) ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 122.
(31) المصدر نفسه، ص. 122.
(32) نفسه، ص. 123.
(33) نفسه، ص. 125.
(34) نفسه، ص. 125.
(35) نفسه، ص. 70.

ولكن أيضًا بسبب استمرارها طوال فترة الطوائف. لا يمكن حساب تقييم دقيق لأضرارها ولكن من الواضح من المصطلحات المستخدمة في وصف المعاصرين والمؤرخين فيما بعد أن دول الطائفة عانت من دمار كبير. آثار هذه النهب على اقتصاديات ولاية الطوائف كانت لا تحصى. على سبيل المثال، وصف مدى الدمار الذي ألحقه ألفونسو بإشبيلية في سياق حملاته العقابية ضد حكام الطائفة الذين شاركوا في حصار حصن لييط في 1090/483 بقلـــم عبد الله على النحو التالي: *"ولم يأت عسكر المرابطين الى اشبيلية إلا والبلد قد أفسد [من قبل جيش ألفونسو]"*.[36]

وبحلول نهاية فترة النفوذ، قوة ألفونسو مكنته من مهاجمة حكام الطوائف بدون تواطؤ حكام الطوائف الآخرين كما كان الحال في السابق. على سبيل المثال، خلال حملاته السابقة لاستخراج الأموال من غرناطة، تم تعزيز قوات ألفونسو من قبل قوات المعتمد بن عبّاد.[37] كان عبد الله يتوقع من حكام الطوائف الآخرين أن يساعدوه، لكنهم ظلوا غير مبالين. يوضح الاقتباس التالي المناورات الخبيثة لحكام الطائفة:

"ابن ذي النون في هذا يتوسط له بالأمر، ويسعى في تصيير المال إليه، يرضيه [ألفونسو] بذلك وينتظر فساد مملكتنا، فيفترصها هو أو يأخذ منها حصته. فكان [ابن ذي النون] – على ما قدّمنا ذكره – عدواً في الباطن، صديق فالظاهر".[38]

يكمن الغرض المزدوج من الحملات العسكرية كوسيلة للتسبب في التدمير المادي وفرض المال الجشع في حالات أخرى. كانت أهداف هذه الحملات اقتصادية، ولكن المناورات السياسية والضغوط النفسية التي رافقتهم كانت مهمة في إجبار حكام الطوائف على الامتثال لشروط ألفونسو. كانت عمليات الإرهاب والابتزاز تتسم بالكفاءة دائما وكثيرا ما مكنت ألفونسو من تحقيق أهدافه دون اللجوء إلى الدمار المادي على نطاق واسع. ومع ذلك تم استخدام هذا الخيار دون تردد عندما فشلت أساليب أخرى. علاوة على ذلك، كان الاستخدام المحدود للنهب دائمًا يستخدم لإعطاء مصداقية موقف ألفونسو عند بدء المفاوضات.

الملاحظة الأولى فيما يتعلق بأساليب ألفونسو لاستخراج أموال الجزية من حكام الطائفة هو أنه أسس سياسته على نقاط ضعفهم، فعلى الرغم من أن حكام الطائفة لم يكونوا على دراية بالضرر الاقتصادي طويل المدى لمشاكهم، إلا أنهم كانوا يدركون حقيقة أن ألفونسو قد استغلهم لمصلحته. على سبيل المثال، كتب عبد الله الانطباع التالي عن حسابات ألفونسو السياسية:

"لما تيقن [ألفونسو] هذه الفتن، علم أن ذلك من أكبر سادة وأعظم فرصة في طلب الأموال ... فأتى باطر شولش يطلب منا ضريبته".[39]

وقد كان عبد الله قد اطلع حتى على مخططات ألفونسو لظم بعض دولالطوائف وذلك عن طريق مبعوث الملك القشتالي سيسناندو دافيدايز حيث قال:

---

(36) المصدر نفسه، ص. 128.
(37) نفسه، ص. 77-72.
(38) نفسه، ص. 71.
(39) نفسه، ص. 69.

"إنما كانت الاندلس للروم في أول الامر، حتى غلبهم العرب، وألحقوهم بأنحس البقاع: جليقية؛ فهم الآن عند التمكن، طامعين بأخذ ظلاماتهم، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف".[40]

ومع ذلك، فإن كان عبد الله على علم بمخططات ألفونسو على المدى البعيد كما رأينا في الاقتباس السابق، فقد تحدث عن سياسة الفونسو بعد سقوط طليطلة عام 1085/478 بالعبارات التالية:

"وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة وأخذه لطليطلة، وقلة رفقه، بعدما كان يقنع منا بالجزية وصار يروم أخذ القواعد، وأن أخذه لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاما بعد عام؛ وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد، إذ كان مذهبه ألا ينازل معقلا، ولا يفسد أجناده على مدينة، لبعد مرامها ومن فيها من مخالفي ملته، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاما بعد عام، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدي، الى أن تضعف وتلقى بيدها كما فعلت".[41]

كانت الحملات العسكرية التي قام بها المسيحيون ضد دول الطوائف لاستخراج أموال الجزية تكملها صراع عسكري مستمر بين الطوائف، مما ساهم بالتساوي في التدهور الاقتصادي التدريجي لدول الطوائف. وبعبارة أخرى، إلى جانب الضغوط الداخلية البحتة في ولايات الطوائف، والضغوط الاقتصادية والعسكرية الخارجية للحكام المسيحيين من الشمال، فإن الأنشطة العسكرية المستمرة بين حكام الطوائف إضافة الى أنشطة القوى الأخرى كانت هي من تقف وراء التدهور الاقتصادي للاندلس. النزاعات العسكرية بين الطوائف سهلت مهمة استخراج أموال الجزية للملوك المسيحيين من خلال المساهمة في إضعاف حكام الطوائف. ومع ذلك، فإن إسهاماتها لصالح ملوك المسيحيين كانت في كثير من الأحيان أكثر مباشرة، وكان يتألف من تشكيل تحالفات ضد دول الطائفة الأخرى، والمشاركة ضدهم عسكريا. يجب أن توضع الأنشطة العسكرية بين دول الطوائف في سياق أوسع. لم يقترب ألفونسو السادس من حكام الطوائف بشكل جماعي. بدلا من ذلك، استغل خلافاتهم الشخصية وشجع طموحاتهم على المدى القصير. وفي الوقت نفسه، قام بالضغط على كل فرد من حكام دول الطوائف حتى يتم قبول شروطه، قبل الاقتراب من المرحلة التالية، والتأكد من أن حكام الطوائف الآخرين لن يتدخلوا في حملاته ومفاوضاته. على سبيل المثال، الأمير عبد الله بن بلقين يتهم ابن عمار وزير المعتمد بالتآمر مع ألفونسو السادس ضد غرناطة.[42]

أدت الضغوط الاقتصادية الدائمة في إسبانيا المسيحية على ولايات الطائف إلى زيادة تدريجية في الضرائب. هذه الزيادة كانت قاسية للغاية في بعض دول الطوائف حتى في بداية القرن الحادي عشر. على سبيل المثال، في 401 / 1010-1011، وصلت الضرائب إلى مستويات عالية بشكل لا يصدق في فالنسيا. "بلغت جبايتها لأول أيامها الى مائة وعشرين ألف دينار في الشهر: سبعون ببلنسية وخمسون بشاطبة، فيستخرجانها بأشد

(40) نفسه، ص. 73.
(41) نفسه، ص. 101.
(42) ابن بلقين، التبيان، ص. 72.

العنف من كل صنف". هذا العامل أثر بشكل كبير على سكان دول الطوائف، وأثار الاستياء إلى مستوى تم التعبير عنه في بعض الأحيان على شكل تمرد.[43]

في مرحلة معينة، لم يعد بإمكان حكام الطوائف احتواء الثورات المنتشرة على نطاق واسع والتي تم تحفيزها بشكل أساسي من خلال الإفراط في فرض الضرائب. هكذا كان الوضع في غرناطة الذي وصفه عبد الله:

"ونسمع في هذا كلّه من أهل جهاتنا تهديداً وعصياناً أنكرناه".[44]

كان الإفراط في فرض الضرائب محفوفة بالمخاطر ولكن كان لا يقل أهمية عن ذلك حقيقة أن سكان ولاية الطائف كانوا على علم بالظلم المفرط في فرض الضرائب وحاولوا كذلك تغيير الأوضاع التي عبّر عنها بوضوح حاكم الطائفة:

"ورأى سلاطين الاندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليهم، مع احتياجهم الى الإنفاق، ما قلق به وساء الظن من أجله: جيش يكلفونه كل عام، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة، وتحف متوالية، لو فرط منها في شيء، لانخرمت عليها الأحوال؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي الى ملامة وتوجب عقوبة [من المرابطين]، أو امتناع يؤدي الى استئصال، كالذي جرى".[45]

كما هو واضح من الاقتباس أعلاه، لم يقتصر الأمر على سكان ولاية الطائفة على علم بالظلم المفرط في فرض الضرائب، بل رفضوه كذلك. هذا كان يمكن القيام به فقط من خلال الدعم الضمني أو الصريح للمرابطين الذين قدموا مطالبات قانونية لإلغاء الضرائب الثقيلة في دول الطائف:

"لقد كنت قلق بسبب رعاياي الذين سعوا لإنهاء الضرائب غير الإسلامية، بسبب اهتمام المرابطين بتنفيذ الزكاة والعشور".[46]

ومع ذلك، تحول الدافع الأخلاقي البحت لتدخل يوسف بن تاشفين في الأندلس إلى رغبة في تحقيق مكاسب مادية. إلى جانب "المجاملات باهظة الثمن"، و "الهدايا المستمرة" للمرابطين، اضطر عبد الله للامتثال للمطالب المالية لقائد يوسف ويدعى غيور، حيث اضطر عبد الله أحياناً ان يدفع له بمبلغ 500 و1000 دينار مرابطي. لكن إلى جانب هذه المدفوعات المباشرة، أرسل عبد الله له مبالغ أكبر:

"أما الذي صار إليه في سفرة بطليوس ومدة كونه على لبيط مع الرسل، فأكثر من أن يحصى".[47]

وبالتالي، فإن الإفراط في فرض الضرائب كان هو ما يكمن وراء الاستياء الواسع الانتشار في ولايات الطائف. هذا الاستياء الذي كانت جذوره اقتصادية وسياسية قد وصل إلى أعلى مستوى في الأندلس في أعقاب معركة الزلاقة في 1086/479، لأن الأندلسيين شهدوا يوسف بن تاشفين واعتبروه بديلا صالحا لحكامهم

(43) المصدر نفسه، ص. 35-130.
(44) نفسه، ص. 110.
(45) نفسه، ص. 109.
(46) ابن بلقين، التبيان، ص. 120. كانت السياسة المالية في بعض دول الطوائف قاسية للغاية حتى في بداية القرن الحادي عشر. على سبيل المثال، في 401 / 1010-1011، وصلت الضرائب إلى مستويات عالية بشكل لا يصدق في فالنسيا. "بلغت جبايتها لأول أيامها الى مائة وعشرين ألف دينار في الشهر: سبعون ببلنسية وخمسون بشاطبة، فيستخرجانها بأشد العنف من كل صنف". (ابن بسام، الذخيرة، ص. 15.
(47) ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 115.

الفاسدين في مدن الطوائف. تم الترويج لصورة يوسف كحاكم تقي ومنصف وقوي بين الجماهير الأندلسية من قبل مجموعات مختلفة لا سيما القادة العسكريين والفقهاء.[48] وبالنظر إلى انقسامات حكام الطوائف التي لا يمكن التغلب عليها فقد اجتذب الأندلسيين بشكل خاص الى شخصية ابن تاشفين كقوة موحدة.

لم تفلت من ملاحظة يوسف بن تاشفين العوامل الاقتصادية لتلك التطورات السياسية في الاندلس حيث اتهم حكام الطوائف بالإفراط في فرض ضرائب على رعاياهم ووضع المشكلة في الإطار الشرعي مبينا إن العديد من الضرائب في دول الطائفية غير إسلامية وبالتالي غير قانونية ولذلك، طالب بإلغائها، وهو إجراء لم يكن من الممكن أن يرحب به إلا سكان دول الطائفة. ومع ذلك كان هذا مستحيلاً بالنظر إلى ضخامة الضغوط العسكرية المستمرة من جانب ألفونسو السادس ضد دول الطائفة. كان فرض الضرائب أمراً ضرورياً لدفع جزية ألفونسو، وبالرغم من ذلك اعتبر يوسف أن هذه الأموال المقدمة لألفونسو مسيئة وغير شرعية، متهما حكام الطوائف بالتواطؤ مع الكفار المسيحيين. كان لديه مبرر شرعي لغزو دول الطوائف كما كان لديه دعم عام من الأندلسيين مع القوة العسكرية للحصول على هذا الهدف. من خلال غزو دول الطوائف، باستثناء سرقسطة التي كان يحكمها بنو هود وطليطلة التي بقيت في أيدي المسيحيين، تمكن يوسف من وضع حد مؤقت للانحدار الاقتصادي المستمر في الأندلس. ومع ذلك، فشل في تطوير استراتيجية طويلة الأجل لوضع الأساس للتنمية الاقتصادية في الأندلس. لقد تم إطلاق الغزو المسيحي وحقق هذا الزخم وكان قد فات الأوان لوقفه.

الخاتمة:

إن أهمية الاتجاهات الاقتصادية في الأندلس خلال فترة ولايات الطوائف من منظور شامل هي أنها توفر عنصراً أساسياً لتفسير الانهيار المفاجئ لدول الطائفة خلال القرن الخادي عشر الميلادي. ففي البدء كان التباين من حيث الثروة ومستويات المعيشة كبيرا حيث كان المجتمع الأندلسي من بين أكثر المدن تحضرا وتطورا في العالم الإسلامي. ولكن، من الناحية العسكرية، كان التناقض في صالح المسيحيين الذين كانوا أفضل تجهيزًا للقتال. ومع الوقت ازدادت القوة العسكرية ومعها القوة السياسية والاقتصادية للمسيحيين، في إطار وحدة أكبر، بشكل أساسي حول تاج ليون وقشتالة، في حين أن الإمكانيات العسكرية المحدودة لدول الطوائف انخفضت بشكل تدريجي في جميع أنحاء البلاد خلال القرن الحادي عشر حتى وصلت إلى الحضيض بحلول عام 1085/478 بعد غزو ألفونسو لطليطلة.

إن سياسة استخراج أموال الجزية من دول الطائفة في الجزء الأكبر من القرن الحادي عشر استنزفت هذه الأخيرة مالياً وكانت عواقبها السياسية والاقتصادية عليها وخيمة لأنها أدت إلى تفككها وبالتالي غزوها.[49] فمن خلال قوتهم العسكرية المتزايدة، ضغط ألفونسو السادس، وأل سيد او رودريغو دياز، والكونت برانجيه الثاني

(48) وفي حالة المعتمد بن عبّاد، طبق يوسف بن تاشفين جميع أنواع الضغوط عليه مما أجبره على طلب مساعدة ألفونسو السادس التي لم تصل على أي حال. ومع ذلك وجد يوسف نفسه في موقف يسمح له باتهام المعتمد وغيره من حكام الطوائف بالتعاون مع الكفار ودعم الفقهاء أعطى هذا الاتهام المزيد من الثقل القانوني. "فلما تبين للأمير [يوسف] خلافه وقعوده عنه [المعتمد]، شاور الفقهاء في أمره؛ فأشاروا عليه بغزوه. فكان غزوه بعد إبلاء عذر؛ ولها ما أخر به... فأمر الأمير سير بالخروج إليه". (ابن بلقين، التبيان، ص. 169- 70).

(49) لمعالجة مثيرة لهذة المسألة انظر:

José Marīa Lacarra, Aspectos económicos de la sumisión de los reinos de Taifas (1010-1102), in *Homenaje a Jaime Vicens*. vol. I (Barcelona, 1965). pp. 255-77.

على دول الطوائف لقبول شروط قاسية بشكل متزايد لمبالغ أموال الجزية. ومن خلال المناورات السياسية والمساومة الذكية، كان قادة الطوائف يستسلمون ويقبلون أكثر الشروط غير المعقولة. وعلاوة على ذلك، تم التخطيط والتنفيذ الدقيق لسياسة دفع أموال الجزية سواء في تحقيق الأهداف قصيرة الأجل المتمثلة في الحصول على أقصى مبلغ من المال من دول الطوائف بشكل فردي (وليس ككل)، أو تحقيق هدف طويل الأجل من خلال إضعافهم إلى حد جعل غزوهم ضرورة افتراضية. وبالتالي فعندما وصلت الفجوة الاقتصادية بين مملكة ألفونسو في ليون وقشتالة، وولايات الطوائف إلى أقصى حد لها، قرر ألفونسو السادس أن سياسته لاستخراج أموال الجزية من الطوائف لم تعد مربحة وأن قوته العسكرية كانت كافية لتمكينه من احتلالها فعليًا. كان ألفونسو على صواب في تقييم سلطته الاقتصادية والعسكرية في مواجهة دول الطوائف ولكنه تجاهل احتمال قيام حكام الطوائف بطلب مساعدة يوسف بن تاشفين، الأمر الذي أدى إلى هزيمته في الزلاقة عام 1086/479.

ربما كان الأمر الأكثر خطورة هو حقيقة أن ألفونسو قد قلل من قوة يوسف العسكرية وبراعته السياسية ونفاذ بصيرته وخصائصه القيادية. تجاهل ألفونسو حقيقة أن الأندلس سيجتذب يوسف على المزايا المادية نفسها التي كانت تجذبه. نتيجة لسياسة ألفونسو المفاجئة العدوانية ضد دول الطوائف فقد تمت دعوة يوسف إلى الأندلس وبعد التعرف على الانقسامات والضعف التي لا يمكن لحكام الطوائف التغلب عليها بدأ غزو دولهم. غزا المرابطين جميع دول الطوائف باستثناء سرقسطة التي بقيت في يد بنو هود. ومع ذلك، فشلهم في استعادة طليطلة كتب بداية النهاية لأنه أعطى المسيحيين وضعا استراتيجيا مفيدا وكان من طليطلة بداية انطلاق الغزو المسيحي للأندلس او مايطلق عليه بحرب الاسترداد.

قائمة المصادر المراجع:

1. المراجع العربية:

- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني. (1979). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة* (المجلد 2). (احسان عباس، المحرر) ليبيا – تونس: الدار العربية للكتاب.
- ابن بلقين، عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس. (2006). *كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة*. (علي عمر، المحرر) القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله. (1283 هـ). *قلائد العقيان في أنباء الزمان*. القاهرة.
- ابن الخطيب، لسان الدين السلماني. (1934). *اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام*. (ليفي بروفنسال، المحرر) الرباط: المطبعة الجديدة.
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد بن محمد. (1930). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (المجلد 3). (ليفي بروفنسال، المحرر) بيروت: دار الثقافة.
- بن عبود، امحمد. (1987). *جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري*. تطوان: مطبعة النور.
- مجهول. (1979). *الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية*. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.

2. المراجع الأجنبية:

- Ashtor, E. (1965). Prix et salaires dans l'Espagne musulmane aux X e et XI e siècle. *Annales. Economies, sociétés, civilisations, 20*(4), 664-679.
- Laurie, E. (1966). A Society Organized for War: Medieval Spain. *Past and Present, 35*(1), 54-76.
- MacKay, A. (1977). *Spain in the Middle Ages: From Frontier to Empire, 1000–1500.* London – Basingstoke: Macmillan.
- Mackay, A. (1979). La guerra como oficio. Significado y función de las guerras en la sociedad feudal castellana entre los siglos IX y XIV. *Historia, 16*(32), 45-54.
- Miles, G. C. (1954). *Coins of the Spanish Muluk al-Tawa'if* . New York: American Numismatic Society.
- O'Callaghan, J. F. (1975). *A History of Medieval Spain.* New York: Cornell University Press.
- Vives, A. P. (1926). *Los Reyes de Taifas : estudio histórico-numismático de los musulmanes españoles en el siglo V de la Hégira (XI de J.C.).* Madrid: Centro de Estudios Históricos.

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية

العدد الثالث / 2019م

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

استحقاق النسب وأثره في موقف بعض القبائل من خلافة أبي بكر الصديق

إعداد:

د.أبو بكر صالح السنوسي بوتكاميل .

أ.إدريس عبد النبي حامد الجوير.

جامعة عمر المختار

ملخص البحث :

جاءت حركة الردة وكغيرها من الأحداث التاريخية نتاج عوامل متعددة، ودوافع مختلفة، كانت وراء هذا الحدث الكبير، والذي كاد أن ينهي الدولة العربية الإسلامية الوليدة .

اختلفت دوافع المرتدين الذين شاركوا في هذه الحركة، فمنهم من ارتد عن الإسلام بشكل صريح وأعلن نبوءته وكلف نفسه خلفاً للنبي الكريم، ومنهم من أعلن تمرده لأسباب سياسية مدفوعاً بفكرة أن الخليفة أبي بكر رضي الله عنه لم يكن الأكفأ لخلافة النبي الكريم، وبين هذه الاتجاهات خرجت فئة أخرى كان محركها الأساس هو العامل الاجتماعي المدفوع بالتنافس القبلي السائد بين القبائل العربية.

انطلقت هذه الفئة في تمردها من حالة التنافس تلك، حيث رأت أن استخلاف الصديق لم يكن إلا استمراراً لسيطرة قريش، التي وإن كان النبي ينتمي إليها، إلا أن وفاته لا تعني انتقال تلك السيادة لنفس القبيلة من جديد وفق مبدأ الإسلام الذي يدفع إلي العدل والمساواة ما بين المسلمين .

Research Summary:

The movement of apostasy and other historical events resulted from various factors and motives that were behind this great event, which almost ended the nascent Islamic Arab state.

The apostates who participated in this movement differed. Some of them explicitly renounced Islam and declared their prophecies and assigned themselves as the successor to the Holy Prophet. Some of them declared their rebellion for political reasons, motivated by the idea that the Caliph Abu Bakr may not have been more efficient to succeed the Holy Prophet. Another group whose main engine was the social factor was driven by tribal rivalry between the Arab Kabylie.

This group started in its rebellion from the state of competition, where it saw that the friend's use was only a continuation of the control of Quraish, which although the Prophet belongs to it, but his death does not mean the transfer of sovereignty to the same tribe again in accordance with the principle of Islam, which promotes justice and equality between Muslims

المقدمة :

لم تكن السنوات القليلة والتي أعقبت انضمام سائر القبائل العربية للإسلام _ بمقابل تلك المساحة الشاسعة لامتداد الدولة _ كافية لأن يدرك الأعراب طبيعة هذا الكيان الجديد، ولم يكن وعي أغلبهم ليعي أن ذلك الكيان أكبر من أن يكون مجرد سلطة روحية ارتبطت بشخص النبي الكريم، فكان تمردهم تعبيراً عن ذلك الوعي.

من الممكن أن تكون ردة فعل بعض القبائل العربية بموازاة ما تحقق عندها من الناحية الإيمانية والتي تحدث عنها القرآن الكريم حين وصف الحال الانقيادي للأعراب، جاء هذا التمرد كتعبير مباشر لذلك الوصف وكصدى طبيعي لتلك الحالة .

كان تخصيص الخلافة في قريش، وانتقال سلطة النبي الكريم إليها، محل رد فعل الكثيرين ممن شاركوا في حركة الردة، مبررين ذلك التمرد بعدم أحقية تلك القبيلة بوراثة سلطة النبي، خاصة إذا ما قوبل ذلك الانتقال للسلطة بتعاليم الدين الداعية إلي المساواة والعدل بين المسلمين سواء كانوا أفراداً أو جماعات .

لعل هذه النظرة قد تحدد فهم الكثير من القبائل العربية لطبيعة الدولة العربية الإسلامية وفق الرؤية التي تجرد تلك الدولة من البعد المدني السياسي، والذي إن كان النبي قد رسخه في عديد المحطات، كانت ردة فعلهم تلك ربما تعبيراً عن القصور في فهم تلك الطبيعة الثنائية للدولة الإسلامية من خلال بعديها (الدين والدولة) .

مثّل البعد الاجتماعي عاملاً مهماً في تمرد الكثير من الأعراب، خاصةً وأن العرب لم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً عن ما كان يسود علاقاتهم القبلية من تنافس قائم علي المفاضلة والتسابق ما بين الأنساب والانتماءات الاجتماعية وفق أولوياتها التي كانت سائدة، وأن تلك الفترة القليلة زمنياً لسيطرة الإسلام لم تكن كافية للقضاء علي كل تلك الترسبات والتي يبدوا أن بعض زعامات تلك القبائل كانت تحاول استغلالها لتظهر أولى مؤشراتها في ذلك التمرد الكبير الذي بات يعرف باسم (حركة الردة) .

تكمن أهمية هذه الدراسة في تركيزها على العامل الاجتماعي كعنصر فاعل في صناعة الحدث التاريخي والابتعاد عن النظرة التقليدية في دراسة هذا الحدث المهم، والتي ترتكز في العادة على اعتبار حركة الردة في مجملها ارتداد عن الدين، وأن حرب من شاركوا في تلك الردة إنما كانت تصور على أنها حرب ما بين من بقوا على الدين مقابل من تركوه، وذلك على الرغم من أن الكثير من المصادر التاريخية تظهر إشارات بأن أغلب محطات عملية الارتداد تلك كانت تمثل نوعاً من العصيان السياسي والاجتماعي، وأن تعطيل ركن الزكاة في تلك الحركة لو قوبل مع الفترة الزمنية القليلة على انطلاق الإسلام، وتلك الرقعة الجغرافية الشاسعة والتي ربما فيها من لم يتعرف على الإسلام إلا نقلاً، ربما كان ذلك التعطيل في معناه السياسي لم يكن إلا إعلاماً للدولة عن حالة العصيان تلك .

تهدف هذه الدراسة إلى الدفع باتجاه تأويلات جديدة لهذا الحدث من خلال ربط حركة الردة بالبعد الاجتماعي وأيضا بفكرة قيام الدولة من خلال العصبة، خاصة وأن هذا الأمر سيمثل الأساس لأحداث الدولة اللاحقة، وعدم اختزال الحدث التاريخي في عامل واحد، وقد تمت هذه الدراسة باتباع المنهج السردي التاريخي، وقسمت إلى مقدمة وأربعة محاور وخاتمة، حيث تناول المحور الأول استخلاف أبي بكر الصديق،

وما حدث من تجاذب ما بين المسلمين، وكيف رسخ معطى النسب القرشي كأصل واستحقاق للخلافة، وفي المحور الثاني تم دراسة الأوضاع السائدة عند تولي أبي بكر، في حين درس المحور الثالث الموقف من الردة ولماذا تبنى الخليفة أبو بكر الصديق حرب المرتدين، وعدم التهاون في تلك القضية رغم موقف الكثير من الصحابة الداعي إلى المهادنة خاصة وأن أوضاع الدولة وظروفها لم تكن تسمح بتلك المجابهة، أما المحور الرابع فقد ركز على الموقف من استحقاق النسب في الخلافة، ولماذا رفض بعض الأعراب ذلك الاستحقاق . ثم جاءت خاتمة البحث كحوصلة لأهم النتائج التي تم التوصل إليها في هذه الدراسة .

((والله المستعان))

استخلاف أبي بكر الصديق :

لم يكن استخلاف أبي بكر الصديق بالأمر الهين، خاصة وأن النبي الكريم قد توفي ولم يحدد بشكل مباشر اسماً لمن يخلفه في إدارة الدولة[1] ، فالأنصار ربما قد رأوا أن لهم أحقية في هذا الأمر، باعتبار دورهم الطليعي وسابقتهم في الدين [2]، وهذا ربما ما دعاهم لعقد اجتماع في سقيفة "بني ساعدة" بزعامة الصحابي "سعد بن عبادة"[3] لمناقشة أمر الخلافة .

لم يطل النقاش داخل السقيفة كثيراً، فبعد التحاق كل من عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وأبوعبيدة عامر بن الجراح بذلك الاجتماع[4]، تغير مجرى الأمور لصالح استخلاف أبي بكر الصديق، والذي ينتمي إلي قبيلة قريش، وهذا الأمر ربما فتح المجال أمام آراء مختلفة حول ذلك الاختيار، ففي الوقت الذي يرى بعض المؤرخين أن الأنصار وفي أساس مطلبهم للخلافة إنما يرجع إلي الخشية من سيطرة الجبهة القرشية والتي توحدت بعد الفتح [5]، أو أن هذا المطلب إنما جاء كتعبير عن حالة انفصالية تستبق وتتحاشى هيمنة قريش أيضاً. [6] كذلك من الآراء من يذهب إلي أبعد من ذلك باعتبار أن ذلك الاختيار لم يكن محل إجماع ومشورة حيث يذكر المسعودي أن علياً قد خرج بعد بيعة أبي بكر وقال " لقد أفسدت علينا أمورنا، ولم تستشر، ولم ترع لنا حقاً " [7] وهذا ربما ما يصرف القضية في اتجاه آخر وهو الخلاف داخل الجبهة القرشية حول الأحقية في الخلافة .

ولعل هذه الجدليات والتي ربما تكون قد أسقط الكثير منها لاحقاً علي التاريخ، خاصة بغياب أية شواهد عن تلك الاستقطابات في المرحلة السابقة، فالمبررات التي تسير في اتجاه أحقية علي بن أبي طالب ﷺ هي

1- ثمة وجهة نظر تري في بعض الإشارات كتقديم الرسول لابي بكر الصديق للصلاة بدلا عنه حين مرضه هي إشارة تدلل علي اولويات التقديم في امر الدنيا وتدليل علي مرتبة الصديق ينظر : الأصبهاني ، الإمامة والرد على الرافضة ، تح محمد حسن محمد ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،2002م ، ص 31 ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ،تح جمال محمود مصطفى ، ط 2 ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، 2004 م ، ص 50 ؛ الجاحظ ، الرسائل السياسية (العثمانية) ،ط 3 ، دار الهلال ،بيروت ، 1995 م ، ص 242 .
2- عواطف شنقارو ، فتنة السلطة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، 2000 م ، ص 39 .
3- من الخزرج وكان قد شهد مع الرسول الكريم معظم المشاهد ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج3 ، دار صادر ،بيروت ، 1985 م ،ص614.
4- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، تح مصطفى السيد وطارق سالم ، ج2، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ص277 .
5- إبراهيم بيضون ، الأنصار والرسول (إشكالية الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية الأولى) ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، 1989م ، ص49 .
6- هشام جعيط ، الفتنة (جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر) ط6 ، دار الطليعة ، بيروت ، 2008 م ، ص 39 .
7 - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح مصطفى السيد ، ج2 ، الكتبة التوفيقية ، القاهرة ،2002 م ، ص 283 .

مبررات لاحقة لم تثبت الأحداث أي منها، وعلي العكس ربما من كانوا يدفعون باتجاه تولية علي بن أبي طالب إنما كانوا يسوقون نفس الحجج التي سيقت لصالح استخلاف أبي بكر (النسب) وإلا ما كان علياً يقول " ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به علي الأنصار، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً "[8]، ولو كان علياً كان قد فهم أن الرسول كان قد أعده للخلافة مسبقاً وفق الأمر الإلهي وكما يرى البعض [9] ، لما كان ليجيب عمه العباس عندما طلب منه أن يسأل النبي الكريم عن الأمر من بعده فكان رد علي : " ... إني لا أفعل ، والله لئن منعناها لا يؤتينها أحد بعده " [10] ولعل ها النص ينفي تماماً علم علي ﷺ بأمر الوصية في الخلافة، وإلا لأخبر العباس عنها بدل من أن يرى بأن الرسول قد يجيبه أو يرفض طلبه .

أوضاع الدولة عند تولي أبي بكر للخلافة :

إن كانت قضية الخلافة قد حلت داخل السقيفة باتفاق المهاجرين والأنصار علي بيعة أبي بكر الصديق ﷺ ، إلا أن هناك أطرافاً لم يتحدد موقفها بعد، فمسالة القرشية والتي ربما حسمت الأمر داخل السقيفة، لم تكن محل إجماع من تكوينات أخرى للمجتمع العربي الإسلامي، والذي يتكون من قبائل مختلفة جمعها الإسلام في مرحلته الأولى تحت مفهوم الأمة، والتي قبلت بسلطة النبي المدعومة بالجانب الديني والذي ربما كان يرى فيه البعض مجرد ارتباط بحياة النبي الكريم، وأن السلطة من بعده ستكون متاحة بين كل من ينتمون إلي هذه الأمة الوليدة، وهذا ربما ما فتح باب جدل آخر حول موجب الشرط القرشي في الاستخلاف، فإن كان البعض يرى في النصوص الواردة عن النبي الكريم بتخصيص الخلافة في قريش[11] والتي ربما مثلت عنصر الحسم ما بين المهاجرين والأنصار إنما هي أحاديث من باب الأمر الديني[12]، يراها البعض الآخر أنها مجرد أحاديث لا يتعدى حكمها حكم التفضيل والإخبار كغيرها مما أخبر عنه النبي في حياته، وهذا ربما ما مثل باب الجدل في هذه المسألة خاصة لو نظر إلى هذه الأحاديث وفق الرؤية الدينية المحضة بعيداً عن متطلبات السياسة في جانبها المتمثل في الدولة، وهذا الأخير ربما هو ما دفع من يرون بفكرة وجوب هذه الأحاديث بحكم الأمر لا الأخبار، فتخصيص قريش للخلافة وفق هذه النظرة، وكما يرى ابن خلدون في نظريته حول قيام الدول حين يرى في مقصد الشرع بتخصيص الخلافة يتمحور حول فكرة العصبة الموجبة لقيام أي دولة، فاشتراط النسب يرجع إلى اعتبار العصبية التي يرتفع الخلاف بوجودها وتكون بها الجماعة [13]، وباعتبار قريش كانت تمثل عصبة العرب، وكان سائر العرب يعترفون لهم بذلك، ولو جعل الأمر لسواهم لكانت مخالفة تفرق الكلمة

8- ابن قتيبة ، محمد بن عبد الله بن مسلم ، الإمامة والسياسة ، تح خيري سعد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، 2000م ، ص 23 .
9- محمد حسين آل كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، مكتبة النافذه ، القاهرة ، 2006م ، ص 88 .
10- ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج4 ،دار الفجر للتراث ، القاهرة ، 2004 ، ص214 .
11- من هذه الأحاديث مثلاما رواه البخاري في الحديث 7139 والذي جاء فيه : إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله في النار . صحيح البخاري ، المجلد الرابع ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، 2005م ، ص282 . ،والحديث 7140الذي يقول : "لايزال هذا الأمر في قريش مابقي منهما اثنان" المصدر نفسه،ص283.كما نقل عن الرسول انه قال : الخلافة في قريش والحكم في الأنصار . السيوطي ، المصدر السابق ، ص 13 . وورد عنه أيضا القول : "الأئمة من قريش" المصدر نفسه ، ص 13 .
12- ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج4 ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (د – ت) ، ص 90 .؛ المحلى بالآثار ، تح أحمد شاكر ، ج9 ، دار التراث ، القاهرة (د – ت) ، ص 360 .
13- المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، 2004م ، ص 208 .

والجماعة وفق العرف السائد ما بين العرب [14]، ولعل هذا ما يؤكده خطاب أبي بكر الصديق للأنصار في السقيفة حينما قال : " ... نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، وأنتم محقوقون ألا تنفسوا علي إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم " [15]، ولعل هذا ما دفع أبي بكر الصديق أيضاً إلي محاولة بيعة عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة بن الجراح حينما قال : "لم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد الرجلين أيهما شئتم "[16].

كما لا تخفى أهمية قريش لدى العرب وفق معطيات مختلفة، فقريش التي مثل تمركزها في مكة بعداً مهماً من خلال تحكمها في تجارة العرب بلعبها لدور الوسيط التجاري ما بينهم وبين البلدان والأقاليم الأخرى عبر تنظيماتها التجارية المتقنة[17] والتي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله: ((لإيلاف قريش، إلفهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوعٍ وأمنهم من خوف " [18] ، أضافت مكة أيضا لقريش قيمة إضافية بتحكمها في ديانة العرب بوجود آلهتهم وأنصابهم في جوف كعبة مكة، وهذا ربما ما يفسر إعلان القبائل إسلامها فور فتح مكة واستلام الرسول الكريم لسيادة المدينة، وكما يقول ابن الأثير مفسراً ذلك التوافد من القبائل : " لما افتتح رسول الله مكة وأسلمت ثقيف وفرغ من تبوك، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تنتظر بإسلامها قريشاً إذ كانوا إمام الناس وأهل الحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. لا تنكر العرب ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ، وخلافه ، ولما فتحت مكة وأسلمت قريش عرفت العرب بأنها لا طاقة لها بحرب الرسول ولا عداوته فدخلوا في الدين أفواجا " [19].

ربما رأى الكثيرون أن ما جاء به الإسلام قد يغير ذلك الواقع مدفوعين بحالة التنافس القبلي تلك، باعتبار أن تصدر النبي قد ارتبط بمفهوم ديني لا علاقة له بالعوامل الاجتماعية، إلا أن وفاة النبي قد طرحت إشكالاً كبيراً. فهذا الكيان لا بد وأن يكون عليه من قائم أو رأس يسير به، مع مفارقة انقطاع الوحي بعد النبي، فالسلطة وفق هذه الحالة إن بقيت في قريش فسترجع تلك التنافسية القديمة وفق خيارين، أما البقاء تحت سيادة دولة علي رأسها قريش، أو الانتفاض علي تلك الدولة والرجوع بجزيرة العرب إلي مربعها الأول .

الموقف من الردة :

واجهت الخليفة أبي بكر الصديق صعاب متعددة فور توليه الخلافة، فلم يكن استرجاع الحالة النفسية للمسلمين بعيد وفاة النبي بالأمر الهين، فعلى الرغم من أن الله تعالى قد ذكر أن الرسول الكريم بشر سيموت كباقي البشر (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علي أعقابكم ومن ينقلب

14- المصدر نفسه ، ص 209 .
15- ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، تح : مجدي فتحي السيد ، ج2 ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، (د – ت) ، ص 216 .
16- ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تح. محمد عبدالقادر عطا ومصطفي عبد القادر عطا ، ج4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 65 .
17- إيلاف قريش هو اتفاقية عقدها هاشم بن عبد مناف مع رؤساء القبائل العربية ومع ملوك اليمن حيث حددت هذه الاتفاقية مهمة قريش في التعهد بمؤن القوافل التجارية بينما تتعهد الأطراف الأخرى بتأمين القوافل وحمايتها ، وقد عادت هذه الاتفاقية علي قريش بفائدة عظيمة كانت وراء ازدهار تجارتها ومن ثم ثراؤها للمزيد ينظر : الجاحظ ، (الرسائل السياسية) رسالة فضل هاشم علي عبد شمس ، ط3 ،دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1995 ، ص413 .
18سورة قريش .
19- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ،ج2 ،تح.خيري سعيد،المكتبة التوفيقية،القاهرة ، ص 154 .

على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) [20]، (إنك ميت وإنهم ميتون) [21] ، وقوله (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) [22] ، إلا أن وقع الصدمة علي المسلمين لم يكن هيناً، فمثلاً ذكر عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قام فقال : " إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى، وأن رسول الله ما مات، لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطع أيدي رجال وأرجلهم قد زعموا أن رسول الله مات"[23]. كما روي أيضاً أن عثمان بن عفان ﷺ كان أول من رأى رسول الله مسجىً فرفض موته وقال : " إنه والله ما مات ، ولكن الله رفعه إليه كما رفع عيسى ابن مريم، والله لا نسمع أحداً يقول مات إلا قطعنا لسانه " [24] .

وفي وسط هذه الحالة من اضطراب المسلمين كان لأبي بكر الصديق دور كبير ربما يبين أنه كان أهلاً لتلك الصدارة، حيث خطب في الناس وذكرهم بقول الله في كتابه، وأن الرسول ميت كما يموت سائر البشر عندما وقف قائلاً : " أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت "[25] .

كان أمام أبوبكرٍ الصديق ﷺ موقف آخر لا يقل أهمية عن استعادة الحالة النفسية للمسلمين، وهو إنفاذ جيش أسامة في المهمة التي كلفه بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، هذه المهمة التي ربما إنفاذها يرجع الروح المعنوية للمسلمين ويثبت فكر استمرارية الدولة عبر وجود قيادة بديلة تسير وفق نفس النهج، إلا أن إنفاذ هذه المهمة كان يعترضه مخاطر بالغة الدقة، خاصة بعد أن لاحت في الأفق نذر التمرد والعصيان من بعض القبائل العربية أو ردة الكثيرين عن الدين في جانب آخر .

الحقيقة أن أغلب المصادر تصف تلك الحركة بالردة عن الدين، وهذا أمر ربما تجانبه الموضوعية لو أخذناه بمنطق التعميم، والذي قد لا يصلح خاصة في الحالات الاجتماعية المرتبطة بالفكر بصورة خاصة، فلا السنوات القليلة من الإسلام كانت كفيلة بأن يستشرب العرب الدين وفق الحالة الإيمانية، وربما هذا ما أشار إليه القرآن الكريم في وصف إيمان العرب في قوله : (قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم)[26]، ولا الرقعة الجغرافية في مقابل تلك السنوات القليلة أيضا كانت ستحقق انتشار الإسلام في تلك الرقعة ديناً وفكراً في كافة جوانبه الدينية والمدنية، وهذا ربما ما عبر عنه فهم الأعراب من خلال العديد من ردات فعلهم في تلك الحركة .

20-سورة آل عمران آية 144
21- سورة الزمر آية 30 .
22- سورة الأنبياء آية 34 .
23- ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج4 ،ط2 ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، 2004م ، ص 215 .
24- الجاحظ ، (الرسائل السياسية) ، رسالة العثمانية ، ص 178 .
25- ابن هشام ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 216 .
26- سورة الحجرات ، آية 14 .

ويتضح أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يدرك تلك الحالة عند الأعراب، فقد كان لا يشترط عليهم إلا بعض الأمور البسيطة كالنطق بالشهادتين، وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والصوم، فهم لم يألفوا كافة تعاليم ومثل الإسلام التي أطاحت بالجاهلية، لذلك ظنوا أن الأوضاع الجديدة في الجزيرة العربية موقوتة بحياة النبي الكريم [27]

تجمع المصادر التاريخية علي أن حركة الردة كانت شبه عامة، حيث وصف أحد المؤرخين تلك الحالة بالقول: " وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة، في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهودية والنصرانية. والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية " [28]، كما يقول مؤرخ آخر : " لما فصل أسامة كفرت الأرض وتضرمت، وارتدت من كل قبيلة عامة وخاصة، إلا قريشاً وثقيفاً " [29] ، وهذه الحالة أيضاً قد عبر عنها مؤرخ آخر بقوله " لما اشتهرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بالنواحي، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة فنهض أبو بكر لقتالهم " [30] .

لم يكن الموقف في المدينة هيناً فيما يتعلق بهذا الحدث الذي ألمَ بالأمة، خاصة وأن مجابهة تلك الموجة العارمة من القبائل المرتدة كانت تتطلب قوة ووحدة في الصف، والدولة لا زالت في خطوات تأسيسها الأولى. ولعل هذا ما يبينه الجدل في التعامل مع هذه الحادثة عند صناع القرار في المدينة، إذ تعددت آراء الصحابة ولعل هذا التعدد قد يفسر بعضا من دوافع وأسباب هذه الحركة من أساسها، خاصة مع علم العقيدة التي ستواجه بها هذه الفئة فهل هي العقيدة الدينية ؟ أم ستكون المواجهة مواجهة سياسية صرفة، ولعل هذا ما يفسر عدم الإجماع ما بين المؤرخين عن الدوافع الحقيقية للردة، ففي الوقت الذي يراها البعض ليست ردة عن الدين بقدر ما هي حالة من الصراع ما بين البدو والحضر في إطار الثورة علي السلطة المركزية [31]، ترى وجهة نظر أخرى أن هذه الحركة لا تبتعد عن إطار المركزية أيضاً في إطارها الاقتصادي الذي يرجعها إلي حالة التنافس على طرق القوافل بعد حالة التعديل التي نشأت عبر انتقال النشاط التجاري ومركزية المواصلات إلى العاصمة بالموازاة مع ظهور مراكز تجارية أخرى في اليمامة والبحرين [32]، ولعل دراسة ردة فعل ومواقف بعض الصحابة من هذه الحركة ومواقف وحجج المرتدين أنفسهم قد تبين ولو إلى حد ما كنه تلك الدوافع، حيث يذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يميل إلي فكرة التأني في قتال الخارجين، ولعل هذا ما يبينه رأيه ورأي الصديق فبعد وفاة النبي وكما تذكر المصادر التاريخية منعت بعض القبائل الزكاة " فنهض أبو بكر الصديق لقتالهم ، فأشار عليه عمر وغيره أن يفتر عن قتالهم فقال : والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلي الرسول لقاتلتهم علي منعها فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه علي

27- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1999م ، ص 167 .
28- ابن كثير ، البداية والنهاية ، تح. حامد أحمد الطاهر ، ج 6 ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، 2002م ، ص 345 . ؛ ابن هشام ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 225 .
29- الطبري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 301 ؛ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج2 ،ص 198 .
30- السيوطي ، المصدر السابق ، ص 60 .
31-عمر فروخ ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ص 94 .
32- إبراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الإسلامية (دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص 146 .

الله، فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقال إلا بحقها يا عمر قال عمر : فو الله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق "[33].

الحقيقة أن هذا النص في غاية الأهمية، فعمر والذي يري في القتال قتالاً لمسلمين، حين قام بالتذكير بقول الرسول الكريم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ربما ينطلق من حالة من التحري لعقيدة هؤلاء، خاصة وأن الأمر قد يذهب إلي إراقة للدماء قد يكون بغير وجه . كما أن الحجة في توصيف حركة الردة بالمطلق علي أنها خروج عن الدين، خاصة وأن مرجعية تلك الحجة هي تعطيل ركن من أركان الإسلام (الزكاة)، هي أيضاً حجة قد لا تتوافر علي بعض المنطقية، خاصة بالعلم أن تلك الحادثة قد انطلقت ولا زال الإسلام ودولته في طور التأسيس، وذلك تحديداً مع بدايات العام الحادي عشر للهجرة، أي بعد سنتين من فتح مكة، والذي كان عنواناً لانتقال العرب إلي الإسلام، وهذه المدة التي لا تتجاوز سنتين قد لا تعطي انطباع باستقرار جباية تلك الفريضة من ناحية، ومن ناحية أخرى قد لا تعني تحقق الحالة الإيمانية الكاملة لأدائها طوعاً، كما لا يغفل طبيعة الأوضاع الاقتصادية البسيطة في بلاد الأعراب، ولعلي أرى أن منع العرب للزكاة إنما كان اختيار للطريقة التي تشعر الدولة بحالة عصيانهم تلك، لا رفضاً شرعياً لها، فلو كانوا قد اختاروا ترك أي فريضة أخرى كالصلاة مثلا أو الصيام فلا يشعر بهم أحد، خاصة بكون تلك العبادات هي عبادات شخصية بخلاف الزكاة التي يشترك فيها المتعبد مع الدولة باعتبارها أداة تفعيلها الأساسية، وهذا ربما ما يتضح مثلاً في ردة كندة حيث يقول الواقدي في حديثه عن ردة بعض سكان حضرموت : " وافترق القوم فرقتين ، فرقة أقاموا على دين الإسلام فلم يرجعوا، وعزموا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفرقة عزموا على منع الزكاة والعصيان "[34].

ربما الكثير من الشواهد تؤكد هذا المفهوم ولعل قول أبو بكر : " والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ... " [35] قد يذهب في هذا الاتجاه، كما يمكن أن نستدل علي هذا الأمر بما تذكر المصادر والتي تنقل عن الخليفة أبي بكر الصديق القول : " ... وأما من ارتد من هؤلاء العرب، فمنهم من لا يصلي وقد كفر بالصلاة ، ومنهم من يصلي وقد منع الزكاة، ولا والله يا أبا حفص ما أفرّق بين الصلاة والزكاة " [36] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن حركة الردة لم تكن في مجملها رد فعل علي وفاة النبي، بل كان بعض المرتدين خاصة علي مستوى الزعامة يدفعه بعض الطموح للتصدر والزعامة مذ كان النبي الكريم حياً، وهؤلاء قد وجد بعضهم الفرصة لتحقيق هذه الغاية بعد وفاة النبي، وحاولوا استغلال موقف الأعراب لصالحهم، فمن هؤلاء مثلاً الأسود العنسي[37] والذي ظهرت حركته أواخر حياة النبي الكريم، عندما خرج في قبيلته عنس وطارد عمال الصدقات والمسلمين وقام بتعذيبهم [38]، كما أن حركته قد ظهرت عندما عاد الرسول من حجة الوداع ومرض مرضاً غير مرض وفاته، فعندما علم الأسود بذلك حاول استغلال الحدث فادعى

33- السيوطي ، المصدر السابق ، ص 60
34 -الردة ، تح. محمود عبدالله ابو الخير ، دار الفرقان ، عمان ، (د – ت) ، ص258 .
35- المصدر نفسه ، ص 60 ؛ الواقدي ، الردة ، ص 85 .
36- الواقدي ، المصدر السابق ، ص 85 .
37 - اسمه عبهلة بن كعب بن غوث، من بلد يقال لها كهف حنان.ينظر : ابن كثير ، المصدر السابق ،ج 6 ، ص 348 .
38 - زينب كرير و اسمهان معاطي ، تاريخ صدر الإسلام ، دار الكتب الوطنية ، سبها ، 2000 م ، ص 154 .

النبوة فاتبعته مذحج [39] وكانت ردته أول ردة على عهد الرسول وقد غزا نجران بعدما تبعه بعض الناس خاصة بعدما أغواهم حيث كان مشعوذاً يجيد اللعب بعقول الناس ويريهم الأعاجيب من حيله [40] .

كما ظهر في وقت سابق لحركة الردة زعيم آخر من المرتدين والمتنبئين هو مسيلمة الكذاب، والذي بدأ ظهوره أيضا زمن النبي، حيث يروى أن مسيلمة حينما قدم الرسول الكريم كان يقول إن جعل لي محمداً الأمر من بعده تبعته، وقد ذكر أنه بعث برسولين إلي النبي برسالة يذكر فيها بأنه نبي وشريك مع الرسول في الأمر، وأن له نصف الأرض ولقريش الباقي، وعندما سأل النبي الرسولين ما يقولان فيما أرسلا به، قالا نقول ما قال، فنظر إليهم الرسول وقال مغضباً : لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم، ثم كتب لمسيلمة رسالة جاء فيها من محمد رسول الله إلي مسيلمة الكذاب أما بعد : الأرض لله يرثها من يشاء من عباده المتقين [41] .

كما ظهر زمن النبي متنبئ آخر هو طلحة بن خويلد الأسدي، وكانت حركته من أقوى الحركات التي واجهت المسلمين في بني أسد، وقد كان طلحة أحد سادات قومه، وكان خطيباً وشاعراً وكاهناً وفارساً شجاعاً كان يتكهن للعرب ويغويهم، فتبعه الكثير منهم حمية وعصبية، وحاول طلحة أن ينشى مذهباً دينياً خاصاً به، إذ يروى أنه خاطب أتباعه قائلا : " قد أتاني جبريل من ربي أنه لا يحتاج إلى تعفير وجوهكم وقبح أدباركم، ولا يريد منكم ركوعاً ولا سجوداً، وإنما يريد أن تذكروه قياماً وقعوداً " [42] ، وترجع ردة طلحة إلي زمن النبي الكريم، إذ تنبأ في حياته فوجه إليه الرسول ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد وقد كثر أتباع طلحة بسب ما كان يغوي الناس به من ألاعيب وحيل وقد توفي النبي وطلحة لا يزال على أمره [43] .

الموقف من استحقاق الخلافة .

كانت الكثير من ردات فعل الأعراب على تخصيص الخلافة تدلل على حالة من الرفض في إطار المنافسة الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد العرب، وربما كانت تلك الحالة هي المحرك للكثيرين ممن انضووا تحت رايات زعمائهم الذين خاطبوا فيهم تلك النزعة القبلية ، والتي يبدو أنها لا زالت كامنة في العديد من النفوس خاصة تلك التي لم تلامسها الحالة الإيمانية بعد، إذ يبدو أن وفاة النبي كانت إيذاناً لبعث بعض تلك العصبيات من جديد.

الكثير من القبائل لم يرتد وكما – تذكر المصادر– بصورة فردية، وإنما كانت ردتها وفق حالة جمعية وهذا ما يؤكد ربما الحالة العصبية التي سادت الموقف، فكل قبيلة ارتدت أرست عليها زعيماً من نفس القبيلة . فمثلاً ارتدت بنو أسد ورأسوا عليهم طليحة بن خويلد الأسدي، كما ارتدت فزارة ورأسوا عليهم عيينة بن حصن الفزاري وارتدت تميم ورأسوا عليهم امرأة يقال لها سجاح، كذلك فعلت كندة عندما رأسوا عليهم الأشعث بن قيس الكندي. كما أجمعت بنو حنيفة على زعيمهم مسيلمة الكذاب [44] .

39 - من قبائل اليمن وكان الرسول الكريم يقول اكثر العرب في الجنة من مذحج : السمعاني ، الأنساب ، تح : رياض مراد ومطيع الحافظ ، ج11 ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، 1984 م ، ص 212 .
40- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 194 .
41- محمد حسين هيكل ، أبو بكر الصديق ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1964 م ، ص ص 84-85 .
42 -المرجع نفسه ، ص ص 84 – 85 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص 199 .
43 - المصدر نفسه ، ص 199 .
44 - الواقدي ، المصدر السابق ، ص 83 .

بين موقف الكثيرين من زعامات تلك القبائل الجانح والطامح إلى الزعامة ، وبين الحالة العصبية عند من تبعهم من قبائلهم، يبدو أن محاولات انتزاع الزعامة من قريش كانت هدف أغلب من شارك في تلك الحركة ولم يخفى هذا الأمر في الكثير من ردات الفعل، وربما يتضح هذا أيضاً في قول شاعر المرتدين "الخطيل بن أوس" شقيق الشاعر "الحطيئة"، والذي يقول في قصيدة يعبر فيها عن رفضه لاستخلاف أبي بكر بكلماتٍ قد تحمل مفهوم تلك النزعة التنافسية تجاه قريش، والممثلة في شخص الخليفة أبي بكر، كما يظهر من الأبيات عدم إنكار طاعة النبي حيث يقول : [45]

أطعنا رسول الله ما كان بيننا *** فيا لعباد الله ما لأبي بكـــــر
أيورثها بكراً إذا مات بعــده *** وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانـــــه *** وهلا خشيتم حس راغية البكر
وإن التي سألوكـــم فمنعتـــم *** لكالتمر أو أحلى إلي من التمر

لم تكن ردة أهل البحرين ببعيدة عن ذات الدافع التنافسي، حيث ظهرت المناداة باستعادة ملك النعمان بن المنذر، حيث يذكر أن بكر بن وائل عندما عزمت علي هذا الأمر أصبحوا يتنادون بفكرة أن النعمان أحق من الصديق، حيث خرج عدد من زعمائهم وقدموا على كسرى ملك الفرس، وعندما سألهم عن سبب حضورهم أجابوه بأن الرجل الذي كانت قريش وسائر مضر يعتزون به (ويقصدون النبي) قد مضى، وأنهم قد أجمعوا على النعمان كخليفة[46] .

والحقيقة يتضح رفض استخلاف قريش في أغلب مواقف من ارتد من القبائل، فالأشعث بن قيس زعيم كندة يعبر عن هذا الموقف بوضوح تام حيث يذكر الواقدي أن ابن عم الأشعث (امرؤ القيس بن عابس) حاول أن يثني الأشعث عن ردته، باعتبار أن الناس سيتبعونه في أي موقف يتخذه وقال له : " يا أشعث ، أنشدك بالله ، وبإيمانك، وقدومك إلى رسول الله أن نكصت، أو رجعت عن الإسلام، فإنك إن تقدمت تقدم الناس معك، وإن هذا الأمر لا بد له من قائم يقوم به، فيقتل من خالفه عليه، فاتق الله في نفسك، فقد علمت بما جرى على من خالف أبا بكر من العرب، ومنعه الزكاة. فقال له الأشعث : يا بن عابس إن محمداً قد مضى لسبيله، وإن العرب قد رجعت إلى ما يعبد الآباء، ونحن أقصى العرب داراً ..." [47] ، كما كان موقف كندة أكثر وضوحاً في نزاعهم مع عامل الصدقة عندما افتك منه أحد سادات كندة ويدعى حارثة بن سراقة ناقة من إبل الصدقة، وقال أبيات تدلل على تلك النزعة من رفض قريش أولاً، واعتبار أن الزكاة في مفهومهم قد أصبحت بعد النبي إتاوةً تدفع لقريش في استمرار الحكم في عشيرته حيث جاء في تلك الأبيات [48] :

أنعطي قريشا مالنا ؟ إن هــذه *** لتلك التي يجزى بها المرء في القبر
فيا قوم لا تعطوا اللئام مقــادة *** وقوموا وإن كان المقام على الجمر
فكندة مازالت ليوثاً لدى الوغى *** وغيث بني حواء في العسر واليسر

45 - الطبري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 303 .
46 - الواقدي ، المصدر السابق ، ص 224 .
47 - الردة ، ص 253 .
48 - المصدر نفسه ، ص 259 .

وما لبني تيم بن مرة إمرة *** علينا ولا تلك القبائل من فهر

إن النظرة السائدة باعتبار أن الزكاة قد أصبحت إتاوةً تعطى لقريش ربما كانت حجة للتنصل من الانقياد للخلافة بزعم تمثيل تلك الخلافة لزعامة قريش قد تتضح في أكثر من مؤشر، منها ما عبر عنه قرة بن هبيرة العامري، حيث يذكر أن عمرو بن العاص عندما انتهى إلى البحرين وخرج إلى بلاد بني عامر نزل بقرة والذي كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى فقال قرة لعمروا : " يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم " [49] .

ربما حاول بعض من زعماء المرتدين استغلال قضية الزكاة وإقناع الناس بأنها وبعد وفاة النبي لم تعد أن تكون إلا إتاوة تدفع لقريش، وهذا ما عبر عنه طليحة بن خويلد عندما دفع قومه باتجاه مقاومة الجيش الذي أرسله الصديق لحربه، فبعد أن أسقط عنهم بعض الفرائض المتعلقة بالصلاة وذلك إغراءً وتشجيعاً خاطبهم قائلا : " فانظروا أن تمنعوا القوم أموالكم كما منعتموها في الجاهلية " [50] .

وقد يبدو هذا النص في غاية الأهمية، خاصة وأن طليحة قد خاطب في قومه تلك النزعة العصبية عندما ربط منع الزكاة بموقف اجتماعي يرجع لترتيبات كانت سائدة حتى قبل ظهور الإسلام بفترات طويلة، وتحديداً لفترة التنافس القبلي الذي كان يسود بلاد العرب في عصور الجاهلية، وهذا ربما ما يدعمه أيضاً قول طليحة حينما أردف خطابه ذاك بقول : [51]

بني أسد لا تطعموا صدقاتكـــم *** معاشـــر حي مـــن لؤي بن غالب
وحاموا على أمولكم برماحكم *** وبالخيل تردى والسيوف القواضب
كما كنتم بالأمر في جاهليـــــة *** تهابكم الأحيـــــــاء من كل جانب .

وكذلك تكررت تلك النظرة للزكاة في أكثر مواقف المرتدين، فالعامل الذي كلفه الرسول الكريم على صدقات بني تميم، عندما انطلقت ردة العرب جفّل إبل الصدقة وسمى بعدها (الجفول) خاطب قومه بالقول : " يا بني تميم إنكم قد علمتم بأن محمد بن عبد الله كان قد جعلني على صدقاتكم قبل موته، وقد هلك محمد ومضى لسبيله، ولابد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فلا تطمعوا أحد في أموالكم فأنتم أحق بها من غيركم" [52] .

وقد يتضح أيضاً من مواقف الكثير من زعماء المرتدين ما ذهبنا إليه من أن الدافع الحقيقي ربما يكمن في أغلبه في رفض زعامة قريش، وأن منع الزكاة ما كان إلا وسيلة للتعبير عن ذلك الرفض، وهذا ما يؤكده مثلا قول الأشعث بن قيس الكندي عندما بدأ يحرض عشيرته علي الردة حين قال : " يا معشر كندة إن كنتم على ما أرى فلتكن كلمتكم واحدة، وألزموا بلادكم وحوطوا حريمكم، وامنعوا زكاة أموالكم فإني أعلم أن العرب لا تقر بطاعة بني تيم بن مرة وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيرهم، وإنه لنا أجود ونحن له أصلح من غيرنا لأنا الملوك وأبناء الملوك من قبل أن يكون على وجه الأرض قرشي ولا أبطحي " [53] .

49 - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206 .
50 - الواقدي ، المصدر السابق ، ص 134 .
51 - المصدر نفسه ، ص 134 .
52 - المصدر نفسه ، ص 158 .
53 - المصدر نفسه ، ص 262 .

قد يبدو من هذا النص أن الخلاف يكمن في رفض أبي بكر، وكما يظهر أن لا مشكلة للأشعث مع بني هاشم، وأن رفضه إنما يذهب بسبب إبعادهم عن أمر الخلافة لصالح أبي بكر التيمي، إلا أن الأشعث يردف موقفه ذاك بأبيات شعر تدلل على السبب الحقيقي وراء ردته، باعتبار كندة أولى بالخلافة كونهم من سلالة الملوك حيث يقول[54] :

لعمري لئن كانت قريش تتابعت *** على بيعة بعد الرسول وسمحوا
بها لبني تيم بن مـــــرة جهـــرة *** وسموا عتيقا عند ذاك وصرحوا
أميرا ونحـــــوا عنه آل محمـــد *** وكانوا بها أولى هناك وأصلحوا
وإن صلحت في تيم بن مرة إمرة *** ففي كندة الأملاك أحرى وأصلح
لأنا ملوك الناس من قبل أن يرى *** على الأرض تيمي أو متبطـــح

الخاتمة :

يمكن القول إن حركة الردة قد جاءت تعبيراً عن واقع اجتماعي ساد الجزيرة العربية، يرتكز هذا الواقع على طبيعة العلاقة السائدة ما بين مجتمع العامة والزعامات القبلية، تلك الزعامة التي ربما قد ورثت عبر ذلك الواقع آلية تحريك المجتمع باتجاه رغباتها وتطلعاتها السياسية، إذ أن الكثير من القبائل العربية كانت تنقاد خلف زعاماتها دون النظر إلي ما يدعون إليه، حتى وإن وصل بالبعض من تلك الزعامات أن نصب نفسه نبياً. وبصرف النظر عن معرفة عشيرته أو قبيلته بتصديق تلك التنبؤات أو تكذيبها، وربما حالة الانقياد تلك كانت تدفع باتجاه تحفيز العامل القبلي وما يحويه من عصبية سادت العلاقات ما بين تلك القبائل والتي استغلتها تلك الزعامات من أجل دعم مواقفها السياسية .

كانت تلك العصبية القبلية وراء دفع تلك الزعامات باتجاه رفض استحقاق الخلافة والمتمثل أساساً في النسب القرشي، خاصة وأن تلك الزعامات حاولت فصل ذلك الاستحقاق عن النبي الكريم، ولعل حالة الاعتداد القبلي بالتذكير بالخلفيات الاجتماعية سواءً عبر سمو النسب أو بتبني بعض تلك القبائل لمراكز سياسية عالية كتنصيب زعاماتها ملوكاً في بعض المحطات التاريخية، إنما تنبئ على إدراك تلك الزعامات لمفهوم العصبة في الدولة حيث نادت بعصبتها القبلية لتحل كبديل عن عصبة قريش، وهذا ما تبين من مواقف الكثيرين ممن كانوا فاعلين في تلك الحركة، كذلك يمكن القول إن تعطيل ركن الزكاة لم يكن في مجمله يستهدف تعطيل لركن من أركان الدين، بقدر ما مثل هذا الأمر إعلاماً للدولة بحالة الرفض والعصيان، خاصة وأن الزكاة كانت تمثل حلقة الوصل الوحيدة ما بين القبائل والدولة، فهي الوسيلة الوحيدة التي قد تشعر الدولة بحالة العصيان بخلاف تعطيل أي ركن آخر كالصلاة أو الصيام مثلا، وربما قد سوق لهذا الأمر على أن هذه الصدقات لم تعد تعني إلا أتاوة تدفع من القبائل لقريش كما تدفع الضرائب أو الجبايات في أي دولة أخرى .

54 - المصدر نفسه ، ص 263 .

قائمة المصادر و المراجع :

أولاً : المصادر :

1 – ابن الأثير (أبوالحسن عز الدين) : الكامل في التاريخ، تح. خيري سعيد،المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د – ت) .
2 – الجاحظ (أبو عمر عثمان بن بحر) : الرسائل السياسية (رسالة العثمانية) ،ط3 ،دار الهلال، بيروت، 1995 .
3 - ---------- : الرسائل السياسية (رسالة فضلها شم على عبد شمس)، ط3 ،دار الهلال، بيروت، 1995 .
4 – ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح. محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت (د – ت) .
5 – ابن حزم (أبو محمد علي بن محمد) : الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة المثنى، بغداد، (د – ت) .
6 - ---------- : المحلى بالآثار، تح. أحمد شاكر، دار التراث،القاهرة،(د – ت) .
7 – ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد) : المقدمة، دار الفكر، بيروت، 2004 م .
8 – البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : صحيح البخاري، دار الفجر للتراث،القاهرة، 2005م .
9 – ابن سعد (محمد بن منيع البصري) : الطبقات الكبرى، دار صادر،بيروت (د – ت) .
10 – السمعاني : الأنساب، تح. رياض مراد ومطيع الحافظ، مكتبة ابن تيمية،القاهرة، 1964 م .
11 – السيوطي (الإمام جلال الدين) : تاريخ الخلفاء، تح. جمال محمود مصطفى، ط 2 ،دار الفجر للتراث،القاهرة، 2004 م .
12 – الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبدالله) : الإمامة والرد على الرافضة، تح. محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004 م .
13 – الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك، تح. مصطفى السيد وطارق سالم، دار المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د – ت) .
14 – ابن قتيبة (محمد بن عبدالله بن مسلم) : الإمامة والسياسة، تح. خيري سعيد، المكتبة التوفيقية،القاهرة، 2004 .
15 - ----------: عيون الأخبار، تح. مجدي فتحي السيد،المكتبة التوفيقية، القاهرة،(د – ت) .
16 – آل كاشف الغطاء (محمد حسين) : أصل الشيعة وأصولها، مكتبة النافذة،القاهرة، 2006 م .
17 – ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل) : البداية والنهاية، تح. حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث،القاهرة، 2002 م .
18 – المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح. مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية،القاهرة، 2002 م .
19 – ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : السيرة النبوية، دار الفجر للتراث،القاهرة، 2004 م .
20 – الواقدي (أبو عبدالله محمد بن عمر) : كتاب الردة، تح. محمود عبد الله أبو الخير، دار الفرقان،عمان، (د – ت)

ثانيا المراجع :

1 – إبراهيم بيضون : الأنصار والرسول (إشكالية الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية الأولى)، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1987 م .
2 - ------- : الحجاز والدولة الإسلامية (دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري)، دار النهضة العربية، بيروت (د – ت) .
3 – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، 1999 م .
4 – عمر فروخ : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين،بيروت، (د – ت) .
5 – عواطف شنقارو : فتنة السلطة، دار الكتاب الجديد،بيروت، 2000 م .
6 – محمد حسنين هيكل : أبوبكر الصديق، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، 1964 م .
7 – هشام جعيط : الفتنة (جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر)،ط6 ،دار الطليعة، بيروت، 2008 م .

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م

الأوضاع السّياسيّة في ولاية طرابلس الغرب وأثرها على الحركة التّجاريّة خلال الفترة (1835- 1911 م)

إعداد :
د . سُعاد مُحمّد عمر الجفال
جامعة طرابلس

توطئة:

خضعت ولاية طرابلس الغرب للحكم العثماني منذ سنة 1551[1] واستمرت تحت لوائه فترة طويلة من الزمن امتدت حتى سنة 1911، تاريخ احتلال الإيطاليين للبلاد، وقد مرت الولاية إبان هذا الحكم بمراحل سياسية واقتصادية متباينة تنوعت مابين الهدوء والاستقرار والثورات والاضطرابات والأزمات الاقتصادية. وموضوع البحث متعلق بالأوضاع السياسية وتأثيرها علي الحياة الاقتصادية في الولاية اعتباراً من سنة 1835 وحتى سنة 1911، وهي الفترة التي اصطلح علي تسميتها بالعهد العثماني الثاني، إذ تعتبر سنة 1835 مرحلة جديدة من مراحل الحكم العثماني للولاية بعد أن خضعت الولاية لحكم الأسرة القره مانلية (1711-1835) وتمتعت بنوع من الحكم الذاتي ولكن تحت مظلة الدولة العثمانية، أما نهاية البحث فتكون عند تاريخ دخول الاستعمار الايطالي للبلاد سنة 1911.

يتمحور البحث حول طبيعة الحكم العثماني لولاية طرابلس الغرب، وأهم التنظيمات والتقسيمات الإدارية التي طُبقت فيها أسوة بباقي الولايات، وكيف حاول العثمانيون تطبيق نظام سياسي واقتصادي يكفل لهم إحكام قبضتهم علي كل المناطق المنضوية تحت سلطتهم، ويتعرض هذا البحث أيضاً إلي الحركات المتمردة التي شهدتها الولاية ضد السلطة العثمانية وكيف عالجت الحكومة المركزية هذه المشاكل؟

والجانب الآخر يتعلق بالنشاط الاقتصادي للولاية من حيث أهم الأنشطة التجارية ومصادر الدخل والحركة التجارية بشكل عام، وكيف أثرت الظروف السياسية علي الوضع الاقتصادي للولاية؟

وسيتم الاعتماد علي جملة من الوثائق والمصادر والمراجع العربية والأجنبية في إعداد هذا البحث.

- **سيطرة العثمانيين علي طرابلس الغرب سنة 1551 م :**

بعد أن تمكنت الدولة العثمانية من بسط سيطرتها علي مناطق واسعة في آسيا عملت علي توسيع دائرة نفوذها في البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا، لذلك سعت إلي ضم تلك المنطقة إلي ممتلكاتها، وكانت الأوضاع السياسية المتردية في شمال أفريقيا من أهم العوامل التي شجعت العثمانيين علي الإقدام على تلك الخطوة خاصة حالة عدم الرضا التي كانت تعم السكان ضد حكم الأسبان وفرسان مالطا الذين كانوا يبسطون سيطرتهم على طرابلس الغرب وتونس وغيرهما من مناطق شمال أفريقيا.

تمكنت الدولة العثمانية في البداية بمساعدة الأخوين خير الدين وعروج بربروسا من السيطرة علي الجزائر ثم أخضعت تونس لحكمها بعد ذلك، لتتمكن من السيطرة بعدها علي طرابلس الغرب سنة 1551 م علي يد كل من سنان باشا ودرغوث بك اللذان قادا أسطولا بحريا كبيرا تمكنا بواسطته من دخول طرابلس الغرب وفرض سيطرتهم علي منطقة تاجوراء الواقعة شرق مدينة طرابلس أولاً ثم دخلوا في مفاوضات مع فرسان مالطا من أجل تسليم المدينة غير أنها فشلت مما حدا بالعثمانيين إلي الهجوم علي المدينة وتمكنوا من هزيمة فرسان مالطا ودخول المدينة[2]، وتم تعيين مراد أغا كأول وال عثماني لها[3]،ثم عمل الأتراك العثمانيون علي توسيع دائرة نفوذهم لتشمل البلاد كلها وأصبح أسمها في البداية إيالة طرابلس الغرب.

لقد تداول العديد من الولاة علي حكم الإيالة إبان هذه المرحلة، وقد كانوا يعينون من قبل الدولة العثمانية واستمرت الفترة الأولي من الحكم العثماني لطرابلس الغرب حتى سنة 1711 م ، (وتُعرف باسم الحكم العثماني الأول للولاية) عندما حدث تغير في الأوضاع السياسية بسبب سيطرة "أحمد القره مانلي" علي مقاليد الأمور في الولاية لتبدأ معها مرحلة سياسية جديدة عُرفت بمرحلة حكم الأسرة القره مانلية والتي أصبحت تتمتع بحكم شبه مستقل[4]، ولكن تحت إطار الحكم العثماني حيث كانت تستمد الشرعية من السلاطين العثمانيين، حيث حرص كل الباشاوات القره مانليين علي الحصول علي فرمان سلطاني من الآستانة تعترف فيه بمشروعية حكمهم للولاية.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه عندما استولي "أحمد القره مانلي" علي الحكم وأعلن قيام حكم الأسرة القره مانلية أصبح حاكم طرابلس الغرب يحمل لقب باشا بدلاً من والي.

عانت الولاية فترة من الاضطرابات السياسية والفوضى وتحديداً سنة 1832م بعد أن دب الخلاف بين باشاوات الأسرة القره مانلية حول من يتولى الحكم، وتحول إلي صراع دموي بعد أن تنازل "يوسف باشا" عن الحكم لابنه علي[5]، كما طلب "يوسف باشا" من السلطان العثماني إصدار فرمان بتولية ابنه "علي" السلطة في طرابلس وقد استجاب السلطان لطلبه[6] .

نتج عن ذلك خروج أحد أبناء البيت القره مانلي هو "محمد بك" وهو حفيد "يوسف باشا" القره مانلي وأعلن رفضه لولاية "علي باشا"، وتبعه الكثير من سكان مناطق الساحل والمنشية لتصبح البلاد مقسمة بين طرفي نزاع ومن ثم دخلت في فوضي واضطرابات سياسية.

لم تكن الدولة العثمانية بعيدةً عن الأحداث الدائرة في ولاية طرابلس الغرب، وعندما أيقنت بانتفاء الإجماع علي حكومة "علي باشا"، وظهور منازع له من نفس الأسرة، علاوة علي ظهور بوادر للتدخل الإنجليزي في شؤون الولاية في هذه المرحلة، وأن مصلحة الدولة العثمانية تقتضي التدخل الفوري لإنهاء ذلك الصراع الدائر[7]، لذلك قررت حسم الأمر وقامت بإرسال أسطول بحري تحت قيادة مصطفي "نجيب باشا" سنة 1835م. وعند وصوله أعلن أنه يريد تثبيت الحاكم الشرعي في منصبه وهو "علي باشا" ولكن ماوقع كان مغايراً لما تم الإعلان عنه، لأنه بمجرد توجه الباشا لاستقبال "مصطفي نجيب باشا" وصعوده علي متن السفينة العثمانية قام القائد العثماني بإلقاء القبض عليه معلناً بذلك نهاية حكم الأسرة القره ماتلية وإعادة الحكم العثماني المباشر للبلاد[8].

- **<u>– النظام الإداري العثماني في ولاية طرابلس الغرب</u>**

قام العثمانيون بتطبيق نظام إداري في ولاية طرابلس الغرب حتى يتسنى لهم سهولة تسيير شؤونها وكذلك لربط الولاية مباشرة بالإدارة المركزية في الآستانة، وهذا النظام هو ذاته المطبق في كل ولايات

الإمبراطورية، كان الهدف من وراء ذلك هو إقامة علاقة من التفاهم في مختلف الأصعدة بين المركز والأطراف.

مما تجدر الإشارة إليه أن العثمانيون في كتاباتهم استخدموا العديد من المصطلحات والتسميات للمناطق التابعة لهم منها علي سبيل المثال لا الحصر كلمة "بشاليك" وهي كلمة تركية تعني مقاطعة، كما استخدموا فيما بعد كلمة "أوجاق" وكانت تطلق علي فرق الانكشارية ،وهي فرقة عسكرية تتكون من جنود هم في الأساس مسيحيين انتزعوا من عائلاتهم وهم أطفال ثم تنشئتهم وفقاً للشريعة الإسلامية ثم تم تدريبهم علي فنون القتال المختلفة، وقائدهم هو الباشا، وفي مرحلة لاحقة أطلقوا علي طرابلس الغرب اسم "إيالة" وهي كلمة تعني "مقاطعة كبري"[9]وذلك منذ سنة 1835، وفي هذه الفترة كان يحكمها والي برتبة باشا، وقاموا بتقسيمها إلي عدة أقسام إدارية كانت في الحقيقة عبارة عن مجموعة من المناطق أطلق عليها اسم "قائمائية"، غير أن العثمانيين قاموا بإدخال تغيير علي هذا النظام سنة 1865 م عندما أعادوا البلاد إلي نظام الولاية وفقا لنظام الإصلاحات الذي أدخله العثمانيون علي النظم الإدارية والعسكرية وفي أهم أجهزة الدولة في مركز الحكم في الآستانة قصد تجديدها ومواكبة التطور في أوروبا، وكانت تسمية الولاية قد تمت زمن ولاية "محمود نديم باشا" وحظيت ولاية طرابلس الغرب بإدخال عدة إصلاحات علي غرار مركز الدولة وبشكل خاص في مجال الإدارة والشؤون القضائية والمالية، حيث أُدخلت محاكم الجنايات والتجارة والحقوق، وشهدت الولاية ظهور الجريدة الرسمية والتي تعُرف باسم "طرابلس غرب"[10]، كما أدخلت الدولة العثمانية نظام التجنيد الإجباري وقد طبقته في المركز والأطراف علي حدٍ سواء.

كانت التقسيمات الإدارية علي النحو التالي:

1- **لواء طرابلس:**

ينضوي تحت إدارته مجموعة من المناطق هي مدينة طرابلس ونواحي تاجوراء وجنزور والجفارة وقضاء النواحي الأربع والزاوية والعجيلات، وزوارة ترهونة وغريان، والعزيزية والجوش.

2- **لواء الخمس :**

يضم المناطق التالية : " قصبة خمس، مديرية طابية، مديرية تاورغاء، قضاء مسلاته، قضاء زلطن ، قضاء مصراته ، قضاء سرت "[11].

3- **لواء الجبل :**

وتندرج تحت لوائه كل من : " قضاء يفرن، ناحية حوصه، ناحية مزدة، ناحية زنتان، ناحية ككلة، قضاء غدامس، قضاء نالوت، قضاء فساطو "[12].

4- **لواء فزان :**

يضم هذا اللواء المناطق التالية : " قصبة مرزق، الأحوال العمومية للواء، قصبة غات "[13].

فيما يتعلق بإقليم برقة لم يكن وضعه الإداري مستقراً حيث نجده تارةً يتبع مباشرة مركز الولاية في طرابلس كما هو الحال سنة 1836 م ، وأستمر كذلك حتى سنة 1863م عندما قررت الدولة العثمانية تحويله إلي متصرفية تتبع الآستانة مباشرة ، وفي السنة التالية (1864 م) أصبحت برقة ولاية تتبع الآستانة ، ولكن ما لبثت أن أُعيدت إلي صفة المتصرفية سنة 1888 م[14]، وأستمر وضعها متأرجحاً مابين التبعية لطرابلس الغرب والآستانة حتى نهاية الحكم العثماني للبلاد.

وتشير الدراسة هنا بشئ من التفصيل إلي النظام الإداري الذي طبقته الحكومة العثمانية في إقليم فزان علي سبيل المثال لا الحصر كمثال علي النظام الإداري العثماني وهيكلته.

- **النظام الإداري في اقليم فزان**

أصبح إقليم فزان تحت الحكم العثماني المباشر منذ سنة1842 م وبذلك أصبح متصرف فزان يتبع مباشرة إلي الوالي في العاصمة طرابلس الغرب، وقد اتبع فيها العثمانيون نظاما إداريا علي النحو التالي:

مدينة "مرزق" مركز الحكم والإقليم وإلي جانبها كان هناك عشرة مديريات إدارية هي : سبها، الشاطئ، سمنو، وادي عتبة، زلة، القطرون، غدوة، الوادي الشرقي، الحفرة الشرقية، الوادي الغربي، وتشير المعلومات التاريخية إلي أن الهيكلية الإدارية لهذا الإقليم كانت علي النحو التالي :

القائمقام : هو أعلي سلطة وأعلي منصب إداري يتم تعيينه من قبل الوالي في طرابلس الغرب، يتبعه بشكل مباشر جهاز استشاري يتكون من القاضي، وكاتب المحكمة الشرعية، والمفتي، وكاتب المجلس، ونقيب الأشراف، وشيخ البلد، وأمين الصندوق، وكان من ضمن اختصاصاته الشؤون الإدارية والمالية ويملك كل الصلاحيات في تعيين رؤساء المديريات التي تتبعه إدارياً[15].

عندما أدخلت الدولة العثمانية نظام المتصرفيات، كان متصرف فزان يتم تعيينه بواسطة فرمان سلطاني من الآستانة مباشرة وفقاً لقانون الولايات العثماني، ويكون مسئولا مسؤولية مباشرة أمام والي الولاية، وفي إطار هذه الإصلاحات استُحدث نظام مجلس الإدارة وطُبق في مدينة "مرزق" سنة 1864 م ،إضافة إلي بعض الوظائف الأخرى منها مأمور أملاك المتصرفية ،المحاسب وغيرهما[16].

يتضح من هذا التسلسل الوظيفي كيفية ربط المؤسسات بعضها ببعض وفي آخر الأمر تكون كلها مرتبطة مع السلطة في عاصمة الولاية.

ومن أبرز مظاهر النظام الإداري الذي استحدثه العثمانيون هو نظام البلديات الذي ظهر سنة 1870 م كما يشير كتاب لدية طرابلس في مائة عام، بينما تشير معلومات أخرى إلي أن نظام البلدية تأسس في سنة 1867م [17] عندما قررت سلطات الأستانة إنشاء مؤسسة من شأنها تنظيم الإجراءات الإدارية بطريقة أكثر تنظيماً وارتباطاً بها، وكان القرار يشمل كل الولايات العثمانية، وفيما يتعلق بطرابلس الغرب فقد كان هناك منصب شيخ البلد غير أن عمله كانت تنقصه الدقة والتنظيم إضافةً إلي أنه لم يكن لديه مجلس يساعده ولم تخصص له

الدولة أموالاً للنهوض بتلك الأعباء[18]،ومن هنا جاء قرار إنشاء بلدية طرابلس الغرب وكان مقرها في سوق الترك وهو أحد أحياء المدينة القديمة، وكان لها مكاتب فرعية في أهم مدن الولاية ، لقد اتضح دور البلدية في عدة مجالات منها الاجتماعية والشؤون الصحية علاوة علي دورها المهم في نظم الأحوال المدنية للولاية، خاصة وأن جميع من شغلوا منصب رئيس البلدية في طرابلس الغرب كانوا من أهالي البلاد الأصليين[19].

تشير بعض المصادر التاريخية إلي أن بلدية طرابلس الغرب ظلت تعمل بدون قانون محدد طيلة السبع سنوات الأولي إلي أن تم إصدار قانون البلديات سنة 1877 م ويحتوي علي سبع وستين مادة تنظيمية تشمل كل اللوائح والقوانين المتعلقة بعمل البلديات وشؤون الولاية[20].

فيما يتعلق بربط أطراف الولاية بالمركز قامت السلطة العثمانية بمحاولات متكررة لتوثيق تلك الصلة، وكانت سنة 1858 م هي البداية الحقيقة لذلك زمن الوالي أحمد عزت باشا الذي تمن من بسط السيطرة العثمانية علي جبال تبستي، ثم قاموا بتثبيت سلطتهم علي غات سنة 1865 م ، وفي سنة 1875 نجح العثمانيون في إنشاء قضائيين في كل من منطقة جانيت وبرادي[21]، وأدت هذه التطورات إلي توثيق الصلة ما بين جنوب الولاية ومركزها وأدت إلي نتائج إيجابية انعكست علي الحركة التجارية أولا وعلي الناحية السياسية ثانيا، لأن هذه المرحلة كانت بدايات التنافس الاستعماري الأوروبي حول أفريقيا.

الجدير بالملاحظة أن العثمانيين من خلال أتباعهم للنظام الإداري السالف الذكر عملوا علي ترسيخ مركزية السلطة وتمكنوا من فرض سيطرتهم علي الولاية وتحقيق هدفين رئيسيين هما حماية الولاية والدفاع عنها وفي الوقت نفسه الحفاظ علي الاستقرار داخلها، والثاني تحصيل الضرائب وهذا يعي المحافظة علي موارد الولاية الاقتصادية وبذلك شهدت الولاية فترات عديدة من الاستقرار السياسي والاقتصادي بالرغم من تعرضها لبعض الأزمات خاصة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

ويمكن القول إن سياسة الدولة العثمانية في ولاية طرابلس الغرب كانت جزءا من سياستها العامة تجاه كل الولايات الخاضعة لسلطتها، ومثلما قامت بتأسيس بلدية في طرابلس فإنها سبق وأن أسس العديد من البلديات في بعض الولايات الأخرى منها علي سبيل المثال لا الحصر بلدية تونس سنة 1858 م ، بلدية بيروت سنة 1867 م ، بلدية دمشق سنة 1868 م [22].

- **<u>الأوضاع السياسية في ولاية طرابلس الغرب في ظل الحكم العثماني :</u>**

منذ عودة الحكم العثماني المباشر أنتهج العثمانيون أسلوباً صارماً في الحكم حتى لا تخرج البلاد عن سيطرتهم من جديد، غير أن هذا النظام كان كفيلاً بإشعال الاضطرابات والثورات ضدهم، وبشكل خاص ضد الإجحاف في فرض الضرائب علي السكان، وكان السبب الرئيسي في اندلاع ثورة "غومة المحمودي" سنة 1835 م ، و"عبد الجليل سيف النصر" في سنة 1839 م[23].

والجدير بالملاحظة أن الولاة العثمانيين الذين كانت ترسلهم الآستانة لم يستمروا في مناصبهم فترات زمنية طويلة، فعلي سبيل المثال لا الحصر إن "مصطفي نجيب باشا" غادر الولاية في نفس السنة التي وصل فيها وهي سنة 1835 م ليخلفه "محمد رائف باشا" الذي أستلم مقاليد الأمور في سبتمبر من السنة نفسها، وفي السنة التالية أستلم حكم الولاية "طاهر باشا" في يونيو 1836 م [24]، والأرجح أن السبب يعود إلي صعوبة المرحلة وكذلك الحالة السياسية غير المستقرة في الولاية، وهي محاولة من سلطات الأستانة إخضاع المتمردين ضدها ومحاولة إظهار هيبة وقوة الدولة العثمانية خاصة بعد قيام فرنسا باحتلال الجزائر سنة 1830 واقتطاعها من ممتلكات الدولة العثمانية[25].

أما فيما يتعلق بالوضع الداخلي فقد كان هناك عدة زعماء محليين يسيطرون علي مناطق مختلفة من الولاية من بينهم "غومة المحمودي" زعيم قبيلة "المحاميد" في منطقة الجبل الغربي والزاوية،وعثمان الأدغم كان يسيطر علي مصراتة، أما ترهونة فكانت خاضعة للشيخ "أحمد المريض"، بينما المنطقة الواقعة مابين ورفلة وفزان فكانت تحت زعامة الشيخ "عبدالجليل سيف النصر"[26].

لقد خاض الولاة العثمانيون حروبا طويلة حتى تمكنوا من بسط كامل سيطرتهم علي كل الولاية، فعلي سبيل المثال لا الحصر استمرت حربهم ضد غومة المحمودي من سنة 1835م إلي سنة 1858م واستغرقت حوالي ربع قرن من الزمن، وخلالها تداول عدد لا بأس به من الولاة حكم البلاد منهم الأقوياء علي غرار طاهر باشا وعلي عشقر باشا، والأخير تميز بقوته وقيادته أعنف المعارك ضد الخارجين عن السلطة العثمانية[27]، تخللت هذه الأحداث بعض فترات الهدوء خاصة عندما نجح العثمانيون في القبض علي غومة المحمودي وقاموا بنفيه خارج الولاية سنة 1842م ، وهكذا تم إيقاف أعنف حركة تمرد قامت ضدهم ، ولكن إلي حين ،عندما نجح غومة المحمودي في الفرار من منفاه وعاد عبر ولاية تونس ليقود الثورة مجدداً سنة 1854 ، وتعد هذه هي المرحلة الثانية من الثورة واستمرت حتى سنة 1858 م [28]، عندما نجح العثمانيون في قيادة هجوم مباغت ضد غومة المحمودي وتمت محاصرته في المنطقة الواقعة جنوب الجبل الغربي وكان في طريقه إلي غدامس، ولم يكن معه كل جنوده بل عدد قليل واستطاع الصمود في المعركة ولكنه في النهاية قتل في المعركة، وقطع الأتراك العثمانيون رأسه وحملوه معهم إلي طرابلس يكون عبرة لغيره.

أما فيما يتعلق بباقي الزعماء فيُعد عبد الجليل سيف النصر أكثرهم خطورة وقد عارض العثمانيين ودخل ضدهم في معارك كثيرة ، كما أنه تحالف مع كل من غومة المحمودي وأحمد المريض ضد السلطة العثمانية، وتمكن العثمانيون من القضاء عليه سنة 1842م ،وبذلك نجحوا في فرض سيطرتهم علي المنطقة الوسطى للولاية[29].

وتجدر الإشارة هنا إلي أن بعض الولاة العثمانيين حاولوا كسب رضا الأهالي في عدة مناطق بالرغم من حالة الحرب التي كانت تشتعل لفترات زمنية من بين أولئك الولاة محمد أمين باشا الذي حاول إجراء بعض الإصلاحات حيث قام بتحويل دار الضيافة التي أنشئت في زمن القره مانليين إلي مستشفي عسكري لتقديم الخدمات الصحية للأهالي، والوالي علي رضا باشا أيضاً أدخل عديد الإصلاحات مثل توصيل خطوط البرق من طرابلس المدينة إلي الخمس كما قام بإصلاح الطرق داخل مدينة طرابلس، ثم اتجهت إصلاحاته إلي مناطق أخري من الولاية فأنشأ مينائي بومبا وطبرق في أقصي شرق الولاية[30]، لقد استمر الاهتمام بشؤون الولاية الداخلية بوجود بعض الولاة المصلحين الذين سعوا إلي تثبيت سلطتهم بواسطة تقديم خدمات من شأنها تحسين الأوضاع الداخلية فيها وفي نفس الوقت صرف الأهالي عن القيام بأية اضطرابات ضدهم، ومن ضمن هؤلاء الولاة الوالي حافظ محمد باشا الذي عمل جاهداً علي محاولة تنظيم شؤون الولاية بشكل كبير فقام بإدخال نظام تسجيل الأملاك أو ما يُطلق عليه مكتب التسجيل العقاري. كما أجري إحصاء للسكان، ثم أصدر قراراً بتقديم الخدمات والمساعدات العامة للأهالي، ويعزي إلي عهده إنشاء البنك الزراعي، علي أن أهم خدمة قدمها لأبناء ولاية طرابلس الغرب كانت إنشاء المدارس لنشر التعليم بها، وتسني له إنشاء مدرستين للتعليم الأساسي ودار للمعلمين،وعمل علي إنشاء المدارس في كل ملحقات الولاية[31]، يُضاف إلي هؤلاء المشير رجب باشا الذي وجه اهتمامه إلي جانبين مهمين هما مواصلة إصلاح التعليم، وتقوية الناحية العسكرية وخاصة فيما يتعلق بإصلاح الحصون ودفاعات المدينة وأهتم بالتجنيد وغير ذلك[32].

الأوضاع الاقتصادية (التجارة والنظام الضريبي –الصناعة – الزراعة) وتأثرها بالأزمات السياسية.

مر اقتصاد الولاية بفترة غير مستقرة إبان عودة الحكم العثماني المباشر لها سنة 1835م حيث تزامن مع قيام بعض الاضطرابات والثورات التي تمت الإشارة إليها من أهم أسباب تلك الانتفاضات الزيادة في حجم الضرائب إضافة إلى فرض ضرائب إضافية علي السكان المحليين.

وقد تأثرت الحركة التجارية بشكل سلبي خاصة تجارة القوافل التي تعطلت بسبب الحرب الدائرة بين السلطات العثمانية و المناوئين لها، إلا أن العثمانيين نجحوا في إعادة بسط سيطرتهم علي الولاية وأعادوا إليها الهدوء والاستقرار، ومن ثم استأنفت الحركة التجارية نشاطها مجدداً[33].

1. التجارة والنظام الضريبي :

تعد تجارة القوافل أهم نشاط تجاري في ولاية طرابلس الغرب، خاصة وأنها تنقل البضائع الواردة من أوروبا إلي أفريقيا جنوب الصحراء وفي المقابل تُحضر السلع الأفريقية ويتم بيع القليل منها في الأسواق المحلية الساحلية والباقي يتم تصديره نحو أوروبا.

ومن منطلق أهمية هذا المورد الاقتصادي، أولته الحكومة العثمانية اهتماماً كبيراً، وقامت بربط علاقات سياسية وتجارية مع سلاطين الممالك الأفريقية والتي تقصدها القوافل المتجهة من طرابلس الغرب إلي أفريقيا جنوب الصحراء مثل ممالك السودان وكانم وبرنو وتمبكتو وواداي، ومن جانب آخر عملت علي تقوية هيبتها ونفوذها في المدن التجارية المهمة في جنوب الولاية مثل غات وغدامس وفزان، وبالتالي استعادت تجارة القوافل نشاطها بعد أن توفرت لها مقومات الأمن والسلامة اعتباراً من سنة 1846[34]، ثم نمت وتوسعت كثيراً، وأصبحت هي المحرك الرئيس لثروة البلاد، وأسهمت بنصيب وافر فيها خاصة خلال منتصف القرن التاسع عشر[35].

والجدير بالذكر هنا أن ولاية طرابلس الغرب كانت تربطها شبكة من الطرق مع مناطق جنوب الصحراء ووسط أفريقيا، مثلت أهمية بالغة آنذاك إذ تعد هذه الطرق هي الأقصر نحو وسط أفريقيا وقد زادت من قيمة وأهمية الولاية عبر مراحل زمنية عدة، ومن أشهر تلك الطرق ما يلي:

ــ طريق السودان الأوسط، ويتحكم فيه أهالي غدامس.

ــ طريق برنو يبدأ من مرزق جنوب الولاية ويصل إلي كوكا في دولة تشاد الحالية، ويعتبر هذا الطريق أسهل وأقصر الطرق.

ــ طريق واداي يمر عبر مدينة بنغازي في شرق الولاية ويصل إلي صحراء تبستي[36].

ــ طريق طرابلس ــ تمبكتو ويبدأ من مدينة طرابلس ويمر بغدامس وعين صالح ليصل إلي تمبكتو.

ــ طريق طرابلس . كانو تنطلق فيه القوافل من مدينة طرابلس عبر مدن غات وسوكوتو حتي تصل إلي كانو[37].

فيما يتعلق بالسلع التجارية، فقد تنوعت بتنوع مصادرها فالسلع القادمة من أفريقيا تشمل ريش النعام الجلود، التبر(الذهب)، الزبد،العاج،الرقيق وغيرها[38]، في المقابل كانت السلع الأوروبية عبارة عن الشاي القهوة، الورق، المحارم الهندية، الأسلحة، السكر، الأقمشة القطنية الإنجليزية، العطور، صابون[39].

شهدت سنة 1860 م نشاطاً تجارياً ملحوظاً انعكس بشكل ايجابي علي مؤشر الزيادة في قيمة كل من الواردات والصادرات استمر ذلك النشاط حتى سنة 1880 م ويشير أتوري روسي إلي قيمة الصادرات خلال سنة 1879م ارتفعت من 6.937.000 إلي 11.93.371، أما قيمة الصادرات في نفس تلك الفترة فقد ارتفعت من 6.481.000 إلي 15.74.795.

ويشير نفس الكاتب إلي أن الأوضاع الاقتصادية قد أخذت في الانهيار في سنة 1886 م والسنة التي تليها، وذلك يعود إلي إلغاء تجارة الرقيق و إلي الانخفاض الكبير في تصدير بعض المواد التجارية الرئيسية مثل ريش النعام، بسبب اكتشاف أسواق بديلة وبأسعار أقل مما هي عليه في ولاية طرابلس الغرب[40].

ويعود سبب الانهيار أيضاً إلي استخدام الأوروبيين طرقاً تجارية جديدة خاصة سنة 1881 م عندما تمكنوا من السيطرة عسكرياً علي عدة مناطق أفريقية تقع علي ساحل المحيط الأطلسي، ومنها انطلقوا إلي داخل أفريقيا وأخذوا في نقل السلع التجارية عبر هذه الدروب الجديدة حيث تنقل منها السفن البضائع إلي أوروبا[41].

تجدر الإشارة هنا إلي أن كبار التجار والمسئولين عن تجارة القوافل كانوا من سكان مرزق وجالو وغدامس وغات وطرابلس، وكان لهم وكلاء في عدة مناطق مثل تونس وكانم وواداي[42]،وإلي جانبهم وجد عدد من التجار الأوروبيين من مالطا وإيطاليا، كما كان لليهود دور في العمليات التجارية خاصة بعد أن أسسوا وكالات تجارية خاصة بهم مثل وكالة لويس سنكوند ووكالة الإخوة ريكارد وغيرهما[43].

أثرت الأزمات السياسية بشكل سلبي ومباشر علي اقتصاد الولاية غير أن العثمانيين حاولوا بشكل جدي التخفيف من حدة تدهور الحالة الاقتصادية التي كانت تعيشها الولاية وتحديداً في سنة 1836 م ، حيث طلبت من والي ولاية تونس تقديم معونات غذائية للولاية فعلا استجاب لذلك الطلب وأرسل كميات من القمح والزيت إضافة إلي أموال نقدية كانت قيمتها عشرة آلاف دورو، (الدورو) : هي قطعة نقدية فضية إسبانية[44].

كانت الكميات المرسلة تتمثل في الآتي :

عشرة آلاف كيلة من القمح، وسبعمائة وخمسين قنطار من الزيت تم إرسالها في ثلاثة مراكب عبر البحر[45].

لم تكتف الدولة العثمانية بتكليف "باي تونس" بتقديم الدعم الاقتصادي، بل بادرت هي أيضاً بإرسال كميات من الشعير واستلمت السلطة في طرابلس الغرب ما مقداره ثلاثة آلاف ومائتا كيلة من الشعير. وكان الهدف هو التخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية وفي الوقت ذاته إظهار تواجد السلطة المركزية.

أما ما يتعلق بالنظام الضريبي الذي كان يُتعامل به في ولاية طرابلس أثناء الحكم العثماني الثاني فقد تنوع هو الآخر في أوجه فرض تلك الضرائب، وكان القصد منها زيادة الإيرادات المالية لولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي، من تلك الضرائب _ على سبيل المثال لا الحصر :

- ضريبة الويرقو (تفرض على كل شخص بالغ لا يتعدى عمره 35 عاماً).
- ضريبة المحصول من الشعير والزيتون والحلفا.
- ضريبة الإرث وبيع الأملاك الغير المنقولة وضريبة التوثيق [46].

2. الصناعة:

اشتهرت الصناعة في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفيات بنغازي وبرقة بالتنوع الكبير والكثير في مجالاتها ومداخليها والتي أثرت الخزانة المالية في المناطق المذكورة آنفاً، حيث تمثلت تلك الصناعات في الأتي :

- صناعة النسيج
- صناعة الحصر

- صناعة الجلود
- صناعة الصابون
- صناعة المنسوجات الحريرية
- صناعة العاج

إضافة إلي الصناعات الصغيرة والمختلفة التي اشتهرت بها مدن الدواخل الليبية مثل الأواني الفخارية في غريان والأحذية والأحزمة الجلدية في فزان وبرقة ، وصناعة الذهب الفضة التي كانت تتأثر بالوضع السياسي للولاية[47].

3. الزراعة

تأتي في المرتبة الثالثة لاقتصاد الولاية ، حيث اشتهرت بعض المناطق المحيطة من طرابلس بالأراضي الخصبة [48] ، ذكر "كورو" استناداً إلي بعض تقارير القناصل بولاية طرابلس الغرب أن السنوات الأخيرة من الحكم العثماني الثاني قد شهد ركوداً في الإنتاج الزراعي ، حيث تسبب هذا الركود في عدم حصول السكان على مؤنتهم اليومية من الغلال الزراعية كالخضروات وغيرها[49].

كانت الزراعة في ذلك قد تأثرت بعوامل ساهمت في محدودية نشاطها منها :

1_ قلة المياه.

2_ ندرة الأيادي العاملة.

3_ قلة اهتمام السلطة الحاكمة بالولاية بالزراعة.

4_ الضرائب الباهظة التي كانت تُفرض على المحاصيل الزراعية [50].

وعلى الرغم من تلك الأوضاع السيئة إلا أن النشاط الزراعي ظل مستمراً في الولاية، حيث اشتهرت بعض المدن والمناطق بإنتاجها لعدد من المحاصيل الزراعية منها التمور التى كانت تدر إلى مصر وتونس بمعدل 120 _ 130 ألف ليرة في السنة وإن كانت من التمور غير الجيدة [51].

ومن تقطير التمور تتم عملية صناعة نوع من المشروبات يسمي " البوخة" التي تصدر بكميات كبيرة إلي الخارج [52]..

إضافة إلي المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها ولاية طرابلس الغرب منها الزيتون في مسلاتة وفي جبل نفوسة وجادو والرحيبات وكاباو [53].

الخاتمة :

تعرض البحث لموضوع الأوضاع السّياسيّة في ولاية طرابلس الغرب وأثرها على الحركة التّجاريّة خلال الفترة (1835– 1911 م)، في إطار إشكالية القراءة من منظور المركز والأطراف، وتعد هذه المرحلة الزمنية من أهم المراحل التاريخية في تاريخ ولاية طرابلس الغرب، حيث عاشت خلالها تقلبات تاريخية عديدة ومرت بأزمات سياسية واقتصادية عدة، كانت السبب الرئيس في تغيير سياسة المركز تجاهها وفقاً لكل مرحلة، أي أن السلطات العثمانية في الآستانة لم تكن بمنأى عما يدور داخل الولاية ، وكان تدخلها يأتي سريعاً سواء في حل الأزمات السياسية أو معالجة المشاكل الاقتصادية.

ومن أبرز النتائج التي ظهرت من خلال هذه الدراسة ما يلي :

كانت هناك مراقبة ومتابعة من قبل السلطات المركزية العثمانية في الآستانة لكل مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية في الولاية باعتبارها تقع علي أقصي أطراف الدولة. وإن ما كانت تقوم به الدولة العثمانية من إصلاحات في الولايات التابعة لها كان الهدف الأساسي منها ربط المركز(الدولة العثمانية) بالأطراف (ولاية طرابلس الغرب).

واتضح من خلال البحث أن حدوث الأزمات السياسية كان له الأثر المباشر في تغيير الولاة وفقاً لما تتطلبه المرحلة السياسية في الولاية مصدر الاضطرابات.

لم يكن تأثير الأزمات الاقتصادية يقتصر علي الأطراف فقط (ولاية طرابلس الغرب) بل كان يطال المركز(الدولة العثمانية)،لأنه يؤثر علي قيمة الضرائب المجتباة والمرسلة إلي خزينة الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه يكلف خزينة الدولة أعباء إضافية عند إرسالها لكمية من المساعدات الغذائية والمالية.

هوامش البحث :

1- كورو، فرانشيسكو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب وتقديم خليفة التليسي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس،1984م ،ص13.

2- ابن غلبون الطرابلسى ، أبو عبدالله محمد بن خليل ، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، صححه الطاهر احمد الزاوى ، دار المدار الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان ، 2004 م ، ص162،160.

3- الجفال، سعاد ، العلاقات الليبية – التونسية خلال العهد العثماني الثاني 1835–1911، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس – ليبيا،2006 م ،ص22 ؛ النمر، علي حسين، ابن غلبون وكتابه التذكار: دراسة مقارنة في تاريخ ليبيا الحديث، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية– طرابلس، 2008 م ، ص 224 .

4- ابن غلبون الطرابلسي،2004،ص241

5- فيرو، شارل ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة: محمد عبدالكريم الوافي،جامعة قاريونس:بنغازي – ليبيا،1994 م ،ص425.

6- الوثيقة رقم 20، وثائق مصورة من تونس،22 ربيع الأنور 1290هـ/1835 م).

7- وثيقة رقم 60 بتاريخ 1250هـ / 1835، وثائق منشورة في كتاب انهيار حكم الاسرة القره مانللية في ليبيا (1795 – 1835) ،عمر علي بن اسماعيل ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس – ليبيا ، 1966 ، .1966 م ، ص 512– 513.

8- وثيقة رقم 61 بتاريخ 1250هـ / 1835 م ، بن إسماعيل، المرجع السابق، ص 515 – 516.

10- روسي، أتوري ، ليبيا منذ الفتح العربي حتي سنة 1911 ، خليفة محمد التليسي ، دار الثقافة ، بيروت- لبنان ،1974 م، ص 214، 384.

11-ناجي، محمد ومحمد نوري، طرابلس غرب ، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان، دار مكتبة الفكر، طرابلس – ليبيا ، 1973، ص 198 .

12-ناجي ، المصدر السابق، ص 85.

13-روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...،ص 385؛ ناجي ، طرابلس غرب، ص 85.

14-ناجي ، طرابلس غرب ، ص 85.

15-روسي،ليبيا منذ الفتح العربي .... ،ص385.

16- الشيخي، منيرة علي ، الأوضاع الإدارية والاجتماعية والثقافية في مدينة مرزق من1842-1911 ، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية – طرابلس – ليبيا ، 2010.، ص 55-57.

17- المرجع نفسه، ص 59- 60.

18-Nora Lafi, Municipaltèsmèditerranèennes :Lesrèformesurbanies Ottomanes au miroir d'une histoire comparèe (Moyen-Orient, Maghreb, Europe mèridionale), ed, Berlin : Klaus Schwarz Verlag, 2005,P.22.

19- بلدية طرابلس في مائة عام1391/1286هـ - 1870 /1970 م،شركة دار الطباعة الحديثة، طرابلس – ليبيا، د.ت،ص 95.

20- المرجع نفسه،ص96.

21- المرجع نفسه ،ص114- 120.

22- روسي، ليبيا منذ الفتح العربي .... ، ص 403-404.

23Lafi, Municipaltèsmèditerranèennes...., P. 232,140,181.-

24- الجفال، العلاقات الليبية – التونسية... ،ص 37، 39.

25- روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...،ص358.

26- كامل، محمود ، الدولة العربية الكبري، دار المعارف – مصر، (د.ت)، ص 225.

27- روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...،ص 359.

28- الطوير، محمد ، "دور أهالي الجبل الغربي في مقاومة الحكم العثماني (1843-1848)"،المجتمع الليبي 1835- 1950، أعمال الندوة العلمية الثامنة التي عقدت بالمركز في الفترة من 26ـ2000/9/27، تحرير محمد الطاهر الجراري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس- ليبيا، 2005،ص509-510.

29- الجفال، العلاقات الليبية – التونسية...،ص40.

30- روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...،ص371، 375.

31- ناجي ، طرابلس غرب ، ص 193،199.

32- المصدر نفسه ، ص 205.

33- الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، 2004 م، ص 36.

34- روسي، روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...،ص 375.

35- الحنديري، ، سعيد عبدالرحمن، " تطور تجارة القوافل في ولاية طرابلس الغرب (1835 ــ 1911) "، المجتمع الليبي 1835 ــ 1950 أعمال الندوة العلمية الثامنة التي عقدت بالمركز في الفترة من 26 ــ 27 / 9 / 2000 م ، تحرير محمد الطاهر الجراري ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ــ ليبيا ، 2005م ، ص696.

36- Anderson Lisa , the state and social Trans Formation in Tunisia and Libya 1830- 1980, (Princeton University Press, Princeton , new Jersey, 1950, P. 105.
37-ناجي، طرابلس غرب ،ص 63،64 .
38-الحنديري، " تطور تجارة القوافل في ولاية طرابلس الغرب ....، ص 699.
39- ناجي، طرابلس غرب ، ص 65.
40- الحنديري، " تطور تجارة القوافل في ولاية طرابلس الغرب ...."، ص 702.
41-روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي...،ص 414 - 416.
42- كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني ، ص 84.
43- Martel , Andre , Les Confins Saharao _ Tripoltains De LA Tunisie (1881_ 1911) , Tom Premier , Paris , Vi , 1965.
44-وثيقة رقم 17 ، ملف (1 – 147) وثائق مصورة من تونس، رسالة من محمد شاكر كاتب ديوان قبودان البحر إلي باي تونس ، بتاريخ 29 ربيع أول 1251هـ / 1836 م.
45- وثيقة رقم 26، ملف (261- 315) ، وثائق مصورة من تونس، لغتها تركية ، مرسلة من مصطفي باي تونس إلي حكومة طرابلس، 1251هـ / 1836.
46- وثيقة رقم797 ، ملف (601 – 700) ، وثائق مصورة من تونس، رسالة من عزمي بك دفتر دار الإيالة الطرابلسية إلي باي تونس (لغتها تركية)، بتاريخ 1836 -Nora Lafi, Municipaltèsmèditerranèennes :Lesrèformesurbanies Ottomanes au miroir d'une histoire comparèe (Moyen-Orient, Maghreb, Europe mèridionale), ed, Berlin : Klaus Schwarz Verlag, 2005,P.22
-Nora Lafi, Une ville du Maghreb entre ancien régime exxréformesottomanes: genèse des institutions municipales à Tripoli de Barbarie (1795- 1911), Paris: L'Harmattan, Tunis: Institut de recherche sur le Maghreb contemporain (IRMC),2002.
47_ كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني ، ص 36.
48_ المرجع نفسه ، ص 63_ 69.
49_ رحومة ، مصطفي حامد ، الحياة الاقتصادية لمدينة طرابلس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية طرابلس ، ليبيا ، العدد2 ، 1999م ، ص 54_ 55.
50_ كورو ، المرجع السابق ، ص 91.
51 _ المرجع نفسه والصفحة .
52_ كورو ، المرجع السابق ، ص 94.
53_ المرجع نفسه ، ص95.
54_ المرجع نفسه ، الصفحة.

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً: الوثائق

1 _ الوثيقة رقم 20، وثائق مصورة من تونس،22 ربيع الأنور، 1290هـ/1835).

2_ وثيقة رقم 17 ، ملف (1 – 147) وثائق مصورة من تونس، رسالة من محمد شاكر كاتب ديوان قبودان البحر إلي باي تونس ، بتاريخ 29 ربيع أول 1251هـ / 1836.

3_ وثيقة رقم 26، ملف (261- 315) ، وثائق مصورة من تونس، لغتها تركية ، مرسلة من مصطفي باي تونس إلي حكومة طرابلس، 1251هـ / 1836.

4وثيقة رقم797 ، ملف (601 – 700) ، وثائق مصورة من تونس، رسالة من عزمي بك دفتر دار الإيالة الطرابلسية إلي باي تونس (لغتها تركية)، بتاريخ 1836.

ثانياً: المراجع العربية والمعُربة

5- بلدية طرابلس في مائة عام1391/1286هـ - 1870 /1970،شركة دار الطباعة الحديثة، طرابلس – ليبيا، (د.ت) .

6_ الجفال، سعاد ، العلاقات الليبية – التونسية خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس – ليبيا،2006م .

7_ الحنديري، ، سعيد عبدالرحمن، " تطور تجارة القوافل في ولاية طرابلس الغرب (1835 ــ 1911) "، المجتمع الليبي 1835 ــ 1950 أعمال الندوة العلمية الثامنة التي عقدت بالمركز في الفترة من 26 ــ 27 / 9 / 2000 ، تحرير محمد الطاهر الجراري ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ــ ليبيا ، 2005م.

8_ رحومة، حامد مصطفي، الحياة الاقتصادية لمدينة طرابلس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس _ ليبيا ، العدد2 ، 1999م .

9 _ روسي، أتوري ، ليبيا منذ الفتح العربي حتي سنة 1911 ، خليفة محمد التليسي ، دار الثقافة ، بيروت- لبنان ،1974 ، ص 214، 384.

10 - الزاوي، الطاهر أحمد ، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، 2004م.

11 - الطوير، محمد ، "دور أهالي الجبل الغربي في مقاومة الحكم العثماني (1843-1848)"،المجتمع الليبي 1835-1950، أعمال الندوة العلمية الثامنة التي عقدت بالمركز في الفترة من 26ــ2000/9/27، تحرير محمد الطاهر الجراري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس- ليبيا، 2005م.

12 - الشيخي، منيرة علي ، الأوضاع الإدارية والاجتماعية والثقافية في مدينة مرزق من1842-1911 ، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية – طرابلس – ليبيا ، 2010م.

13 _ ابن غلبون الطرابلسى ، أبو عبدالله محمد بن خليل ، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، صححه الطاهر احمد الزاوي ، دار المدار الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان ، 2004 م .

14 _فيرو، شارل ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتي الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبدا لكريم الوافي،جامعة قاريونس:بنغازي – ليبيا،1994م .

15 _ كورو، فرانشيسكو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب وتقديم خليفة التليسي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس،1984م .

16 _ كامل، محمود ، الدولة العربية الكبري، دار المعارف – مصر، (د.ت).

17 _ ناجي، محمد ومحمد نوري، طرابلس غرب ، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان، دار مكتبة الفكر، طرابلس – ليبيا ، 1973م.

18 _ النمر، علي حسين، ابن غلبون وكتابه التذكار: دراسة مقارنة في تاريخ ليبيا الحديث، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية- طرابلس، 2008م .

ثالثاً: المراجع الأجنبية :

19-Nora Lafi, Municipaltèsmèditerranèennes :Lesrèformesurbanies _ Ottomanes au miroir d'une histoire comparèe (Moyen-Orient, Maghreb, Europe mèridionale), ed, Berlin : Klaus Schwarz Verlag, 2005.

20 Exxréformesottomanes: genèse des institutionsmunicipales à …… Tripoli de Barbarie (1795- 1911), Paris: L'Harmattan, Tunis: Institut de recherche sur le Maghreb contemporain (IRMC),2002.

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

القبائل الصحراوية الطرابلسية في القرن الخامس الميلادي

إعداد : نبيلة حمودي
جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر.

ملخص:

إن المتتبع للخريطة البشرية لشمال إفريقيا في نهاية القرن الرابع الميلادي، يتوصل إلى أن الظاهرة المورية قد صبغت منطقتين جغرافيتين واللتين تعتبران الأقل تمدناً ورومنة : الإقليم الليبي الحالي، والمنطقة الغربية لموريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية؛ لكن في إقليم طرابلس نستطيع تمييز أيضاً ثلاث فئات مورية، متباينة من حيث درجة ومدى رومنتها، الأولى غير مرومنة، وثنيين وخارجين عن سلطة الإمبراطورية الرومانية، والثانية بمحاذاة الليمس وعلى علاقة بالمقاطعات المجاورة لهم، والثالثة هي المترومنة والتي تقطن داخل الحدود المرسومة للمقاطعات الرومانية، وقد استطاعت الفئة الأولى التقدم والاندماج في الثانية خلال العهد الوندالي، وعليه سنحاول في هذا المقال تتبع وذكر مور إقليم طرابلس في القرن الخامس الميلادي.

Abstract :

Moorish particularism characterized in the fourth century essentially two geographical sectors, known elsewhere as the least densely urbanized: the current territory of Libya, and the two western provinces of Mauretania Caesarean and Maurétanie Tingitane; but In the description of the settlement of Tripolitania, a typology that distinguished three categories of Moors according to their relation to Romanity was sketched out. Of these categories, the first, that of the Moors of the first circle, not Romanized, pagan and external to the Empire, will obviously not hold us. On the other hand, we will have to take into account as much of the Moors of the second circle, bordering of the limes and in periodic contact with the provinces, as of those of the third circle, familiar of Romanity and established within the Roman territory. The former were able, indeed, to penetrate further into the province, and to mingle with the latter during the Vandal era. we will try to trace in this article the Moors of Tripolitania in the 5th century.

مقدمة:

تضم المناطق الصحراوية الطرابلسية مجموعة من القبائل القائمة على الترحال والبداوة معتمدة في تحركاتها ومعاركها على الجمال خاصة، حيث وصفهم كامبس " Camps.G"[1] بأنّهم ينتقلون بتلك الجمال عبر مسافات طويلة على تخوم الصحراء.

وقد تطوّرت حركة الترحال بعد القرن الرابع ميلادي، مما يدلّ أنّ هذه القبائل عرفت اتساعا في مجال تحرّكاتها المتواصلة دون وجود هجرات سكانية منتظمة، وبالتالي ضمّت القبائل الطرابلسية الرعويّة حيّزا جغرافيا واسعا، حيث أكّد " ابن خلدون"[2] أنّ هذه القبائل استمرت حتى بداية الفتوحات الإسلامية.

أشارت المصادر التاريخية[3] إلى هذه القبائل، أهمها قبيلتي لواتة" Laguatan" والأستريانى(هوارة) "Austuriani" كون أنّها تمثل مصدر الخطر على الإمبراطورية الرومانية وعلى الوندال، بالإضافة إلى أسماء قبائل أخرى ذكرت في مصادر القرن الخامس والسادس ميلادي مثل الأفوراكسيس"Icesfira" والأستركسيس"Astrics"، الأملاكس"Amaclas" والمكليس"Macles" ، الأوركلياني"Urecliani" والأناكوتاس"Anacutas" .

أ-قبيلة لواتة" Laguatan":

ورد مصطلح لواتة في صيغ عديدة ومختلفة منها ما جاء عند كوريبيوس" Coripe"[4]:

ILagus, Elilagues, Laguatuantan, Laguatan, Laguantan, Laguanta, Ilasguas, ,Ilaguatten, ,Lencada .

كما تناول هذه القبيلة مؤرخي العرب أمثال "ابن خلدون"[5] الذي وطّنها بأرض طرابلس، وكذلك" حسن الوزّان"[6] الذي حدّد مجالها الجغرافي ما بين واحة أوجيلة* والنيل؛ كما أشار إلى قبيلة لواتة الباحثين المعاصرين أمثال ديبل"Diehl.Ch"[7] الذي يعتقد أنّها شكّلت مع قبائل، الأفوراكسيس"Ifuraces"

---

[1] – Camps (G), Berberes aux marages de l' histoire , éd expéride , Toulouse, 1980, P 125.

[2] عبد الرحمن إبن خلدون، تاريخ العبر ، ص ص 235 ، 236.

[3] للمزيد ، أنظر يوسف عيبش ، ص 249.

[4] –Coripe, Johanide, Rev. Tun, N^{0}22 , T V, chant 1, P 151

[5] عبد الرحمن إبن خلدون، تاريخ العبر ، م 6، ص 189.

[6] حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي و محمد الأخضر، ج 1، ط 2، الرباط ، بيروت، 1983، ص 154.

* **أوجيلة:** تقع على الطرق التجارية التي تخترق وسط البلاد من الشرق و الغرب، كما يتفرع منها طريق إلة واحة الكفرة و فزانيا،تشتهر بكثرة النخيل الذي ينتج أجود أنواع التمور، و يبدوا أن قبيلة الناسمون كانوا يأتون إليها لجني التمور من سهول الخليج السرت، أنظر: عبد الحفيظ عبد الله أبو لموشة، خليج السرت في العصر الفينيقي الروماني(السكان والنشاط الاقتصادي)، مجلة جامعة سرت العلمية، م 5ن العدد الأول، 2015، ص ص 139، 140.

[7] Diehl (Ch), L'Afrique Byzantine, l'histoire de la domination Byzantine en Afrique(533-709), éd, Ernest, Leroux, Paris, 1896, PP 301, 302 .

والأسترياني" Austuriani" إحدى أهم قبائل الناسمون* و قد حدّد مجال سيطرتها بين أقصى الطرابلسية و لبدة "Leptis Magna" شرقا، ذلك أنّ سكان لواتة"Les Levathes" في منطقة الواحات الصحراوية على الجانب الشرقي كانوا ناسميون، و يمتد أقاليمهم إلى واحة أوجيلة" Augila" ، وفي المركز الغرامنت وهي من القبائل البارزة التي إحتلّت منطقة فزّان الحالية، وإلى الغرب استقر السكان الأصليين في غدامس[8]، أما ديزانج "Désange.Ch"[9] فقد إعتبرهم من مصر وبرقة وبالتالي لم يستبعد أن جزء منهم قد إستقرّوا بالطرابلسية.

ويستخلص من خلال كل من ديبل " Diehl.Ch" وديزانج "Désange.Ch"، أنّها قبائل تقطن غالبيتها في المناطق الداخلية، و لو كانت صحراوية، و ليست بالضرورة من خارج الحدود الليبية ، بل قد يكون بعضها من المزارعين في المناطق السهبية و الجبلية و الذي من شأنه أن يكرّس فكرة استقرارها في المناطق الداخلية لمقاطعة طرابلس، و هو ما تؤكّده التنقيبات الأثرية التي أجريت بموقع غيريزة"Ghirza" ، الواقعة بواحة أوجيلة "Augila" [10].

ويبدو أنّ هذه القبيلة عرفت ثورة مستمرة منذ القرن الثالث إلى أواسط القرن السادس ميلادي[11]، حيث قاومت " ماكسيمليانوس " الذي فشل في الإنتصار عليها سنة 298 م، كما قامت بتهديد روما بقطع التجارة معها وإمدادها بالقمح نتيجة سيطرتها و تحكمها على الطرق التجارية المؤدية نحو الجنوب و قيامها بهجمات على المدن الساحلية[12].

ب-الأسترياني(هوارة)" Austuriani":

جاء اسم هذه القبائل بصيغتين هما: الأسترياني و الأستور عند ديزانج "Désange.Ch"،[13] في حين نجد أن ديبل "Diehl.Ch" [14] أشار بأنّهما جزء من القبائل الناسمونية. أما عن أصل هذه القبائل فهو غير معروف و يعتقد أنهم وفدوا من الصحراء الشرقية بالسرت أو هم قبائل لواتة[15].

وتمثل الأوسترياني"Austuriani" كونفدراليات قبائل مكونة من الرّحل، ظهرت لأول مرة في عهد الإمبراطور جوفيان "Jovien" (363-364م)[16] ، حيث كان سكانها يقيمون بمنطقة خليج السرت مثل قبيلة

---

*الناسمون: من القبائل الكبرى القاطنة على الضفة الشرقية للسّرت. أنظر، مقدم بنت النبي،" هيرودوت يتحدث عن الحياة الاجتماعية لسكان بلاد المغرب القديم "، مجلة أبحاث و دراسات تاريخية و أثرية، كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2015/2015، رقم 5، ص 331.

8. Diehl (Ch), op.cit, P 302

9. Desange (J) , Catalogue des Tribus Africaine de l'Antiquité classique à l'Ouest du Nil Dakar, N07, P 101

10 يوسف عيبش، الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي ، رسالة دكتوراه إشراف محمد البشير *شنيتي*، *2006-2007، ص 12*

11 فاطمة منقاشي، المقاومة الأمازيغية للاحتلال الوندالي و البيزنطي، إشراف د. حليمة غازي، أطروحة الدكتوراه في التاريخ الأركيولوجي، الرباط، 2003-2004، ، ص 49.

12 أحمد محمد أنديشة، التاريخ السياسي للمدن الثلاث، ط1، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع، بنغازي، 1993، ص ص 105، 106.

13 . Desanges (J), op.cit, P 82.

14 . Diehl (Ch), op.cit, PP 301, 302

15 أحمد محمد أنديشة ، المرجع السابق، ص 107.

16 Desage (J) , op.cit , P82 ; Modéran (Y) , « De Julius Honorius », op.cit , P 271

هيلاجواس[17] " Hilaguas/Ilaguas"، و قد امتلكت أعداد كبيرة من الإبل و استطاعت السيطرة على عدد من الواحات و مناطق المياه و مسالك القوافل التجارية[18] ، كما امتدّ مجالها إلى السواحل الجنوبية للسرت الكبرى،و هي المنطقة التي كان يسيطر عليها الناسمون منذ عهد هيرودوت على الأقل إلى غاية 400 ميلادي[19].

و يستدل من خلال بعض المصادر أنّ قبائل الأستريانى قامت بهجمات على المدن الثلاث(لبدة ، أوي و صبراتة) سنة 363 ميلادي* بسبب مقتل أحد رؤسائهم الذي يدعى ستاتشوا "Stacho"، على يد السلطات الرومانية [20]، وذلك في عهد الكونت رومانوس"Romanus" ، و قد خلّدت نقيشة عثر عليها في لبدة الإنتصارات المتتالية التي حققها الروم عليها مابين 408-423 ميلادي[21] ، و بالتالي لا نستبعد أنّ الأستريانى قد تكون ثارت ضد حلفاء جنسريك "Gensric" ، و قد تكون شاركت مع كابوون "Cabaon" في ثورته[22].

ج- الأفوراكسيس "Ifuraces":

ذكرها كوريب "Corippe"[23] عدة مرات ، حيث وطّنها في الطرابلسية، و ذكر أنّها كثيرا ما كانت تتحالف مع اللواتيين، و قد جعلها كل من كورتوا "Courtois.Ch"[24] و ديزانج "Désange.Ch"[25] من سكان الجبال لكن دون تقديم دليل يوضّح ذلك، في حين إعتبرها ديبل "Diehl.Ch"[26] من أكبر قبائل الولاية الطرابلسية ومن أهم قبائل الناسمون.

د- الأستريكس "Astrices":

حسب كوريب "Corippe"[27]فقد جاءت هذه القبائل من مناطق بعيدة ، حيث أشار ديبل "Diehl.Ch"[28] أنّها تقع جنوب مدينة قابس في المناطق الداخلية المقابلة لساحل بيزاكينا"Byzacéne" ، و يمتد مجال

---

[17] عبد الحفيظ عبد الله أبو لموشة، خليج السرت في العصر الفينيقي، المرجع السابق، ص 150.

[18] أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص 107.

[19] -Courtois (Ch) , Les Vandales d'Afrique, op. cit, P 103.

* قام الأستريانى بالهجوم على منطقة لبدة الكبرى ، مما أدى بسكانها إلى الاستنجاد برومانوس قائد إفريقيا ، و لكن اشترط هذا الأخير تقديم أربعة آلاف جمل و كمية كبيرة من المؤونة، ونظرا لعجزهم عن تلبية الشروط لجأوا إلى الإمبراطور فالنتيان، الذي كلّف بدوره بلاديوس بإعداد تقرير حول لبدة بعد عرقلة رومانوس مهمة المبعوثين، كما أنه لم يترك بلاديوس بنقل الحقيقة عن لبدة للإمبراطور فالنتيان، مما أدى إلى مهاجمة الأستريانى، للمزيد أنظر، أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق، ص ص 107- 109.

[20] نفسه.

[21] -Courtois (Ch) , Les Vandales d'Afrique, op.cit, P 103

[22] فاطمة منقاشي، المقاومة الأمازيغية ، المرجع السابق، ص 50.

[23] -Corippe, Johanide, n°23, T VI, chant II, P 116 ; et n° 24, T VI, chant III, P 461 ; et n°25, T VII, chant IV, P 120.

[24] -Courtois (Ch) , les Vandales d'Afrique, op . cit, n° 7, P 348

[25] -Desanges (J) , Catalogues, op.cit, P 99 .

[26] - Diehl (Ch) , l'Afrique Byzantine, op. cit, PP 301, 302

[27] -Corippe, Johanide, n° 30, T VIII, chant V, P 315..

[28] - Diehl (Ch) , l'Afrique Byzantine, op. cit, P 374

سيطرتها إلى سواحل السرت الصغرى [29]، و قد طابق ديزانج "Désange.Ch"[30] بينها و بين الأستكوريس"Astakoures" التي وردت عند المؤرخ بطلموس"Patolomé".

ه-الأملاكس/ الملكيس"Imaclas/ Mecales":

إعتبرها ديبل "Diehl.Ch"[31] من أكبر القبائل الطرابلسية، ولا يستبعد أنّها حاربت مع كابوون"Cabaon" ضد الوندال، وقد طابق كورتوا "Courtois.Ch"[32] بينها وبين قبائل الماخلياس"Machlyes" التي ورد ذكرها عند هيرودوت الذي حدد موطنها بالمناطق المجاورة لبحيرة تريتنوس "Tritonis"

و- الأوركلياني" Ureceliani":

وطن كوريب" Corippe"[33] هذه القبائل مع كلياني"Celian" و الاناكوتاس "Anacutas"، و قد طابق ديزانج"Désange.Ch"[34] بينها و بين كليان و إعتبرها من قبائل الطرابلسية أو قورينائية* ، أما حرفا " Ur" في بداية إسمها فهو يمثل اللون البني في اللغة العربية، و الراجح أنّ هذه القبائل كانت ضمن حلف الزعيم كابوون "Cabaon"[35].

ي-الأناكوتاس"Anacutas":

يذكر كوريب "Corippe"[36] أنّها جاءت من مناطق بعيدة ويرى ديزانج "Désanges.Ch"[37] أنّها من قبائل الطرابلسية ، و بالرغم من قلة المعلومات عن هذه القبائل إلاّ أنّه لا يستبعد أنها حاربت مع كابوون "Cabaon" قبل أن تشارك في مقاومة البيزنطيين[38].

و- قبائل الكوربسنسيس"Curbissensis":

حاول موديران "Modéran.Y"[39] دراسة هذه القبائل التي تمكن من توطينها بالطرابلسية أو في منطقة المدن الثلاث "Tripolitaine" إلى جانب كل من بيتاني "Beitani" و بغنسيس"Les Beggnenses"، و هذه

---

[29] -Ibid

[30] -Desanges (J) , Catalogue , op. cit , P 81

[31] -Diehl (Ch), l'Afrique Byzantine, op. cit, P 330

[32] -Courtois (Ch), les Vandales d'Afrique, op. cit , P 348

[33] -Corippe , Johanide, N^0 23, T V , chant II, P'417

[34] -Desanges(J), catalogue, N^0 4, P 77

* قورينا(شحات حاليا) : تعود نشأت هذه المدينة عام 631 ق م، و قد أسسها المهاجرين الإغريق ، و قد توالت الأبحاث عليها خاصة من طرف الإيطاليين، و كان لومير أول من لفت الأنظار إلى موقع قورينا عام 1705، أنظر، سعيد علي حامد، دور بعض العلماء الإيطاليين في الاكتشافات الأثرية في ليبيا، المركز الوطني للمحفوظات ، 2010م، ص ص 9، 10.

[35] فاطمة منقاشي، المقاومة الأمازيغية ، ص 52,

[36] Corippe, Johanide, N^0 23, TV , chant II, P 315 .

[37] Desanges (J), Catalogue, N^0 4, P 77 .

[38] فاطمة منقاشي، المقاومة الأمازيغية ، ص52.

[39] -Modéran (Y), « Qui montana Gurubi Colunt » , Corippe et le Mythe des Maures du Cap Bon, Mélanges de l' école Française de Rome Antiquité, (M E F R) , T 99, 1987, P986.

القبائل تعرف بأنّها من القبائل غير معروفة ، و قد وافقه في ذلك ديزانج "Désanges.Ch"[40] ضمن تعريفه الجديد لهذه القبائل .

ويبدو أنّ قبائل الكوربسنسيس توطنت بكوربيس "Curubis" و أوديتها الوعرة و تلال ماركور"Marcure" و إفرا"Ifra" ثارت ضد البيزنطيين بقيادة أورتليان "Aurtilien"، كما أنّهم قاوموا روما والوندال[41].

ويلاحظ من خلال النقوش والآثار أنّ القبائل الليبية التي كانت تقيم في المناطق الشبه صحراوية من المدن الثلاث اعتمدت عل بناء المراكز الدفاعية .

وكانت السلطة الرومانية تلجأ إلى سياسة التحالف مع رؤساء هذه القبائل الليبية المحليين الذين منحت لهم الإمبراطورية امتيازات ، بالإضافة إلى مسؤوليتهم الدفاعية ، فإنّهم مسؤولين على الشؤون الدينية و مكلّفين كذلك بالإدارة و العدل في مناطقهم[42].

الخاتمة:

يلاحظ أن التركيبة البشرية لشمال إفريقيا عموما، في القرن الخامس الميلادي، تغيرت عما كانت عليه خلال العهد الروماني، حيث ظهرت قبائل لم يكن يتردد ذكرها سابقاً كقبيلة لواتة على سبيل المثال لا الحصر، وأغلب هذه القبائل تجمعت واتحدت في شكل كنفدراليات سياسية وسيطرت إقليمياً في مناطق انتشارها، وهي التي ساعدت ودعمت الوندال حين دخولهم منطقة شمال إفريقيا، وهي أيضاً التي عجلت بسقوط والقضاء على الاحتلال الروماني وأضعفت قوته في المنطقة، وستلعب لاحقاً دوراً كبيراً خلال القرن السادس الميلادي وستعمل على مقاومة ليس الاحتلال الوندالي فحسب في عهد خلفاء جنسريك وإنما حتى البيزنطي في القرن السادس الميلادي.

---

[40] – Desanges (J) , " Curbisséns " , in ; Eny.Ber, T XIV1999, P2158

[41] –Modéran (Y) , " Qui Monota " , op. cit , P 984

[42] أحمد محمد أنديشة، المرجع السابق ، ص ص ، 233، 234.

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م

أثر الحربين العالميتين الأولى والثانية على الأوضاع السياسية في ليبيا

إعداد :
أ.الناجي حسين علي

ملخص البحث :

يتحدث هذا البحث عن أثر الحربين العالميتين الأولى والثانية على الأوضاع السياسية في ليبيا ، حيث ذكرت فيه أولاً نبذة عن التمهيد الإيطالي وكيف واجهها الليبيون عند بداية الغزو، ثم تحدثت عن أثر الحرب العالمية الأولى والتي أصبحت بعدها إيطاليا من الدول الاستعمارية الكبرى، وأثر ذلك على التحولات السياسية فيها وخاصة وصول الفاشست للحكم ودورهم في زيادة التوغل الإيطالي في ليبيا، ثم ذكرت بداية الحرب العالمية الثانية ووقوف إيطاليا مع المحور ضد الحلفاء وانهزامها في الحرب مما ساهم بشكل مباشر في خروجها نهائياً من ليبيا .

المقدمة :

عندما قامت الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918م، كانت بلادنا ليبيا واقعة تحت الاحتلال الإيطالي بعد أن تخلت عنها الدولة العثمانية بتوقيع معاهدة أوشي لوزان أكتوبر / 1912م، فكان أثر ذلك واضحاً حيث استخدم الطليان كل الوسائل لجعل ليبيا شاطئاً رابعاً لإيطاليا، ولكنها اصطدمت بجهاد الليبيين من أجل خروج إيطاليا نهائياً، واستمر ذلك حتى بداية الحرب العالمية الثانية 1939 – 1945م، حيث اشتركت إيطاليا فيها وانتهت تلك الحرب بهزيمة المحور أمام الحلفاء، فكان ذلك عاملاً مساعداً في تخلص الليبيين من إيطاليا .

حاولت في هذا البحث التحدث عن الأثر المباشر للحربين العالميتين الأولى والثانية على الأوضاع السياسة في ليبيا، فكتبت أولاً عن التمهيد الإيطالي لاحتلال ليبيا، ثم عن بداية الغزو للأراضي الليبية، ثم اندلاع الحرب العالمية الأولى وأثرها في وصول الفاشست للحكم في إيطاليا وعن سياستهم القمعية ضد الشعب الليبي. ثم تحدثت عن الحرب العالمية الثانية وأثرها على الوضع الليبي من خلال الكفاح المسلح والجهاد السياسي داخل وخارج حدود البلاد .

1 – التمهيد والاحتلال الإيطالي وموقف الليبيين منه :

ظهر الحديث عن ليبيا بصفة رسمية لأول مرة في جلسة البرلمان الإيطالي التي عُقدت في 1881/4/6م، حيث كشف النقاب في تلك الجلسة البرلمانية عن العبارة التي أدلى بها المفاوضون الفرنسيون أثناء المحادثات الإنجليزية الفرنسية حول تونس وقبرص والتي تقول ((حسناً. نحن نقول للإيطاليين خذوا طرابلس.)) ومنذ تلك السنة وحتى عام 1911م عملت إيطاليا على تهيئة كافة الظروف لإنجاح سياسة التغلغل السلمي في ليبيا[1] .

بدأت إيطاليا سياسة التغلغل السلمي بطرق مختلفة منها، تشجيع الهجرة الإيطالية إلى ليبيا، وزيادة ودعم التجار الإيطاليين للعمل في الأراضي الليبية وفتح فرع لبنك روما المركزي، وشراء الأراضي الزراعية، أما على الصعيد الداخلي الإيطالي فقد ساهمت الصحف ووسائل الإعلام الإيطالية في تهيئة الرأي العام الإيطالي لاحتلال ليبيا، أو كما تُسمى "الشاطئ الرابع لإيطاليا"، فزاد عدد الجالية الإيطالية في ليبيا زيادة ملحوظة، بل وعملت إيطاليا على الصعيد الأوربي والعالمي لحشد التأييد لها من أجل احتلال ليبيا، وحصدت في هذا الجانب الكثير من التعاطف معها خاصة بعد احتلال فرنسا لتونس 1881م وإنجلترا لمصر عام 1882م فأصبحت الظروف الآن مهيأة لخوض الحرب في ليبيا[2] .

بدأت إيطاليا الهجوم على ليبيا في أواخر عام 1911م بعد أن اطمأنت لردود أفعال الدول المؤثرة في تلك الفترة مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا، وقامت بإنزال قواتها على الأراضي الليبية معتقدة أن الأمر سيكون من السهولة بمكان، ولعل سبب ذلك الاستسهال هو تلك الحملة الإعلامية التي قادتها كبريات صحف إيطاليا حيث تساءلت في الكثير من الأوقات هل احتلال ليبيا يحتاج إلى حملة[3] .

لكن بمجرد وصول الإيطاليين إلى شواطئ ليبيا انتفض الشعب الليبي في وجه المستعمر الإيطالي وبدأت ملاحم الجهاد في كل ربوع ليبيا، مما جعل الحكومة الإيطالية في حرج شديد، وغيّر كثيراً من مواقف بعض الدول الأوربية التي وافقت إيطاليا على غزو ليبيا في بداية الأمر[4] .

خاض الليبيون معارك الشرف على كامل الأراضي الليبية فور نزول القوات الإيطالية، فكانت هناك معارك جليانة والسلاوي والكويفية وبنغازي في مدينة بنغازي وحولها، ومعركة شارع الشط وغيرها في طرابلس[5]. وطالب زعماء السنوسية من الشعب الليبي مجابهة الأعداء، وفي نوفمبر 1911م زادت إيطاليا من قـــواتها العسكرية وعملت على الصعيد السياسي حتى توصلت لعقد معـــاهدة أوشي لوزان مع تركيا في 18 أكتوبر 1912م والتي تخلت بموجبها الدولة العثمانية عن ليبيا وتركتها تواجه قدرها في مواجهة إيطاليا، والتي بدورها أقرت مرسوماً سابقاً صدر في نوفمبر عام 1911م ، وأتخذ صبغة قانون صدر في 25 فبراير 1912م وضعت بمقتضاه طرابلس وبرقة تحت السيادة الإيطالية[6].

ورغم كل الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد عام 1913م إلا أنها شهدت عدد من المعارك ضد الإيطاليين في معظم جهات برقة من أشهرها معركة شتوان ببنغازي، ومعركة قاريونس يوم 26 / مارس، ومعركة بنينه يوم 14 / أبريل، ومعركة الرجمة يوم 22 / أبريل، ومعركة الأبيار يوم 26 / أبريل، ومعركة البويرات يوم 18 / يوليو بالجبل الأخضر، ومعركة زاوية ترت غرب القبة، ومعركة الصفصاف، ومعركة

الأبيار في 15 / يوليو ، ومعركة تاكنس في 16 / سبتمبر بالجبل الأخضر، ومعركة سيدي رافع يوم 27 / سبتمبر بالبيضاء ومعركة المرج في 19 / أغسطس 1913م[7].

بعد ثلاث سنوات من الغزو منيت القوات الإيطالية في هذه الفترة بخسائر وهزائم متلاحقة أمام قوات المجاهدين، وازداد الضغط على الحكومة نتيجة اخفاقها في السيطرة على ليبيا بأسرع وقت كما وعدت، وبدأ التغير السياسي قُبيل الحرب العالمية الأولى لتبدأ مرحلة أخرى بخصوص القضية الليبية[8].

2- الحرب العالمية الأولى وأثرها على القضية الليبية:

في عام 1914م بدأت الحرب العالمية الأولى، ودخلت إيطاليا إلى جانب ألمانيا وحليفاتها النمسا وبلغاريا ضد كل من بريطانيا وفرنسا، وترددت تركيا في دخول الحرب ثم دخلتها أخيراً إلى جانب ألمانيا، ولكن إيطاليا خانت صديقتها ألمانيا وانضمت إلى حلف فرنسا وبريطانيا، وما يهمنا هنا ما له علاقة بليبيا .

بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا رأت الحكومات التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنجليزي ولتحقيق هذه الغاية بعث أنور باشا إلى أحمد الشريف يبلغه أن السلطان العثماني قّرر منحه النيابة عنه في أفريقيا، ويخوله ماله من نفوذ مطلق مدنياً وعسكرياً، مثل حق إعطاء الرتب والنياشين والعفو عن المحكومين ، والتولية والعزل دون الرجوع إلى الباب العالي، ثم وصل إلى برقة الضابط العثماني نوري باشا ومعه الأوسمة الرفيعة وقابل أحمد الشريف قرب السلوم وسلمه رسالة أنور باشا التي كانت تحمل نبأ إعلان الحرب وتعيين السلطان له نائباً عنه في أفريقيا، وفي نفس الفترة وصل إلى برقة الضابط الألماني مانسمان الذي حمل معه كتاباً خاصاً من إمبراطور ألمانيا إلى أحمد الشريف، وكان هؤلاء الضباط مستائين من سياسة أحمد الشريف تجاه الإنجليز لأن ذلك يخالف أغراضهم التي جاءوا من أجلها، وبذل نوري باشا ورفقاؤه جهوداً مضنية للتأثير على أحمد الشريف لكي يهاجم الإنجليز، ورغم تردد أحمد الشريف في ذلك لأنه رأى ضرورة حرب إيطاليا بدل إنجلترا ونتيجة لظروف الحرب والضغوط على أحمد الشريف حدث ما حدث وتوجهت القوات نحو الحدود المصرية[9] ، ومع ما سعى إليه الإنجليز بواسطة السلطان حسين كامل وحثه على الاتصال بأحمد الشريف لمنع وقوع الحرب إلا أن الحرب وقعت بالفعل في نوفمبر / 1915 وأخذت الفرق العسكرية النظامية والمتطوعة تنحدر إلى الأراضي المصرية، وبدأت القيادة في إعلان وجوب اشتراك رجال القبائل المصرية في الحرب ضد الإنجليز المحتلين لمصر والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية .

بدا هجوم المجاهدين والأتراك على القوات الإنجليزية عند حدود مصر ودارت معارك كثيرة من أشهرها معركة وادي ماجد في شهر ديسمبر 1915م، ونتيجة لظروف كثيرة منها عدم الاستعداد الكافي للقوات المهاجمة وتخاذل تركيا في دعمها، ونشوب الخلاف بين أحمد الشريف ونوري باشا حول ما وصل إليه الموقف العسكري على الحدود المصرية تعرضت الحملة للهزيمة، وكان فشل هذه الحملة وتدهور الأوضاع الاقتصادية في برقة من الأسباب التي أسهمت في ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث بعد ان أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف الحرجة وينتج عنه فيما بعد تنحي أحمد الشريف عن زعامة السنوسية وتنازله للأمير إدريس ثم هجرته خارج البلاد ليكون هذا أول أثر للحرب العالمية الأولى على القضية الليبية، حيث دب الخلاف بين الأمير إدريس وأحمد الشريف لاختلاف نظرة كل منهما في الأسلوب، حيث رأى الأمير إدريس أن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة وعلى السنوسيين استغلال الظروف الدولية لتحقيق استقلال البلاد، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها هذا الأمر[10]. أما أحمد الشريف فكان يرى أن حميته الدينية وغيرته الإسلامية تمنعه من الوقوف مع الإنجليز ضد تركيا فكان أن هاجر إلى تركيا ثم الحجاز وترك الأمير إدريس يقود السنوسيين والبلاد بأجمعها .

أما عن أثر الحرب العالمية الأولى فيما يخص الناحية العسكرية في الجانب الإيطالي، فقد أدت الحروب الألمانية الإيطالية ضد فرنسا وبريطانيا إلى سحب بعض القوات الموجودة في ليبيا وهذا ما جعل الفترة التي أعقبت حملة أحمد الشريف وتولي الأمير إدريس فترة مفاوضات بدءً من مفاوضات الزويتينة ثم مفاوضات عكرمة على مقربة من طبرق في اوائل 1917م، وأسفرت هذه المفاوضات على ما عُرف باتفاق عكرمة وهو مع الجانبين الإيطالي والإنجليزي، فكان الاتفاق مع الجانب الإيطالي ينص على رغبة كل من السنوسية والإيطاليين على وقف القتال والامتناع عن الحرب طول فترة الهدنة، أما الاتفاق مع الجانب الإنجليزي فقد نص على أن يسلم الأمير إدريس كل الرعايا البريطانيين والمصريين والتابعين لدول الحلفاء لبريطانيا وأن يخرج جميع المسلحين السنوسيين من مصر، وان تفتح طريق السلوم، والذي يمكن أن نخلص إليه من هذه المفاوضات هو أن إيطاليا كانت تحاول الحصول على امتيازات سياسية، بينما بريطانيا يهمها أن تؤمن الحدود المصرية الغربية[11].

أما في إقليم طرابلس، فبعد خروج العثمانيين نهائياً قامت المشاورات بين زعماء البلاد، فعقد اجتماع في مسلاته انتهى بإعلان الجمهورية في 16 نوفمبر 1918م على أن يكون أعضاء حكومتها كل من الشيخ سليمان الباروني ورمضان السويحلي وأحمد المريض وعبدالنبي بلخير، وأنشىء مجلس شورى من خمسة وعشرين عضواً وتوجهت حكومة الجمهورية إلى حكومات امريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا تنبئها بما تم وترجو منها الاعتراف بها. وبعد أن تم اتفق الأعضاء الأربعة على مناطق حكم كل منهم رغبوا في

المفاوضة مع الحكومة الإيطالية على نحو ما جرى بينها وبين الأمير إدريس السنوسي، إلا أن الحكومة لم تجب حكومة الجمهورية إلى ما أرادت بل على العكس حشدت في طرابلس جشياً جراراً بقصد احتلالها، ولما تعرضت هذه القوى الإيطالية لغير هجوم شنه المجاهدين رأت الحكومة الإيطالية أن تتفاوض مع حكومة الجمهورية، وتم الاجتماع في مارس 1919م، وبعد أخذ ورد انتهى الأمر باتفاق صلح بنيادم الذي كان نتيجته القانون الأساسي الطرابلسي والذي ينص على احترام الحقوق المدنية والسياسية والحريات الدينية الفردية والعامة والمساواة في فرض الضرائب، أما فيما يتعلق بالحكومة فقد أقر تعيين والٍ من قبل ملك إيطاليا ومجلس نواب محلي ينتخب فيه بعض أعضاء معينين، على أن كل هذا لم يكن يرافقه نية حسنة من جانب الطليان فقد اخذوا يزرعون بذور الشقاق في البلاد، لذلك اجتمع زعماء الحركة الوطنية وممثلون عن القسم الأكبر من المناطق الطرابلسية في غريان في نوفمبر 1920م لبحث القضية الليبية وكان أحمد المريض رئيساً للمؤتمر، كما كان عبد الرحمن عزام مستشاراً له، وقد اتخذ المؤتمر القرار التالي:((أن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامي من الأصول بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب وتكون له السلطة الدينية والعسكرية بأكملها ، بموجب دستور تقره الأمة وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة))، وقرر مؤتمر غريان أن يكون الجهاد في سبيل البلاد موحداً في برقة وطرابلس، وأرسل وفد إلى سرت حيث أجتمع بمندوبي السنوسية حيث تم اتفاق عُرف باتفاق سرت نص على الكثير من الأمور منها توحيد الكلمة ضد العدو ولكن أهم ما رشح عن المؤتمر هو أن بايعت هيئة الإصلاح المركزية والتي انبثقت عن مؤتمر غريان السيد محمد إدريس السنوسي أميراً للقطرين برقة وطرابلس وذلك في سبيل توحيد العمل في الدفاع عن البلاد ، وقد قبل الأمير إدريس ذلك في نوفمبر عام 1922م[12].

وتتابعت أحداث الحرب العالمية الأولى حتى انتهت إلى انتصار حلف بريطانيا وفرنسا على ألمانيا وشريكاتها، ونتج عنها بخصوص إيطاليا أن أصبحت دولة استعمارية كبرى وطالبت بمزيد من المستعمرات في مؤتمر فرساي[13] .

أما على الصعيد الداخلي في إيطاليا فقد برز الحزب الفاشي بقيادة موسوليني حتى تمكن من السيطرة على الأوضاع وبسط سلطته على إيطاليا في سنتي 1922م / 1923م، وينعكس الوضع على ليبيا لتبدأ مرحلة أشد قسوة على الشعب الليبي، حيث انتهت الهدنة التي استمرت ما يقارب الخمسة أشهر وذلك بعد فشل المفاوضات بين المجاهدين والطليان، واضطرت إيطاليا إلى تغيير عدد كبير من القادة العسكريين ببرقة، وكان من المنقولين الجنرال شيشلياني نائب الحاكم العام، والجنرال ميزتي القائد العام للقوات الإيطالية ببرقة، ورأت حكومة الفاشيست أن تعين الجنرال غراتسياني نائباً للحاكم العام ببرقة وقائداً عاماً للقوات المسلحة ليتولى

شخصياً عمليات القضاء على حركة المجاهدين الليبيين بعد ان خولته الصلاحيات المطلقة بحيث لا يكون في حاجة لمراجعة الحاكم العام، وزودته بجميع طلباته من العدة والعدد فوصل بنغازي في شهر مارس /1930م، وكان أول عمل قام به في الدوائر المدنية هو استبدال أغلب الموظفين الإيطاليين بآخرين ممن يتمتعون بثقته عندما كان يعمل في طرابلس، ثم بدأ جولاته في المناطق المحتلة، وكانت السلطات تجمع لاستقباله جميع الأهالي بما في ذلك النساء والأطفال والعجزة فيخطب فيهم متوعداً ومهدداً، وكان يستهل خطاباته بقوله (. . صموا أفواهكم وأفتحوا آذانكم . .) ليلقي الرعب في نفوس سامعيه، وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على حركة الجهاد وقائدها الفعلي عمر المختار بالصورة التي كلفت إيطاليا في سنة واحدة ما لا يقل عن النفقات التي تتكبدها دول عظمى في سنوات طويلة، وعمد إلى أساليب مختلفة لقمع الليبيين منها المحاكم الصورية الطائرة والتي تتنقل في مختلف أرجاء البلاد، ومصادرة الأموال بدون مبرر، وفتح أبواب السجون في كل مدينة، ونصب المشانق في أغلب مدن برقة، والرمي بالرصاص تنكيلاً بالليبيين، وجمع كافة الأهالي في معتقلات العقيلة والبريقة في الصحراء وفي سلوق والمقرون ليحد من دعمهم للمجاهدين، وحاول منع وصول الدعم من مصر عن طريق إحاطة الحدود الشرقية بالأسلاك الشائكة، فقتل وهّجر وجّوع الليبيين حتى أستحق لقب (سفاح برقة)، وكان من نتائج هذه السياسة الهمجية أن تعرض الليبيون لأبشع انواع العذاب، وأصيبت حركة الجهاد في مقتل عندما سقط شيخ الشهداء عمر المختار أسيراً في أيدي الطليان وحكم عليه بسرعة بالإعدام شنقاً، ونفذ الحكم في عام 1931م والذي يعتبر تاريخاً فاصلاً في حركة الجهاد، حيث لم يستمر الكفاح المسلح إلا قرابة السنتين بعد هذا التاريخ حيث هاجر الكثير من الليبيين إلى مصر وتونس ممن تبقى من قادة المجاهدين[14].

وشردت إيطاليا زعماء السنوسية وأغلقت الزوايا وصادرت أملاكها، وأجلت السكان عن أراضيهم ، وملكت الأراضي الخصبة في الجبل والسواحل لشركة آنتي الإيطالية الاستعمارية، وصارت الإدارة الإيطالية للبلاد إدارة عسكرية مباشرة، وفي عام 1939م جعلت ليبيا جزءاً من المملكة الإيطالية وأصبحت ولايات طرابلس ومصراته وبنغازي ودرنة ولايات إيطالية، وسن قانون للرعوية أصبح بموجبه في برقة رعايا إيطاليون كاثوليك ورعايا إيطاليون مسلمون، وسعت إيطاليا لعزل ليبيا بكاملها عن العالمين العربي والإسلامي فأنشأت مدرسة دينية إسلامية في طرابلس لمنع طلاب العلم من السفر إلى الأزهر أو إلى جامع الزيتونة بتونس، وجردت الحكومة الإيطالية السكان من أراضيهم حيث سجلت بعد عام 1936م 450.000 من الهكتارات باسم الحكومة، وهيئة الأرض للمعمرين الطليان، وجيء بأول جماعة كبيرة إلى ليبيا منهم 20.000 سنة 1938م، فأصبح يقدر عدد الإيطاليين في ليبيا سنة 1939م بنحو 75.000 وكانت هناك دفعات أخرى على وشك الوصول ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية أوقفها[15].

3- الحرب العالمية الثانية وأثرها على القضية الليبية :

بدأت الحرب العالمية الثانية في أواخر عام 1939م ودارت رحاها بين معسكري المحور والحلفاء وأثرت على أكثر دول العالم، ولم تنته إلا في سنة 1945م بعد استسلام اليابان، ولسنا بصدد الحديث عن الحرب العالمية الثانية ولكن يهمنا منها ما يخص أثرها على ليبيا، حيث شهدت ليبيا جولات كثيرة من الحرب على أراضيها أثرت بشكل مباشر على مستقبل ليبيا السياسي[16]، وهو ما سوف نتحدث عنه من جانبين:

أولاً: من الناحية العسكرية :

كانت ليبيا مسرحاً لأحداث مهمة في الحرب العالمية الثانية، وشهدت جولات كثيرة يتقدم فيها الألمان ويتقهقر الإنجليز والعكس صحيح، وشاركت إيطاليا – الدولة المستعمرة لليبيا – إلى جانب ألمانيا في الحرب وبالتالي أصبحت هدفاً للحلفاء، وكان لاشتراكها في الحرب أبلغ الأثر في خروجها من ليبيا فيما بعد، فقد نتج عن ذلك من الناحية العسكرية تأسيس الجيش الليبي أو كما أطلق عليه الجيش السنوسي وذلك في أغسطس من عام 1940م بالقرب من مدينة القاهرة، حيث عقد المنفيون الليبيون اجتماعين، الأول في 1939م رأوا فيه أن اشتراك إيطاليا في الحرب فرصة حقيقية لتحرير بلادهم من الحكم الإيطالي، والتقى واحد وخمسون من الليبيين يمثلون 14 ألف منفى من منطقتي برقة وطرابلس في الإسكندرية في أكتوبر من هذا العام ، وفي الاجتماع الثاني بالقاهرة أتخذوا قراراً يدعو الليبيين إلى المشاركة في الحرب إلى جانب بريطانيا والذي اتخذ فيه قرار بتكوين الجيش الليبي والتحق نتيجة لهذا القرار ما يقارب العشرة آلاف رجل من ليبيا كان يقودهم ضباط بريطانيون وليبيون، وقد لعبوا دوراً نشيطاً ومهماً في حملات عامي 1940 و 1943م ، وساعدوا جيوش الحلفاء المقطوعة خلف خطوط المحور[17] .

أما فيما يخص إيطاليا، فقد خرج المارشال بالبو حاكم ليبيا العام وقائد الجيش الإيطالي في ليبيا في يوم 1940/6/11 م. من منصة الخطابة التي أقيمت له خصيصاً بميدان السراي الحمراء بطرابلس ليقول إن إيطاليا أعلنت الحرب ضد فرنسا وبريطانيا، ثم تولى الجنرال غراتسياني القيادة العامة وزحف بقواته إلى الحدود المصرية وعند منطقة سيدي البراني، وبعد أقل من شهرين اصطدم بالقوات البريطانية بقيادة الجنرال ويفل القائد العام لقوات إنجلترا في الشرق الأوسط، وتلقى غراتسياني هزيمة عسكرية ليكون ذلك أول تأثير عسكري على وجود إيطاليا في ليبيا[18] .

وبعد كرّ وفرّ بين بريطانيا وإيطاليا، أو الحلفاء والمحور، تعرضت فيه ليبيا لخراب كبير وظروف اقتصادية صعبة انتصر أخيراً الحلفاء وأخرجوا إيطاليا نهائياً من ليبيا في فبراير 1943م لتبدأ مرحلة الإدارة البريطانية وتستمر حتى نيل الاستقلال عام 1951م[19] .

ثانياً : أثر الحرب العالمية الثانية من الناحية السياسية:

بعد إعلان الجنرال مونتجمري أن المنطقة ستدار من قبل حكومة عسكرية بريطانية حتى نهاية الحرب أصبحت ليبيا تحت حكم دولتي بريطانيا وفرنسا، وتنافست الدول العظمى وغيرت من رأيها فيما يخص استقلال ليبيا حيث اتفقت تلك الدول، أمريكا وبريطانيا وفرنسا وحتى الاتحاد السوفيتي على أن الليبيين غير أكفاء لحكم أنفسهم، ونتيجة لذلك ظهرت عدة آراء منها أن تقسم ليبيا وتوضع تحت وصاية قوتين أو ثلاث لمدة أربع سنوات. وزاد من تعقيد الوضع أن الولايات المتحدة الأمريكية أقامت قاعدة جوية لها في ليبيا لتصبح ثالث دولة استعمارية تتحكم في الشأن الليبي، ولكن الليبيون بكل أطيافهم رفضوا موقف الدول الكبرى من قضيتهم، ووجهوا اللوم خصوصاً لحكومة بريطانيا التي لم تلتزم بعهودها في منحهم الاستقلال بعد الحرب[20]، لتبدأ مرحلة الكفاح السياسي ضد الدول العظمى .

تأسست عدة جمعيات ونوادي خارج البلاد وداخلها منها نادي طرابلس الغرب الثقافي، وجمعية برئاسة أحمد السويحلي تأسست في مصر، وتأسست في برقة الجبهة الوطنية للمؤتمر الوطني البرقاوي، وجمعية عمر المختار، ورابطة الشباب والجمعية الخيرية وغيرها، وكل هذه الهيئات والجمعيات والنوادي كان هدفها واحد وهو السعي من أجل الاستقلال التام للبلاد موحدة، وكانت برقة تدعو لتولية الأمير إدريس السنوسي، ولكن واجهها بعض الرفض من إقليم طرابلس أو من بعض الشخصيات هناك، ولكن أهل برقة اشترطوا أن يكون الاعتراف بإمارة إدريس هو الأساس استناداً لمؤتمر غريان وللبيعة السابقة، وعملوا على الصعيد العالمي والعربي حيث ذكروا بريطانيا بوعودها لهم إن هم اشتركوا في الحرب، وزار الأمير إدريس ليبيا عدة مرات بدءاً من سنة 1944 و1947م، في حين طالب الطرابلسيون بإرجاء مناقشة ولاية إدريس السنوسي إلى وقت آخر بعد الاستقلال ، وطالبوا بضرورة الاستقلال أولاً ثم الوحدة ثم الانضمام للجامعة العربية[21] .

وكأثرٍ مباشر من آثار الحرب العالمية الثانية اختلفت مصالح الدول العظمى في ليبيا، فعندما اجتمع تشرشل وترومان وستالين في بوتسدام في يوليو 1945م بحثوا في قضية المستعمرات التي كانت تابعة لدول المحور، وطلب ستالين أن تبحث قضية الوصاية عليها حالاً، كما طلب أن يساهم الاتحاد السوفيتي في تحمل أعباء الوصاية، وأحيلت القضية إلى مجلس وزراء الخارجية الذي كان مؤلفاً من وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا، وقد عقد أول اجتماع لهذا المجلس في لندن في شهر سبتمبر 1945م وتناول قضية معاهدة الصلح مع إيطاليا، كما بحث قضية المستعمرات الإيطالية السابقة في أفريقيا ، وقد بدأ تفاوت وجهات النظر بين الدول الأربع واضحاً، ذلك أن بيفن وزير خارجية بريطانيا أقترح أن إيطاليا يجب أن تعلن عن تنازلها عن كل ما يتعلق بمستعمراتها الأفريقية، بينما كان جورج بيدو وزير خارجية فرنسا يميل إلى إعادة تلك المستعمرات إلى إيطاليا، وفي هذه الجلسة أعلن وزير خارجية

الاتحاد السوفيتي مولوتوف بأن حكومته تحبذ وضع كل المستعمرات الأفريقية تحت إدارة واحدة من الدول الأربع، وأن الاتحاد السوفيتي على أتم الاستعداد لتسلم إدارة الأجزاء الغربية من ليبيا خاصة طرابلس، أما الولايات المتحدة فقد اقترح وزير خارجيتها جيمس بيريز أن توضع المستعمرات تحت وصاية الأمم المتحدة على أن يتم اشتراط منح ليبيا استقلالها بعد عشر سنوات [22] .

وبعد مداولات كثيرة بين وزراء خارجية الدول الكبرى حول ليبيا اتضح جلياً التباين بينها حتى برز في 1949م مشروع بيفن سفورزا، حيث أعلن وزير خارجية إيطاليا وبريطانيا أتفاقها على خطة حول مستقبل ليبيا تمنح بموجبها الوصاية لبريطانيا على برقة ، ولإيطاليا منطقة طرابلس، ولفرنسا منطقة فزان، ووصلت أنباء هذه الخطة إلى ليبيا قامت مظاهرات جماعية لم تدع شكاً في الشعور العام المعادي للخطة ، وفي نهاية الأمر فشل مشروع بيفن سفورزا في الأمم المتحدة، وقد غيرّ ذلك من موقف الاتحاد السوفيتي الذي كان في وقت سابق يريد الوصاية على طرابلس، حيث نادى الروس بضرورة استقلال ليبيا خلال ثلاثة أشهر وجلاء جميع القوات الأجنبية عنها، وبعد أسبوعين من رفض خطة بيفن سفورزا أعلن الأمير إدريس بتأييد من بريطانيا استقلال برقة وأصبح أميراً عليها ، وأصبحت الحكومة المحلية مسؤولة عن الشئون الداخلية وأذيع دستور برقة في 11 أكتوبر 1949م وبالتالي أصبح استقلال ليبيا شيئاً لابد منه في نظر الدول الأربع الكبرى ولكنها اختلفت في مدة المرحلة الانتقالية فكانت أمريكا وفرنسا تريدان أن تكون هذه المرحلة طويلة، فكان على الأمم المتحدة أن تتوصل إلى حل سريع وأعيدت القضية إلى اللجنة السياسية وسمح لإيطاليا بالاشتراك في النقاش، وكذلك لممثلين من المؤتمر تبنت الجمعية العامة في 21 نوفمبر 1949م قراراً بأغلبية (48) صوتاً يتضمن عدة نقاط حول استقلال ليبيا، وأهم ما جاء في هذا القرار :

1) أن تصبح ليبيا المتكونة من مناطق برقة وطرابلس وفزان دولة مستقلة ذات سيادة .
2) أن يصبح هذا الاستقلال ساري المفعول في أسرع وقت ممكن وإلا يتأخر باي حال من الأحوال من أول يناير 1952م .
3) أن يتقرر دستور لليبيا يضم شكل الحكومة من قبل ممثلين عن سكان مناطق برقة وطرابلس وفزان يجتمعون ويتشاورون معاً في جمعية وطنية .
4) من أجل مساعدة شعب ليبيا على وضع الدستور وإقامة حكومة مستقلة يرسل مندوب من الأمم المتحدة إلى ليبيا تعينه الجمعية العامة ومعه مجلس لمساعدته ونصيحته .
5) أن يقدم مندوب الأمم المتحدة بالمشاورة مع المجلس تقريراً سنوياً مع التقارير التي يعتبرها ضرورية .
6) أن يعين مندوب من الأمم المتحدة بعد التشاور مع القوى الإدارية وممثلي الأحزاب السياسية والمنظمات في المناطق المعينة .

بعد هذا القرار تم تعيين أدريان بلت مبعوث من الأمم المتحدة وبدأ مهمته في رحلة استطلاعية لمدة أسبوعين في 18 يناير 1950م وكان له دور كبير في اجتماع كل من ممثلي برقة وفزان وطرابلس رغم الصعوبات التي واجهته، ولكنه ساهم في أن تتبنى الأمم المتحدة قراراً في 17 نوفمبر 1950م يؤكد القرار الأصلي حول استقلال ليبيا، ويدعو الجمعية الوطنية التي تم تشكيلها سابقاً لإقامة حكومة مؤمنة قبل 1/أبريل/1951م، وفي الرابع من ديسمبر 1950م أقرت الجمعية الوطنية العلم الليبي وانتخبت لجنة الدستور بالإضافة إلى مطالبة المبعوث الأممي إلى دعم ليبيا مالياً وفنياً، واتفق زعماء البلاد على المناداة بالأمير إدريس ملكاً على ليبيا، وهذا ما تم فعلاً حيث أعلن من قصر المنار ببنغازي استقلال ليبيا قبل الموعد الذي حددته الأمم المتحدة [23].

4- الهوامش:

1- جيوفاني جوليني ، مذكرات جوليني ، الأسرار السياسية والعسكرية لحرب ليبيا 1911 – 1912م ، تعريب خليفة التليسي ، الدار العربية للكتاب تونس 2003م ، ص ص 9 – 11 .

2- نقولا زيادة ، ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال ، منشـــورات معهد الدراسات العربية ، جامعة الدول العربية 1958م ، ص ص 110 –111 .

3- محمد عبدالكريم الوافي ، الطريق إلى لوزان ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ليبيا ، الطبعة الثانية 1988م ، ص ص 75 – 79 .

4- جيوفاني جوليني ، مرجع سابق ، ص ص 12 – 15 ، وعبد المولى الحرير ، موقف إيطاليا وألمانيا وإنجلترا من تركيا قُبيل وأثناء الغزو الإيطالي ، مجلة البحوث التاريخية ، السنة العاشرة ، العدد الأول 1988 ، ص41 .

5- يوسف البرغثي ، وسالم الكبتي ، معركة جليانة ، إصدارات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ليبيا 1991م ، ص ص 21 – 23 .

6- شارل ڤيرو ، الحوليات الليبية ، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس الطبعة الثالثة ، 1994م ، ص531 .

7 – علي الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، دار ابن الجوزي ، القاهرة 2011م ، ص260

8- محمد علي أبوشارب ، مؤتمر العزيزية التحضيري ، مجلة الشهيد ، العدد الخامس 1984م ، ص55 .

9 – محمد إدريس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، ص ص 318 – 319

10- Sir Duncan Cumming , Libya in The Pirst World way 284 ،ليبيا في التاريخ ، المؤتمر التاريخي 1968م ، بنغازي وجمال قاسم ، موقف مصرف من الحرب الليبية الإيطالية 1911 –1914م ، ليبيا في التاريخ ، المؤتمر التاريخي منشورات الجامعة الليبية ، بنغازي ، 1968م ، ص 343

11- نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص ص 97 – 99

12 – نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص95 .

13 – عبدالعزيز نوار وعبدالمجيد الغنعي ، أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الثانية ، دار النهضة العربية بيروت لبنان 1976م ، ص ص 477 – 480 .

14 – نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص ص 110 – 115 .

15- جون رايت ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، دار الفرجاني طرابلس ليبيا 1972م ، ص 172 .

16- جون رايت ، مرجع سابق ، ص175 ، وكهلان كاظم ، السياسة الأمريكية تجاه ليبيا 1949 – 1957م ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ليبيا 2003م ، ص32 .

17- محمد إدريس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، مطبعة الهواري القاهرة 1946 م ، ص519 .

18- نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص121 .

19- علي الصلابي ،مرجع سابق، ص502 ، وعزالدين العالم ، تاريخ ليبيا المعاصر 1922 – 1948م ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ليبيا 2000 م ، ص112 .

20- محمد إدريس الأشهب ، إدريس السنوسي ، دار العهد الجديد للطباعة القاهرة ، الطبعة الثانية 1957م ، ص ص 120 – 122 .

21- علي الصلابي ، مرجع سابق ، ص 505 .

22 – نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص ص 163 – 164

23 –جون رايت ، مرجع سابق ، ص ص 201 – 204

5 – قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية :

1) أبو شارب ، محمد علي ، مؤتمر العزيزية التحضيري 1920/10/12م ، مجلة الشهيد ، العد الخامس ، 1984م .
2) الأشهب ، محمد الطيب ، إدريس السنوسي ، دار العهد الجديد للطباعة القاهرة ، ط2 ، 1957م .
3) الأشهب ، محمد الطيب ، برقة العربية أمس واليوم ، مطبعة الهواري ، القاهرة ، 1946م .
4) الأشهب ، محمد الطيب ، عمر المختار ، القاهرة ، 1957 م
5) البرغثي ، يوسف سالم ، وسالم الكبتي ، معركة جليانة ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، بنغازي ليبيا ، 1991م .
6) جوليتي ، جيوفاني ، مذكرات جوليتي تعريب خليفة التليسي ، الدار العربية للكتاب تونس ، 2003م .
7) الحرير ، عبد المولى صالح ، موقف إيطاليا وألمانيا وإنجلترا من تركيا قُبيل وأثناء الغزو الإيطالي ، مجلة البحوث التاريخية ، السنة العاشرة ، العدد الأول ، 1988م .
8) رايت ، جون ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، دار الفرجاني ، طرابلس ليبيا ، 1972م .
9) زيادة ، نقولا ، ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال ، منشورات معهد الدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، 1958م .
10) الصلابي ، علي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2011م .

11) العالم ، عزالدين ، تاريخ ليبيا المعاصر 1922 – 1948م ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ليبيا 2000م .
12) فيرو ، شارل ، الحوليات الليبية ، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ليبيا ، ط3 ، 1994م .
13) قاسم ، جمال زكريا ، موقف مصر من الحرب الليبية الإيطالية 1911 – 1914م ، مؤتمر ليبيا في التاريخ ، منشورات الجامعة الليبية بنغازي ، 1968م .
14) كاظم ، كهلان ، السياسة الأمريكية تجاه ليبيا 1949 – 1957م ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ليبيا 2003 م .
15) نوار ، عبدالعزيز ، وعبدالمجيد الغنعى ، أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الثانية ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، 1976م .
16) الوافي ، محمد عبدالكريم ، الطريق إلى لوزان ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ليبيا ، ط2 ، 1988م .

المراجع الأجنبية :

1 –Sir Duncan Cumming Libya in The First World Way
مؤتمر ليبيا في التاريخ منشورات الجامعة الليبية ، 1968 م .

الاستشراق والمستشرقون

إعداد :
د. عبد الرحمن صالح بكار
جامعة بنغازي.

ملخص البحث :

إن موضوع الاستشراق والمستشرقين ليس بالغريب لدى الأوساط العلمية والدينية في البلدان الإسلامية فقد استرعى انتباه علماء الإسلام منذ أن وجد في الشرق الإسلامي، خاصة بعد ما رأي هؤلاء العلماء أن دراسات المستشرقين للإسلام لا تخلو من الدس والتحريف والتشويه بجانب ما يقومون به من تحقيق علمي أو تاريخي، فالعمل الاستشراقي لم يقم دائماً على النوايا المخلصة الطيبة فحسب، وإنما أصبح مزيجاً من الحق والباطل، وإن كان الباطل من القلة والضآلة بحيث لا يُعبأ به بإزاء الحق الكبير والصدق الناصع الذي تضمنه، إلا أن أقل شيء من الكذب يكفى لهدم أكبر حقيقة والقضاء على أعظم سند علمي وتاريخي .

فعلى الرغم من أن المستشرقين أسدوا إلي المسلمين خدمة عظيمة وجليلة تمثلت في التنقيب في تراث هذه الأمة واهتموا بالمواضيع الحساسة كالسيرة، وتفسير الكتاب، والتاريخ الإسلامي ،وأثروا المكتبة الإسلامية بدراساتهم الأكاديمية ، إلا أن دافعهم لم يكن دافعاً علمياً وثقافياً فحسب، وإنما كانوا يبحثون عن مواطن الضعف ومواقع النقص ليتولوا تشويه التاريخ الإسلامي بأسره ووضعه موضع الرفض وعدم الثقة رغم تظاهرهم " جلهم " بالإخلاص والأمانة العلمية، ولتبيان ذلك تناولت في هذا البحث المتواضع عدة عناصر من بينها تعريف المصطلح ونشأة الاستشراق وأهدافه ثم تطرقت إلي مناهج المستشرقين وفضلهم على المسلمين وأخيراً تكلمت عن الاستشراق الألماني كمثال .

المقدمة :

إن موضوع الاستشراق والمستشرقين ليس بالغريب لدى الأوساط العلمية والدينية في البلدان الإسلامية ، فقد أستدعي انتباه علماء الإسلام منذ أن وجد في الشرق الإسلامي ، خاصة بعدما رأي هؤلاء العلماء أن دراسات المستشرقين للإسلام لا تخلو من الدس والتحريف والتشويه بجانب ما يقومون به من تحقيق علمي أو تاريخي .

فالعمل الاستشراقي لم يقم دائماً على النوايا المخلصة الطيبة فحسب وإنما أصبح مزيجاً من الحق والباطل ، وإن كان الباطل من القلة والضآلة بحيث لا يُعبأ به بإزاء الحق الكبير والصدق الناصع الذي تضمنه ، إلا أن أقل شيء من الكذب يكفى لهدم أكبر حقيقة والقضاء على أعظم سند علمي وتاريخي فالمستشرقون أسدوا إلي المسلمين خدمة عظيمة وجليلة تمثلت في التنقيب في تراث هذه الأمة ، واهتموا بالمواضيع الحساسة كالسيرة، وتفسير الكتاب والتاريخ الإسلامي، وأثروا المكتبة الإسلامية بدراساتهم الأكاديمية ومجهوداتهم الجمة .

ورغم هذه الخدمة التي أسدوها للإسلام والمسلمين، إلا أن دافعهم لم يكن دافعاً علمياً وثقافياً فحسب. وإنما كانوا يبحثون عن مواطن الضعف ومواقع النقص ليتولوا تشويه التاريخ الإسلامي بأسره ووضعه موضع الرفض وعدم الثقة، رغم تظاهرهم "جلهم" بالإخلاص والسهر على البحث والدراسة حتى لا يعرف الناس مراميهم وأهدافهم الحقيقية، ولذا سأحاول إلقاء الضوء على الاستشراق والمستشرقين ، خاصة ما يتعلق بالإستشراق الألماني كمثال .

وسيتم تقسيم هذه الدراسة إلي عدد من العناصر وهي كالتالي :

العنصر الأول :

تعريف مصطلح الاستشراق ومدلوله .

العنصر الثاني :

أ. نشأة الاستشراق .

ب. مراحله .

ج. دوافعه .

العنصر الثالث :

أ. أهداف الاستشراق .

ب. الوسائل التي أستخدمها المستشرقون لتحقيق أهدافهم .

العنصر الرابع :

مناهج المستشرقين .

العنصر الخامس :

فضل المستشرقين على المسلمين، وما قاموا به من جهد لحفظ تراث الإسلام من الضياع والفناء .

العنصر السادس :

الاستشراق الألماني .

أ. بداياته وأسبابه .

ب. مميزاته .

ج. أهم مبادئه .

العنصر السابع :

نبذة مختصرة عن بعض المستشرقين الألمان مع بيان إسهاماتهم في مجال الدراسات العربية والإسلامية .

العنصر الأول :

تعريف الاستشراق

إن كلمة الاستشراق مشتقة من الشرق وهي تعني مشرق الشمس، ومن ثم فإنها تدل على الاهتمام بما يحويه الشرق من علوم ومعارف وسمات حضارية . والمستشرق هو الذي يهب نفسه للاهتمام بما يدور في الشرق في مجالاته المختلفة[1] .

والاستشراق هو علم من العلوم الإنسانية إلا أنه يختلف عنها بعدم الديمومة والثبات والاستقرار. وبمعني أخر هو عبارة عن ظاهرة نمت وازدهرت وتطورت في ظروف معينة ولأهداف محددة ثم انتهي دورها وتقلصت آثارها وضاقت حقولها ومجالاتها، وأصبح الاستشراق في الوقت الحاضر على وشك الزوال[2] .

وعرّف مالك بن بني المستشرقين بقوله : " المستشرقون هم الكُتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، أو هم العلماء الأوربيون الذين يهتمون بالدراسات الشرقية "[3] .

أما سالم حمّيش فعرّف المستشرق بقوله : " هو العالم المتخصص في معرفة لغات الشرق وآدابه. والاستشراق هو هذه المعرفة "[4] .

العنصر الثاني :

نشأة الاستشراق ومراحله :

لا يوجد دليل قاطع يدل على البداية الحقيقية والمنظمة للاستشراق، فالمصادر التي تعرضت لهذا الموضوع تختلف في تحديدها لبداية الاستشراق، فمن الباحثين من يرى أنه بدأ بمحاولات فردية منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، ومنهم من يرى أنه بدأ في بعض البلدان الأوروبية في القرن الثالث عشر الميلادي أو ربما قبل ذلك بقليل، ومن الباحثين من يرى أن الاستشراق ظهر منذ الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م عندما قدم عدد كبير من العلماء في جميع فروع المعرفة مع نابليون بونابرت الذي اصطحب معه مطبعة عربية ساعدت هؤلاء العلماء في القيام بأبحاثهم المختلفة والمتعددة[5] .

وبالرغم من اختلاف الباحثين في بدايات الاستشراق وتشعب الآراء فيه، فإنه يمكن تقسيم تاريخ الاستشراق إلي عدد من المراحل :

1. **مرحلة الانبهار بالحضارة العربية الإسلامية والاتجاه إليها :**

هناك اتجاه كبير يميل إلي أن الاستشراق بدأ منذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوروبا وقيام الدولة الإسلامية في الأندلس التي أسست نهضة وحضارة إسلامية لم تشهدها أوروبا من قبل. وحينذاك أخذ الأوربيون الغارقون في الجهل والتخلف الحضاري يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين وبلوغهم هذا المجد العظيم، فبدأوا يدرسون علوم المسلمين ولغتهم لعلهم يظفرون بما يوقفون به هذا التيار الإسلامي أو يكتسبون من علومه ما ينفعهم في إنقاذهم من التخلف والجهل .

وكان من أبرز سمات هذه المرحلة الاتجاه إلي ترجمة الكثير من أمهات الكتب العربية إلي اللاتينية[6] .

ويرجع بعض الباحثين بداية الاستشراق إلي عام 967م، حيث قام " جيربيردي أورياك G. de Hurille " برحلة من فرنسا إلي قرطبة طلباً للعلم والحكمة في عهد الحكم الثاني، ورحل عن قرطبة بعد أن تزود بالحكمة التي ينشدها على أيدي علماء مسلمين متجهاً إلي روما بصحبة قديس برشلونة بورل (Borell) والأسقف أتو (Otto) ، وقد أصبح فيما بعد بابا وتسمي باسم سلفستر الثاني، وأدي ازدهار العلوم والآداب وانتشار التعليم والمدارس في الأندلس إلي توافد الأوربيين لتلقي العلوم العربية الإسلامية، وكان ذلك بمثابة الإرهاصات الأولي لظهور الاستشراق .

وكان لليهود في تلك الفترة دور بارزا في ترجمة العديد من المؤلفات الإسلامية إلي الإسبانية والعبرية ، ومنها كان يترجم المستشرقون هذه المؤلفات إلي اللاتينية ، وتأسست قاعدة الاستشراق الصلبة في القرن الحادي عشر الميلادي إثر استيلاء الفونس السادس على قرطبة عام 1085م حيث استولي الغرب على مكتبات قرطبة العامة والخاصة بما في ذلك مكتبة الحكم الثاني[7] .

2. **مرحلة ما بعد الحروب الصليبية :**

بدأت هذه المرحلة بعد فشل الصليبيين في حملاتهم العسكرية ضد المسلمين، حيث أخذوا يفكرون جدياً لغزو المسلمين فكرياً حتى يتمكنوا من الثأر لهزيمتهم العسكرية وذلك بزحزحة المسلمين عن عقيدتهم الراسخة التي كانت السبب الرئيسي في تصديهم للصليبيين، وكذلك أرادوا في هذه المرحلة تحقيق السيطرة الفكرية التي من شأنها المساعدة على وقف التيار الإسلامي عن طريق إعطاء صورة خاطئة عن الإسلام وتشكيك المسلم في دينه وإبعاد غير المسلم عن التفكير في اعتناق الإسلام[8] .

3. **مرحلة التنظيم الفعلي :**

بدأت هذه المرحلة في القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو الوقت الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته، حيث بدأ المستعمرون في تشجيع الدراسات الاستشراقية نظراً لحاجتهم الماسة والملحة إلي فهم أوضاع المسلمين في البلدان التي استعمروها حتى يتسنى لهم العمل على إضعاف روح المقاومة لديهم وبث الفرقة والوهن في صفوفهم، وقد نبغ بعض علماء الغرب في هذا الميدان وصدرت العديد من المجلات في كثير من البلدان الغربية، كما استولوا على الكنوز العربية والإسلامية المتمثلة في المخطوطات والوثائق الهامة ونقلوها إلي مكتباتهم ومتاحفهم وذلك عن طريق شرائها من أصحابها الذين لا يعرفون قيمتها، أو سرقتها من المكتبات العامة عندما كان الغربيون يمتلكون زمام الأمور في كثير من البلدان

الإسلامية، وهذا هو سر وجود الكثير من نوادر المخطوطات العربية الإسلامية في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا --- وغيرها من المكتبات الأوربية[9] .

وبمرور الوقت ازدادت هذه الحركة تنظيماً وازدادت اتساعاً، وشعر العديد من روادها بضرورة وجود روابط تجمع أعضاء هذه الحركة " الحركة الاستشراقية " حتى يتم التلاقي والتشاور، وقد تم لهم ذلك عندما عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1783م وتبع ذلك عقد العديد من المؤتمرات التي تدارس فيها المستشرقون خطط عملهم، وتنظيم جهودهم بغية الوصول إلي هدفهم المنشود الذي هو حلقة من سلسلة التآمر والكيد للإسلام والمسلمين .

ومن مميزات هذه الحركة ظهور العديد من الكتب والموسوعات التي تناولت الثقافة العربية الإسلامية في مختلف نواحيها .

4. مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية 1945م :

ومن سمات هذه المرحلة الاستمرار في عقد المؤتمرات وتطوير أسلوبها وتوسيع دائرة عضويتها بالإضافة إلي الإكثار من المجلات العلمية التي تصدرها في البلدان الأوربية، كذلك اتسمت هذه المرحلة بازدياد نشاط الأقسام والدراسات الشرقية في الكثير من الجامعات الغربية[10] .

جـ . دوافع الاستشراق :

تعددت دوافع الاستشراق وتنوعت أغراضه بحسب اهتماماته وتباين مشارب واتجاهات رجاله، ففي بدايته كان الهدف ديني تبشيري النزعة، ولكن في أثناء رحلته الطويلة مرت عليه عوامل غيرت من أهدافه تبعاً لتغير هذه العوامل، حيث يبرز في تاريخ الاستشراق كل من الدافع الديني والدافع الاستعماري والدافع الاقتصادي والدافع السياسي والدافع العلمي[11] .

أولاً : الدافع الديني :

حيث كان القائمون عليه أغلبهم من الرهبان والقساوسة الذين سخرتهم الكنيسة لخدمة أهدافها. حيث بدأ الرهبان بتعلم اللغة العربية بغية فهم القرآن والإطلاع على الدين الإسلامي حتى يتمكنوا من توجيه المطاعن إلي النبي ﷺ وحتى يتمكنوا من تشويه الدين الإسلامي الذي بشر به هذا النبي، ولكي يثبتوا للمسيحيين الذين قد يهتدوا ويؤمنوا بهذا الدين، أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين عبارة عن قتلة وسفاكي دماء لا يهمهم إلا إشباع رغباتهم وملذاتهم الجسدية تنفيذاً لتعاليم دينهم الذي يبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي، كما حاول بعض المستشرقين تعلم العربية والإلمام بها لاتخاذها وسيلة للتبشير بالمسيحية بين المسلمين[12] .

ثانياً : الدافع الاستعماري :

ظهر هذا الدافع بعد فشل الصليبيين في حروبهم ضد الإسلام والمسلمين، حيث أخذوا يتحينون الفرص لاستعمار بلاد المسلمين، وقد تم لهم ذلك باستيلائهم على البلدان العربية والإسلامية في كل من آسيا وإفريقيا خاصة في القرن التاسع عشر الميلادي، وبدأوا في تشجيع الدراسات الاستشراقية التي تمكنهم من فهم أوضاع المسلمين في البلدان التي استعمروها ، حتى يتاح لهم العمل على إضعاف روح المقاومة والجهاد لدى المسلمين وبث الفرقة بينهم، وقد اتخذوا لذلك وسائل عديدة منها على سبيل المثال التشكيك في تراث المسلمين

وحضارتهم وقيمهم وعاداتهم والتبشير بحضارة الغرب والدعاية لها، كذلك محاولة التقليل من شأن اللغة العربية وذلك بإحيائهم للهجات المحلية ودراسة العامية واعتمادها بدل العربية الفصحى في كثير من الجامعات العربية والغربية[13] .

ثالثاً : الدافع الاقتصادي :

يرى بعض الباحثين في ميدان الاستشراق أن هناك دافعاً اقتصادياً وراء تشجيع الدول الأوربية للدراسات الاستشراقية، حيث يتمكنوا بواسطتها من غزو العالم العربي والإسلامي اقتصادياً والسيطرة على ثرواته الطبيعية ومؤسساته الاقتصادية وإعاقة الصناعات المحلية حتى تكون هذه المنطقة سوقاً استهلاكية لما ينتجه الغرب[14] .

رابعاً : الدافع السياسي :

بعد استقلال الأقطار العربية والإسلامية، وانتهاء عهد الاستعمار الغربي لهذه البلدان، أخذت الدول الغربية في إقامة علاقات دبلوماسية مع هذه الدول، وأقتضى التفكير الاستعماري أن يكون في قنصليات وسفارات الدول الأوربية رجال لهم باع طويل في ميدان الدراسات الاستشراقية، وذلك لكي يقوم هؤلاء الرجال بالاتصال برجال الفكر والثقافة في الأقطار الإسلامية، وذلك لبث الاتجاهات السياسية المختلفة بينهم حتى يكونوا أداة منفذة لكل مخططات الاستعمار ورغباته، فأنشئت المعاهد لتدريس اللغة العربية لبعض الدبلوماسيين والمبعوثين الذين سوف يُرسلون إلي الدول العربية والإسلامية[15] .

خامساً : الدافع العلمي :

هناك قلة قليلة من المستشرقين الذين أقبلوا على دراسة العلوم العربية والإسلامية بدافع علمي محض بهدف الاستفادة من تراث وحضارة الأمة الإسلامية ومن ثم إفادة أقوامهم بها .

وهؤلاء كانوا قليلي الأخطاء لأنهم أقبلوا على البحث بروح علمية بعيدة كل البعد عن الأهواء السياسية والعصبيات الدينية والقومية فجاءت مؤلفاتهم مصبوغة بصبغة الحقيقة العلمية، وأثبتت دراساتهم للعالم الغربي حقيقة الدين الإسلامي وأصالة حضارة الإسلام .

كما أثبتت هذه الدراسات والأبحاث زيف وافتراء بقية المستشرقين وحقدهم، وقد تضرر أغلبهم بسبب مواقفهم ، فمنهم من سجن مثل ميخائل سكوت، ومنهم من أعتقل كبرستل، ومنهم من أدى به موقفه إلي الإفلاس والسجن مثل سيمون أوكلي[16] .

وبالإضافة إلي الدوافع السابقة، هناك دوافع أخرى جانبية بعضها شخصي حيث اتخذ بعض الناس الاستشراق وسيلة للتنقل والترحال بين الأمم الإسلامية للإطلاع على حضارتها وثقافتها، ومن المستشرقين من دخل هذا الميدان " ميدان الاستشراق " استرزاقاً، ومنهم من دخله نتيجة لعدم قدرته الفكرية على الوصول إلي مستوي العلماء في العلوم الأخرى، ومنهم من دخله تخلصاً من مسئولياته في مجتمعه المسيحي .

العنصر الثالث :

أ. **أهداف الاستشراق :**

أهتم الاستشراق بدراسة اللغة العربية والإسلام، فبعد غزو الأوربيين بلاد الشرق اهتموا بدياناته ودرسوا عاداته وتقاليده وحضارته وجغرافيته .

ولكن الملاحظ أن الاهتمام والعناية بالإسلام وحضارته كان أعظم اهتمامات الاستشراق، ويمكن بشيء من الإيجاز أن نستخلص الأهداف الأخرى التي صاحبت اهتمامات الاستشراق السياسية وإن كانت كل هذه الأهداف التي سأوردها مرتبطة بعضها ببعض ومتداخلة لأنها تخدم الهدف النهائي الذي من أجله ظهرت هذه الظاهرة وفي سبيله نمت وترعرعت .

ولعل أهم هدف سعي إليه المستشرقون في فترة من فترات التاريخ، بل ولازالوا يسعون إلي وقتنا الحاضر لتحقيقه، هو محاولة إعطاء صورة مشوهة عن الإسلام كدين "مخيف" لا يستحق الانتشار. وعن الشرق كحضارة، وعن العربية كتراث وقومية، وذلك حتى يتمكنوا من خلال هذا التشويه تنفير الكثيرين ممن اشرأبت نفوسهم لتفهم الإسلام واعتناقه .

وحتى يؤكدوا للناقدين والشاكين في المسيحية نظراً لانحسار الفكر الديني وانتشار الفكر المادي في المجتمعات الأوربية، أن الإسلام لا يصلح كدين أو معتقد[17]، ثم يأتي بعد ذلك الهدف الأكبر وهو القاضي بتحطيم الإسلام من داخله عن طريق تشكيك المسلمين في كتابهم " القرآن الكريم " ونبيهم " محمد ﷺ " وتراثهم، حتى يتم فصلهم عن دينهم وتفتيت وحدتهم، لأن تمسك المسلمين بدينهم وحدة وقوة من شأنها أن تهدد الكيان الغربي، كما أنه في تمسكهم بدينهم تقدم ورقي وحضارة مادية ومعنوية من شأنها أن تؤثر في مجري الحضارة الغربية، ولذلك نجد أن دراسات المستشرقين في النصف الأول من القرن العشرين تركزت على دراسة القرآن، ونقد الشريعة الإسلامية وتراث الحضارة العربية، والهدف من كل هذا هو تكريس الشك في العقيدة والتراث الإسلاميين لكي يفقد العربي المسلم ثقته بحضارته وعطائها ويفقد الثقة بنفسه أيضاً، وبهذا يسهل على الأوربيين أحلال قيمهم وأفكارهم الجديدة محل القيم والأفكار الإسلامية المزعزعة والمشكوك فيها[18] .

ولتحقيق هذا الهدف قام المستشرقون بالخطوات التالية :

1. **التشكيك في رسالة " النبيﷺ " :**

لقد أنكر بعضهم نبوءته، ومنهم من أرجع النبوة إلي خيال ذهني كما فسروا بعض مظاهر الوحي التي كان يراها الصحابة أثناء نزول الوحي بأنها نوع من الصرع، ومنهم من قال إن محمداً أستقى كتابه من المسيحية واليهودية، ومنهم من يرى أن محمداً أستمد القرآن من كتب الأمم السابقة[19] .

وحينما يواجهون بالردود العلمية الصحيحة، لا يجد الكثير منهم إلا أن يقول إن القرآن راجع إلي ذكاء محمد وعبقريته وقوة بيانه .

2. **التشكيك في صحة السنة النبوية :**

وذلك لما تمثله من دعامة متينة في صرح الشريعة الإسلامية باعتبارها المصدر الثاني من مصادر التشريع، ويستند المستشرقون في دعوتهم هذه إلي ما دخل في رواية الأحاديث النبوية من دس وتحريف متناسين جهود العلماء المسلمين في تصحيح السنة وإثبات ما نسب إلي الرسول مما أختلف عليه .

3. **التشكيك في التراث الإسلامي العلمي والحضاري :**

فهم يرون أن الفقه الإسلامي مستمد من الفقه الروماني، كما يرون أن اللغة العربية عالة على المصطلحات الغربية، وغير قادرة على مواكبة ومسايرة التطور العلمي، بهدف أن تبقي الأمة الإسلامية تستخدم مصطلحات الحضارة الغربية وإضعاف ثقة المسلمين بتراثهم الفكري والحضاري، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا واستخدموا لذلك أذنابهم "تلاميذ الاستشراق" مثل سعيد عقل في لبنان لتمرير مخططاتهم وأهدافهم التي من بينها استخدام العامية بدل العربية الفصحى .

4. إحباط المحاولات الداعية إلي الوحدة العربية أو التضامن بين الأقطار الإسلامية حيث نادوا بإحياء حفريات التاريخ المندثر وبحثوا عن قوميات سبقت وجاءت واندثرت في التاريخ كالفرعونية والفينيقية والأشورية[20] .

ب. **الوسائل التي أستخدمها المستشرقين لتحقيق أهدافهم :**

لتحقيق الأهداف السابقة اتجه الاستشراق والمستشرقون إلي العديد من الوسائل التي من شأنها النيل من الإسلام وأهله ومنها :

1- تأليف الكتب في الموضوعات المختلفة التي تتحدث عن الإسلام والمسلمين، حيث كتبوا في الدراسات القرآنية وفي الحديث وفي الفقه والفلسفة واللغة والآداب والتصوف .

2- إصدار المجلات العلمية المتخصصة والدوريات التي تحوى الكثير من الدراسات حول المجتمعات الإسلامية ، وحول الشرق عموماً، مثل مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن، ومجلة الجمعية الشرقية الأمريكية ،

ومجلة جمعية الدراسات الشرقية بأمريكا، ومجلة العالم الإسلامي التي تعتبر من أخطر المجلات الحاقدة على الإسلام، وهي التي أنشأها عميد التبشير العالمي " صمويل زويمر " سنة 1911م .

كما توجد مجلة فرنسية تحمل نفس الاسم وتصدر بنفس الروح الحاقدة على الإسلام وأهله[21] .

3- تكالب بعض المستشرقين في النصف الأول من القرن العشرين على الوصول إلي المؤسسات العلمية في بعض البلدان العربية والإسلامية وذلك بتسلل بعضهم إلي المجامع اللغوية (كالمجمع اللغوي في مصر) الذي كان من ضمن أعضائه المستشرق " جب " والمستشرق " مارجليوت " اليهودي المتعصب ، والمستشرق " ما سينون " ، والمستشرق الدنماركي في المجمع اللغوي في دمشق .

4- عقد المؤتمرات الاستشراقية التي يتدارسون فيها كيفية تحسين خططهم وتطويرها وفق ما يستجد من ظروف جديدة في الوسط الذي يعملون فيه، وقد بدأت هذه المؤتمرات في الانعقاد منذ سنة 1873م ولا تزال تعقد دورياً إلي الآن.

5- إصدار الموسوعات الإسلامية بعدة لغات، وقد جاء هذا العمل نتيجة لتخلى القادرين من المسلمين عن كتابة مثل هذا العمل المهم والضروري لأمتنا، الأمر الذي وجد معه المستشرقون ميداناً فسيحاً لا يزاحمهم فيه أحد ، فأنشأوا دائرة المعارف الإسلامية ، وصدرت بعدة لغات .

ونتيجة لإنفرادهم بهذا العمل استطاعوا أن يبثوا في هذه الموسوعة ما شاءوا من سمومهم وأفكارهم الهدامة .

6- إمداد الإرساليات التبشيرية بما تحتاج إليه من الخبراء المستشرقين الذين يساهمون بخبراتهم في هذا المجال .

7- إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية .

8- نشر المقالات في الصحف المحلية للبلاد العربية الإسلامية ، وقد استطاعوا أن يستأجروا عدداً من هذه الصحف لنشر مقالاتهم والترويج لأفكارهم .

9- تطبيع الفكر الاستشراقي أو تشريق الشرق وذلك بالاعتماد على بعض أبناء الشرق أنفسهم ليقوموا بمهمة الاستشراق حتى يكونوا المبشرين المجهولين لتأسيس السلوك الاجتماعي والسياسي الذي يسعى إلي تحقيقه الاستشراق في البلاد العربية والإسلامية[22] .

العنصر الرابع

مناهج المستشرقين :

أ. **المنهج التاريخي :**

طبق المستشرقون عدد من المناهج العلمية على الدراسات الإسلامية، إلا أن معظم هذه المناهج لا يتفق مع ما هو معروف ومعلوم لدينا نحن كمسلمين، فمعظم المستشرقين ينكرون نبؤة الرسول " ﷺ " والوحي الإلهي الذي نزل عليه، ويعتبرون القرآن الكريم من تأليفه أو تأليف أصحابه، ولذلك نجدهم يستخدمون المنهج التاريخي لتفسير الفكر الإسلامي ومبادئه ومعتقداته، كما استخدموا أو طبقوا منهج التأثير والتأثر على الدراسات الإسلامية، حيث أرجعوا الدين الإسلامي إلي عناصر داخلية وخارجية بعيدة كل البعد عن المحتوى الإسلامي الصحيح .

وحتى المستشرقين الذين عُرفوا بحرصهم وعدم تعصبهم، نجد كتاباتهم عن الإسلام لا تخلو من مثل هذه الأفكار والمعتقدات فكراتشو فسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي يقول : " ومن الجلي أن محمداً كان رجلاً أمياً " وهذه الحقيقة تسوقنا إلي الافتراض بأن القرآن ليس منزلاً من عند الله وإنما هو عبارة عن حصيلة المعارف التي تحصل عليها الرسول "ﷺ" بطريق السماع طالما أنه أمي لا يستطيع القراءة أو الكتابة[23] .

كما لجأ المستشرقون إلي قانون المقابلة والمطابقة في النصوص وأبدعوا فيها، وقد ساعدهم على ذلك إتقانهم للعديد من اللغات القديمة والحديثة وصبرهم الدؤوب على البحث والتقصي، وكانت نتائج هذه المقابلات غالباً ما تكون صحيحة لأنها تنصب على نصوص محددة ليسهل إجراء المقابلات عليها. إلا أن هذه النتائج

العلمية التي تحصلوا عليها من هذه الطريقة لا تتفق في الغالب مع المبادئ الإسلامية والنظرة الموضوعية لأفكار العرب والمسلمين، لأنهم أي المستشرقون فسروا وحللوا هذه النصوص ليصلوا بها إلي نتائج علمية افترضوها منذ البداية، وحاولوا خلال دراستهم لها تطويعها إلي هذه الأفكار المسبقة التي لا تتفق عادة والبحث العلمي النزيه، بالإضافة إلي أن النظرة المادية للمستشرقين لجميع الظواهر الفكرية التي يدرسونها وعدم تقيدهم بالمثالية والحوافز الدينية، تدفعهم إلي سلوك مناهج تؤدي إلي نتائج لا تتفق عادة مع ما هو معروف لدينا، وما يجب الإيمان به والتسليم بصدقه مهما كانت نوعية هذه المناهج، ومهما كانت النتائج التي نتوصل إليها من خلالها، مثل ظاهرة الوحى والنبوة وتفسير بعض المعجزات[24] .

ب. **المنهج الإسقاطي :**

وهذا المنهج عبارة عن خضوع الباحث إلي هواه وعدم قدرته على التخلص من الانطباعات التي تركتها لديه بيئته الثقافية، وقد طبق المستشرقون المنهج الإسقاطي على الدراسات الإسلامية ووصلوا بتطبيقه إلي أفكار تعسفية لا علاقة لها بالتحليل العلمي السليم .

ج. **منهج الأثر :**

تأثر المستشرقون بهذا المنهج وذلك بسبب تطبيقه بصورة صارمة في بيئتهم بسبب اعتماد النهضة الأوربية على الحضارة اليونانية في تأسيسها، فكلما وجد أو أنشئ مذهب فكري أو ديني جديد، وجد له ما يقابله في الحضارة اليونانية القديمة، وبناء على هذا رُسم في أذهان المستشرقين أن كل حضارة حديثة تستمد أصولها من الحضارة اليونانية، ومن خلال هذا الحكم طبقوا هذا المنهج على الحضارة الإسلامية وحاولوا تفسير أفكارها ومناهجها طبقاً لمنهج الأثر والتأثر[25] .

العنصر الخامس :

فضل المستشرقين على المسلمين وما قاموا به من جهد لحفظ تراث الإسلام من الضياع والفناء .

إذا كنت قد ذكرت سابقاً أهداف المستشرقين عموماً وعددت الجوانب السلبية التي تغلب على أبحاثهم ودراساتهم، فمن الواجب الاعتراف وبكل صراحة ووضوح أن عدداً من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم لدراسة العلوم الإسلامية وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثر بالعوامل السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ، بل لمجرد حبهم وشغفهم للعلم .

كما أن المنهج العلمي في البحث يحتم علىّ أن أذكر الجانب الإيجابي في هذه الدراسات والذي تمثل في إحياء جانب من التراث العربي والإسلامي، والمحافظة على جانب كبير منه في المكتبات الأوربية بغض النظر عن الأهداف التي حفظ من أجلها هذا التراث، وتمثل كذلك في إنشاء الغربيين منذ القرن الرابع عشر الميلادي مدارس لتعليم اللغة العربية في جامعاتهم، ونشأ عن ذلك الرغبة في تداول الكتب العربية واقتنائها والتنافس في الاحتفاظ بالآثار التي أنتجتها القرائح العربية، وبفضل جهود هؤلاء المستشرقين، برزت كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون عديدة إلي النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين ومن عاهة الأرضة[26] ،فالغربيون جمعوا في كل دولة وصلوا إليها معظم نفائس المخطوطات

العربية واهتموا بها اهتماماً كبيراً فرتبوها ونشروا فهارسها وأخرجوا بعضها مطبوعاً، واحتفظوا بالبعض الآخر مفهرساً مبوباً بدقة فائقة، وهذه بالطبع خدمة جليلة للتراث العربي، لأننا نحن العرب لم نستطع القيام بهذه المهمة، فلولا جهود هؤلاء المستشرقين لضاع جزء كبير من تراثنا بين عابث لا يعرف قيمته وغير مبال لا يهمه بقيت هذه النفائس أو ضاعت، ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنعني شيء من أن أصرح بأن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية، وفي الحضارة والتاريخ الإسلامي وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية[27] .

العنصر السادس :

الاستشراق الألماني :

أ. **بداياته وأسبابه :**

ترجع علاقة ألمانيا بالعالم الإسلامي إلي زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد وشارلمان إمبراطور المانيا، حيث تبادلا الهدايا والسفراء، وكذلك في زمن الحروب الصليبية التي حدثت في القرن الثاني عشر الميلادي، لكن الدراسات الشرقية في ألمانيا تأخرت بعض الشيء عن سائر الدول الأوربية الأخرى وذلك بسبب بعد ألمانيا جغرافياً عن العالم الإسلامي مقارنة بإيطاليا وإسبانيا، كما أنها لم تستعمر أي دولة إسلامية أو عربية، بل ولم تحاول ذلك مثل فرنسا وبريطانيا، ولذلك نجد أن الدراسات العربية الإسلامية لم تنشط في ألمانيا إلا في القرن الثامن عشر الميلادي .

والملاحظ على الاستشراق الألماني أنه بدأ في أول أمره بدافع ديني، إلا وهو ترجمة التوراة حيث كان ذلك يتطلب معرفة اللغة العبرية التي هي إحدى اللغات السامية كاللغة العربية، وكان الألمان يعتقدون أن معرفة اللغة العربية يساعدهم على فهم اللغة العبرية، وقد تزايد هذا الاهتمام على زمن مارتن لوثر صاحب المذهب البروتستانتي، وكان أول عالم ألماني بدأ بمحاولة تدريس اللغة العربية ونشرها في ألمانيا هو " ياكوبكريستمان " (1554 – 1613م) ، حيث وضع فهرساً موجزاً لمجموعة المخطوطات التي كانت في حوزة أحد النبلاء الألمان، كما وضع كراساً لتعليم كتابة الحروف العربية[28] .

ب. **مميزات الاستشراق الألماني :**

أتصف الاستشراق الألماني بعدد من الصفات التي ميزته عن سائر الدول الأوربية الأخرى ، ومن هذه الميزات ما يأتي :

1. لم يكن ظهور الاستشراق الألماني نتيجة لأهداف أو غايات سياسية أو استعمارية، لأن ألمانيا لم يتح لها أن تستعمر أي بلد عربي أو إسلامي، كما أنه لم تكن له أي أهداف دينية أو تبشيرية لأن ألمانيا لم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق وحتى إن حاولت ذلك فالإنجليز والفرنسيين لم يتركوا لها حرية العمل في هذا الميدان .
2. سيطرة الروح العلمية وتقصى الحقائق على الدراسات الشرقية في ألمانيا لأنها تنبع بالدرجة الأولي من رغبة علمية، ولذلك اتسمت كتاباتهم ودراساتهم بالموضوعية والتجرد، وابتعدت في أغلبها عن الهوى والأهداف السياسية والدينية .

3. يلاحظ على الاستشراق الألماني أن دراساته عن العرب والمسلمين لم تتصف بالعدائية، ولم يتعمد أغلب المستشرقين الألمان الدس أو التشويه فيما يتعلق بالدراسات الإسلامية، بل على العكس من ذلك فقد رافقت دراساتهم روح الإعجاب والتقدير وإنصاف الإسلام وأهله، ووصل الأمر أن اعتنق بعضهم الإسلام .

وقدم الاستشراق الألماني للعرب والمسلمين خدمات جليلة خاصة فيما يتعلق بنشر النصوص القديمة وفهرسة المخطوطات العربية والاهتمام بالمعاجم العربية وبالدراسات المختلفة في شتي ميادين الثقافة الإسلامية[29] .

ومع هذا فقد وجد بعض المستشرقين الألمان الذين تحاملوا على العرب وحضارتهم ودينهم، ولكن هؤلاء في الغالب كانوا يفعلون ذلك بسبب الجهل وليس التعمد، إذ أن أغلب هؤلاء لم يفهموا اللغة العربية والحضارة الإسلامية والدين الإسلامي كما ينبغي .

4. أيضاً من مميزات هذا الاستشراق الاهتمام بكل ما هو قديم وخاصة ما يتعلق بالتراث العربي والإسلامي، ومن مميزاته كذلك استخدام المنهج العلمي الدقيق الذي يعتبر عند بعضهم مثالاً نادراً يحتذى به .

5. الميزة الأخرى التي ميزت الاستشراق الألماني عن غيره هي اهتمامه باللغات الشرقية عموماً وذلك راجع لاهتمامهم بعلم اللاهوت[30] .

ومن مزايا المستشرقين الألمان بوجه عام : الدأب المتواصل والنشاط الحثيث في كل ما يباشرون من أعمال مع بناء آخرهم على الأسس التي وضعها أولهم .

وهكذا تقدم العلم (علم الاستشراق) على أيديهم خطوات ظاهرة ملموسة في كل ما كتبوا على مر الأجيال[31] .

ج. أهم ميادين الاستشراق الألماني :

1. نشر النصوص القديمة :

فقد ظهرت النصوص العربية القديمة محققة بفضل عناية الألمان، فمنذ القرن الثامن عشر نشر حقق المستشرق الألماني رايسكه معلقة طَرَفة بن العبد بشرح بن النحاس مع ترجمتها إلي اللاتينية عام 1742م ثم أزدهر نشر النصوص في القرن التاسع عشر الميلادي، حيث نشرت المئات من النصوص القديمة في الشعر واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والحساب والجبر والفلك والطب، وكان مجموع ما نشره الألمان من النصوص يفوق ما نشره الفرنسيون والإنجليز معاً، وقد ضرب بعض المستشرقين الألمان مثالاً نادراً في تحقيق النصوص من حيث العدد، ومن حيث الدقة .

2. فهرسة المخطوطات العربية سواء الموجودة في المكتبات الألمانية أو في مكتبات العالم، وكان كريستمان أول من وضع فهرساً لمخطوطة عربية كانت بحوزة النبلاء الألمان كما سبق ذكره .

كما وضع " اللورد " فهرساً للمخطوطات العربية الموجودة في جامعة برلين بلغ حجمه عشرة مجلدات ضخام، وصنف فيه ما يقرب من عشرة ألاف مخطوط، ووضع " زيبولد " الجزء الأول من فهرس مخطوطات جامعة " توبنجن " ووضع " فايسفايلد " الجزء الثاني من هذا الفهرس ، أما " فلايشر " فقد وضع فهرساً للمخطوطات الشرقية في مكتبة " درسدن الوطنية " تضمن حوالي 454 مخطوط ، وغير هؤلاء كثير .

أما في باب الإرشاد إلي المخطوطات العربية في العالم نجد كتاب " كارل بروكلمان " الذي عنوانه " تاريخ الأدب العربي " ذلك الكتاب الذي يدل على عظمة مؤلفه وقوة إرادته ومثابرته وصبره، حيث يعتبر هذا المستشرق فخر الاستشراق الألماني[32] .

3. **الاهتمام بالمعاجم العربية :**

وهو أحد الميادين التي عُني بها الاستشراق الألماني، حيث وضع " يعقوب يوليوس " أول معجم عربي لاتيني، ثم وضع " فراتياغ " معجماً مثله وحل محله، كما أضاف " نولدكة " بعض الهوامش على نسخة " فرايتاغ " أهتم بها جورج كريمر، ونشر منها كراستين فيهما حرف الألف، كما وضع " فيره " معجمه العربي الألماني الذي قصره على الألفاظ العربية المستعملة في عصرنا الحاضر في الصحف ومؤلفات الكتّاب الحديثة، مهملاً الألفاظ القاموسية أو الأدبية التي ماتت ولا تستعمل الآن، وقد نقل هذا المعجم إلي الإنجليزية وأصبح مرجعاً لكل مستشرق وعالم .

4. بالإضافة إلي هذه الميادين فقد اهتم المستشرقون الألمان بالدراسات المختلفة في مختلف ميادين الثقافة الإسلامية كدراسة " رايسكه " عن التاريخ الإسلامي ودراسة " فوك " عن اللغة واللهجات والأساليب ، ودراسة " شاخت " في الفقه الإسلامي .
5. أهتم الألمان كذلك بالمجلات الاستشراقية، حيث أصدروا "مجلة الإسلام" و "مجلة الدراسات الإسلامية " و " مجلة عالم الشرق " .
6. تتبعوا أحوال العالم العربي المعاصرة ودرسوها من النواحي الفكرية والسياسية والاقتصادية، كما درسوا الاتجاهات الجديدة والتيارات الفعالة، كما درسوا اللهجات العامية خاصة بعد الحرب العالمية الثانية[33] .

العنصر السابع :

نبذة مختصرة عن بعض المستشرقين الألمان وما أسهموا به في مجال الدراسات الإسلامية .

أ. **جورج يعقوب** (Georjacob) (1862 – 1937م) :

ولد ياكوب في السادس والعشرين من شهر مايو 1862م، في مدينة كينكز بيرغ (Kanigs berg) وفقد والده في سن مبكرة ، وعاش مع والدته وإخوته دون أن يفكر في الزواج .

بدأ دراسته ككثير من معاصريه متخصصاً في علم اللاهوت والاستشراق، ثم ما لبث أن اتجه بصورة أقوى لدراسة علوم اللغات الألمانية، وعلم أخلاق الشعوب بدلاً من اللاهوت، ودرس في ستراسبورغ (Stars Borg) على يدي أستاذه تيودور نولدكه وعلى يدى هاينريش ليبرشن فلايشر وتعمق في دراسة النحو العربي، كما تلقي دروساً في اللغة الفارسية وهو في أرلنجن عندما كان يؤدى خدمته العسكرية، حيث تتلمذ على يدى أشبيجل (Spiegl)، ثم وجهه فليشر إلي الاهتمام بلغات الإسلام الثلاث الرئيسية وهي العربية والفارسية والتركية[34] .

نال الدكتوراه الأولي من جامعة ليبنسك برسالة عن تجارة العرب الشمالية البلطيقية وذلك في عام 1887م، وكان قبل ذلك بعام واحد قد نشر مقالة عن السلع التي يشتريها العرب من بلاد الشمال والبلطيق، ثم

أهتم بدراسة العلاقات بين البلاد العربية وألمانيا، ومن أفضل أعماله المقالات التي نشرها حول رواية عربي عن فولدا دشليد فيج وزدستوباديوين، ومدن ألمانية أخرى التي نشرت لأول مرة عام 1890م ، وأعيد طبعها عدة مرات[35] .

وبعد حصوله على الدكتوراه الأولي عين موظفاً في مكتبة الدولة في برلين، ثم قدم بحث درجة الكفاءة للتدريس في الجامعة في كرايفزفالد تحت إشراف " آلفارد " مؤلف الفهارس الكبيرة الخاصة بالمخطوطات العربية في برلين ، وبتأثير من الفارد اتجه إلي دراسة الشعر العربي القديم، ثم سافر إلي تركيا وهناك أتيح له فرصة مشاهدة ألعاب الظل أثناء شهر رمضان فدفعه ذلك إلي دراسة تاريخ فن خيال الظل في الإسلام، وتمخضت تلك الدراسة عن كتابه المشهور " تاريخ مسرح خيال الظل في الشرق والغرب " الذي صدر عام 1925م .

وفي فترة إقامته في كرابزفالد ظهر كتاب عن "حياة البدو في الجاهلية" ، وفي عام 1896م ، عين مدرساً مساعداً في جامعة هاله (Halle) ثم عين في عام 1901م أستاذاً مساعداً في جامعة بيرلانجن ، ثم صار بعد ذلك أستاذ كرسي وفي عام 1911م انتقل إلي جامعة كيل خلفاً لجيورجهوفمن، وهناك قام بإلقاء محاضرات في العهد القديم من الكتاب المقدس إلي جانب دروسه في الإسلام واللغات الإسلامية .

واهتم جيورج يعقوب منذ بداية أبحاثه بالعلاقة بين الشرق والغرب، وتأثير الشرق في الغرب، ومن هنا جاء اهتمامه بدراسة التجارة بين العرب وشمال أوربا ، ونشر دراسات عن الجغرافيين العرب المسلمين ، ودراسات عن الشعراء العرب ، كما اهتم بدراسة الطرق الصوفية في تركيا وعلى رأسها الطريقة البلتاشية ، كما أهتم بالشعر الفارسي وترجم إلي الألمانية قصائد لحافظ الشيرازي بعنوان " الاتحاد الصوفي " .وكانت وفاته في اليوم الرابع من شهر يوليو عام 1937م[36].

ب. **يورج كريمر** (Kraemer Jorg)(1917 – 1961م) :

هو أحد المستشرقين الألمان الذين اهتموا باللغة العربية وبالمعاجم العربية بصورة خاصة، عين أستاذاً في جامعة توبنجن عام 1950م ، ومن أهم الدراسات التي كتبها ، وكلها باللغة الألمانية :

1. عرض ما جمعه بثودورنولدكة لتتمة القواميس العربية، حيث نشر ملزمتين في عامي 1952م – 1954م ، تحتويان على حرف الألف و سمى هذا القاموس بقاموس بثودورنولدكة للغة العربية الفصحي.
2. انكسار أو سقوط مملكة الصليبيين في القدس عام (583هـ/ 1178م) ، حسب وصف عماد الدين الكاتب الأصفهاني .
3. دراسات في علم اللغة والقواميس العربية القديمة .
4. مقالة منفصلة عن تقارير مجمع العلوم النمساوي بعنوان النقوش العربية في جامع " قره كوي " بالقرب من بولو في تركيا ، وكان كريمر يتقن اللغة العربية نطقاً وكتابة[37] .

ج. **كارل بروكلمان** :

ولد كارل بركلمان في السابع عشر من شهر سبتمبر عام 1868م ، وكانت عائلته ميسورة الحال من طبقة التجار، ويعزى ميوله العلمية إلي والدته التي عرفته بكنوز الأدب الألماني[38] .

درس بروكلمان اللغة العربية على يدى نولدكة وبرع فيها وحقق شهرة واسعة بما ألفه من كتب وأبحاث تناولت تاريخ الأدب العربي ، وقد توطدت شهرته بفضل كتابه الضخم " تاريخ الأدب العربي " حيث تضمن هذا الكتاب تراجم ومصادر لكل ما كتب باللغة العربية من أدب وفقه وطب وعلوم ورياضيات --- وغيرها .

كما تناول جميع المؤلفات والمخطوطات وبين أماكن وجودها، وأعطى نبذة موجزة عن كل مؤلف، وقد صدر الجزء الثاني منه في عام (1898م) ، وفي عام 1902م ، صدر المجلد الثاني ثم أضاف إلي هذا الكتاب مجلدين ملحقين صدرا عام (1937م وعام 1938م) ، وفي عام (1942م) ، صدر ملحق ثالث تناول فيه تاريخ الأدب العربي الحديث ابتداءً من عام (1882م) ، وقد أعيد طبع المجلدين الأولين في عام 1943م وفي عام (1949م) ، وقد نقل هذا الكتاب إلي العربية في ثلاثة أجزاء، وقام بترجمته الدكتور عبد الحليم النجار بتكليف من جامعة الدول العربية ونشرته دار المعارف بمصر .

كان بروكلمان عالماً بجميع اللغات السامية بالإضافة إلي العربية، وذلك بفضل ذاكرته الخارقة وَجلَده ورغبته في تعلم اللغات، حيث وضع كتاب اللغات السامية، كما وضع كتاباً في قواعد اللغة السريانية وكتاب " موجز قواعد اللغات السامية المقارنة "، كما ألف كتاب " تاريخ الشعوب والدول الإسلامية " الذي ظهر في سنة 1939م، ونشر قسماً من كتاب عيون الأخبار لأبن قتيبة، وعمل على مؤلف أبن سعد، وألف المعجم السرياني بالإضافة إلي عدد كبير من الأبحاث والمقالات، وقد خدم بروكلمان الحضارة الإسلامية كما لم يفعل جيل من العلماء[39] .

د. **مورتس** (Bernhardorlts) :

وهو أحد المستشرقين الألمان، عمل أمين مكتبة لسمينار ببرلين فترة طويلة، وصار في 1896م مديراً لدار الكتب المصرية بالقاهرة واستخرج من مخطوطاتها (188) لوحة فوتوغرافية تمثل مختلف الخطوط ، وأصدرها في مجلد بعنوان " الخطوط العربية " عام 1906م ، وتجول مورتس في العالم العربي كله من العراق حتى مراكش، وأهتم بالجغرافيا التاريخية، ومن ثمار هذا الاهتمام صدور كتاب عن " جزيرة العرب " أصدره سنة 1923م تضمن هذا الكتاب دراسات قيمة وثمينة عن الجغرافيا الطبيعية والتاريخية لشبه الجزيرة العربية، كما أصدر مورتس في عام 1892م مجموعة من الكتابات العربية المأخوذة من عُمان وزنجبار[40] .

الخلاصة :

إن علم الاستشراق هو أحد العلوم الإنسانية التي لا تتصف بصفة الثبات والديمومة أو بمعنى أخر هو عبارة عن ظاهرة ، ظهرت ونمت وازدهرت نتيجة لظروف معينة ولأهداف محددة .

وبالرغم من اختلاف الباحثين في بدايات الاستشراق إلا أنه مر في تاريخه بعدة مراحل منها :

مرحلة إقبال الأوربيون على الحضارة الإسلامية ومحاولة الاستفادة منها قدر الإمكان وذلك في فترة العصور المظلمة التي كانت أوربا فيها في مرحلة ركود ، ثم مر هذه العلم بمرحلة أخرى أهدافها ودوافعها تختلف عن الأولي ، وهي مرحلة ما بعد الحروب الصليبية حيث بدأ الأوربيون يفكرون في السيطرة على الفكر الإسلامي والانتصار على المسلمين فكرياً بعد أن فشلوا في ذلك عسكرياً ، أما المرحلة الثالثة وهي ما يعرف بمرحلة التنظيم الفعلي حيث تبنت الدول الأوربية الاستشراق وسخرت كل إمكانياتها لخدمة المستشرقين وتوفير

كل الوسائل التي تساعدهم في إنجاز مهامهم، حيث كان الهدف من هذه المرحلة هدف استعماري وكان دور المستشرق فيها إمداد المستعمرين بما يحتاجون من معلومات تسهل لهم عملية استعمار البلدان الإسلامية، كذلك من مهام الاستشراق في هذه المرحلة دراسة أوضاع الأقطار الإسلامية، ونقل كنوز العلم والمعرفة التي كانت في هذه البلدان إلي مكتبات الدول الأوربية سواء بالشراء أو السرقة، وهذا ما يؤكده وجود أغلب المخطوطات العربية والإسلامية في مكتبات أوروبا .

وتعددت دوافع الاستشراق واختلفت، فمرة كان الدافع دينياً، وتارة كان سياسياً ، وأخرى اقتصادياً أو استعمارياً، كما أن اهتمام المستشرقين بتعلم اللغة العربية وبالعلوم الإسلامية ودراستها لم يكن بهدف علمي محض، وإنما كانت هناك غايات وأهداف سعى إليها كثير من المستشرقين ألا وهي تشويه الإسلام وإظهار المسلمين بمظهر المتخلف، ولمحاولة تشكيك المسلمين أنفسهم في صحة الرسالة النبوية وذلك عن طريق تفسيرهم لظاهرتي الوحي والنبوة إلي عوامل أخرى بعيدة كل البعد عما هو معلوم لدينا.

كذلك سعى المستشرقون إلي التشكيك في التراث الإسلامي العلمي والحضاري، وذلك بإرجاعهم هذا التراث إلي الرومان واليونان وإصرارهم على أن المسلمين لم يأتوا بجديد في مجال العلم والحضارة وإنما هم مجرد نقله للتراث اليونان والرومان، وقد استخدم المستشرقون عدد من الوسائل لتحقيق هذه الأهداف منها : تأليف الكتب التي تتحدث عن الإسلام والمسلمين من وجهة نظرهم وإصدار المجلات العلمية وعقد المؤتمرات الاستشراقية ، وإمداد الإرساليات التبشيرية بما تحتاج إليه من الخبراء .

والأهم من كل ذلك هو محاولة تطبيع الفكر الاستشراقي وذلك بتسخير بعض أبناء الشرق لخدمة الغرب وتبني ثقافته وحضارته والعمل على نشرها بين المسلمين .

وحاول المستشرقون تطبيق عدد من المناهج على الدراسات الإسلامية كالمنهج التاريخي ، ومنهج الأثر والتأثر ، والمقابلة والمطابقة ، والمنهج الإسقاطي ، بالرغم من أن هذه المناهج ينقصها المنهج العلمي البحث ، ولا تتفق في الغالب مع ما هو معروف لدينا نحن المسلمين .

ومع كل هذا ، فمن الواجب الاعتراف بأن هناك عدد من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم لخدمة العلوم الإسلامية بدون أي تأثيرات ، لأي عامل سياسي كان أو اقتصادي أو ديني بل كان الدافع العلمي هو المحرض على ذلك .

كما أن الواجب يحتم علينا الإقرار بأفضال المستشرقين الذين نقبوا وجمعوا وأظهروا المعارف الإسلامية ، وحافظوا عليها وصانوها من التلف والضياع .

والله ولي التوفيق

هوامش البحث :

1. محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، دار قتيبة (بيروت، 1990م) ، ص ص41،43 .
2. ساسي سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، (مالطا ، 1991م) ، ص20 .
3. مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، دار الإرشاد (بيروت ، 1970م) ، ص5 .
4. سالم حمّيش : الاستشراق في أفق انسداده ، المجلس القومي للثقافة العربية ، (الرباط ، 1991م) ، ص7 .
5. ميشال جحا : الدراسات العربية الإسلامية في أوربا ، معهد الإنماء العربي (بيروت ، 1982م) ، ص17 .
6. نجيب العقيقي : المستشرقون ، دار المعارف (القاهرة ، 1965م) ، ص16 .
7. محمد ياسين عريبي : الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي ، نقد العقل التاريخي ، المجلس القومي للثقافة العربية (الرباط ، 1991م) ، ص143 .
8. الزيادي : انتشار الإسلام ، ص47 .
9. جحا : الدراسات العربية ، ص19 .
10. الزيادي : انتشار الإسلام ، ص52 .
11. محمد عبدالكريم الوافي : مقدمة كتاب الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر ، لمؤلفه البارون الفونسو روسو ، منشورات جامعة قاريونس ، (بنغازي ، 1992م) ، ص13 .
12. جحا : الدراسات العربية ، ص20 .
13. العقيقي : المستشرقون ، جـ3 ، ص1149 .
14. الزيادي : انتشار الإسلام ، ص57 .
15. جحا : الدراسات العربية ، ص20
16. العقيقي : المستشرقون ، ص1149 .
17. الزيادي : انتشار الإسلام ، ص61 .
18. مصطفي نصر المسلاتي : الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين ، دار اقرأ للطباعة والنشر (طرابلس ، 1986م) ، ص266 .
19. كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة / نبيه فارس وأخر ، دار العلم للملايين (بيروت ، 1979م) ، ص34 .
20. المسلاتي : الاستشراق السياسي ، ص ص265 ، 266 .
21. الزيادي : انتشار الإسلام ، ص64 .
22. المسلاتي : الاستشراق السياسي ، ص268 .
23. أغنا طيوس يوليا نوفتشكراتشكو فسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الثاني ، ترجمة / صلاح الدين عثمان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الدول العربية (القاهرة ، 1957م) ، ص873 .
24. الحاج : الظاهرة الاستشراقية ، ص ص197 ، 204 .
25. نفس المرجع والصفحة .
26. الشيخ أبي الحسن علي الحسني الغزوي : الإسلام والمستشرقون ، عالم المعرفة ، (جدة ، 1985م) ، ص16 .

27. الزيادي : انتشار الإسلام ، ص71 .
28. جحا : الدراسات العربية ، ص ص125 ، 186 .
29. صلاح الدين المنجد : المستشرقون الألمان ، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية ، دار الكتاب الجديد (بيروت ، 1982م) ، ص ص7 – 10 .
30. جحا : الدراسات العربية ، ص107 .
31. محمد يوسف موسي : مقدمة كتاب رد العربية للمستشرق الألماني يوهانك ترجمة / عبدالحليم النجار ، دار الكتاب العربي (القاهرة ، 1951م) ، ص صم ، ت ، ص .
32. المنجد : المستشرقون الألمان ، ص ص8 ، 10 ، 11 .
33. نفس المرجع ، ص ص11 ، 12 .
34. عبدالرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين (بيروت ، 1989م) ، ص45 .
35. المنجد : المستشرقون الألمان ، ص105 .
36. بدوي : الموسوعة ، ص436 .
37. صلاح الدين المنجد : المنتقي في دراسات المستشرقين ، جـ1 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، 1955م) ، ص ص225 ، 226 .
38. المنجد : المستشرقون الألمان ، ص157 .
39. جحا : الدراسات العربية ، ص ص206 ، 207 .
40. بدوي : الموسوعة ، ص402 .

قائمة المراجع :

- **ابن نبى** ، مالك : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، دار الارشاد (بيروت ، 1970م) .
- **بدوي** ، عبدالرحمن : موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين (بيروت ، 1989م) .
- **بروكلمان** ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلي العربية نبيه فارس وآخر ، دار العلم للملايين (بيروت ، 1979م) .
- **جحا** ، ميشال : الدراسات العربية والإسلامية في أوربا معهد الإنماء العربي(بيروت ، 1982م) .
- **الحاج** ، ساسي سالم : الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، مركز دراسات العالم الإسلامية (مالطا ، 1991م) .
- **حمّيش** ، سالم : الاستشراق في أفق أنسداده المجلس القومي للثقافة العربية (الرباط،1991م) ,
- **الزيادى** ، محمد فتح الله : إنتشار الإسلامية وموقف المستشرقين منه، دار قتيبة (بيروت ، 1995م)
- **عريبي** ، محمد ياسين : الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي نقد العقل التاريخي ، المجلس القومى للثقافة العربية (الرباط ،1991م) .
- **العقيقي** ، نجيب : المستشرقون ، دار المعارف (القاهرة ، 1965م) .
- **كراتشكوفسكى** ، أغنا طيوسيوليانوفتش : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الثاني ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الدول العربية (القاهرة ، 1957م) .
- **المسلاتي** ، مصطفي نصر : الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين ، دار إقرأ للطباعة والنشر والترجمة والخدمات الاعلانية (طرابلس ، 1986م) .
- **المنجد** ، صلاح الدين : المستشرقون الألمان وما أسهموا به في الدرسات العربية ، دار الكتاب الجديد (بيروت ، 1982م) .
- المنتقي في دراسات المستشرقين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، 1955م) .
- **موسى** ، محمد يوسف : مقدمة كتاب العربية ليوهان فوك ترجمة عبدالحليم النجار ، دار الكتاب العربي (القاهرة ، 1995م) .
- **النزوى** ، أبي الحسن علي الحسنى : الإسلام والمستشرقين ، دار عالم المعرفة ، (جدة ، 1985م) .
- **الوافى** ، محمد عبدالكريم : مقدمة كتاب الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتي أحتلال فرنسا للجزائر لمؤلفه البارون الفونصو روسو ، ترجمة وتحقيق ، محمد عبدالكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي ، 1992م) .

سياسة محمد علي الداخلية في مصر 1805 – 1840 م

إعداد :

د .اوريدة صالح محمد صالح

جامعة بنغازي

ملخص البحث

يتناول البحث مقدمة بسيطة عن الأوضاع السياسية في مصر خلال فترة الفوضى التي صاحبت خروج الفرنسيين من مصر حتى وصول محمد علي للحكم, إضافة إلى إعطاء نبذة مختصرة عن شخصية محمد علي, وقد قسم البحث إلى خمسة عناصر كان أولها سياسة محمد علي في الجانب الإداري, حيث تم تقسيمها إلى سبعة دواوين كمحاولة منه لإصلاح النظام الإداري في مصر, أما العنصر الثاني تناول سياسة محمد علي في المجال الزراعي بقيامه بإلغاء نظام الالتزام وإدخال العديد من المحاصيل الزراعية التي يمكن الاستفادة منها في مجال الصناعة والتجارة مثل القطن, أما العنصر الثالث تناول سياسة محمد علي في مجال التجارة وذلك عن طريق دعمها بالمنتجات الزراعية والصناعية المحلية كي تقيم عليها تجارة داخلية وخارجية وتناول العنصر الرابع سياسة محمد علي في مجال الصناعة وخاصة صناعة الغزل والنسيج التي كانت تقوم على القطن المحصول الزراعي إضافة إلى التركيز على الصناعات التي تهم الجيش, والعنصر الخامس تناول سياسة محمد علي في مجال التعليم وقيام محمد علي بالنهوض بالتعليم من تعليم ديني بسيط إلى إدخال التعليم الحديث وإقامة المطابع كي يتم نشر التعليم إضافة إلى إرسال العديد من الطلاب لاستكمال دراستهم بالخارج, إضافة إلى ذلك فقد ذيل البحث ببعض النتائج الهامة التي توصل إليها الباحث. كذلك تضمن قائمة لأهم المصادر والمراجع التي تم الاستعانة بها في البحث .

Abstract :

The internal policy of Mohammed All in Egypt (1805-1840)

This research includes a simplified introduction So the political situation In Egypt during the period of chaos that accompanied the departure of the French from Egypt unto Mohammed All came to power, as well as o brief overview of Mohammed Ali's personality.

The research was divided Into five elements: the first on Mohammed Ali’s policy in the administration, which Included seven departments, an attempt to reform Mohammed Ali's management system in Egypt. the second on agriculture and Mohammed All’s policy on agricultural reform. It can be used in industry and trade such as cotton.

The third component of the policy of Mohammed All In trade and support with local agricultural and industrial production to stimulate domestic and foreign trade.

The fourth element of Mohammed Ali's work in Industry is textile and cotton-based textiles, as well as industries of interest 10 the army.

The fifth element of Mohammed Ali's interest In education, from the development of the teaching of religion only to modem education and the existence of printing presses, as was the sending of scientific missions for students to learn outside the country, and the research reached some results and the most recent list of references and books Important in the completion of research.

سياسة محمد علي الداخلية في مصر 1805 –1840م

يتناول موضوع الدراسة سياسة محمد علي الداخلية في مصر 1805 – 1940م تلك الحقبة المهمة والتي هي فترة بناء مصر الحديثة حيث يعتبر محمد علي هو مؤسس وباني مصر الحديثة، ونظرا لأهمية هذا العهد في تاريخ مصر الحديثة، يجب علينا إماطة اللثام عنه لمعرفة التطورات التي حدثت في جميع الجوانب الداخلية سواءً كانت إدارية أو زراعية أو صناعية أو تجارية أو تعليمية، وشهدت هذه الفترة 1805 –1840 م المشرقة من تاريخ مصر السياسي العديد من التحولات والتغيرات الهامة التي كانت هي اللبنة الأساسية في بناء مصر الحديثة، وقد ارتبط وصوله للحكم في مصر بالعديد من الأحداث الزاخرة التي مرت بها مصر بعد خروج الحملة الفرنسية منها، وأعني بذلك الفترة التي سبقت وصول محمد علي للحكم في مصر بفترة بسيطة 1801– 1805 م، هذه الفترة وما دار بها من صراع أدي في نهاية المطاف إلي وصول محمد علي للحكم، واستطاع النهوض بشؤونها في جميع المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، ونظراً لأهمية هذه الفترة الزمنية من تاريخ مصر الحديثة ،وجدت من الضرورة بمكان دراسة هذا الموضوع لأنه يمثل البداية الحقيقية لتاريخ مصر الحديثة، وقد دعتني عدة أسباب لدراسة هذا الموضوع منها شغفي واهتمامي بدراسة التاريخ الحديث وبالأخص هذه الحقبة التي تعتبر هي النواة الأساسية لتأسيس مصر الحديثة، إضافة إلى أهمية مصر الاقتصادية وثقلها في منطقة المشرق العربي، كما شدني مدى التطور العلمي الذي وصلت إليه مصر خلال تلك الحقبة، والهدف من هذه الدراسة هو إبراز أهمية سياسة محمد علي الداخلية في مصر ومدى التطور الذي وصلت إليه وكشف ملابساتها وتناقضاتها، وذلك حرصاً على استكمال الصورة التاريخية، وقد اتبعت المنهج السردي التحليلي الذي يعنى بجمع المادة التاريخية وتبويبها وتحليلها للوصول إلى النتائج العلمية المطلوبة، وقد قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد حمل عنوان الأوضاع العامة في مصر 1801 – 1805 م، وخمسة عناصر على النحو التالي، أولاً، النظام الإداري في عهد محمد علي. ثانيا، سياسة محمد علي في مجال الزراعة. ثالثاً، سياسة محمد علي في مجال التجارة. رابعاً، سياسة محمد علي في مجال الصناعة. خامساً، سياسة محمد علي في مجال التعليم. والخاتمة ، وقائمة المصادر والمراجع .

الأوضاع العامة في مصر خلال الفترة 1801–1805 م :

قبل الخوض في الحديث عن سياسة محمد علي الداخلية في مصر خلال هذه الفترة يجب علينا أن نعطي نبذة مختصر عن الأوضاع السياسية في مصر خلال الفترة من 1801 –1805 م، فبعد خروج الفرنسيين من مصر بقي في مصر جيش بريطاني بقيادة الجنرال هتشنسون، وجيش تركي في القاهرة بقيادة الصدر الأعظم بقيادة يوسف باشا وجيش تركي آخر في الدلتا بقيادة قبطان باشا الذي كان يرأس البحرية العثمانية الموجودة في مصر وكان الانجليز يريدون تنفيذ الاتفاق الذي ابرموه مع الدولة العثمانية، وهي اتفاقية

دفاع إلى جانب الباب العالي، وكانوا يهدفون إلى إعادة السيطرة العثمانية على مصر[1] كما كانت عليه قبل الاحتلال الفرنسي عام 1798م، أو بمعنى آخر كان هدف البريطانيين هو إيجاد حكومة قوية في مصر تستطيع أن تدافع عن البلاد وتحميها ضد الفرنسيين، غير أن بريطانيا وجدت أن كل من العثمانيين والمماليك ليست لديهم المقدرة الكافية لتحقيق ذللك الهدف، ومن ثم فأنها أرادت أن تتدخل في الشئون السياسية لمصر بشكل فعال خلال هذه الفترة.[2]

عليه فإنه يمكن القول أن الأوضاع السياسية في مصر خلال هذه الفترة كانت محط نزاع وصراع قوي بين كلا من العثمانيين والمماليك والانجليز ومحمد علي، وبالنسبة للعثمانيين فإنهم رأوا بأن الفرصة أصبحت سانحة لهم لإعادة نفوذهم على القطر المصري بعد خروج الفرنسيين [3].

كان هدفهم كما هو معروف هو إعادة البلاد إلى الحظيرة العثمانية، ولكن كانت العقبة الكبرى أمام تحقيق أهداف العثمانيين هي قوة المماليك، ومن ثم قد حدثت عدة مناوشات بين المماليك والعثمانيين في عهد الوالي العثماني محمد خسرو، غير أن المماليك تمكنوا من الاستحواذ على السلطة في الفترة ما بين 1802 – 1805م بمساعدة الانجليز[4]الذين مكنوهم من التغلب على القوة العثمانية في جهات دمنهور في عام 1802م إلا أن المماليك لم يستطيعوا إعادة نفوذهم بشكل قوي على البلاد نظرا لصراعاتهم الداخلية وذلك بسبب قلة عددهم وانهيار معنوياتهم بسبب الضربات الفرنسية، وانقسامهم إلى فئات متصارعة كفئة محمد الألفي الذي تعاون مع الانجليز، وفئة عثمان البراديسي الذي تعاون مع الفرنسيين [5].

كان الصراع على أشدة بين هاتين الفئتين بعد عام 1802م، أما الانجليز فقد حاولوا أن يتدخلوا في الشئون السياسية في مصر من أجل حماية مصالحهم وأهدافهم الاستراتيجية والعسكرية، فقدموا المساعدة العسكرية لمحمد الألفي آملين بأن يعود بالبلاد إلى قوتها السابقة وأن يتخذوه كحليف لهم[6].

ومن ثم مكنوه من الانتصار في دمنهور على القوات العثمانية، غير أن محمد الألفي بعد أن دخل في منازعات مع خصمه البراديسي هزم على يده , وبعد ذلك لم يتمكن الانجليز من تقديم المساعدة له من جديد وذلك بسبب توقيع صلح أميان بين فرنسا وبريطانيا عام 1802م والذي اشترطت فيه فرنسا ضرورة خروج الانجليز من مصر، ونتج عن ذلك ذهاب محمد الألفي مع القوات الانجليزية إلى لندن على أمل أن تتوسط له الحكومة الانجليزية لدى السلطات العثمانية في اسطنبول من أجل إعادته كحاكم على مصر، بعد ذلك حاول الانجليز مرة أخرى تقديم المساعدة إلى محمد الألفي عام 1807م وذلك عندما أرسلوا حملة بحرية بقيادة الجنرال فريزر في ربيع تلك السنة والتي تمكنت من احتلال الإسكندرية، غير أن فريزر لم يواصل مساعدته العسكرية للألفي نظرا للخسائر التي تكبدتها الحملة الانجليزية في جهات رشيد، ولأن المماليك لم يقوموا بالمساعدة العسكرية اللازمة نظراً لوفاة محمد الألفي، هذه الأسباب جعلت فريزر يعقد الصلح مع محمد علي عام 1807م[7].

كان موقف محمد علي من هذا الصراع على السلطة في مصر فيمكن معرفته من خلال مرحلتين رئيسيتين، المرحلة الأولى من 1801 –1805 م والمرحلة الثانية من 1805 – 1811م وفي المرحلة الأولى لعب محمد علي دوراً متوازناً بين القوى المتصارعة، ولم يبد أية رغبة في تولي السلطة, أما في المرحلة الثانية فقد أصبح فيها الحاكم الفعلي لمصر وتحصل على اعتراف الحكومة العثمانية به في عام 1806م مما مكنه من فرض سلطته على كافة القوى المعادية باسم السلطان العثماني[8].

في واقع الأمر أن محمد علي استفاد من الصراع الدائر بين الأطراف السابق ذكرها ونجح في الحفاظ على التوازن بين المماليك والأتراك العثمانيين ثم حاول تأليب بعضهم على بعض، ثم تآمر عليهم جميعاً، وعندما استولى عثمان البراديسي على الحكم قام محمد علي بتحريض العساكر ضده خاصة فيما يتعلق بالمطالبة بمعاشاتهم المتأخرة، مما أحرج موقف البراديسي الذي عجز عن دفع مرتبات الجند فثار هؤلاء عليه واجبروه هو ومؤيديه من المماليك على الفرار من القاهرة في عام 1804م [9].

في هذه الأثناء عاد محمد الألفي من بريطانيا, وظهرت بوادر احتمال تنصيبه والياً على مصر، فغير محمد علي موقفه من البراديسي وتحالف معه ضد محمد الألفي وعمل على تنصيب الحاكم العثماني خورشيد باشا بأن يكون حاكماً على البلاد، ثم تحالف معه من أجل طرد فئات من المماليك من القاهرة إلى جهلت مصر العليا، بعد ذلك انقلب محمد علي على حليفه خورشيد باشا وناصبه العداء مما اضطره في النهاية إلى مغادرة مصر, وفسح المجال أمام محمد علي، كما أن محمد علي حاول بكل إمكانياته استمالة زعماء البلاد والمشايخ وأصحاب النفوذ فيها بما فيهم رجال الدين [10], وحاول أيضاً كسب تأييد السلطان العثماني وذلك عندما تظاهر بأنه يقوم بدور المصلح بين العناصر المتصارعة على السلطة في مصر. وفي عام 1805م فاز محمد علي بتأييد الفئات المتميزة ورجال الدين في القاهرة اللذين نصبوه حاكماً على البلاد، وذلك على يد زعيمهم السيد عمر مكرم [11].

الجدير بالذكر أن دور العلماء والفئات صاحبة النفوذ في القاهرة كان يهدف إلى تفادي الحرب الأهلية، ولم ينصبوا محمد علي من دافع الوطنية وإنما بدافع أن محمد علي أثبت بذكائه وحنكته أنه المؤهل لحكم البلاد في هذه الظروف السياسية الصعبة خاصة بعد أن بدأ يتمتع بشعبية كبيرة بين العلماء والأعيان، ومن ثم أيدوه ونصبوه حاكماً على البلاد [12].

هذه الشخصية التي ساهمت في بناء مصر الحديثة من أصل ألباني، ولد في قولا وهي ميناء بحري في مقدونيا عام 1769م، وتؤكد بعض الروايات أن والده كان يشغل منصب رئيس الحرس العثماني في تلك المدينة، وبعد وفاة والده تعهد برعايته وتربيته عمه طوسون, وبعد وفاة عمه أشرف على تربيته حاكم قولا، وعليه فقد اكتسب محمد علي خبرة عملية في الحياة العامة خاصة بعد ما كان يتاجر بالتبغ مع احد التجار الفرنسيين على جهله بالقراءة والكتابة حتى سن الأربعين، وقد واتت محمد علي فرصة ذهبية وذلك عندما قام نابليون بونابرت بحملة على مصر، وقد أمرته السلطات العثمانية بأن يشترك بقوة عثمانية لإخراج الفرنسيين

من مصر عام 1799م، فكانت قوته الحربية التي قادها تتألف من 300جندي ألباني ومن حوالي 6000 جندي عثماني، وكان محمد علي في الواقع معاوناً لقائد تلك الحملة وهو ابن حاكم قولا واسمه طاهر, وقد ترقى محمد في الرتب العسكرية بسرعة خلال هذه الفترة ثم أصبح قائداً لتلك الفرقة بعد أن عاد طاهر إلى بلاده في عام 1801م [13] .

لقد استطاع محمد علي أن يؤسس حكمه في مصر ويفرض نفسه على الحكومة العثمانية في الفترة التي كانت تعاني فيها السلطة المركزية في اسطنبول من الضعف وفي الفترة التي كانت تحاول فيها إعادة سيطرتها على تركيا والهلال الخصيب[14], إن الحكم الوراثي الذي أسسه محمد علي في مصر تطور إلى تأسيس النظام الملكي الذي استمر في عائلته حتى عام 1953م .

يمكن تقسيم فترة حكم محمد علي إلى عدة مراحل برزت فيها سياسته الداخلية والخارجية في الهيمنة على مصر وتحدي السلطات العثمانية ومحاولته بناء إمبراطورية في المشرق العربي [15].

عاصر محمد علي ثورتين كبيرتين، الثورة الفرنسية البرجوازية الكبرى والثورة الصناعية, وقد كان لهاتين الثورتين تأثيرات كبيرة في أوروبا والعالم اجمع، إذ أحدثتا تغييرات في موازين القوى فيما بين الأمم, كان محمد علي شديد الاهتمام بهذه التطورات الأوروبية ومدركاً لما لعبه التطور التكنولوجي في تقدم الدول العربية في مجالات الصناعة والتجارة وفنون الحرب وغيرها [16].

يرى بعض المؤرخين بأن محمد علي يعتبر برجوازياً بحكم تربيته ومهنته إذ كان تاجرا قبل أن يكون سياسيا وعسكريا , وعليه فإنه يمكن القول بأن سياسته هي سياسة تاجر تسلط على حكم مصر فجعل منها ضيعة كبرى استغل ثروتها بحسب أحدث الطرق العلمية في ذلك الوقت في الزراعة والتجارة والصناعة والتعليم واستعان على تثبيت احتكاره السياسي والاقتصادي بقوة عسكرية حديثة قوية استخدمها في تنفيذ أهدافه [17] .

وقد تعدد مجالات سياسة محمد علي الداخلية في مصر فقد اهتم بالنظام الإداري والزراعة والتجارة والصناعة والتعليم , حيث كان لقيام الثورة الفرنسية والثورة الصناعية في أوروبا الأثر الكبير في سياسة محمد علي الداخلية , حيث اهتم بالجوانب الإدارية والزراعية والصناعية والتجارية والعلمية .

أولا النظام الاداري في عهد محمد علي في مصر :

أما بالنسبة للتنظيمات الإدارية التي قام بها محمد علي في مصر فكانت معقدة وغامضة في كثير من النواحي, فقد وصل محمد علي إلى السلطة بعد الفوضى التي سادت البلاد بعد خروج الفرنسيين في عام 1801م . وما يلفت النظر بالنسبة لنظام محمد علي الإداري هو حدوث تغيير الاصطلاحات الإدارية , فقد اختفت أسماء الإدارات والألقاب القديمة وحلت محلها أسماء ذات معنى جديد[18], كما ظهرت كلمات جديدة

اتخذت مكانها في اللغة , حيث ظهر لقبان جديدان هما لقب "مدير"، أي رئيس المديرية وكان مسئولاً عن تنفيذ أوامر الباشا في مديريته وبخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب والمحافظة على الجسور والترع والإشراف على المصانع في المديرية وإصدار الأوامر فيما يتعلق ببذر المحاصيل وريها[19].

أما لقب "مأمور"، أي رئيس المركز فقد كانت مسئوليته حول كل الأعمال في القرى الواقعة في نطاق سلطته أو تحت إشرافه، كما تطلب تكوين الجيش إقامة نظام للإدارة العسكرية، فألف مجلس للحكومة يسمى الديوان العالي ومقره القلعة، وكان يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الأزهر واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة, ولكن هذه الدواوين لم تكن على درجة من الرقي والانتظام لعدة أسباب أهمها تأزم الوضع المالي.

أصدر محمد علي القانون الأساسي عام 1837م حيث قام بحصر هذه الدواوين المتعددة في سبعة دواوين وهي [20]:

1- ديوان الخديوي (وزارة الداخلية) : كان هذا الديوان يختص بالشرطة والشئون القضائية التي لا تدخل في اختصاص المحاكم الدينية أو التجارية كما يشرف على 19 إدارة منفصلة مسئولة عن مسائل كالأسواق وتموين الباشا الشخصي والعام باستثناء الإمدادات العسكرية والمؤسسات الدينية وترعة المحمودية والبريد ودار سك النقود .
2- ديوان الإيرادات (وزارة المالية) : وقد انقسم إلى قسمين : احدهما يختص بحسابات كل المديريات المصرية وجزيرة كريت والحجاز والسودان, وثانيهما يختص بإيراد مدينتي مصر والإسكندرية والجمارك والمقاطعات .
3- ديوان الجهادية (وزارة الحرب) : كانت تختص بواجبات التجنيد وتدريب ونظام القوات وتوزيعها والإنفاق عليها، وإدارة الخدمة الطبية للجيش والمستشفيات العسكرية وصيانة أبنية الجيش وتحصيناته والإشراف على إمداد ورش الجيش ومخازنه [21].
4- ديوان البحر (وزارة البحرية) : كانت كل الشئون البحرية تقع تحت سلطة وزير البحرية , ومن بينها الإشراف على قوات الأسطول وأفراده وحوض السفن والمخازن ومستشفيات البحرية وخدماتها الطبية وخزانة الأسطول .
5- ديوان المدارس (وزارة التعليم والأشغال العمومية) : كان الديوان يتولى أمر المدارس الابتدائية والثانوية والفنية, والمكتبات ومخازن الأدوات, والمتاحف وقناطر الدلتا, ومطبعة بولاق, والجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) والهندسة, ومزارع الاسطبلات في شبرا .
6- ديوان التجارة المصرية (وزارة التجارة والشئون الخارجية) : كانت تتولى العلاقات الدبلوماسية وإدارة وحراسة مخازن الحكومة (الشؤون) وجباية الالتزامات والجمارك ومبيعات ومزادات منتجات الحكومة .

7- ديوان الفاوريقات (وزارة الصناعة) : كانت مختلف المصانع في القاهرة , كمصنع الطرابيش وصناعات الأقاليم من اختصاص هذا الديوان[22].

وكان محمد علي يطلب من كل مدير لديوان أن يقدم تقرير اسبوعي عن أحوال ديوانه وكشفا شهريا بحساباته على تفتيش الحسابات وميزانية سنوية عن الإيرادات والمنصرف [23].

من خلال ما سبق ذكره نجد أن محمد علي قد قام بتقسيم مصر إلى سبع مديريات وعدد من المراكز والأقسام والقرى ووضع على رئاسة المدرية مدير والمركز مأمور ، والقسم الناظر، والقرية الشيخ , أما السلطة العليا فكانت في يد محمد علي الذي كان من الناحية النظرية يعد نائبا للسلطان العثماني في البلاد وكان يساعد محمد علي في الحكم عدة مجالس خاصة عسكرية وإدارية [24]. في شئون الصناعة والثقافة والزراعة والتجارة , وهناك مجلس أعلى يضم رؤساء الوحدات الإدارية وبعض رجال الحاشية، وكانت وظيفة هذا المجلس استشارية عامة وفي عام 1837م أصدر محمد علي قانوناً جديداً سمي بالقانون الأساسي قام فيه بتعديل بعض دواوين الحكومة وقسمها إلى حوالي سبعة دواوين سابقة الذكر، وهي ديوان الخديوي وهذا يتعلق بالشرطة، والشئون القضائية، وديوان الإيرادات الذي يتعلق بالشئون المالية، وديوان الجهاد الذي يختص بالشئون العسكرية، وديوان البحرية الذي يهتم بالبحرية، وديوان المدارس الذي يهتم بالتعليم، وديوان التجارة الذي يتعلق بشئون التجارة الخارجية والعلاقات مع الدول، وديوان الصناعة ويهتم بشئون الصناعة، وكان ينصب على كل من هذه الدواوين شخص يلقب بالمدير.

كانت الظروف التي جاء فيها محمد علي إلي الحكم تحتم عليه أن يضع نظاماً إدارياً جديداً ولكن واجهته مشكلة كيفية إيجاد موظفين لقيادة هذه المرحلة الجديدة وذلك بسبب اختفاء وإقصاء الطبقة الحاكمة القديمة، فقام بتقليد أقاربه بعض المناصب المهمة في النواحي الإدارية كذلك أعطى لبعض الأتراك بعض المناصب العليا في البلاد، أما بالنسبة للفنيين المطلوبين للإشراف على التطور المدني والعسكري فقد استعان في البداية بالأوربيين وخاصة الفرنسيين والايطاليين، ومن بعد تفشي الفوضى قام محمد علي باستبدال المصريين بالأتراك حيث بدأ في عام 1833م يستبعد الأتراك، وبتعيين المصريين خفف نفقات إدارته لكنه زاد في أعباء الفلاحين لأن الموظفين الجدد أسرعوا بمضاعفة دخولهم على حساب الفلاحين، كما قام في عام 1841م بطرد الموظفين الفرنسيين والايطاليين وتعيين المصريين بدلاً منهم[25].

كان من أهم نتائج ذلك ظهور الطبقة البيروقراطية في مصر، كذلك فرض اللغة العربية بالتدريج على الإدارة الحكومية، وعلى الرغم من ذلك بقي بعض الموظفين الأجانب في بعض المراكز المهمة في الدولة، وكان أغلبهم من الطبقة التركية الحاكمة.

ثانيا سياسة محمد علي في مجال الزراعة :

كان لأحوال المجتمع المصري بصفة عامة وما عاناه من ركود وعزلة وجمود وفقدانه لأي سياسة للتوجيه والترشيد انعدام الحافز للتغيير إلى أن جاء عهد محمد علي حيث بدأت الحكومة بضبط مرافق البلاد الاقتصادية تحت إشرافها، ولما كانت الأرض أهم مورد في البلاد كان لابد من اصطناع سياسة جديدة للإشراف على الزراعة حيث ألغي نظام الالتزام وأصبح الفلاحون جميعاً فلاحون يتبعون الحكومة مباشرة، وبإلغاء الالتزام ظهرت العديد من الأراضي التي كانت غير مسجلة، وبالتالي لا تدفع الضرائب للدولة، ومن هنا بدأ أصحاب هذه الأراضي بدفع الضرائب المفروضة عليهم للدولة، وبذلك ساهمت في زيادة الميزانية وبدأ محمد علي برنامجه الإصلاحي في مجال الزراعة أولاً بتدبير الماء اللازم لتوسيع الرقعة المزروعة أو المستصلحة للزراعة، وثانياً تنويع الزراعة المصرية بإدخال زروع جديدة أو تحسين زروع قائمة، وقد نجح محمد علي في جعل مصر تحول أراضي واسعة إلى الري الدائم بعد أن كانت تروى رياً حوضياً واتسعت زراعة الأنواع الجيدة من القطن وقصب السكر والنيلة والفاكهة فتحولت مصر بذلك من النظام الزراعي الذي يقوم على الإنتاج لاستهلاك القرية والمناطق المتاخمة لها إلى النظام الزراعي الذي يقوم على التخصص والإنتاج لسوق أوسع نطاقاً هي السوق المصرية عامة والسوق الخارجية أيضاً [26], .

كان من الصعب تحقيق ذلك دون إشراف الحكومة على ذلك حيث كان محمد علي مدركاً تماماً لأهمية الأراضي الزراعية في مصر وقيمة المحاصيل الزراعية من ناحية مالية. عليه فقد اهتم اهتماماً خاصاً بالزراعة فأعاد النظر في ملكية الأراضي وزاد من مساحة الأراضي المزروعة وأعاد النظر أيضاً في توزيع الضرائب وعمل على توسيع الري بالنسبة للأراضي ألغى نظام الالتزام وجرد الملتزمين من امتيازاتهم وعوضهم عنها برواتب تدفع لهم من خزينة الدولة، وأصبح محمد علي هو صاحب الالتزام الوحيد في كافة القطر المصري وألغى جميع الإعفاءات التي كانت على الأراضي وعلى الأوقاف وألغي كافة الامتيازات المتعلقة بالأراضي العائدة لبعض الفئات المؤيدة لمحمد علي وجعل الأراضي الخاصة للملتزمين تبقي إذا ما دفعوا سند الملكية وإلا فتؤول الأرض للدولة [27]ومن ثم قسم أراضي جديدة على الفلاحين وخصص لكل فلاح من ثلاثة إلى خمسة أفدنة بحيث أن الفلاح ينتفع باستثمار سطح الأرض فقط مقابل دفعة الضريبة ويسقط حقه في ذلك إذا عجز عن الدفع وحصة الفلاح هي سدس مجموع المحصول، وتكفلت الدولة بمد الفلاح بالآلات والحيوانات ومياه الري، وكانت الضريبة تؤخذ عيناً، ويجوز للدولة شراء حصة الفلاح من المحاصيل، وأكد "محمد علي" على زراعة بعض المحاصيل المعينة ذات القيمة الاقتصادية مثل التبغ والقطن والتوت لتربية دودة الحرير[28].

وفيما يتعلق بمشاريع الري فقد قام محمد علي ببناء الترع والقنوات ومشاريع الصرف ولعل أشهر المشروعات الخاصة بالري التي قام ببنائها محمد علي هو مشروع القناطر الخيرية وهو عبارة عن سد مياه عند تفرع الدلتا وقد قام ببناء هذا المشروع من أجل التوسع في تطوير زراعة القطن وعين لهذا النوع من

الزراعة مشرف فرنسي, وقد أدى كل ذلك إلى احتكار الدولة لكافة المنتجات الزراعية والاتجار بها، وأدى أيضاً إلى القضاء على الطبقة الإقطاعية القديمة وبروز طبقة أخرى جديدة، هذا ولم ير الفلاح المصري فرقاً في مستوى معيشته بتبديل السلطات الحاكمة سواء في عهد المماليك أو في زمن العثمانيين أو في عهد محمد علي [29].

ثالثا سياسة محمد علي في مجال التجارة :

احتلت التجارة أكبر نصيب من اهتمام محمد علي, حيث كان لابد لمشروعات التنمية الاقتصادية في الزراعة والصناعة أن تكملها سياسة تجارية نشطة ترمي الى التسويق الزراعي من ناحية وحماية الصناعة المصرية من ناحية أخرى، فالزراعة مثلاً لم تعد مقصورة على إنتاج المواد اللازمة للاكتفاء الذاتي، وإنما تعدت ذلك إلى إنتاج المواد الأولية التي تحتاجها الأسواق الأجنبية وخاصة القطن والنيلة والسكر والأرز وغيرها[30].

بذلك عاد الاقتصاد المصري فارتبط بالاقتصاد العالمي وأصبح منذ ذلك الوقت يتأثر باتجاهاته وأزماته، ولما كانت المشروعات الواسعة للتبادل التجاري تحتاج إلى نظام دقيق للتمويل والخبرة الفنية بالأسواق وحركة التبادل العالمي كما تحتاج إلى نقد أجنبي لا يتوافر في داخل البلاد نتيجة لعدم وجود هيئات أهلية كالبنوك والشركات, وقد رأى محمد علي أن تنهض الحكومة نفسها بعمليات التبادل التجاري مع البلاد الأجنبية, سواء في مصر أو في الأسواق الأجنبية, وقد ساعده على تحقيق ذلك نجاح سياسته في ضبط الفلاحة والهيمنة على العاملين بها واحتكار الصناعات الصغيرة وإنشاء الصناعات الكبرى[31].

ومن ثم أصبح لدى الحكومة كميات كبيرة من المنتجات الزراعية والصناعية في مخازنها قامت على تصريفها في داخل البلاد وخارجها، وهكذا أخذت الحكومة لأول مرة في مصر الحديثة على عاتقها شئون التجارة الداخلية والخارجية, وقد حققت من خلال ذلك أرباحا كبيرة شاركت فيما بعد بنصيب كبير من الميزانية السنوية للدولة، وأصبح بذلك لدى الحكومة فائض من النقد المحلي والأجنبي تستخدمه لتمويل مشروعات التعمير والتوسع العسكري والإنفاق على مختلف مرافق البلاد, كما استخدمت الحكومة سياستها التجارية الجديدة لحماية المصنوعات المحلية, فكان يعفى ما يصدر منها إلى الخارج من الرسوم الجمركية تشجيعاً للتوسع في التصدير, كم أنه جعل أكثر التصدير والاستيراد يجري عن طريق الحكومة وحدها, وبذلك تعمل الحكومة على تشجيع التصدير وتقييد الاستيراد فيتحقق لها ما كانت تصبو إليه وتعمل له وهو حصول الدولة على فائض في الميزان التجاري لصالحها [32].

غير أن السياسة الجديدة القائمة على الاحتكار التي أخذت بها مصر في عهد محمد علي لم تكن ترمي إلى تحقيق الربح المادي فقط، ولكن كانت الناحية القومية لاشك واضحة في سياستها التجارية الجديدة

فإن فقدان الهيئات الوطنية ذات الخبرة الفنية بمسائل التجارة والأسواق فتح الباب للأجانب ليقوموا بهذه الأعمال, ومن ثم يتاح لهم أن يسيطروا على الاقتصاد المصري [33].

كان على الحكومة أن تتدخل لحماية المنتجين المصريين من زراع وصناع وهم عماد الثروة القومية , وذلك بأن تقوم هي نفسها بدور التاجر بعد أن قامت بدور الزراع والصناع, وهكذا سيطرت الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر سيطرة تامة على الاقتصاد المصري، واستخدمت هذه السيطرة لجني الربح المادي من ناحية وتجنيب البلاد سيطرة العنصر الأجنبي من ناحية أخرى [34].

كانت سياسة محمد علي التجارية من أهم العوامل التي ألبت عليه الدول الأوربية الكبرى خاصة بريطانيا، فعلى الرغم من أنها هي نفسها تأخذ بسياسة الحماية التجارية إلا أنها رفضت أن تتخذ مصر هذه السياسة لحماية اقتصادها الأهلي، وأرغمت محمد علي أن يفتح أبواب مصر للتجارة الأجنبية دون أي قيد, ولما رفض محمد علي ذلك ألبت عليه الدولة العثمانية, حيث قامت بعقد معاهدة بلطة ليمان عام 1838م ثم سعت حتى فرضت على مصر تسوية عام 1840م, حيث أصبحت مصر بمقتضاها ملتزمة بتنفيذ المعاهدة التي عقدتها مع الدولة العثمانية مع الدول الأخرى، وبالتالي أدى هذا إلى تعديل السياسة الاقتصادية القائمة على الاحتكار فبدأت الحكومة تفك من قيود الاحتكار فأطلقت للفلاحين حرية التصرف في محاصيلهم وخاصة المحصولات الغذائية وتراخت قبضتها في مسائل الزراعة وتحديد الزروع [35].

في ميدان الصناعة القائمة على الإنتاج الزراعي أغلقت كثير من المصانع الحكومية أبوابها وعادت الصناعة البسيطة القديمة, وانعكست هذه الخطط على التجارة الخارجية وأصبح التصدير والاستيراد لا يخضعان إلا لقانون العرض والطلب, فاستغل التجار الأجانب هذه الفرصة فأنشأوا لهم وكالات في مصر, وأخذوا يجمعون الحاصلات المصرية وخاصة القطن ويصدرونه إلى الخارج, كما عملوا على إغراق السوق المصرية بالمصنوعات الأجنبية مستفيدين من الرسوم الجمركية الضئيلة التي كانت مفروضة على الواردات, وبذلك تدفقت رءوس الأموال الأجنبية على مصر على شكل محلات ووكالات تجارية وإقراض للفلاحين والدولة أيضاً [36].

رابعا سياسة محمد علي في مجال الصناعة :

قامت الحكومة في عهد محمد علي بضبط الصناعات القائمة في البلاد وخاصة صناعة الغزل والنسيج, فقد قرر محمد علي أن الصناعة الحديثة عصب الدولة ومصدر قوتها السياسية والعسكرية ولما كان يرغب في إنشاء قوة عسكرية في البر والبحر كان لابد من الأخذ بسياسة التصنيع الحربي لإمداد الجيش والاسطول بحاجتهما من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد البناء وغيرها، وأثمرت سياسة التصنيع ثمرتها فأنشئت في القاهرة والإسكندرية وكثير من مدن الأقاليم مصانع كبيرة لغزل القطن ونسجه والحرير والكتان, ومصانع لإنتاج الأسلحة المختلفة من بنادق ومدافع ورصاص ومصانع الطرابيش والجلود ودور الصناعة البحرية[37] .

كانت بريطانيا غير راضية على سياسة محمد علي في مجال التصنيع, حيث حاول مبعوثوها أن يقنعوه بالعدول عن سياسة التصنيع، وأن يقصر اهتمامه على المنتجات الزراعة فقط وهم كفيلون بأن يبيعوا ما ينتجه بأرخص مما تنتجه مصانعه, وقد أثرت سياسة التصنيع الجديدة تأثيراً سيئاً على الصناعات الصغيرة القديمة، فقد بدأ محمد علي باحتكار هذه الصناعات وذلك بأن جمع الحرفيين وأعطاهم المواد الخام ومن ثم وضع يده على إنتاجهم بعد إتمامه فأصبحوا مجرد أجراء بعد أن كانوا أصحاب حرف [38].

وبدأت هذه الحرف الصغير تضمحل بسبب المنافسة مع المصنوعات الأجنبية بإنتاجها الكثير وأسعارها الرخيصة، وأصبحت الدولة في عهد محمد علي المحتكرة الأولى للصناعة وقد اهتم بصناعة المنسوجات القطنية والحريرية واستخدم أحدث معامل الغزل والنسيج استخدم فيها ما يقرب عن حوالي 20 ألف عامل، وكذلك عمل على إقامة مصانع الأسلحة الحديثة بكافة أنواعها والورق وبعض الصناعات الأخرى القائمة على الانتاج الزراعي، وأصبحت مصر في عهد محمد علي وحدة إنتاجية احتكارية كبرى [39].

ولكن هذه السياسة الصناعية ما لبثت أن فشلت في تحقيق أهدافها لعدة أسباب نذكر منها ما يلي .

1- لم يكن المديرون أو "النظار" مدربين بما يكفي لإدارة المصانع الحديثة .
2- استيراد الآلات إلى مصر دون مراعاة لأحوال البلاد الجوية، فكان التراب يدخل في العجلات وغيرها من الأجزاء الدقيقة في الآلات مما جعل العمال يخصصون جزءاً كبيرا من وقتهم لتنظيف الآلات, والى جانب ذلك أهمل كثير من الآلات التي استوردت بتكاليف باهظة فور وصولها لأنه لم يكن هناك من يستطيع تجميعها .
3- الافتقار إلى القوى المحركة أعاق تقدم الصناعة، وقد حاول محمد علي التغلب على ذلك باستخدام الثيران, ولكن خطاها وحركتها غير المنتظمة كانت تهز الآلات وتسبب توقفها, وعندما أدخلت بعض الآلات البخارية جعل نقص الوقود تكلفة تشغيلها عالية[40].

خامسا سياسة محمد علي في مجال التعليم :

كان التعليم في مصر القديمة تعليم ديني بإشراف الأزهر، وقد رأى محمد علي أن ذلك لا يخدم مصلحة البلاد من الناحية العلمية فهو يريد كوادر علمية تستطيع قيادة البلاد والنهوض بها, فلم يجد بداً من إنشاء مدارس للتعليم الحديث بجانب الكتاتيب والزوايا الدينية للنهوض بالبلاد وظل نظام التعليم الديني بعيداً عن رقابة الدولة وسلطانها، واكتفت الحكومة أن أخذت على عاتقها نظام التعليم الحديث [41] .

وهو التعليم المدني الذي انشأت الدولة معاهده, وكان محمد علي حريصاً أن تكون لغة التعليم في هذه المدارس على اختلاف مراحلها هي اللغة العربية , فقد الحق بالأساتذة الأجانب معلمون ومترجمون يتلقون دروس هؤلاء بلغاتهم الايطالية أو الفرنسية ثم ينقلونها إلى اللغة العربية, ثم يعرضونها على مصححين من علماء الأزهر، وبعد تصحيحها تلقى على الطلاب، كما جمعت وطبعت في كتب منشورة[42].

وقد نهض بالمطبعة لتكمل عمل المدرسة فقامت على طبع عشرات الكتب في الفنون والعلوم الأخرى أكثرها باللغة العربية, كما قامت الحكومة المصرية بإرسال عدد من الطلاب لاستكمال دراستهم في الخارج حيث أرسل إلى إيطاليا عدداً من الطلبة لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك من العلوم [43] .

كانت أول بعثة علمية كبيرة منظمة أرسلت إلى أوروبا في عام 1826م وتلاها فيما بين عامي 1826 – 1847 تسع بعثات تكونت من 219 طالب ذهب معظمهم إلى فرنسا واتجه الباقون إلى انجلترا والنمسا, وقد بلغت تكاليف هذه البعثات حوالي 273360 جنيها، وأرسلت هذه البعثات كي يتخصص الطلبة في الهندسة والرياضيات والطبيعة ومختلف الصناعات والنظم الحربية والعلوم السياسية والطب والحقوق، كما أرسل الطلاب الأزهريين لإكمال دراستهم في فرنسا، وكان من بينهم العالم المصري رفاعة رافع الطهطاوي الذي جمع بين الثقافتين العربية والأوروبية [44] , حيث قام بترجمة العديد من الكتب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربيةــ وقامت مطبعة بولاق على طبعها ونشرها، وقد ازدهرت الثقافة ازدهاراً ملحوظاً بين 1836 –1840 م. حيث وضعت لوائح التعليم والمناهج في المراحل المختلفة فوصل عدد المدارس إلى نحو 50 مدرسة ابتدائية وعدة مدارس خصوصية كالطب البشري والطب البيطري والصيدلة والزراعة والمحاسبة والألسن والعمليات أو الفنون والصنائع والمدرسة البحرية بالاسكندرية[45].

كما أدى قيام المشاريع الزراعية والصناعية إلى انتشار المعاهد العلمية والمدارس[46] فقد تأسست مدرسة الهندسة في عام 1816م ومدرسة الطب في عام 1828م ومدرسة الألسن (اللغات) عام 1836م لدراسة آداب اللغة الفرنسية واللغات الأجنبية وكانت أكبر مدرسة لنشر الثقافة في المنطقة العربية في ذلك الوقت [47].

كما أن محمد علي قام بإرسال البعثات العلمية إلى الخارج خاصة إلى فرنسا للتخصص والتدريب في المجالات العلمية المختلفة واستعان بالمتخرجين منهم تدريجياً لإحلالهم محل الأجانب في الإشراف على المؤسسات الصناعية والعسكرية [48].

قام محمد علي بتخصيص المكافآت المالية للطلاب من أجل تشجيع الطلبة على الدرس والتحصيل، كما أولى محمد علي الاهتمام باللغة العربية وجعلها لغة التدريس في المعاهد والمدارس التي أنشأها محمد علي، كما اهتم محمد علي بالتعليم حيث نشطت حركة التعريب والترجمة ومن ثم ازداد الإطلاع على تراث الفكر الأوروبي الحديث[49].

كما قام محمد علي بإنشاء مطابع لنشر العلوم المختلفة في بولاق في عام 1828م وإنشاء الصحف مثل جريدة الوقائع المصرية التي تأسست عام 1828م وكانت تطبع باللغتين العربية والفرنسية، وكانت من الأدوات التثقيفية الهامة في مصر, وقد أدت هذه الظاهرة إلى نشوء حركة فكرية أصبحت منطلقا للتقدم الثقافي والنهضة الثقافية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر, وقد وضع محمد علي كل المشاريع التعليمية تحت إشراف إدارة خاصة في عام 1837م سميت بديوان المدارس وهي بمثابة أول وزارة للتعليم في مصر[50].

الخاتمة :

1- أكدت الدراسة إن التطورات التي مر بها حكم محمد علي في مصر فرض عليه وضع أساس فعلي لسياسة مالية وعسكرية , حيث تركزت سياسة المالية في مسألة زيادة موارده المالية لتوفير مطالب جيشه الكثيرة .

2- كما رأت الدراسة أنه بقيام محمد علي بانقلاب في ملكية الأراضي الزراعية في مصر وتوحيد الضرائب وإدخاله بعض المحصولات الزراعية الجديدة مثل القطن طويل التيلة والاهتمام بنظام الري وتحسينه وإلغاء نظام الالتزام كل ذلك ساهم بالنهوض باقتصاد مصر خلال هذه الفترة .

3- أوضحت الدراسة أن اهتمام محمد علي في مجال التصنيع كان الغرض الأساسي منه إنتاج الأسلحة والمعدات الحربية لجيشه واسطوله وتجهيز المحاصيل الزراعية للاستهلاك، أو التصدير وأراد الاعتماد على الصناعة باعتبارها مصدراً من مصادر إيرادات الحكومة .

4- كما رأت الدراسة بعض النتائج الايجابية في سياسة محمد علي الداخلية منها حيث ساعدت هذه السياسة على دخول كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية إلى الأسواق الأوروبية وبذلك فتح آفاقاً جديدة للتجارب المصرية كما جذبت إلى مصر الكثير من التجار الأوروبيين نقلوا معهم كثير من المهارات الفنية الغربية كما أن هذه التطورات قد غيرت الشكل العام لتجارة مصر كلية فارتبطت ارتباطا وثيقا بأوروبا وإدخال مصر في فلك التجارة الأوروبية .

5- بينت الدراسة أن محمد علي استطاع أن يؤسس فعلا الدولة الحديثة في مصر وكان ذلك يرجع دون شك إلى فتح مصر للمؤثرات الغربية وإنعاش التجارة وتشجيع نمو المدن وإيجاد طبقة بيروقراطية مصرية وإنشاء جيش مصري قوي.

6- رأت الدراسة ان هناك بعض النتائج السلبية لفترة حكم محمد علي في مصر منها انه فتح الطريق امام التغلغل الاستعماري الغربي , فاهتمام محمد علي بالأسواق الغربية وفتح الافاق الجديدة للتجارة قد زاد من اعتماد مصر على الأسواق الأوروبية وجعلها سريعة الأثر بتقلبات الاقتصاد الأوروبي , كما أن تدفق التجار الأوروبيين جعل مصر عرضة للتدخل الاوروبي في شؤنها الداخلية , مما جعل الدول الأوروبية تدعي أن لها الحق في حماية تجارتها ومصالحها التجارية بمقتضى معاهدات الامتيازات الأجنبية .

7- أوضحت الدراسة ان سياسة محمد علي التعليمية قد ادت الى ظهور طبقة جديدة من المثقفين بالثقافة الغربية ولا سيما الفرنسية من امثال رفاعة رافع الطهطاوي إضافة الى ظهور العديد من المتعلمين الذين ساهموا في قيادة مصر في المراحل اللاحقة وإقامة المطابع الحديثة التي كان لها الأثر الكبير في تقدم مصر وانتشار التعليم بها .

8- أكدت الدراسة أن محمد علي قضي على طبقة التجار وطبقة الحرفيين المصريين وبذلك منع تطور البورجوازية المصرية ولو لم يتبع محمد علي نظام الرأسمالية الصناعية لأمكن لطبقة

الحرفيين المصريين أن يتحولوا إلى طبقة بورجوازية تجارية وصناعية كما حدث في أوروبا ولكن محمد علي حولهم إلى طبقة من الأجراء فقدت حريتها في شراء المواد الخام وتسويق منتجاتها , كما أن استخدام طبقة الحرفيين لم يكن يتم على أساس التعاقد الحر بدفع نوع من الأجور لهم بل اتبعت في إحضارهم واستخدامهم نفس الوسائل المتبعة في التجنيد للخدمة العسكرية , إضافة إلى عدم الانتظام في دفع الأجور , أو دفع أجورهم عينا بدل أن تدفع نقدا .

9- رأت الدراسة فشل محمد علي في إصلاح أحوال الفلاح المصري الذي أثقل كاهله بالأعباء الثقيلة والضرائب الفادحة ونظام السخرة .

الهوامش :

1- احمد عزت عبدالكريم , دراسات في تاريخ العرب الحديث , دار النهضة العربية (بيروت , 1970م) ص . 264 .
2- احمد عبدالرحيم مصطفى , مصر والمسألة المصرية , دار المعارف المصرية (القاهرة , 1967م) ص . 234 .
3- محمد فؤاد شكري , عبدالله، جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر , (القاهرة , 1952 م) ص 88 .
4- عبدالكريم رافق , بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت 1516 – 1798 م , الطبعة الثانية ,(دمشق , 1968م) ص. 67 .
5- محمد فؤاد شكري , عبدالله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر , مرجع سابق, ص 41.
6- محمد صبري , تاريخ مصر من محمد علي الى العصر الحديث , القاهرة , 1968م ص. 12 .
7- عمر عبدالعزيز عمر, احمد صلاح هريدي, الحرف والصناعات في عهد محمد علي (القاهرة , 1967 م) ص 91
8- عمر عبد العزيز عمر , تاريخ العرب الحديث والمعاصر , دار النهضة العربية (بيروت , 1990م) , ص. 34 .
9- عبدالكريم رافق , بلاد الشام ومصر , مرجع سابق , ص . 89 .
10-محمد فؤاد شكري , مصر والسودان – تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر 1820- 1899م , (القاهرة, 1957م) ص. 98 .
11-عمر عبد العزيز عمر , تاريخ المشرق العربي 1516 – 1922 م , دار المعرفة الجامعية , (الاسكندرية , 1992م) ص . 67 .
12-محمد فؤاد شكري , مصر والسودان , مرجع سابق , ص . 82 .
13-عمر عبد العزيز عمر , تاريخ العرب الحديث والمعاصر , مرجع سابق , ص . 32 .
14-عمر عبدالعزيز عمر , تاريخ المشرق العربي 1516- 1922م , مرجع سابق , ص . 11.
15-عمر عبدالعزيز عمر , دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر , (بيروت , 1980م) . ص . 54 .
16-محمد فؤاد شكر , مصر والسودان , مرجع سابق , ص. 33 .
17-احمد احمد الحته , تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر , (الاسكندرية ،1967) ص.56 .
18-احمد عزت عبدالكريم , دراسات في تاريخ العرب الحديث , مرجع سابق , ص . 65
19-زاهية قدورة , تاريخ العرب الحديث , مكتبة الانجلو المصرية , (القاهرة , 1966م) ص . 87 .
20-احمد احمدالحتة , تاريخ مصر الاقتصادي , مرجع سابق , ص . 77 .

21–احمد عزت عبدالكريم , دراسات في تاريخ العرب الحديث , مرجع سابق , ص . 22.
22–احمد عبد الرحيم مصطفى , مصر والمسألة المصرية , مرجع سابق , ص. 15 .
23–محمد صبري , تاريخ مصر الحديث من محمد علي الي اليوم , ط. 1 . دار الكتب المصرية, (القاهرة، 1963م) . ص . 35 .
24–احمد عزت عبدالكريم , دراسات في تاريخ العرب الحديث , مرجع سابق , ص . 198 .
25–احمد أمين , زعماء الاصلاح في العصر الحديث , (القاهرة ,1948 م) ص . 65
26–امين عز الدين , تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى عام 1919م (القاهرة 1967) , ص . 54 .
27–محمد فؤاد شكري , مصرفي مطلع القرن التاسع عشر 1801 – 1811م , (القاهرة ,1958م) ص. 124 .
28- Marlowe, j., Anglo – Egyptian relations :1800-1953,London, 1954.p. 54.
29–احمد عبدالرحيم مصطفى , مصر والمسألة المصرية , مرجع سابق , ص . 23 .
30–محمد شفيق غربال , محمد علي الكبير (اعلام الاسلام) ,(القاهرة , 1942م) ص. 67.
31–احمد عزت عبدالكريم , تاريخ التعليم في عصر محمد علي , (القاهرة , 1945م) ص . 456 .
32–جمال الدين الشيال , رفاعة رافع الطهطاوي 1801 –1873م سلسلة نوابغ العربي رقم 24 , (القاهرة , 1958م) ص . 43 .
33- Driault, E.,MohamedAly et napoleon (1807 – 1814) So – cieteroylae de geographied,Egypte , publications spe,cia –les ,cairo,1925. P.17.
34–احمد عزت عبدالكريم , تاريخ التعليم في عصرمحمد علي , مرجع سابق ,ص . 63.
35–جلال يحيى , المدخل الى تاريخ العالم العربي الحديث , دار العارف , (القاهرة , 1965), ص . 61 .
36–عمر الاسكندري , سليم حسن , مراجعة الكبتن ا . ج . سفنج , صفحات من تاريخ مصر من الفتح العثماني الى قبيل الوقت الحاضر , مكتبة مدبولي , (القاهرة , 1966م) ص . 14 .
37–جورجي زيدان , تاريخ مصر الحديث , الجز الاول , القاهرة , 1976 م) ص . 65 .
38 احمد عبدالعزيز السباعي , تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي , دار الفكر العربي , القاهرة 1951 م, ص . 85 .
39 عمر طوسون , البعثات العلمية في عهد محمد علي , القاهرة ' د. ت , ص ، 19 .
40 احمد عزت عبدالكريم , تاريخ التعليم من عصر محمد علي الى اوائل حكم توفيق (القاهرة, 1945م) , ص . 66 .
41 محمد مورو , تاريخ مصر الحديثة 1798 – 1952 م , (القاهرة , 1970 م) ص 50 .
42 احمد عزت عبد الكريم , تاريخ التعليم من عصر محمد علي الى اوائل حكم توفيق مرجع سابق , ص . 66 .
43 زاهية قدورة , تاريخ العرب الحديث , مرجع سابق , ص . 21 .
44 عمر طوسون , البعثات العلمية في عهد محمد علي , مرجع سابق , ص . 87 .
45 عمر الاسكندري , سليم حسن , صفحات من تاريخ مصر من العهد العثماني الى قبيل الوقت الحاضر , مرجع سابق , ص . 88.
46 محمد مورو , تاريخ مصر الحديث , مرجع سابق , ص . 44 .
47 احمد عبدالعزيز السباعي , تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عهد محمد علي مرجع سابق , ص . 90 .
48 احمد عزت عبد الكريم , تاريخ التعليم في عهد محمد علي , مرجع سابق , ص .43.
49 عمر طوسون , البعثات العلمية في عهد محمد علي , مرجع سابق , ص . 13
50 احمد عبدالعزيز السباعي , تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عهد محمد مرجع سابق

قائمة المصادر والمراجع :

اولا المراجع العربية :

1 – الاسكندري ، عمر ، سليم حسن ، مراجعة الكبتنأ.ج . سفنج ، صفحات من تاريخ مصر من الفتح العثماني الى قبيل الوقت الحاضر ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 1966م) .
2 – امين ، احمد ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، (القاهرة ، 1948م) .
3 – الحته ، احمد احمد ، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر (الاسكندرية، 1967م) .
4 – رافق ، عبدالكريم ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت 1516 – 1798 م ، الطبعة الثانية ، (دمشق ، 1968م) .
5 – زيدان ، جورجي ، تاريخ مصر الحديث ، الجزء الاول ، (القاهرة ، 1976 م)
6 – السباعي ، احمد عبدالعزيز ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي ، (القاهرة ، 1951 م) .
7 – شكري ، محمد فؤاد ، عبدالله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر ، (القاهرة ، 1952 م) .
8 – شكري ، محمد فؤاد ، مصر والسودان – تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر 1820– 1899م ، (القاهرة ، 1957 م) .
9 – الشيال ، جمال الدين ، رفاعة الطهطاوي 1801–1873 م ، سلسلة نوابغ العرب، رقم 24 ، (القاهرة ، 1959م) .
10 – صبري ، محمد ، تاريخ مصر الحديث من محمد علي الى اليوم الطبعة الاولى ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة ، 1963م) .
11 – صبري ، محمد ، تاريخ مصر من محمد علي الى العصر الحديث (القاهرة ، 1968م) .
12– طوسون ، عمر ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ، (القاهرة ، د. ت) .
13 – عبدالكريم ، احمد عزت ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، (القاهرة ، 1945م) .
14 – عبدالكريم ، احمد عزت ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، (بيروت ، 1970 م) .
15 – عزالدين ، امين ، تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى عام 1919 م ، (القاهرة ، 1967م) .
16 – عمر ، عبدالعزيز عمر ، احمد صلاح هريدي ، الحرف والصناعات في عهد محمد علي ، (القاهرة ، 1967م) .
17 – عمر ، عبدالعزيز عمر ، دراسات في تاريخ الغرب الحديث والمعاصر (بيروت ، 1980 م) .
18 – عمر ، عبدالعزيز عمر ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية ، (بيروت ، 1990 م) .

19 – عمر ، عبدالعزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي 1516–1922م ، دار المعرفة الجامعية ، (الاسكندرية ، 1992م) .

20 – غربال ، محمد شفيق ، محمد علي الكبير ،اعلام الاسلام ، (القاهرة ، 1942م).

21 – قدورة ، زاهية ، تاريخ العرب الحديث ، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة ، 1966 م) .

22 – مصطفى ، احمد عبدالرحيم ، مصر والمسألة المصرية ، دار المعارف المصرية ، (القاهرة ، 1967م) .

23 – مورو ، محمد ، تاريخ مصر الحديثة 1798 –1952م ، (القاهرة ، 1970م) .

24 – يحيي ، جلال ، المدخل الى تاريخ العالم العربي الحديث ، دار المعارف ، (القاهرة ، 1965 م).

ثانيا المراجع الاجنبية :

1-Driault, E., Mohamed Aly et napoleon (1807 -1814) so – cieteroylae de geographie d, Egypte, publications spe , cia – les,cairo,1925.

2-Marlowe,j.,Anglo – Egyptian relations : 1800 – 1953, London,1954 .

تونس في الفترة الاستعمارية: مدينة الجمال وبلاد السياحة

بلقاسم بنعبد النبي
دكتور في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة صفاقس
الجمهورية التونسية

Abstract

The study brought together history and heritage; it is an attempt to study Tunisia city and country. City has collected between the past of Islamic civilization and the modernity built by France, according to modern Western architecture, and a country brought together the beauty and diversity of nature and its many monuments. Thus, as soon as it entered the country, France decided to protect its monuments and present it for tourist exploitation. The tourism sector started in Tunisia slowly based on private sector, but with the economic crisis in the thirties, the colonial power became aware of its importance, it was the 1931 conference the first step to focus the Tourism habit, and the year 1936 the start date of popular tourism. Thus, the research, pointed out that the tourism sector in Tunisia did not begin after independence in the seventies, as confirmed some studies, but an old sector began with the beginning of the twentieth century and rooted in the late thirties.

ملخص :

زاوجت الدراسة بين التاريخ والتراث، فهي محاولة لدراسة تونس مدينة وبلدا، مدينة تونس التي جمعت بين أصالة الماضي وعراقة الحضارة الإسلامية والمدينة الحديثة التي بنتها فرنسا وفقا للهندسة المعمارية الغربية الحديثة، وبلدا جمعت بين جمال الطبيعة وتنوعها وغزارة أثارها. لذلك سارع المحتل منذ حلوله بها إلى حماية المعالم الأثرية والتعريف بها قصد استغلالها في التصدير السياحي. وبدأ القطاع السياحي بتونس مترنحا معتمدا على القطاع الخاص، لكن مع الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات تنبهت السلطة الاستعمارية إلى أهميته، فكان مؤتمر 1931 اللبنة الأولى لتركيز عادة التسيّح وفي سنة 1936 حوّلت التسيّح من النخبوية إلى الشعبوية. وبذلك بين البحث أنّ القطاع السياحي بالبلاد التونسية لم يكن وليد الاستقلال وسنوات السبعين مثلما حاولت بعض الدراسات تأكيد ذلك، بل هو قطاع قديم بدأ مع بداية القرن العشرين وتأصل في أواخر سنوات الثلاثين.

مقدمة :

اختلف الباحثون حول تسمية تونس، فمنهم من يرجعها إلى الحقبة الفينيقية واشتقاق من اسم الآلهة تانيت، ومنهم من يعتبرها اشتقاق من الفعل الأمازيغي "أنس" الذي يعني محطة توقف أو مخيم للوقوف، ويؤكد البعض أنّ أصل التسمية تعود إلى المدينة القديمة تينس التي وصفها "ديودورس" و"بوليبيوس"، والتي يبدو وصفها قريباً من منطقة القصبة بضواحي تونس حالياً، وأشار العلامة عبد الرحمان بن خلدون إلى أنّ اسم تونس اشتقّ من وصف سكانها والوافدين عليها لما عرفوا به من طيب المعاشرة وكرم الضيافة وحسن الوفادة. ومهما كان أصل التسمية فإنّ من زار تونس مدينة أو بلدا لم يخف انبهاره بجمال طبيعتها وتناغم عمرانها ووداعة أهلها، لذلك حاولت السلطات الفرنسية عند حلولها بها استغلال دفء طقسها وتنوع طبيعتها وعراقة حضارتها للترويج السياحي.

ومن هذا المنطلق نطرح الأسئلة التالية: أين يتمظهر جمال تونس المدينة في الثلث الأول من القرن العشرين؟ كيف انطلق المشروع السياحي في البلاد التونسية؟ وما هي الإجراءات التي اتخذتها الحكومة للنهوض بالقطاع بالسياحي؟ وهل نجحت في تحقيق ذلك؟

I- تونس المدينة: تفاعل الأصالة والحداثة :

مثلت مدينة تونس محلّ تغنّ وإعجاب متواصل من الزائرين منذ القرن التاسع عشر، فلم يخف الأنتروبولوجيون والسياسيون والمبشرون انبهارهم بجمال مدينة تونس والتناغم بين طقسها ومبانيها وشوارعها وأسواقها. يمكن تلخيص ذلك في ما قاله "مابوسوت" : " في يوم مشمس، يمثل النظر إلى هذه المدينة بين بحيراتها من أكثر المناظر جلبا للانتباه والأكثر جاذبية الذي يمكن أن تجده على حافة القارة الإفريقية"[1]. مناخها صحي معد للاستجمام والتنقل والسياحة[2] رغم وجود بحيرات تشبع الجو رطوبة في بعض الأوقات[3].

1- المدينة العتيقة

تغنى محمود بيرم التونسي في ثلاثينات القرن 20 بتونس وشمائلها ووسمها بأجمل الصفات، فالبلاد التونسية بلاد التاريخ والحضارة و"من أغنى بلاد العالم بآثارها القرطاجية والرومانية والعربية"[4]. مناخها المعتدل وشواطئها الخلابة تجعلها من أكثر بلدان المتوسط جذبا للسياح[5]. حاضرتها تونس "مدينة وديعة" ذات مباني منخفضة وبيضاء بشبابيك خضراء، "شوارع ضيقة تحت أقبية معقودة وأقواس متعاشقة" على جوانبها حوانيت تملأ عين الناظر بالمنسوجات والملابس وجمال يحسه كل زائر[6]. ولم تكن هذه الشوارع مصممة لمرور العربات الجديدة و"الكريطات"، يسدها جمل ويضطر أهالي تونس إلى الوقوف على الجانبين حين تمر "كريطة" بعجلات كبيرة وهو ما يسبب في اتساخ ملابسهم التي هي عموما بيضاء[7].

بنيت مدينة تونس على تلة خضراء مشجرة، وتقع على برزخ بين البحيرة وسبخة السيجومي. وبعد القدوم على ميناء حلق الوادي يمكن مشاهدة مدينة سيدي بوسعيد على يسار البحيرة مبنية على صخرة مطلة على البحر، "تعانق السماء الزرقاء، فهي لؤلؤة بيضاء لا تتجزأ من زمردة ضخمة"[8]، تنظر من خلالها ترى

مناظر خرافية. ثم تشاهد قرطاج والآثار الرومانية في بيرصة والكاتدرائية التي بناها لويس التاسع[9]. وبالاتجاه نحو وسط مدينة تونس تجد حلق الوادي وهو ربض مليء بالملاهي الليلية وبعض المنازل وبعض الحمامات، ونصل إلى وسط المدينة عبر خط سكة حديد[10].

حوت مدينة تونس في الفترة الاستعمارية، كبقية المدن التونسية والمغاربية والعربية عموما على قسمين المدينة العتيقة العربية، والمدينة الحديثة الأوروبية. أخذت المدينة العربية شكلا طوليا شبيهة بالبرنس والقصبة "البرطوطة"، يحيط بها سور، وبطلّة من شرفة دار الباي "تتمتع بمناظر بانورامية رائعة، تشمل كل المدينة بشرفاتها البيضاء، الميناء، القناة بطول 10 كم تربط مدينة تونس بحلق الوادي وخاصة الخليج"[11].

أطلق على المدينة القديمة "برنس النبي" لشدّ بياضها، عرفت بهدوئها وسكينتها "التي لا تتبدّل إلاّ مع أصوات المؤذنين منادين للصلاة"[12]. يعرف زائرها للوهلة الأولى "ارتباك وعمى" وعدم قدرة على تمييز الجدران من السقوف المسطحة بسبب شدّة بياضها، ويلزمه برهة من الوقت ليتأقلم مع "السمفونية الثلجية" ويرى المآذن والأبراج المربعة وقباب المساجد المفتوحة والشرفات والسقوف الواسعة المسطحة والمجصصة، "التي تمتد وكأنها أمواج طباشيرية، وفيها مناور صغيرة تفتح بشكل معاكس لرياح الشهيلي. هذه الأسطح التي تصعد إليها العائلات، في المساء، لشم الهواء النقي والتمتع بالغسق وتجفيف الغسيل، وفي الليل، مكان للنوم للسكان والكلاب الحارسة في نفس الفراش"[13].

عرفت الأحياء العربية بطرقات ضيقة "لم تكن مصممة لمرور العربات الجديدة و"الكريطات"، بها أروقة متعاقبة مبلطة بالحصى، أضاءتها السلطة الفرنسية بالنور الكهربائي ومرّرت من خلالها أسلاك التلغراف والهاتف[14]، أبواب منازلها مطرزة بفسيفساء من المسامير[15].

وتختلف مساحة المنازل العربية حسب ثراء صاحبها، وتشترك جميعها في الساحة الداخلية التي يوجد فيها غرف السكن والاستقبال. وتكون غرف الاستقبال قريبة للمدخل ولا يوجد فيها سوى الرجال، أما غرف السكن فهي مخصصة للنساء والأطفال وممنوعة عن الرجال الغرباء، سوى رئيس العائلة أو الآباء المقربين[16].

تزين جدران منازل الأثرياء بالخزف والجص المنحوت بشكل معقد ومبهر، تذكر بالفنانين الذين زينوا قصر الحمراء، وسقوفها مطلية بألوان متناغمة وجذابة. أما المنازل الأقل ثراء لا يوجد بها سوى بعض الأماكن المزينة، "وذات زينة أقل روعة وقد تصل إلى البذاءة، لأنها وضعت من بعض الفنانين الإيطاليين في منتصف القرن التاسع عشر، وهذا ما أثر على الفن التونسي بالسلب بسبب لا مبالاة السكان في الفترة الأخيرة"[17]. في حين أنّ المنازل المتواضعة لا يوجد فيها سوى بعض الخزف وأعمال خشبية مطلية، سطح مقرمد مطلي بالأخضر[18].

وعموما المتحكم في بناء المنازل في مدينة تونس ليس الثراء أو الفقر، بل المناخ، فكل البيوت بنيت للحماية من حرارة الصيف والوقاية من برد الشتاء.

وفي وسط المدينة توجد الأسواق، وهي ممرات ضيقة ومتعرجة، سيئة التعبيد، توجد على يمينها ويسارها دكاكين مكتظة بالبضائع، وتقسم الدكاكين إلى قسمين بقطعة خشب يتكئ عليها الحريف، وتوضع

البضائع في شكل شعاعي أو أدراج مثبّتة على الحائط[19] ويقطع وسط الشارع خور لمرور المياه[20] وتغطى الأسواق بأقبية لحمايتها من الأمطار والشمس[21].

لكل سوق اسم مثل سوق الباي وسوق الترك وسوق العطارين... الغاصة بالبضائع، فيوجد السجاد الملوّن المطعم بالحرير، أسلحة دمشقية منقوشة، مصابيح عربية، مقاعد ذات ثمانية زوايا مطرزة بالأصداف والعاج. ويستنشق المارّة عبير الياسمين والمسك والورد، ورائحة جلود السروج المطرزة بأحجار كريمة، وكؤوس ذهبية منقوشة على الطراز العربي، وكوانين بخور من الفضة...[22].

2- المدينة الأوروبية :

تفاعلت الأصالة الإسلامية والحداثة الغربية، ففي تونس لم يعتمد المستعمر نفس الخطة التي اعتمدها في الجزائر وهي الهدم لبناء الجديد، بل لجأ إلى تخطيط معماري أبقى فيه على المدن القديمة وأنشأ بجانبها المدن الجديدة[23]. فكان تماسا واضحاً بين المدينتين، ومثل باب بحر النقطة الفاصلة بين مدينة الجهة العليا ومدينة الجهة السفلى الجديدة التي توسعت نحو الشمال في اتجاه البلفدير بسلسلة من الفيلات[24]. ومثل شارع مارينا، أهم الشوارع، وجد في بدايته ساحة البورصة والحي الفرنسي، أين توجد أهم القناصل الأجنبية، ومحطة التاكسي التي تحمل الأهالي والسياح في اتجاه قرطاج، أوذنة وأوتيكا[25].

ووجد في مركز المدينة الأوروربية فسحة رائعة على البحر، طرقات شاسعة غرست على جوانبها أشجار علقت فيها مصابيح لتنظيم حركة المرور، فقد ذكر محمود بيرم التونسي " علقت البلدية في التقاطع المؤلف من شارع جولفيري وشارع روما مصباحا ذو وجهين أحمر وأخضر لتنظم به حركة المرور. وكانت هذه الأعجوبة مدعاة لأن يقف عدد عظيم من المارة على زوايا المفارق الأربعة يشاهدون اختراعات المدنية الحديثة إلى هذه الساعة[26]. هذه المصابيح كانت نتيجة واضحة لما عرفته مدينة تونس من توسع في الجهة الأوروبية، والارتفاع السنوي لعدد السيارات. فقد بلغ عدد السيارات بتونس في مارس 1926، 5000 وحدة وفي ديسمبر من نفس السنة 6200[27]، وفي سنة 1930 (31 ديسمبر)، 18584 وحدة، منها 14343 سيارة سياحية و2739 دراجة نارية و4 سيارات إصلاح و 914 شاحنة و23 عربة، وفاق العدد في سبتمبر 1931، 20.000[28].

وحاذت الشوارع مباني عالية وعمارات متوازية لها شرفات، ازدحمت أرصفتها بطاولات المقاهي وأكشاك الدخان ودكاكين الحلاقة، مغازات متنوعة بأضواء كهربائية، محلات حلويات، خياطون على الطراز الأوروبي، صيدليات، فنادق، محلات حلي ضخمة، المسرح، محطات سيارات الأجرة ومحطات الترام...

هذه المدينة التي شابهت نظيراتها في أوروبا الغربية في الشكل وفي الاحتفال، فهي المدينة الصاخبة، ملأتها البهجة وأقيمت فيها الكرنفالات واختلطت فيها العرقيات، عربي، مالطي، فرنسي، إيطالي...، واختلطت بينها الممارسات، فالكل في المقاهي والكل يتسوّق والكل يحتفل... ففي يوم الكرنفال تقع مباهج واحتفالات.[29]. هذا الكرنفال الذي تتداخل فيه الألوان الوردي والأصفر والأحمر والأبيض في حشد ضخم... يلبس فيه المشاركون الأقنعة، فترى المحارب والطباخ وراعي الأغنام والبحار... وتعلو الأصوات بالغناء والهتافات في صدى لأبواق تصم الآذان، ومن الجانبين ترمى الورود والحلوى على المارّة[30].

صورة1: شارع فرنسا– مدينة تونس

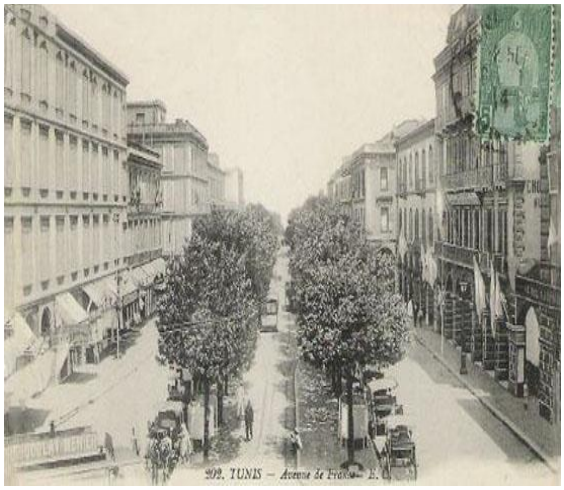

صورة 2: شارع قرطاج– مدينة تونس

صورة 3: مدينة تونس العتيقة سنة 1901

صورة 4: الباب بمدينة تونس العتيقة

صورة 5: مساكن بالمدينة العتيقة

صورة 6: سوق الترك بالمدينة العتيقة

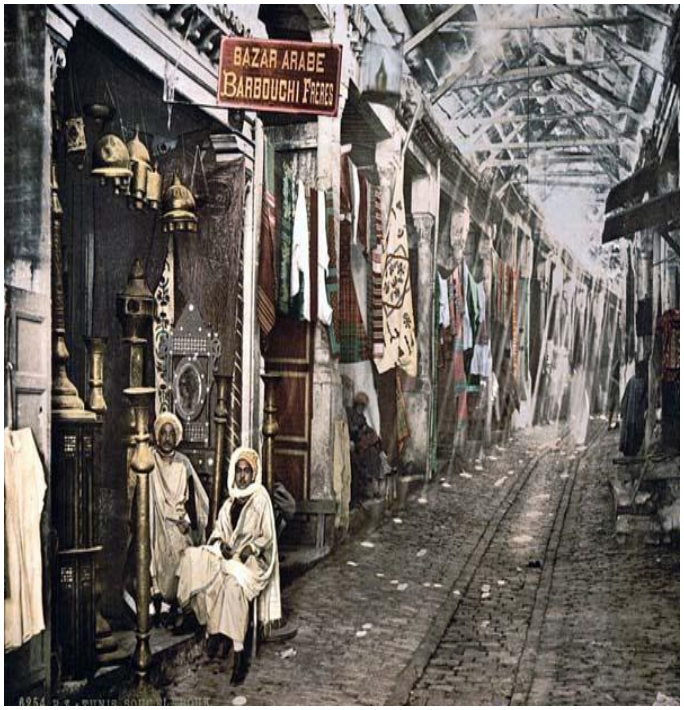

II–تونس: بلاد السياحة

أدركت فرنسا منذ حلولها بتونس أهمية ما تتمتع به البلاد من تنوع طبيعي وميراث حضاري، فحاولت استغلال ذلك لترسيخ نشاط سياحي يساهم في الدورة الاقتصادية ويوفر مداخيل قارة. فما هي المراحل التي مرّت بها السياحة في البلاد التونسية إلى حدود أواخر ثلاثينات القرن 20؟

1- الاستعمار والمحافظة على التراث

منذ البداية حاولت السلطات الفرنسية استغلال التمازج بين المدينة العربية والحديثة في محاولة لتركيز قطاع سياحي بالبلاد التونسية، فأصدر "محمد الصادق باي" بإيعاز من المقيم العام بول كامبون أمر 15 ديسمبر 1882 لاتخاذ التدابير اللازمة لحماية المعالم الأثرية والفنية والوثائق التاريخية وإنشاء متحف بمدينة تونس وتنظيم حقوق التنقيب(31). وفي نفس الوقت، أنشأت وزارة المنشآت العمومية بباريس، برئاسة السيد رونان، بعثة علمية، أستدعي فيها كل العلماء وذوي الاختصاص للاهتمام بماضي الإيالة التونسية تحت اسم " لجنة نشر السجل الأثري بتونس".

قامت هذه اللجنة ما بين 1883 و1886 بتركيز إدارة الآثار والفنون، وذلك بمجموعة من الأوامر، وهي أمري 8 و 25 مارس 1883، وأمري 12 جانفي و7 مارس 1886، وتمّ إسنادها لمندوب وزارة المنشآت العمومية. فكان قانون 26 مارس 1885، الذي نصّ على إنشاء المتحف العلي بباردو(32)، وتمّ ذلك رسميا في سنة 1888(33). ومثّل قانون 3 مارس 1920 أهم تشريع يحافظ على التراث المعماري للمدينة العتيقة

وطابعها الفني وأسواقها وحارب أيّ محاولة للاختلاط بين المدينة العربية والواجهات العصرية[34].وأنشأت السلطة الفرنسية عديد المتاحف لحفظ الآثار بالبلاد التونسية والتعريف بها:

- المتحف المركزي بباردو: خصّص للآثار الرومانية ووضعت فيه أكبر مجموعة من الفسيفساء في العالم، وخصصت أروقة منه لزيارة العموم.

- المتحف المحلي سان لويس بقرطاج: وخصص لدراسة سلسلة الوثائق الأصلية، الإطلاع على التطورات المحققة في البحث، ودراسة الحضارات المتعاقبة في تاريخ البلاد التونسية من العصر الفينيقي إلى نهاية التواجد البيزنطي.

– المتاحف المحلية بعديد المدن: سوسة، دار القوس، الكاف، الجم[35].

وللحفاظ على الآثار وحمايتها من النهب بعد عمليات التنقيب خصوصا من البعثات الإيطالية، وللتعريف بالمخزون التراثي التونسي لجلب السياح، اتخذت سلطة الحماية الإجراءات التالية:

- التسجيل اليومي للاكتشافات الأثرية بالبلاد التونسية، وتسجيل جميع القطع الأثرية التي تم وضعها في متحف باردو.

- وضع كتب وكتيبات للتعريف والإشهار للآثار والمواقع الأثرية بتونس:

* الكتاب الأول: عنون "الجرد العام والتام لجميع الآثار بتونس، وقد قسم لقسمين، خصص القسم الأول للعصور القديمة والثاني للتواجد العربي الإسلامي. وتكوّن كل قسم من 5 محاور، وهم على التوالي: الآثار الدينية، المدنية، العسكرية، الأشغال العامة، المساكن الخاصة. وكل نصب نشر عن طريق النقش أو فوتوغرافيا، خضع لوصف خاص ومفصل مصحوب بتخطيط وتقسيمات ونظرة شاملة مفصلة.

* الكتاب الثاني: صدر بأمر من المقيم العام روني ميلاي، وحوى بحوثا حول جميع المنشآت المائية التي بنيت في العصر الروماني والآثار المسجلة، مصحوب بفهرس ببيانات شاملة لأسماء الآثار وسبب إنشائها ومواقعها بدقة، ووضعت لها أرقام مرجعية على خارطة البلاد، ونشرت مع الكتاب خارطة عامة ورسومات وتخطيطات مفصلة.

* الكتيبات الخاصة: قدّمت تفصيلا للمناطق التي حوت مواقع تنقيب، أو دراسات حول المنشآت المائية الهامة مصحوبة بتخطيطات ورسوم[36].

واعتبر البعض أنّ الخطوات التي اتخذتها الإدارة الاستعمارية بإنشاء مؤسسات للاهتمام بالتراث والمعمار التونسي، هي ترسيخ للاحتلال الثقافي والسطوة على الماضي التونسي، لكن ذلك لا ينفي المساهمة الكبيرة للمستعمر في المحافظة على التراث التونسي وتوجيه البعثات للكشف والتنقيب.

ولم تكن السياحة التونسية في معزل عن السياحة بالمونوبول وخاصة بالجارة الجزائر، لذلك كان أوّل تواجد للدولة رسميا من خلال الديوان الوطني للسياحة سنة 1910، وبمبادرة من الكسندر ميليران، وزير الأشغال العامة أنشئ مجلس للسياحة– هيئة استشارية. وساهم قانون 24 سبتمبر 1919 بتوسيع صلاحيات الديوان وحدد موارده المالية. وفي عام 1920، تم تثبيت مكتب المعلومات السياحية "بيت فرنسا" في الشانزلزيه[37].

وأحسّ الفرنسي والمستثمر بالجمال الذي تتمتع به مدينة تونس والبلاد التونسية لذلك حاول بمبادرات خاصة التعريف بالبلاد وجلب السياح وتنظيم رحلات والعمل في طار جمعياتي.

2- تاريخ مساهمات شركات النقل

ساهمت شركات النقل العمومية ونقصد شركة السكك الحديدية والشركات الخاصة لصنع السيارات مثل ميشلان، ستروان، رينو في تطوير المجال السياحي بمدينة تونس والبلاد التونسية والمغاربية وحتى الداخل الإفريقي.

فكانت شركات السيارات توزع كتيبات ونشريات وبطاقات بريدية شهريا، قدّمت فيها كل المعطيات حول البلاد التونسية والمغاربية عموما بهدف جلب السائح لاستغلال السيارات في رحلاته وعمليات استكشافه[38]، خاصة بعد مراهنتها على السهول الممتدّة بهذه المنطقة التي اعتبرت برهانا على نجاح اختراع السيارة[39].

ويبدو أنّ ذلك كان منطقيا في إطار التوسع الرأسمالي والكولونيالي الذي عرفته فترة آخر القرن 19 وبداية القرن 20، فغاية شركات السيارات الربح والتسويق والبحث عن الموارد بالمجال المغاربي والإفريقي. فكان بالسودان وفي سنة 1889 أوّل المحاولات من خلال شركة سيتروان لإدخال السيارات بالمجال الإفريقي لكن فشلت. ونجحت في تونس ما أخفقت في تحقيقه في السودان في أوّل القرن 20 بتأمين خطين للبريد بالسيارات، وكانت أول رحلة سياحية ناجحة بالمغرب الأقصى سنة 1905[40].

ومع إنشاء شركة النقل بالسيارات سنة 1908 بالجزائر، بدأ تنظيم رحلات مستمرة ومنتظمة بين البلاد التونسية والجزائر، وكانت الرحلات في اتجاه الوسط والجنوب الجزائري إلى حدود عين صالح وتوقارت وتومباكتو وبورام[41]، لتنتقل الوجهة في أواسط عشرينات القرن العشرين إلى الداخل الإفريقي ونحو النيجر، وتنظيم رحلات متعدّدة رغم التكلفة الضخمة ودخول الطائرات مجال النقل[42].

ومثلت شركة النقل الحديدي نقطة الارتكاز في التعريف بالسياحة بمدينة تونس والبلاد التونسية والشمال الإفريقي[43]، فقد كثفت من الدعاية الشهرية والرحلات الخاصة التي تجوب مدينة تونس بعد أن ربطتها بضواحيها بترامواي وأيضا كامل التراب التونسي بعد أن ربطت مفاصلة بالسكك الحديدية[44]. فعملت السكة الحديدية بالمونوبول على وضع تونس ضمن المحطات التي تشملها رحلاتها بتعريفة مخفضة[45]، واعتمدت الشركة الحديدية بتونس الإشهار للرحلات السياحية الاستثنائية بأسعار مخفضة، تساوي نصف الأسعار العادية، شملت كامل البلاد التونسية حسب المواسم السياحية.

ففي الموسم الربيعي من منتصف شهر مارس إلى بداية شهر جوان، كانت تخصص مجمل رحلاتها لمدينة تونس وأحوازها بتنظيم رحلة كل أسبوع تمتد ليومين أو ثلاث باتجاه قرطاج والمرسى وسيدي بوسعيد وباردو...[46].

وفي الموسم الصيفي من منتصف شهر جوان إلى منتصف شهر أوت، كانت توجه الرحلات في الاتجاهات التالية:

- تونس– سوق الأربعاء (جندوبة): للمرور عبر آثار بلاّ روجيا، والمدينة الرومانية تحت الأرض مع حفلة عشاء عند العودة.

- تونس– زغوان: لزيارة المدينة ومعبد المياه وقصر الماء الذي يزوّد قرطاج.

- تونس– نابل الحمامات، لزيارة نابل المدينة والإطلاع على كيفية صناعة الفخار، وغابات البرتقال على حدود الخليج.

- تونس– القيروان: زيارة المدينة والمساجد والأسواق والإطلاع على كيفية صناعة الزرابي.

تونس– سوسة: زيارة المدينة العتيقة والسراديب التي تعود إلى الفترة المسيحية والمتحف مع حفلة عشاء عند العودة[47].

وفي الموسم الخريفي من آخر شهر أوت إلى شهر نوفمبر، وهو ذروة الموسم السياحي، فهي تخصص كل 15 يوما رحلة تشمل كامل التراب التونسي. وكان الانطلاق بقطار سياحي مصحوب بعربة– مطعم تسحبها قاطرة مازوت (ديزل) في اتجاه سوسة– الجم– صفاقس– (قفصة اختياريا)– توزر (إلى حدود نفطة) ثم سبيطلة والقيروان عند العودة، ويقضي السياح الليالي في أماكن ترفيه مخصصة لهم وينامون في أفخم الفنادق، وكانت العودة بعد 9 أيام. وحظي السياح برحلة بالسيارات من توزر إلى بسكرة[48].

وفي الموسم الشتوي تمّ التنسيق بين شركتي الحديد بتونس والجزائر، للسفر من مدينة تونس إلى قسنطينة أو العكس، وكانت شركات السيارات، خاصة "رينو"، بالتنسيق مع شركتي النقل الحديدي، تساهم في الموسم الشتوي بتنظيم رحلتين كل أسبوع بالسيارات عبر المسالك الترابية والكثبان الرملية من توزر إلى بسكرة، وتشمل الإفطار والغداء والعشاء[49].

3– تاريخ مساهمة الجمعيات السياحية

لعبت الجمعيات السياحية والتراثية مهمة ضخمة في بداية القرن العشرين للتعريف بالبلاد التونسية وإبراز مخزونها الحضاري ومزاياها الطبيعية والعمرانية:

- الجمعية الشتوية لمدينة تونس: تأسست سنة 1902، مهمتها وضع كل التسهيلات للأجانب للإقامة والتجوال في مدينة تونس وتقديم المعلومات المفيدة حولها (تزويد، إقامة، فيلات، محيط المدينة، المحطات المناخية، سيارات، معالم أثرية، وموارد مختلفة...).

- لجنة المبادرة للشمال الغربي: مقرها سوق الأربعاء، وهدفها تطوير السياحة في الشمال الغربي التونسي الذي وجد فيه أروع المعالم الأثرية وأجمل المناظر الطبيعية، وقامت اللجنة بنشر عديد المنشورات بالألوان للتعريف بالمنطقة.

- اللجنة الدائمة للمهرجانات بمدينة تونس: تأسست سنة 1897، تحت إشراف المراقب المدني لمدينة تونس، ولها بعد عالمي، واهتمت بتنظيم المهرجانات ومراقبتها بمدينة تونس، وتألفت من 40 عنصرا من دول مختلفة (فرنسيون، مالطيون، يونانيون...).

- لجنة المواقع الأثرية الخلابة بنادي الجولان الفرنسي، فرع قرطاج: تأسست سنة 1906، مهمتها ترميم المنشآت الأثرية وإجراء جرد للمواقع ورسم الخرائط وأخذ الصور وتحضير البطاقات البريدية للتعريف بالبلاد .

- المؤسسة التونسية لأصحاب الفنادق وأصحاب المطاعم والتجار: تأسست في 7 ديسمبر 1907، وأهدافها توحيد المصالح بين أصحاب الفنادق وأصحاب المطاعم بتونس مع تطوير الصناعة الفندقية في تونس وكامل إفريقيا الشمالية عن طريق الإعلانات والبحث عن الوسائل والسبل التي بإمكانها تحقيق الازدهار للفندقة والمطاعم بالبلاد التونسية مع الدفاع بكل الوسائل عن القطاع وأعضاء الجمعية، وعدد الأعضاء 400.

وقامت هذه الجمعية بين 1908 و1911 بنشر 10 ألاف ملصقة حول تونس و150 ألف كتيب وصفي باللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية للدعاية مع فتح وكالات أسفار في أوروبا وأمريكا ووضع إعلانات للبلاد التونسية في أكبر المجلات العالمية للسياحية والرياضية مع تنظيم مهرجانات للتعريف بالعادات والتقاليد العربية والفروسية بالمضمار البلدي ببلفدير[50].

ونتيجة لمجهود هذه الجمعية الأخيرة عرفت السياحة بالبلاد التونسية ازدهارا مبهرا بين 1908 و1911، إذ زارها سنويا 12.000 سائحا منهم 3.000 في شكل قوافل سياحية جماعية، وهو ما اعتبر مؤشراً جيدا في تلك الفترة، وبداية رسمية للسياحة التونسية، وحظيت مدينة تونس ب ¼ السياح أما البقية فتوزعوا بين دقة وبنزرت والقيروان والجنوب.

4- الوجهة السياحية

مثلت الوجهة السياحية والدعاية والنشاط السياحي في بداية القرن العشرين، إلى حدود 1931 مع المؤتمر التقييمي محلّ دهشة وتعجب، فلم تدرج السواحل التونسية من الشمال إلى الجنوب في صلب الدعاية السياحية، وإن حصل ذلك فنادرا أوفي إطار المنظر الطبيعي العام.

وكانت الدعاية والإشهار والسفرات مخصصة بالمقام الأول نحو السياحة الثقافية والمعالم الأثرية بالإطلاع خصوصا على المدينة العتيقة وأسواقها والبناءات البيضاء والأزقة الضيقة وبدرجة أقل نحو المعالم الأثرية داخل البلاد مثل ملعب الجم أو سبيطلة والقيروان أو الشمال الغربي.

ثمّ اهتمت الدعاية بالسياحة الترفيهية والتمتع بالمناظر الطبيعية في الشمال والجنوب، فكانت وكالات الأسفار والمهتمون بالشأن السياحي بالبلاد التونسية يوزعون شهريا ملصقات إشهارية بتنظيم رحلات لممارسة الرياضة والصيد والعيش في كنف الطبيعة. ففي الجنوب، التنزه بالسيارات في الكثبان الرملية والمسالك الترابية بين توزر وبسكرة، وفي الشمال ممارسة الرياضة وصيد الحيوانات والطيور في الغابات المترامية في الحدود الشمالية في خمير وعين دراهم وطبرقة.

ومثل الصيد في المناطق الغربية للبلاد التونسية من العوامل الجالبة للسياح، لذلك أولتها السلطة الأهمية من حين لآخر فهيأت المنتزهات الغابية بخمير وعين دراهم وطبرقة. لكن هدّد تجاوز القانون والصيد العشوائي الثروة الحيوانية، لذلك حاولت الحكومة الفرنسية من حين لآخر منع صيد بعض الأنواع من الحيوانات والطيور، فأمر 15 جانفي 1910 يمثل حجر الزاوية لحماية الثروة الغابية من القطع والحيوانات من الصيد العشوائي[51]، لذلك كان أمر 6 نوفمبر لنفس السنة الذي منع السياح في المجال الغابي صيد الطيور لمدّة 4 سنوات، وإن مثل هذا الحظر للصيد عائقا أمام الإصلاح السياحي المنتظر في الثلاثينات.

5- مسيرة الإصلاح السياحي في الثلاثينات

لم تحقق السياحة في البلاد التونسية طيلة الربع الأول من القرن العشرين أي انجازات أو حتى وضع عادة "التسيح" بالبلاد التونسية، فكانت مرتبطة في العموم بالجهود الخاصة من خلال شركات النقل أو المطاعم والفنادق أو الجمعيات. فاهتمام السلطة السياسية بالتراث المعماري والحضاري كان في علاقة برغبتها في السيطرة الثقافية وحفظ الماضي الحضاري التونسي وليس باستغلاله في السياحة، كما أنّ الديوان السياحي لم يقم بدوره في التعريف بالبلاد التونسية بل خصص كل جهوده نحو فرنسا وباريس وتناسى البلدان المغاربية.

فكان مؤتمر السياحة في 29 و30 سبتمبر 1931، للبحث في أسباب الفشل السياحي بالبلاد التونسية والمغاربية عموما والبحث عن الحلول لتجاوز الأزمة التي عاشها القطاع. فكانت المطالب بإدراج حقيقي للسياحة في التنشيط الاقتصادي والدفع نحو الثراء والرخاء مع الأزمة العالمية التي اجتاحت العالم. فقد نجح اليابانيون في بلادهم والهولنديون في جزيرة جاوة والانجليز بمصر والأمريكان بألاسكا، لكن المغرب العربي لم ينجح في ذلك، ونجحت السياحة بالدول الشبيهة التي تتمتع بنفس مميزات وخصائص المغاربة مثل مصر ولبنان وسوريا ومدن القاهرة وبيروت وحلب وفشلت في تونس والجزائر وفاس. فكانت الإجراءات التالية:

- تخفيض الأسعار وإعادة التسويق: بناء على مقاربة مع الدول والمدن نظيرتها، وذلك بالنظر في أسباب النجاح السياحي في بيروت ودمشق وحلب والإسكندرية والقاهرة، لأنّ العيب ليس في المدن وإنما في التسويق والدعاية والتنشيط السياحي والأسعار.

- توفير البنية التحتية التي حدّدت لها 10 سنوات لإنجازها: وذلك ب:

1- التسريع بتدعيم السكة الحديدية وربط المدن المغاربية ببعضها البعض، ففي البلدان المغاربية وجد 7000 كم من السكك الحديدية في حين في جزيرة جاوة فقط وجد 5000 كم.

2-تكثيف الطيران السياحي بين مدن بلدان المغرب العربي بوضع خط أوّل باتجاه شرق- غرب من تونس إلى الدار البيضاء، وخط ثاني يربط بين 5 مدن وهي تونس- الجزائر- وهران- الرباط- الدار البيضاء. مع وجوب ربط المطارات بطرقات باتجاه شمال- جنوب والتي ستلعب دور المسالك السياحية.

3-بناء شبكة من الطرقات بطول 8000 كم موازية للخط الجوي: خط بري أوّل يربط بين تونس- عنابة- قسنطينة- جيجل- بجاية- الجزائر، وخط ثاني يربط سوسة- القيروان- قفصة- توزر- توقارت الذي يمتد إلى قسنطينة، وخط ثالث يصل تونس- باتنة- بسكرة- توقارت، وخط رابع يمتد من خليج الحمامات بخليج تونس ليصل إلى مدينة الجزائر.

4-توسيع شبكة النقل البحري بخطوط بحرية بين فرنسا وبلدان المغرب العربي من موانئ مرسيليا وفوندر وبوردو إلى موانئ تونس- بنزرت- عنابة- فيليبو فيل- الجزائر ووهران، وتخصيص مسالك بحرية بين إسبانيا والمغرب وصولا إلى تونس، ومسالك أخرى بين إيطاليا وتونس مع تكثيف الرحلات أسبوعياً.

وكلفت الشركة العامة للنقل الأطلسي بهذه المهمة لما حققته من نتائج استثنائية في تطوير القطاع السياحي ببلدان المغرب العربي في النصف الثاني من العشرينات بسب نجاحها في توفير الرفاهة أثناء التنقل وبأسعار مقبولة.

- الشواطئ: لقيت الشواطئ أيضا اهتماما في المشروع السياحي الجديد، بربط شبكة طرقات تصل:

1-شاطئ قابس بنظيره في بنزرت عبر صفاقس- سوسة- تونس، ويمتد الطريق نحو توزر ومنه إلى الجزائر لتسهيل تنقل المصطافين.

2-الساحل الجزائري من قالة إلى وجدة.

3-ربط الساحل المتوسطي بالساحل الأطلسي من وجدة إلى الرباط ومن طنجة إلى مراكش.

- التعريف بالحضارة المغاربية: الآثار الرومانية، مساجد مشهورة، الأماكن المائية المشهورة، المدن العصرية، الأحياء العربية، المناطق الفلاحية، الواحات التي يجب إدراجها في المنتوج السياحي.

- التسويق للغابات: ممتدة على طول الساحل المغاربي، وهي مهيأة لممارسة هوايات الصيد مثل القط البري، الوشق، الفهد، الضبع، الذئب، الثعلب، الخنزير، الغزال، الأيل، الخرفان، أرانب، أرانب برية، الحجل، الحجل الطائر والصقور.

- الفندقة والرفاه: وذلك بوجوب بناء 44 نزل فخمة وتوفير 300 سيارة سياحية.

ولتحقيق هذه التوصيات شكلت لجنة ذات اختصاصات وتكونت من:

1-الدعاية:

- رئيس: ريكارد، وزير سابق.
- مقرر: موريس روندات- سان.

2-النقل البحري:

- رئيس: بريار، الرئيس الشرفي للغرفة الوطنية للفندقة الفرنسية.
- مقررك مارشيقاي: السكرتير العام للجنة المركزية للهواة.

3-صناعة الفندقة:

- رئيس: بريار، الرئيس الشرفي للغرفة الوطنية للفندقة الفرنسية.
- مقرر: هافيناي، السكريتير العام ل L.M.C.

4-سياحة صحراوية وملحقات ممكنة:

- رئيس: سيكست دو بارون.
- مقرر: أورجيفال.

5-وكالات الأسفار:

- رئيس: جينو، رئيس إتحاد نقابات مكاتب السياحة.
- نائب رئيس: قارسي، الرئيس التجاري للشركة الدولية لمستودعات السيارات.
- نائب رئيس ثان: روتيفال، مدير وكالات الأسفار الهولندية.
- المقرر: مدير الإتحاد الوطني لوكالات الأسفار[52].

وشهدت السياحة بتونس والمجال المغاربي تطورا ملحوظا بداية من 1935 بالتعاون بين بيت فرنسا والهيئة العامة للسياحة واللجنة الوطنية للتنمية السياحية والعلاج بالمياه والديوان الوطني للسياحة. وبعد تمكن

حكومة الجبهة الشعبية من السلطة بفرنسا سنة 1936 أعطت السياحة طابعا شعبيا بعديد الإجراءات للعمال مثل تحديد ساعات العمل وتمكينهم من راحة سنوية وتوفير القروض لأغراض سياحية، وهو ما مكن فرنسا من أن تتحوّل إلى أوّل وجهة سياحية في العالم[53].

خاتمة

مزجت الدراسة بين التاريخ والتراث، فهي محاولة لدراسة تونس مدينة وبلدا، مدينة تونس التي جمعت بين أصالة الماضي وعراقة الحضارة الإسلامية والمدينة الحديثة التي بنتها فرنسا وفقا للهندسة المعمارية الغربية الحديثة، وبلدا جمعت بين جمال الطبيعة وتنوعها وغزارة أثارها نتيجة تعاقب الحضارات عليها. لذلك سارع المحتل منذ حلوله بها إلى حماية المعالم الأثرية والفنية والوثائق التاريخية وإنشاء متاحف وتنظيم بعثات للتنقيب وإصدار كتب وكتيبات قصد التعريف بها واستغلالها في التصدير السياحي. وبدأ القطاع السياحي بتونس مترنحا معتمدا على شركات النقل العمومية والخاصة والجمعيات والمطاعم والفنادق ذات الصلة قصد الترويج لمنتوجها. ومع الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات تنبهت السلطة الاستعمارية إلى أنّ القطاع السياحي بالبلاد التونسية والمغاربية عموما يمكن أن يكون عنصرا ثابتا في الاقتصاد خاصة ما تتمتع به المنطقة من خصائص مناخية وطبيعية وحضارية. فكان مؤتمر 1931 اللبنة الأولى لتركيز عادة التسيّح ببناء مقارنة مع البلدان مثيلاتها مثل مصر والشام أو حتى بلدان شرق آسيا، واستطاعت في فترة وجيزة أن تحتل فرنسا المرتبة الأولى عالميا سياحيا خاصة بعد صعود الجبهة الشعبية للسلطة في سنة 1936 واتخاذها عديد الإجراءات أخرجت التسيّح من النخبوية إلى الشعبوية. عموما بين البحث أنّ القطاع السياحي بالبلاد التونسية لم يكن وليد الاستقلال وسنوات السبعين مثلما حاولت بعض الدراسات تأكيد ذلك، بل هو قطاع قديم بدأ مع بداية القرن العشرين وتأصل في أواخر سنوات الثلاثين.

صورة 7: إعلان سياحي لحمام الأنف

صورة 8: إعلان سياحي للبلاد التونسية

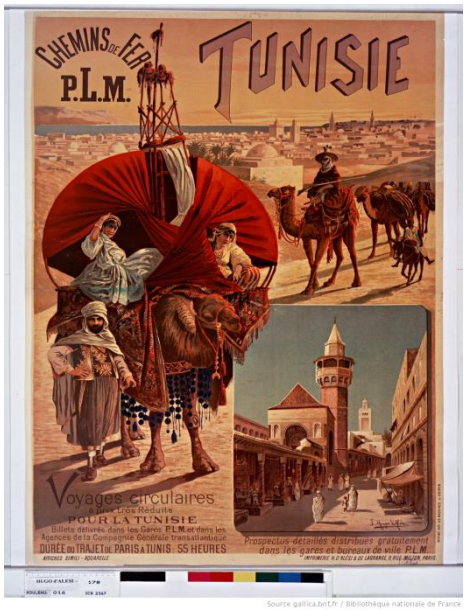

الهوامش

(1) *La Tunisie*, publication éditée avec le concours et la collaboration de la Résidence générale de la Tunisie, sans date, p5.
(2) Flaux (Armand), *La régence de Tunis aux dix- neuvième siècle*, Paris 1865, p27.
(3) Juillet Saint- Loger (Marcel), *La Régence de Tunis*, Paris 1874, p 9.
(4) **جريدة الزمان**، 3 أكتوبر 1933، مقال بعنوان " السياحة في تونس".
(5) **المصدر نفسه**، 9 أكتوبر 1933، مقال بعنوان " الشمائل التونسية في نظر الغريب".
(6) **المصدر نفسه**.
(7) **المصدر نفسه**، 21 فيفري 1933.
(8) Flaux (Armand), p 21.
(9) Dumant (J.Henry), *Notice sur la régence de Tunis*, Tunis 1901, p 37.
(10) Fournel (Marc), *La Tunisie : le christianisme, l'Islam dans l'Afrique septentrionale*, Paris, 1886, p 67.
(11) *La Tunisie*, publication, p 5.
(12) Graham (Alexander), *Travels in Tunisia*, London 1887, p 4.
(13) Claretie (Léo), *Feuilles de Routes en Tunisie*, Paris 1893, p33.
(14) Vitry (Alexis- Louis), *L'œuvre en Tunisie*, Paris 1900, p 10.
(15) Fagault (Paul), *Tunis et Kairouan*, Paris 1889.
(16) Saladin (Henry), *Tunis et Kairouan*, Paris 1908, p 42.
(17) *Idem*.
(18) *Idem*.
(19) Flaux (Armand), p 43.
(20) Claretie (Léo), p 37.
(21) Flaux (Armand), p 43.
(22) Vitry (Alexis- Louis), p 11.
(23) الحلاق (ندى)، "الكولونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران"، **مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية**، المجلد الثامن والعشرون، العدد الأول، 2012، ص 255.
(24) *La Tunisie*, publication, p5.
(25) Dumant (J.Henry), p 6.
(26) **جريدة الزمان**، 21 نوفمبر 1933.
(27) *Bulletin mensuel de l'office du protectorat français*, n° 188, Décembre 1926, p190.
(28) *Ibid*, n° 244, Septembre 1931, p 140.
(29) **جريدة الشباب**، 12 فيفري 1937، مقال بعنوان " كرنفال".
(30) *Bulletin officiel de la Direction générale de l'instruction publique et des beaux-arts*, n°3, Juin- octobre, Tunis 1933, p 94.
(31) *Journal Officiel Tunisien*, 25 Janvier 1883, p5.
« Editant des mesures conservatoires des monuments d'art et des documents historiques, établissant un musée à Tunis et règlementant le droit défouille ».
(32) *Ibid*, 26 Mars, 1885, p 585.

(33) Bacha (Myriam), « Les institutions patrimoniales de la Tunisie au début du protectorat : un projet scientifique au service de colonisation », *Outre mers*, T 94, n° 356- 357, 2007, p 139.
(34) *Rapport au président de la République sur la situation de la Tunisie 1920*, Tunis 1921.
(35) Anterrieu, Berge, Boulle et d'autres, *Conférences sur les administrations tunisiennes*, Sousse 1899, p 489-490.
(36) *Ibid*, p 492.
(37) Berthonnet (Arnaud), « Le tourisme en Algérie (de 1880 aux années 1940) : une histoire à écrire», *Revue Tourisme*, Mai 2006, p 2.
(38) Carte Michelin, *Maroc – Algérie- Tunisie*, n° 151, 1929.
- *Bulletin mensuel de l'Office du Gouvernement tunisien*, n° 193, Mai 1927.
- *Ibid*, n° 184, aout 1926.

Par automobiles Renault à six roues. Pendant la période hivernale, les touristes auront d'entrer en Tunisie ou de la quitter sans être astreints au long parcours Tunis- la possibilité Constantine. Le service de correspondance automobile des Compagnies de Chemins de fer de Tunisie et la Compagnie des Chemins de fer Algériens de l'État leur offre le trajet le plus attrayant et le plus varié; traversant alternativement dunes, chotts, gorges sauvages et steppes sahariennes, l'itinéraire rencontre huit oasis de caractère différent ayant chacune leur cachet spécial. Un camping confortable sépare agréablement les deux journées du trajet. Départ de Tozeur et de Biskra les lundi et vendredi dans chaque sens à 7 heures pour arriver les mardi et Biskra comprenant le samedi vers 17 heures. Le prix du trajet automobile de Tozeur à camping, les repas et lunchs est fixé à 1.200 fr.

(39) *Revue de l'association générale automobile*, n° 2, Février 1908, p 14.
(40) Jean Maurray Levine (Alison), « Tourisme Citroën au Sahara (1924- 1925) », *Revue histoire*, n° 68, 2000. P 97.
(41) *Ibid*, p 98.
(42) Dulucq (Sophie), « L'émergence du tourisme dans les territoires de l'Afrique tropicale française (1920- 1950), *publications de la société française d'histoire d'outre-mer*, p p 3- 13.
(43) *Bulletin mensuel de l'Office du Gouvernement tunisien*, n° 197, septembre 1927.

Le train spécial dit «Train Touristique » a été organisé par les Compagnies de Chemins de Fer Tunisiennes pour permettre la visite rapide des points les plus intéressants de l'intérieur de la Tunisie avec le maximum de confort. Aux dates indiquées ci-dessous, ce train quitte Tunis le samedi matin et pendant cinq jours conduit ses voyageurs en chemin de fer, est de 700 francs, toutes taxes comprises. Aucune réduction n'est faite aux militaires et aux enfants. Ces billets sont valables seulement pour le train mis en marche à la date qui y est indiquée. Toutefois, les voyageurs désirant visiter Gabès pourront utiliser pour s'y rendre les trains (5) 21 Tunis-Sfax et 21 Sfax-Gabès la veille des jours de mise en marche des trains spéciaux et revenir prendre ces derniers à leur passage à Graiba sans avoir à payer d'autre supplément de taxe que le prix de leur billet aller et retour pour le parcours Graïba-Gabès. Les touristes ont la faculté de n'effectuer que le parcours d'une des deux sections : Tunis-Sfax-Tozeur, prix 358 fr. 65, ou Tozeur-Kairouan-Tunis, prix 341 fr. 35.

Ce fractionnement permet un plus long séjour à Tozeur et facilite toutes les combinaisons de l'utilisation du Train Touristique avec la traversée du désert de Tozeur à Biskra ou inversement en autos six-roues. Ce service est assuré par une Société correspondante des Compagnies de Chemins de fer et les départs ont lieu régulièrement les lundis et vendredi dans chaque sens pour arriver les mardis et samedi soir.

(44) Guillot (Émile), La *Tunisie, pays de colonisation, de mines et de tourisme*, Paris 1912, p224.

(45) *Revue de l'association générale automobile*, n° 7- 8- 9 -10 -11- 12, de Juillet à Décembre 1907.
(46) *Bulletin mensuelle de l'office du protectorat français Tunisie*, n° 193, Mai 1927.
(47) *Ibid*, n° 184, Août 1926.
(48) *Idem*.
(49) *Idem*.
(50) Lambert (Paul), *Dictionnaire illustré de la Tunisie : choses et gens de Tunisie*, Paris 1912.
(51) *Rapport au président e la république sur la situation de la Tunisie 1910*, Tunis 1910.
(52) *Congrès du Tourisme et Cynégétisme coloniaux*, 29 septembre à 3 octobre 1931.
(53) Berthonnet, p2.

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

مظاهر الحياة الثقافية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني (1835- 1911م)

إعداد :
أ. سعد إدريس سعيد
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية – البيضاء

الملخص:

تتناول هذه الدراسة مظاهر الحياة الثقافية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م، وهي الفترة التي شهدت نهضة فنية وأدبية، نتيجة الإصلاح والتجديد الذي انتهجته السلطات العثمانية وولاتها في ولاية طرابلس الغرب، والذي جاء نتيجة تهيئة ظروف معينة ساهمت ولاشك في إنجاح هذه النهضة والإصلاحات التي أرادت السلطات العثمانية تطبيقها في الولاية، منها على سبيل الذكر صدور القوانين المشجعة على إنجاحها، بالإضافة إلى تقبل السكان المحليين لمثل هذا النهج، رغبةً في مجاراة التطورات العلمية والفكرية والأدبية.

إن تبني السلطات العثمانية في عهدها الثاني بولاية طرابلس لنهج الإصلاح، لاشك أنه أوجد ازدهاراً في الحياة الأدبية والفكرية والعلمية من خلال سعيها للأخذ بمظاهر الحضارة الحديثة ومتطلباتها في جميع المجالات، فكان التنوع الأدبي والعلمي والثقافي عنواناً من عناوين ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1835-1911م).

ومن خلال تطوير التعليم وتوسيع مجالاته بعد أن اقتصر على التعليم الديني، وتطور الصحافة وإبراز دورها لتكون منبراً فكرياً للمثقفين والشعراء لتحقيق نهضة فكرية وأدبية واسعة في الولاية.

Abstract

This study deals with the cultural life of Tripoli Libya during the ottoman second period from 1835-1911. This period characterized by the development of artistic and literary Renaissance as aresult of the ottoman cenewal and reforms in Tripoli, which came as aresult of a special conditions that participated into the Renaissance and the ottoman which the ottoman authority wanted to practice in the stale such as issuing the encouraging low for it success and the acceptance of the local people to way to take the scientific literary and the intellectual property developments.

The adoption of the ottoman authority to the reforms in Tripoli in its second period caused the flourishment of the scientific life through it pursuit to take by aspects of the modern civilization and it requirements through the development of education and the expansion of it fields offer it confine on the religious education and the development of the press which participated for the development of Tripoli into the Renaissance.

مقدمة:

امتدت السيطرة العثمانية خلال مراحل التاريخ الحديث على مناطق واسعة من العالم في قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا، فكان لهذا التوسع أثر في صبغ شعوب وبلدان تلك المناطق بالكثير من المظاهر والسمات الحضارية، ولعل المتمعن في أحداث التاريخ العثماني يجد أن مقدمات الوجود العثماني في مناطق الشرق الإسلامي عامة والمغرب العربي بصفة خاصة، كان وليداً لأسباب مباشرة، فالعثمانيون لم يقدموا في بدايات عهود دولتهم على الزج بأنفسهم في صراعات مناطق الشرق الإسلامي لعدة اعتبارات تاريخية ودينية، منها على سبيل الذكر احترام آل عثمان للتقاليد الإسلامية، ذلك أن تلك المناطق كانت سابقاً تحت ولاء الدولة العباسية؛ ولأن الدولة العثمانية في أساسها قامت على مبدأ نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، وهذا بطبيعته لا يقوم في مناطق الإسلام هو أساسها.

كان الوجود العثماني في مناطق الشرق الإسلامي مصحوباً بمسببات ساهمت في دخول العثمانيين إليها سلمياً، منها ولاية طرابلس الغرب التي دانت بالولاء لسلطة الباب العالي مع بدايات النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وذلك بعد أن استنجد سكانها بسلطات الاستانة لتخليصهم من ويلات الحكم الصليبي المتمثل في فرسان القدس يوحنا، وبالتالي كان قدوم العثمانيين للولاية لنجدة سكانها مما جعلهم مقبولين لدى السكان المحليين، ومكنهم من سرعة الاندماج والانصهار معهم كونهم يمثلون لواء الإسلام حتى إن حكمهم امتد في الولاية لما يزيد عن ثلاثة قرون (1551-1911م) مقسمة على ثلاث فترات، امتدت الفترة الأولى 1551-1711م وعُرفت بالفترة العثمانية الأولى، وكانت طرابلس تُدار من قبل الإدارة العثمانية المباشرة تحت مسمى ولاية طرابلس الغرب، بينما كانت الفترة الثانية 1711-1835م تُدار بشكل غير مباشر تحت حكم أسرة محلية تدين بالولاء للباب العالي "الفترة القرمانللية"، ثم عاد العثمانيون إلى حكم طرابلس بشكل مباشر نتيجة تدهور أحوال الإيالة وهو الاسم الذي عُرفت به البلاد زمن القرمانليين، وكانت العودة عام 1835م وحتى عام 1911م، وعادت التسمية إلى "ولاية طرابلس الغرب".

ولعلّ الفترة الأخيرة تمثل أهم عهود الحكم العثماني في طرابلس كونها تزامنت مع مرحلة الإصلاح والتجديد الذي شهدته الدولة في مختلف سبل الحياة، وهذا لا ينقص تاريخياً من أهمية المراحل السابقة التي كان لها عدة تطورات وعلى مختلف الأصعدة، ولكن الظروف العامة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، كالثورات الداخلية التي كانت تقوم ضدها في المناطق التي تسيطر عليها كليبيا، بالإضافة إلى انشغالها بحروبها التوسعية في العالم، وإلى جانب ذلك فإن طبيعة الأوضاع الداخلية في طرابلس حدت من مظاهر التطور في مختلف الجوانب، ولكن المحاولات العثمانية بدأت في الإصرار على الإصلاحات وحرصوا على الاستفادة من التجارب السابقة في طرابلس، ولا شك أن كل ذلك جعل ولاية الدولة في طرابلس منذ عام 1835م تدخل

مرحلة تاريخية تزامنت والإصلاحات المختلفة، ولاشك أن آثار هذه الإصلاحات أثرت في مظاهر الحياة المختلفة لولاية طرابلس الغرب، ومنها على سبيل الأهمية تأثيرها على الجوانب الثقافية.

إن اقتصار اهتمام الباحثين والدارسين في مجال الدراسات التاريخية على دراسة الجوانب السياسية والاقتصادية سواءً من ناحية الأحداث أو المظاهر وربطها بالتغيرات التاريخية المختلفة، وإهمال الجوانب الاجتماعية والثقافية في تاريخ الشعوب والحضارات جعل الكثيرين يحكمون على تلك الأحداث في التاريخ بشكل سلبي تنقصه الكثير من الحقائق التي قد تعكس ملامح كثيرة إيجابية في تلك الأحداث قد لا تتعلق بسياسات الدول الحاكمة أو السلطات السياسية، وإنما مبعثها جهود داخلية قادتها مجموعات النُخب الثقافية، ومن هنا جاءت الرؤية لدراسة **(المظاهر الثقافية لولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م)**، لإعطاء صورة حقيقية على ما كان سائداً في طرابلس إبان تلك الفترة لتقييم مرحلة هامة من تاريخ تلك الولاية التي شملت حدودها الجغرافية كل الأراضي الليبية الحالية.

إن البحث في تفاصيل هذه الإصلاحات يتطلب دراسة سياسة الدولة العثمانية الرامية للإصلاح من خلال إصدار القوانين والفرمانات من قبل ولاة البلدان العربية، وهذا يتطلب دراسة دقيقة للإصلاحات وتحليلها ومقارنتها حتى تتضح كل جزئيات الموضوع، وللوصول إلى ذلك ستعتمد على المنهج التاريخي السردي وتحليل الأحداث ومقارنتها.

وحتى يتسنى لنا الإلمام والإحاطة بكل جوانب هذا الموضوع، فإننا سوف نتناول فيه أبرز المعالم الثقافية التي شهدتها الولاية في تلك الفترة، سواءً التعليمية أو الدينية او الأدبية والفنية، ومدى أثرها وتأثرها بالدولة العثمانية، وقد قمنا بتقسيم عناصر الموضوع إلى ثلاثة عناصر أساسية، نبحث في العنصر الأول منها (التعليم) من خلال دراسة تطور نظمه وأدائه وتجاوزه لدور الزوايا والكتاتيب في الفترات السابقة، ومدى حرص السلطات العثمانية على مواكبته لمعناها لتحديث والتطور التعليمي.

أما العنصر الثاني نبحث فيه (التعليم الديني) ذلك أنه مثل جانباً مهماً من جوانب الحياة الثقافية التعليمية لولاية طرابلس، فالسلطات العثمانية الحاكمة في الولاية اهتمت به غاية الاهتمام؛ لأنه يؤدي رسالة علمية ثقافية قائمة على مبادئ الإسلام السمحة، كما أن الزوايا والدور كانت حافلة بمجالس الأدب والثقافة بإقامة حلقات العلم والأدب.

أما العنصر الثالث فسيكون محور بحثنا فيه حول (الصحافة وتطور الحياة الفكرية) التي تزامنت نهضتها وبروز دورها مع بداية العهد العثماني الثاني، فقانون الولايات نصت مواده على الاهتمام بالحياة الفكرية والأدبية، وبذلك شهدت ولاية طرابلس نهضة فكرية وأدبية من خلال إصدار المطبوعات والجرائد الرسمية التي أظهرت الملامح العامة لحياة السكان الفنية والأدبية.

أولاً: التعليم :

شهد التعليم في الفترة العثمانية الثانية 1835-1911م تطوراً في نظمه وأدائه، فلم يعد كما كان مقتصراً على الجوانب الدينية المحصورة في الزوايا والكتاتيب، بل أصبح مواكباً لعناصر التحديث وبرامجه التي شهدتها الدولة العثمانية آنذاك وفق ما نصّ عليه قانون إنشاء الولايات في الدولة الصادر في 7/ جمادي الثاني 1281هـ، الموافق 8/ نوفمبر 1864م، ولكن الولاية سبقت ذلك في أن بادر ولاتها بإصدار عدة فرمانات تنظم التعليم وتعتمد كل السبل الكفيلة بجعله تعليماً مواكباً للحداثة والإصلاحات في الدولة.

كانت البداية في تأسيس المدارس الرشيدية سنة 1858م، وهي المدارس الإعدادية التي تُدرس فيها اللغات الأجنبية مع اللغة التركية والمواد العلمية من الرياضيات والعلوم، بالإضافة إلى المواد الاجتماعية واللغة العربية، وفي سبيل إنجاح ذلك فقد تمّ إنشاء مدارس رشيدية للبنات، وافتتاح مدرسة ثانوية ومدرسة لتخريج المعلمين، وفي سنة 1874م افتتحت مدرسة "إصلاح خانة" وهي مدرسة إصلاحية لتعليم الفقراء من الأطفال وتأهيلهم تأهيلاً حرفياً عصرياً[1].

عملت المدارس الرشيدية التي أفتتحها الوالي "أحمد عزت" على الاهتمام بالطلاب الدارسين بها وفق المناهج العصرية حتى ذاع صيتها في كل أنحاء الولاية وحرص الأهالي على إلحاق أبنائهم بها، بل وتقديم كل أنواع الدعم وخاصة من قبل الأُسر الميسورة مما أوجد نوعاً من التنافس بين الشخصيات ذات الصلة بحكومة الباب العالي في السعي نحو تحصيل الدعم وجلب الموافقات بالتوسع في إنشاء المدارس، وامتد هذا التنافس والطموح داخل القُرى بتنظيم حملات للتبرع من أجل إقامة المباني حتى يتسنى لسكان تلك القرى والأرياف برفع طلبات للولاة لفتح المدارس في قراهم، ووصل الأمر إلى تقديم تعهدات بتحمل المصاريف المترتبة على قيامها، حتى أن الاحتفالات كانت تعم القرى عند افتتاح المدارس[2].

ومن جانبها لما وجدت حكومات الولاية ذلك الوقت أن هذا النوع من المدارس لقي قبولاً وترحيباً شعبياً داخل أوساط الولاية عملت على تعميم هذا النوع من المدارس في جميع انحاء البلاد وتمويله عن طريق التبرعات[3].

---

(1) صلاح الدين حسن السوري، تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس الغرب، 1835-1911م، مجلة البحوث التاريخية، السنة الخامسة، العدد الثاني، يوليو، 1983م، ص ص 228-229.

- محمد بشير سويسي، أوضاع التعليم في ليبيا 1835- 1950م، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الحادية والعشرون، العدد الثاني، يوليو 1999، ص ص 91-92.

(2) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي، تونس، الدار العربية للكتاب، 1988، ص330.

(3) تيسير بن موسى، المرجع نفسه، ص ص 325-328.

كان الوالي "أحمد راسم باشا" الذي تولى تقاليد الولاية عام 1881 وحتى 1894م من أبرز الولاة الذين اهتموا ببرامج التعليم، إذ شهدت البلاد في عهده نوعاً من الاستقرار مهد السبيل لفتح العديد من المدارس، كما كان عهده ممهداً لخلفائه "نامق باشا – وحافظ محمد – المشير ابراهيم باشا – والدفتر دار أحمد نسيم بك" الذين توسعوا في بناء وافتتاح المدارس، فظهرت في عهودهم المدارس التخصصية، والمدرسة العسكرية بطرابلس 1888م التي تشرف عليها وزارة التعليم في اسطنبول، ويعين خريجوها بعد دراسة خمس سنوات بطرابلس وسنة بتركيا ضباطاً بالجيش التركي.

وفي عام 1890 عُين أول مدير للتعليم التركي يتولى مهمة الإشراف على المدارس القائمة ويُشرف على فتح مدارس نظامية تسير على النظام الحديث في التعليم وإعداد المعلمين، وفي عام 1895 ظهرت فكرة تأسيس الفنون والصنائع الإسلامية بطرابلس كمشروع خيري، وقد تبنى المشروع وأبرزه إلى حيز الوجود الوالي "نامق باشا" وتم افتتاحها عام 1899 زمن الوالي "محمد حافظ"، وسُميت ذلك الوقت باسم المدرسة الحميدية الصناعية نسبة إلى السلطان عبد الحميد ومثلت أول مدرسة فنية نظامية [4].

مثلث مدرسة الفنون والصنائع إحدى ركائز التقدم العلمي الفني ومركزاً من مراكز الإشعاع الثقافي في العهد العثماني الثاني والعهود اللاحقة له، فكان من أهدافها رعاية الأيتام والاهتمام بالناشئة وتدريبهم على اكتساب الخبرة والمهارات في مجالات الصناعة والحرف والفنون الجميلة، وكانت ذات نظام عالي في نظمها وأساليب تعليمها وتدريبها، فكان جميع طلابها يقيمون بالقسم الداخلي بها، وقد أنشئت هذه المدرسة من أموال التبرعات الشعبية، وأضيف لهذه المدرسة قسم للبنات عام 1903م لتدريبهن على مختلف المهن النسائية[5] .

شهدت العقود الثلاث الأخيرة من الحكم العثماني لطرابلس نهضة تعليمية كبيرة ومتلاحقة، سواءً في البناء أو التطوير، فقد تمّ تنظيم الدراسة في معهد المعلمين بطرابلس، بحيث أصبحت به الدراسة محددة بسنتين وسمح لحفظة القرآن الكريم بالالتحاق به كنوع من الدعم والتشجيع وأستمر في أداء مهامه حتى عام 1910[6]، كما عملت سلطات الولاية في جوانب الدعم والتشجيع على إيفاد بعثات طلابية إلى اسطنبول للدراسة في مدارسها العسكرية والمدنية والحرفية، لتلقي تعليماً عصرياً في مختلف أنواع المعرفة، وإضافة لذلك يتم انتقاء نُخبة من أبناء الأعيان يُرسلون إلى مدرسة العشيرة التي أنشأها السلطان عبد الحميد في (باشيكناش) إحدى ضواحي اسطنبول في عام 1892م، لتلقي تدريباً مدنياً، وعسكرياً من أجل تأهيلهم قيادياً

---

[4] ملف التعليم، مذكرة عن مدرسة الفنون والصنائع وبرامجها وإمكانياتها بتاريخ 18– ابريل 1898م.

[5] محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص91.

– صلاح الدين حسن السوري، المرجع السابق، ص228.

[6] محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص91،

وبعض هؤلاء الدارسين تم تعيينهم بعد تخرجهم في وظائف إدارية قيادية منهم على سبيل الذكر " علي باشا العبيدي – ومختار بك كعبار"[7] .

بلغ التوسع في التعليم العصري داخل الولاية ذروته في بدايات العقد الأول من القرن العشرين التي استطاعت أن تعكس صورة واضحة عن مدى التطور الثقافي والحضاري في الولاية، أيضاً ظهر هذا التوسع للحد من انتشار المدارس الأجنبية الفرنسية والانجليزية والايطالية التي من شأنها إشباع المجتمع آنذاك بالثقافة الغربية المسيحية، فكانت خطوات الولاية ناجحة إلى حد كبير في إيجاد تعليم منافس استقطب إليه السكان المحليين، حتى إن عدد المدارس النظامية وصل في عام 1910م حوالي 26 مدرسة، وكانت سلطات الولاية تعتزم في تلك الفترة أن تنشئ حوالي 22 مدرسة أخرى ولكن ظروف الحرب والغزو الإيطالي حالت دون ذلك[8] .

هكذا كان التعليم يمثل جانب من جوانب المد الثقافي والحضاري زمن العهد العثماني الثاني في ولاية طرابلس الغرب، ولولا ظروف الحرب التي عمت البلاد لكان تواصل هذا الإشعاع مستمر ليشمل كل أنحاء الولاية.

ثانياً: التعليم الديني ودوره في إبراز الحياة الأدبية

ومن جانب آخر فقد حافظت الولاية على جوانبها التعليمية والثقافية التقليدية الممثلة في التعليم الديني، بل وزاد اهتمام السلطات الحاكمة به في العهد العثماني الثاني كونه يؤدي رسالة علمية وثقافية قائمة على مبادئ الإسلام السمحة، وتمثل ذلك في استمرار التعليم القائم على الدراسة في الزوايا والكتاتيب المُلحقة بالمساجد التي لا تقل أهمية التعليم وتلقي فنون الكثير من المعارف فيها عن نظم التعليم التقليدية، وكان العديد من تلك (الدور) حافلة بمجالس الأدب والثقافة إذ كانت تقام فيها حلقات العلم والأدب، ومنها حلقات زاوية مسجد الشعاب بطرابلس، وجامع طرابلس الأعظم، ومسجد علي بن عبد الحميد العوسجي، ومسجد أبي قاسم الشبعي ، ومسجد الجناوني وغيرها، ومنها أيضاً دور الكتب العامة والمكتبات الخاصة، مثل المكتبة المعروفة باسم " خزانة نفوسة" التي كانت تظم الآلاف الكتب والخزائن النفيسة في الجبل الغربي من ليبيا[9].

واستمرت هذه المنابر في أداء مهامها خلال العهد العثماني الثاني ووجدت اهتمامًا من سلطات الولاية، بما يعزز دورها التعليمي والثقافي، وزاد انتشار مثل هذه المنابر في معظم القرى والنواحي التابعة للولاية،

---

[7] صلاح الدين حسن السوري، المرجع السابق، ص228.

– تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص ص 340– 341.، ملف التعليم، تعميم عن مدرسة العشيرة، 4 يوليو، 1892م.

[8] محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص229.

[9] الطيب علي سالم الشريف، الصحافة الأدبية في ليبيا، المجلد الأول، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001، ص ص40– 41.

والتي عرفت بمجالس الأدب والمسامرة التي وجد فيها هواة الثقافة نافذة يطلون منها على أفق الأدب وفن الكلمة[10].

نشطت الزوايا والكتاتيب في ممارسة دورها التعليمي والثقافي والتربوي، وبدأ طابعها التقليدي الذي أتخذ على مر العصور طابع القداسة في التغيير، فبعد أن كانت النظرة الدينية لتلك المؤسسات قائمة على مكانة الطرق الصوفية والأشراف والمرابطين وما تشمله من أفكار بدأت إبداعات الجانب الثقافي تعم تلك الزوايا وأروقة الكتاتيب، مع المحافظة على الطابع القديم في شكلها التراثي، وأصبحت معظم الزوايا ذات طابع ثقافي وحضاري مميز يمارس فيها التعليم الديني المواكب لمراحل التقدم الثقافي مثل الزوايا التي أسسها الحاج محمد بن شعيب وعُرفت باسم زاوية "ابن شعيب" ومقرها بالزاوية الغربية، وزاوية (ميزران) بطرابلس التي أنشأها رمضان ميزران، وزاوية (المحجوب) بمصراته التي أسسها إبراهيم المحجوب، وزاوية (الطواهرية) التي ينسب تأسيسها لعبد الله بن عبيد الشارف بغريان،[11] هذا فيما يخص الجزء الغربي من الولاية إذ زاد نشاطها التعليمي والثقافي فكان لها الأثر في نشر المعرفة وتخريج أعداد من الدارسين حملوا لواء المعرفة في صنوف عديدة من العلوم الأدبية فبرز منهم الأدباء والشعراء والكتاب والعلماء، وعن الجزء الشرقي من الولاية كانت الزوايا السنوسية التي بدأت نشاطها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وذاع صيتها في شرق الولاية وغربها وأمتد نشاط عملها في كل أنحاء الولاية، وبلغ من تأثيرها أن زاد نشاط افتتاح الزوايا في المناطق التي وصلت إليها الدعوة السنوسية فكان عهدي "محمد بن علي السنوسي" ونجله السيد "محمد المهدي السنوسي" من أكثر العهود في تاريخ الولاية نشاطاً في عمل الزوايا فقد وصل عددها تقريباً في مناطق الولاية "برقة– فزان– طرابلس" حوالي سبعون زاوية[12]، أهمها وأشهرها الزاوية البيضاء التي تأسست عام 1843م، وأمتد نشاطها إلى واحة الجغبوب التي اتخذتها مركزاً لها منذ عام 1856م، وفي عام 1859 بعد وفاة السيد "محمد بن علي السنوسي" نقل ابنه وخليفته "المهدي السنوسي" نشاط الزاوية إلى الكفرة عام 1859م[13]، واستطاعت السنوسية أن تجمع بين النظرة العقلية للدين والنظرة العلمية والناحية الصوفية العاطفية وتوغلت في البدو واستقطبتهم

---

[10] الطيب علي سالم الشريف، المرجع نفسه، ص50.

– محمد مصطفى بازامة، بنغازي عبر التاريخ، ج1، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1968، ص316.

[11] الطيب علي سالم الشريف ، المرجع السابق، ص 53.

[12] هناك بعض الروايات تشير إلى وجود 120 زاوية تتبع السنوسية أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، الطيب علي سالم الشريف، المرجع السابق ص57.

– يوسف عبد الهادي ، صور من تاريخ الطريقة السنوسية ، [ليبيا]، مكتبة السراج للدعاية والإعلان ، د.ت، ص ص 37– 40.

[13] صلاح الدين حسن السوري، المرجع السابق، ص 234.

إليها فكان تأثيرها الثقافي كبيراً في أواسطهم، حتى أن الكثير من معتنقي أفكارها صاروا أهم من يصرفون شؤون حياة الناس في المناطق المتواجدين بها إدارياً وسياسياً واقتصادياً[14].

وإلى جانب السنوسية شهدت البلاد ازدهاراً في حركة الزاوية المدنية نسبة إلى مؤسسها "ظافر المدني"، وكان نشاط المدنية يغلب عليه الطابع الفردي وارتبطت إلى حد كبير بسياسة الدولة حتى أن روادها كانوا من المقربين لسلطات الباب العالي، ومنهم ابن مؤسسها الذي دعى إلى بلاط السلطان عبد المجيد إسوة بباقي العلماء في العالم الإسلامي وأثناء تواجده ألف كتابه الشهير "النور الساطع" الذي شرح فيه أصول الطريقة، كما نظم القصائد الصوفية وكتب عن الفكرة الاسلامية التي تبناها السلطان نفسه، وبلغ من شهرته هو وشقيقه "حمزة المدني" أن أصبحا سفيرا السلطان في أواسط أفريقيا[15].

مثلت هذه الزوايا رافداً ثقافياً مهماً تزامنت مع برنامج الدولة الإصلاحي فأصبحت أعمالها مشمولة برعاية سلطات الولاية وبمباركة بلاط الباب العالي، كونها حققت ما كانت ترمي اليه السلطات العثمانية في تنوير الناس والقضاء على مظاهر الجهل والتلف الديني والثقافي، لاسيما بعد نجاحها في استقطاب سكان الأرياف والقرى وأهل البادية الذين تجاوبوا معها وأقبلوا عليها ينشدون العلم ويتنافسون عليه، وتخلوا من خلالها على العديد من العادات الجاهلية الأولى مثل الخصومات والعدوات والأخذ بالثأر، ونجحت تلك الزوايا في بعث روح جديدة قوامها التنافس في الخير والتعاون والعفو عند المقدرة، كما نجحت في جعل مناطق الحواضر زاهرة بالسمات الحضارية ومظاهر الثقافة المتنوعة فنشأت في رحابها حركة أدبية واسعة[16].

ثالثاً: الصحافة وتطور الحياة الفكرية

مع بدايات العهد العثماني الثاني في ولاية طرابلس الغرب شهدت البلاد نهضة فكرية أدبية انبثقت عن قانون الولايات الذي تنص مواده على ضرورة الاهتمام بالحياة الفكرية والأدبية وتشجيع حركة الصحافة وإصدار المطبوعات، فقد نص هذا القانون المعروف باسم "ولاية نظامنامه سي" العام 1864م في مادته التاسعة ضمن قانون المطبوعات على إنشاء الجرائد الرسمية، فقامت سلطات الولاية تحقيقاً لذلك ورغبة في تحقيق غايات نُخب الولاية المثقفة باستصدار أمر سلطاني من قبل الوالي "محمود نديم باشا" الذي صدرت في عهده صحيفة نصف شهرية في طرابلس بعنوان "فوائد غربية"، وأسس مطبعة للأوراق الرسمية والمراسلات الحكومية والقرارات[17]، فزادت إثر ذلك منظومة العمل الصحفي في الولاية، ووجدت نُخب المثقفين من الشبان ورواد الصالونات الأدبية المجال مفتوح أمامهم للمطالبة بتوسيع العمل الصحفي واستصدار المزيد من

[14] محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص ص85- 86.
[15] محمد بشير سويسي، المرجع نفسه، ص86.
[16] الطيب علي سالم الشريف، المرجع السابق، ص ص 54 – 55.
[17] أسماء مصطفى الأسطى، الصحافة الليبية 1866 – 2003م، سرت ، مجلس الثقافة العام 2008م، ص ص 105، 106.

الصحف والمجلات التي من شأنها أن تعبر عن رؤاهم وأفكارهم ومنهم على سبيل الذكر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، والضباط والموظفون الذين تطوع معظمهم للعمل مجاناً في مجالات الصحافة مما ساعد في بروز العديد من الصحف والمجالات، لاسيما وأن المطابع هي الأخرى بدأت تتسع فبعد أن كانت في طرابلس عام 1859م مطبعة حجرية واحدة أُستحدث عدة مطابع ففي عام 1869م أُستجلبت مطبعة عصرية جرى تطويرها عدة مرات في أعوام 1892م، 1897م[18]، كما استحدثت سلطات الولاية قسماً خاصاً بالطباعة في مدرسة الفنون والصنائع، وبصدور الدستور العثماني عام 1908م زاد عدد المطابع فصارت هناك أكثر من مطبعة أهمها "مطبعة الترقي"، ومطبعة "ج أربيب المعروفة بالمطبعة العالمية"، ومطبعة "فنون الطباعة"، و"المطبعة الشرقية" [19].

أمام هذه المعطيات ازدهرت الحركة الصحفية فنشطت النُخب المثقفة في الولاية، سواء تلك القاطنة أو الوافدة والممثلة في جموع الطلبة الطرابلسيين الذين كانوا يدرسون في الأزهر والزيتونة وغيرهم، إذ عمل هؤلاء على إنشاء صحف ذات اهتمامات متنوعة مثل صحف " الترقي– الكشاف – العصر الجديد – الرقيب– أبو قشة"، وكان أبرز ما يميزها أن تتناول أخبار الحركة الأدبية والفنية مما جعل الإقبال عليها كثيراً[20].

وجدت هذه الصحف وغيرها اهتماماً شعبياً ورسمياً كبيراً حتى المعارضة منها لسياسات الولاية وبعض الولاة كانت تحظى باهتمام كبار الموظفين ورجال الحكم، بل وكان أصحابها ومحرريها من الشخصيات التي تحظى هي الأخرى باحترام السلطات الرسمية ودعمها مثل "محمد قدري" المدير المسؤول لصحيفة "تعميم جريت"، و"محمد علي البارودي" مدير صحيفة العصر الجديد، و" محمد البوصيري" مدير جريدة الترقي الأسبوعية" و "محمد الهاشمي المكي" صاحب دورية أبو قشة، وغيرهم[21].

ساهم تطور الصحافة وتوسعها في إثراء الحركة الثقافية والأدبية في البلاد، فزادت أعداد المثقفين وتوسع النشاط الأدبي وازدادت صالونات المسامرة والمناظرة الفنية والأدبية، فكان العهد العثماني الثاني مثالاً واضحاً في تطور حركة الثقافة والفن في الولاية، خاصة وأن كل التطورات الثقافية كانت تسير في ركب متوازي فلم يقتصر الأمر على التعليم أو الصحافة أو الأدب والفكر، بل كانت كل هذه المظاهر متزامنة في تطورها ومكملة لبعضها البعض فلم تكن المؤسسات التعليمية مثلاً في معزل عن الاهتمام بصنوف الأدب

---

[18] محمد صلاح الدين بن موسى، الصحافة الأدبية 1869– 1969م، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1 1999م، ص ص 146 –147.

[19] فرانشيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان / ط2 1984، ص ص 128– 129.

[20] علي مصطفى المصراتي، صحافة ليبيا في نصف قرن، بيروت، دار الكشاف، ط1 1960، ص ص 3–6.

[21] إمحمد ابراهيم إمحمد، بحث بعنوان: تاريخ الصحافة الليبية ودورها الوطني البيضاء ليبيا جامعة عمر المختار، 2012، ص ص 6–8.

والفن، كما هو الحال مع مدرسة الفنون والصنائع التي تخرج من جنباتها العديد من الأدباء والفنانين، وكذلك دور الزوايا والكتاتيب التي نشأت في رحابها حركة أدبية تقوم على الشعر، فمن الزاوية السنوسية برز عدة شعراء كان لهم شأن كبير ذلك الوقت في مناطق الولاية والدول المجاورة، ومنهم "عبد الرحيم المغبوب" "أبو سيف مقرب " وغيرهم وقد وصلت بعض أشعارهم إلى أيدي البحاث فرأوا فيها شيئاً من ملامح النهضة الأدبية الحديثة، بل وضاهت أشعار الأدباء خريجي الزوايا أشعار نظرائهم في مصر وتونس[22].

ومن جانب آخر فقد ساعد نمو الصحافة وانتشارها على تطور الحركة الأدبية والشعرية، فلقد لجأ عدد كبير من الأدباء والشعراء إلى الصحف للتعبير عن أفكارهم وتجسيد أدبهم ونشر أشعارهم، فكان نتاج ذلك حركة أدبية علمية تمثلت في ازدهار التراث، والأخذ بمظاهر الحضارة المستحدثة، وتعدى الأمر الجانب المحلي فصارت المجامع الأدبية والصحف العربية في بعض الأقطار تسعى لنشر النتاج الأدبي والشعري منه على وجه الخصوص بعد أن كان مطموساً، ولعل "مصطفى بن زكري" و"عبد الله الباروني" كانا مثالاً لنتاج الحركة الأدبية في ولاية طرابلس أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وهما أصحاب دواوين شعر مشهورة طبعت ونشرت بمصر، كما أن الاتجاه الأدبي أخذ منحى الجدية والواقعية فصار معايشاً للأحداث ومواكباً لتطورها وساعياً لإصلاح الشائب منها، ولعل أبرز من عبر عن هذه التحولات " ابن زكري" و"الباروني" و"باكير"[23].

[22] الطيب علي سالم الشريف، المرجع السابق، ص ص 55 – 56

[23] الطيب علي سالم الشريف، المرجع نفسه، ص ص 64 – 65.

خاتمة

إن الحديث عن النهضة الأدبية والفكرية والعلمية في طرابلس أواخر القرن التاسع عشر يجعل من الصعب إبراز مجريات تطورها في صفحات بحث قليلة لما كان من تطور ملحوظ وملموس شهدته الولاية كماً ونوعاً، نتيجة تظافر جهود سلطاتها ودعمها وعدم الوقوف كعقبة أمام تطور الحركة الثقافية عامة والأدبية على وجه الخصوص فقد ساعدت التسهيلات الممنوحة من سلطات الولاية وحكومة الباب العالي والقوانين الإصلاحية إلى ازدهار حركة الثقافة بشكل عام في ظل وجود أرضية خصبة تمثلت في ابداعات المثقفين وقدراتهم وطموحات المحليين في التزود والإلمام بشتى العلوم والمعارف وحرصهم على الاستفادة من معطيات الواقع حتى ينهلوا من صفوف العلم ويكتسبوا فن معارفه فكان التنوع الأدبي والعلمي والثقافي عنواناً من عناوين ولاية طرابلس الغرب زمن الحكم العثماني الثاني" 1835- 1911م".

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. ملف التعليم، (1892)، تعميم عن مدرسة العشيرة، 4 يوليو.
2. ملف التعليم، (1898)، مذكرة عن مدرسة الفنون والصنائع وبرامجها وإمكانياتها، 18 أبريل.

ثانياً: المراجع

1. أسماء مصطفى الأسطى، (2008)، الصحافة الليبية 1866–2003م، سرت، مجلس الثقافة العام.
2. تيسير بن موسى، (1988)، المجتمع العربي الليبي في المعهد العثماني، ليبيا، الدار العربية للكتاب.
3. الطيب علي سالم الشريف، (2000)، الصحافة الأدبية في ليبيا، المجلد، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1.
4. علي مصطفى المصراتي، (1960)، صحافة ليبيا في نصف قرن، بيروت، دار الكشاف، ط1.
5. فرانشيسكو كورو، (1984)، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ترجمة: خليفة محمد التليسي، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط2.
6. محمد صلاح الدين بن موسى، (1999)، الصحافة الأدبية 1869–1969م، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1.
7. محمد مصطفى بازامة، (1968)، بنغازي عبر التاريخ، ج1، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع.
8. يوسف عبدالهادي، صور من تاريخ الطريقة السنوسية، ليبيا، مكتبة السراج للدعاية والإعلان، (د.ت).

ثالثاً: الدوريات

1. صلاح الدين حسن السوري، (1983)، تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس الغرب 1835–1911م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الخامسة، العدد الثاني، يوليو.
2. محمد بشير سويس، (1999)، أوضاع التعليم في ليبيا، 1835–1950م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الواحدة والعشرون، العدد الثاني، يوليو.

رابعاً: البحوث العلمية والمقالات

1. امحمد ابراهيم امحمد، (2012)، بحث بعنوان: تاريخ الصحافة الليبية ودورها الوطني، البيضاء، جامعة عمر المختار.

المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
العدد الثالث / 2019م
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
Mohmmad Bin Ali Assanosi University
كلية التأريخ والحضارة

كتاب بدء الإسلام وشائع الدين لابن سلام الأباضي

دراسة تاريخية

إعداد : د. زكية بالناصر القعود

Summary of Ibn Salam:
Ibn Salam is one of the earliest Libyan historians who wrote in the field of history since the third century AH and contributed to enriching cultural life in this country during the Islamic era.
Cultural history in Libya is an important subject worthy of study and attention
In order to highlight our scientists and their impact on the mental and intellectual sciences and their status among the scholars of the Islamic Maghreb, so we present this study to shed light on the oldest book in the history of Libya in particular and the Islamic Maghreb, which dates back to the second half of the third century AH.
The importance of the book, as well as the author, the excellence of this book, and what is taken, and then the contents.
The importance of the book, as well as the author, the excellence of this book, and what is taken, and then the contents.
The main points of this paper are:
-The book of Ibn Salam is one of the oldest historical books of Morocco in general and the history of Libya, especially in the Islamic covenants.-The oldest book on the history of the Abbasid history in Morocco, and this author is evidence of the Berber assimilation of the Arab-Islamic civilization.
The book also contains information from the narrators and personal views, as well as includes the number of security messages are manuscripts dealing with information about that era, especially in the history of Ibadi

ملخص كتاب ابن سلام

يعتبر ابن سلام من المؤرخين الليبيين الأوائل الذين كتبوا في مجال التاريخ منذ القرن الثالث الهجري ،وساهم في إثراء الحياة الثقافية في هذا البلد إبان العصر الإسلامي .

فالتاريخ الثقافي في ليبيا من الموضوعات الهامة الجديرة بالدراسة والاهتمام لإبراز علمائنا وأثرهم في العلوم العقلية والنقلية ومكانتهم بين علماء المغرب الإسلامي، لذا نقدم هذه الدراسة لنسلط بها الضوء علي أقدم كتاب في تاريخ ليبيا خاصة والمغرب الإسلامي الذي يرجع إلي المنتصف الثاني من القرن الثالث الهجري . والتي تناولت فيها :

أهمية الكتاب ، نبده عن المؤلف ، بم تميز هذا الكتاب ، وما المآخذ التي تؤخذ عليه، ثم المحتويات.

أهم ما تضمنته هذه الورقة :-

يعد كتاب ابن سلام من أقدم الكتب التاريخية للمغرب عامة وتاريخ ليبيا خاصة في العهود الإسلامية .-وأقدم ما كتب عن تأريخ الإباضية في المغرب، كما أن هذا المؤلف دليل علي استيعاب البربر للحضارة العربية الإسلامية .

كما أن الكتاب يحتوي علي معلومات مستقاة من الرواة ومن مشاهداته شخصياً، وكذلك يتضمن عدداً من الرسائل تعد مخطوطات تتناول معلومات عن ذلك العصر خاصة في تاريخ الإباضية.

1. مقدمة:

يشكل التاريخ الثقافي في ليبيا من القرن الثاني إلي السابع الهجري أحد الموضوعات الهامة الجديرة بالدراسة والاهتمام. وموضوع التعريف بالحياة الثقافية في عصورها المختلفة أخذ يستأثر باهتمام الباحثين والدراسيين في تاريخ ليبيا .

ولكن– حسب علمنا – مازال التاريخ الثقافي في العصور الوسطي يحتاج إلى المزيد من الجهد و البحث والتنقيب بين المخطوطات والوثائق لكشف العديد من الجوانب الحياة الثقافية فيه ،وإبراز علمائنا وأثرهم في العلوم العقلية والنقلية ومكانتهم بين علماء المغرب الإسلامي .

فتراثنا الضخم من هذه المؤلفات المخطوطات التي خلفها لنا أسلافنا في مختلف العلوم يحتاج إلى الاهتمام و تسليط الضوء عليه ككتاب سير مشايخ نفوسة للبغطوري ، وكتاب السير للشماخي وكتاب بدء الإسلام وشرائع الدين لابن سلام ،

كتاب بدء الإسلام وشرائع الدين يصفه الشيخ سالم بن يعقوب الجربي بأنه جليل في موضوعه خصب في مادته، اتسم بحسن التأليف وشرف المقصد، فهو كتاب من كتب التأريخ للمغرب الإسلامي عامة وتاريخ ليبيا بصفة خاصة، جاء شاهداً على استيعاب البربر للنظم وتعاليم الإسلامية، لذا آثرت أن يكون بحثي في هذا المجال لأسد فراغ في مكتبة الدراسات التاريخية في التاريخ الليبي .

كتاب بدء الإسلام وشرائع الدين للشيخ لوَّاب بن سلاَّم المزاتي الإباضي المتوفى بعد سنة 273هـ / 887م قام بتحقيقه الشيخ سالم بن يعقوب و فيرنر شفارتس بعد مرور أكثر من عشرين سنة على اكتشاف مخطوطته. و للأمانة العلمية يقال إن الفضل في ظهور النص محققاً بالصورة التي هو عليها، لا يرجع للمحقِّقَيْن فقط. فقد ساهم في إنجاح المشروع عدد من المختصين والمهتمين بالتراث الإسلامي.

كما أسهمت جهود الأستاذ محمود بن يعقوب بن المحقق سالم في تعميق الصلة بين المحققين "سالم بن يعقوب من تونس و فيرنر شفارتس من ألمانيا ، وتقريب وجهات النظر بينهما، كما أسهمت إشارات الزملاء والزميلات أمثال محمد محمد البشاري، علاء الدين حلمي، السيدة كارمن بولك، والسيدة زابينة شوب، في إضاءة بعض مشكلات النص، وتجنيبه بعض العثرات. أما الشيخ خليل فقد أخذ على عاتقه إعادة صياغة المقدمة طبقا لمقتضيات الأسلوب العربي.

من المصادر التي سهلت عملية التحقيق وجعلت من عملية إعادة بناء النص ممكنة، " رسالة أبي عيسى الخرساني "وهي عبارة عن رسالة كتبها الإمام أبي عيسي إلي أهل المغرب نصحهم فيها بإنهاء التمرد علي الإمام أفلح بن عبد الوهاب والعودة إلي طاعته وتوحيد صفوف الإباضيين تحت قيادة الدولة الرستمية، وترجع وأهمية هذه الرسالة في احتوائها علي فقرات من كتاب ابن سلام استشهد بها أبو عيسي في رسالته.

2. أهمية الكتاب:

- يعد كتاب ابن سلام أقدم ما كتب عن تأريخ الإباضية في المغرب، بل هو أقدم مؤلف تاريخي عن تاريخ المغرب الإسلامي .

- ترجع قيمته إلي أول المحاولات لغير العرب البربر سكان البلاد الأصليين لوصف أسس الحياة الدينية وللتعريف بتاريخ الإسلام باللغة العربية لدى البربر .
- يعد من أهم الشواهد علي استيعاب البربر للحضارة العربية الإسلامية
- فضلاً عن أهمته، فإن كونه من أقدم الكتب، فقد كتب بعد عام 273هـ / 886- 887م. هو أول من أشار إليه بأنه أقدم مؤلف إباضي لتأريخ المغرب، المؤرخ الإباضي الكبير" أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي"(ت: 928هـ / 1522م). فقد ذكر في كتابه المسمى بكتاب السير1 عدة روايات مأخوذة من " كتاب ابن سلام " ؛ تتناول تلك الروايات تأريخ الدعوة الإباضية2 في شمال إفريقيا ومن خلالها عرفنا أيضاً أن ابن سلام عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. وأما أول من أشار من الباحثين المعاصرين كأقدم مؤرخي الإباضية هو العالم البولندي تَادِيُو شلِفِيتْسْكي الذي لم يعرف إلا تلك الشواهد في سير الشماخي.3

فيما عدا ذلك فإن كتاب ابن سلام كان يعد من المفقودات حتى تم اكتشاف مخطوط سنة 1964م، يحتوي على نص الكتاب أو على الأقل على معظمه. وقد اكتشفه العالم الشيخ سالم بن يعقوب الجربي، في إطار بحثه الموسع عن التراث الإباضي، وكان ذلك في مكتبة البَعْطُور في حُومة وَالَغ الواقعة في جزيرة جربة بتونس، وقد مهد الشيخ سالم بن يعقوب لنشر هذا الكتاب، كما اشترك في بعض التحقيقات المتعلقة به، وقد وجد المخطوط اهتماما كبيرا من علماء الإباضية المعاصرين ومنهم ؛ الدكتور عمرو خليفة النامي الذي نشر وصفا موجزا للمخطوط لعامة المهتمين.4

- مما يميز هذا الكتاب أن مؤلفه لم يعتمد في معلوماته عن تاريخ أصحاب المذهب الاباضي في طرابلس أو أفريقية على أي مصدر مدون من كتب التاريخ والتراجم بل اعتمد في معلوماته على الرواة أو مشاهداته شخصياً.
- كذلك مما يميز هذا المصنف احتواءه على عدد من الرسائل التي تعد مخطوطات تتضمن معلومات ا عن ذلك العصر خاصة في تاريخ الإباضية منها الرسائل. مثل رسالة الإمام الرستمي عبد الوهاب وكانت إلي سكان جبل نفوسة عندما خرجوا عن طاعته، ورسالة أبي إبراهيم، وهي رسالة دون فيها مادار بينه و بين الفقيه محمد بن عبدالملك الحجازي، وخطبةً خطب بها أبو حمزة بمكة رواها له رجل يسمي محمد بن خالد، و رسالة الفقيه أبي عيسى الخرساني التي سبق الإشارة إليها، وهي رسالة من ابي عيسي ينصح فيها الأهالي جبل نفوسة بطاعة الإمام عبد الوهاب الرستمي. ورسائل خلف بن السمح مع ابن سلام عندما التقيا في «جندوبة» شهري جمادى 271هـ/ نوفمبر ديسمبر 884م5 .

---

[1]-طبعة حجرية بالقاهرة 1301هـ / 1883م. عن استشهادات الشماخي المنقولة عن كتاب ابن سلام. انظر الملحق ص54- 56.
2-عن تعاليم الإباضية وتاريخها راجع فهرس المراجع وخصوصا المقالات العلمية والبحوث لتاديوشلفيتسكي ولعمرو خليفة النامي. أما فيما يتعلق بفهم الإباضية المعاصرة لتأريخها وللدين الإسلامي فراجع مؤلفات علي يحيى معمر ومحمد علي دبوز.
3- انظر مقال لفيتسكي في سير الشماخي (1934، ص73)، وكذلك بحثه في المؤرخين الإباضيين الوهبيين (1961، ص106- 107).
4-أنظر بحثه في المخطوطات الإباضية الحديثة الاكتشاف (1970، ص83). وقد اطلعنا على النص لأول مرة سنة 1979 في نسخة مصورة له عند الشيخ المرحوم علي يحيى معمر (طرابلس الغرب).
5محفوظ: محمد ، تراجم المؤلفين التونسين157/1 كذلك .

3. نبذه عن المؤلف :

لوّاب بن سلاّم التوزري المزاتي) ت 273هـ / 887م يعد من علماء قبيلة مزاتة العريقة .أصله من « قرية أغرميمان» بجبل نفوسة، نشأ بين أحضان عائلة علم وحكم، فعمُّه وجدُّه وأخو جدِّه اشتركوا في موقعة مغمداس[6] مع الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى سنة 142هـ/759م7 .

أوتي الحكمة منذ صغر سنه، وأخذ العلم خاصة القرآن الكريم عن شيوخ قريته وتلقّى بعض الأخبار عن أبي صالح النفوسي كان شيخاً وإمامًا عالمًا بالأصول والفروع، ثم رحل إلى الحجِّ والتقى مع جمع من الحجَّاج وعلماء عُمان، وقد كانت له مسائل في علم الكلام، نقل بعضها الوارجلانيُّ في كتابه الدليل والبرهان .

كانت أسرة ابن سلام مرتبطة ارتباطا وثيقا بتأريخ إباضية المغرب القديم، كان كل من عمّـــه يحيى بن عمر وجدّه عمر بن تـــمطنِـــين وأخو هذا الأخير أبو حميد بن طمنين ممن اشترك مع الإمام أبي الخطاب في موقعة مغمداس. وكان عمر بن تمطنين بين أصحاب أبي الخطاب عند هزيمته بتاورغا سنة 144 هـــ/761 م مدافعاً عن الحكم الإباضي ضد قائد الجند العبّـــاسي محمد بن الأشعث الخُـــزاعي. ولم يعد ابن سلام جده عمر من بين القتلى في تلك الهزيمة، ولذلك فمن المحتمل أنه عاش بعدها.8

ونجد أيضا في رسالة وضعها مؤلف مجهول يعود إلى بداية القرن السابع هـــ (الثالث عشر م) سرداً لأسماء الشيوخ الإباضيين الوهابيين حسب نسبهم القبلي، ويظهر من بينها اسم سلام بن عمرو اللواتي عامل الإمام عبد الوهاب (ت 208 هـــ/ 823- 824 م) على سُـــرت ونواحيها.

كان صاحبها يتنقل بين علماء الاباضية فيذكر أنه 240هـــ/ 854م) التقى بأبي صالح النفوسي9 عندما كان في توزر في بلاد الجريد الواقعة في الجنوب الغربي التونسي. وأخبره أبو صالح عن عمر بن يمكتن أول علماء القرآن بجبل نفوسه. وبعد سنة 250 هـــ/865 م) زار ابن سلام ورفيقه "سدرات من أهل ميري"، وميري10 من قرى جبل نفوسه، الفقيه محمد بن عبدالملك الحجازي بالفسطاس. ويعطينا ابن سلام وصفاً غير كامل للمكان الذي يقع فيه مسكن الفقيه.11

وبعد سنة 260 هـــ /874 م) وصل ابن سلام إلى مدينة أجدابية وهو قادم من الحج. ولقى بها عمّـــار بن أحمد بن الحسين الطرابلسي، وكان مع عمّـــار ابنٌ لظبيان الزّواغي أحد قواد قبيلة زواغة. كان عمار وأخوه الحسن يسكنان طرابلس وهما من أبناء العالم المجتهد الشهير بابن الحسين الطرابلسي.

---

[6] معركة مغمداس وقعت في مغمداس شرقي طرابلس، هزم فيها الإباضيّة بقيادة أبي حاتم الملزوزي سنة 155هـ / 772م، وهرب الكثير منهم نحو المغرب الأوسط حيث شكلوا نواة الدولة الرستمية نقلا عن أبو زكرياءالوارجلاني: السيرة وأخبار الأئمّة، 82.

7 ابن سلام: بدء الإسلام، 36-41، 54-56 *الوسياني: سير (مخ) 208/1، 209 *البغطوري: سيرة أهل نفوسة (مخ) 42 *الشمّاخي: السير، (ط.ع) 49/1 ؛ 160/2 (مط) 245 * الإعلام: دليل المؤلّفين الليبيّين، 321 *بحّاز: الدولة الرستمية، 24 *الجعبيري: علاقة عُمان بشمال إفريقيا،

9 *جهلان عدُّون: الفكر السياسي، 255 *المهدي البوعبدلّي: لمحات من الدولة الرستمية، مجلّة الأصالة، ع. 41، ص201

8 ابن سلام: بدء الإسلام، 36-41، 54-56 *

9 - رأى لويتسكي (1961 ص81) أن أبا صالح هو تلميذ أبي خليل صال الدركلي واسمه أبو صالح ياسين الدركلي النفوسي (أنظر الشماخي ص 285-286. وذكر أسماء بعض شيوخ الوهبية ص 590-591).

10 - وفي المخطوط نجد تأريخاً عند أول هذه الكلمة. وربما نقرأه "تيري" وهي أيضاً من قرى جبل نفوسة (الشماخي ص 238).

11 ابن سلام: بدء الإسلام، 54-56 *

والذي جمع بينها هو أبو يعقوب اللمائي. وفي شهر جمادى سنة 270 هـ / 884 م) التقى ابن سلام في جندوبة بخلف بن السمح حفيد الإمام أبي الخطاب وجرى تبادل للرسائل بينهما. وهناك عالم إباضي آخر قد أخذ المؤلف عنه بعض الأخبار هو نفاث بن نصر النفوسي12

أما فيما يخص آراؤه الفقهية: فنلاحظ أن ابن سلام لم يكن من المعارضين والمخالفين فكثير ما يحتفظ بآرائه في العديد من المسائل الفقهية واجتنب مناقشة كل ما يهدد وحدة كلمة المذهب الدينية والاجتماعية لأنه هدفه من تأليف الكتاب أن يعطي المسلمين سندا لكي يهتدوا به ،و من مواقفه أيضا أنه عندما التقي بعالم نفاث بن نصر النفوسي وخلف بن السمح حفيد الإمام أبي الخطاب وجرى تبادل للرسائل بينهما في جندوبة ، حيث اتخذ كل من نفاث وخلف موقفاً معارضاً لأفلح بن عبد الوهاب الإمام الرستمي الذي تولى الحكم سنة 208 هـ/823-824 م. كما يلاحظ أن ابن سلام لم يبد رأيه المعارض أو الموالي للرجلين ،ولم يقل شيئاً بخصوص آراء الفقيه ابن الحسين الطرابلسي. وكانت آراؤه غير مقبولة عند الإباضية الوهابية فيما بعد. كما ذكر ابن سلام أن أبا المورج وعبد الله بن عبد العزيز قد خالفا أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة في بعض المسائل.أمّـــا وضع ابن عبد العزيز فيراه من المنافقين فلم يشر ابن سلام إليه إلا بذكر قول خلف بن السمح في رسالة له .13

أما منهج المؤلف فانه تجاوز التقليد والاقتداء عند تأليفه، فلقد اتخذ لنفسه منهجاً خاصاً به يختلف عما كانت عليه كتب عصره. ومن ناحية أخرى لا يوجد ما يدل على أي تأثير على تأليف ابن سلام من خارج الحضارة العربية الإسلامية. والهدف من كتابة هذا المصنف كما يوضحه الكاتب:

1- عرض ما يراه مهما من تعاليم الإسلام، ونشأته.
2- وصف المؤمنين الحقيقيين في تطبيقهم لأوامر الله بادئا بمحمد النبي صلى الله عليه وسلم حتى العصر الذي عاش فيه الكاتب.
3- توضيح أسس العقيدة كما جاءت عند نزول الوحي بها والتعريف بمن نقلها من الصحابة الثقات.
4- يؤكد الكاتب أن معرفة أحكام الدين وحدها ليست بكافية عند الجدال، إن لم يعرف المؤمن أيضاً أسس الدين ونشأته وعمن نقلت شرائعه.
5- معرفة هؤلاء المسلمين الذين سلكوا الصراط المستقيم واتبعوا تعاليم الدين الصحيحة ولقنوها مَنْ خلفهم دون تحريف.
6- وعليه أن يعرف أيضاً من هم الأسانيد الذين يعتمد عليهم هؤلاء الأئمة والفقهاء في تعاليمهم وتوجيهاتهم. وبذلك يستطيع الفرد تجنب السوسة وعليه ينبغي وضع حد بين المؤمنين الحقيقيين وبين الذين يعصون الله في قولهم وعملهم.14

12الشمّاخي: السير، مطبعة عدن 49/1
13الشماخي السير ، ص203 ، وكذلك را جع لويتشكي ،طبعة1961ص131،-132
14ابن سلام : بدء الإسلام وشرائع الدين ، تحقيق قيرترشقاتس ، سالم بن يعقوب ، دار فرانز شتايز (المانيا ، 1986م)ص 33

هذه هي الأهداف التي وضعها الكاتب لنفسه عند كتابة هذا المصنف توضح الخطة العامة الشاملة التي وضعها الكاتب كمنهج له أثناء العمل.

ما يؤخذ على هذا المصنف أن هناك اختلافاً بين بعض فصول النص، فصورة غير مكتملة لجزء كبير منها. فيتكون لدينا الانطباع بأن ما بين أيدينا ليس بكتاب متماسك بل هو مجموعة نصوص ناقصة لا يمت النص الواحد للآخر بصلة .

دلائل على انه كتاب واحد متكامل أنه مجموعة فصوله غير ناقصة :-

والدليل على ذلك استخدامه خطا متساويا واضحا، وإبراز فصول النص بكتابة عناوينه الجانبية أو بعض تعابيره بالمداد الأحمر..

ومن أهم الدلائل التي تؤيد رأينا بوحدة هذا النص غير المنقح تلك التي تستند إلى عدة أوصاف شكلية نجدها في مواضع عدّة من فقرات النص المختلفة كما تستند إلى محتوياته. فلم نكتشف في أي جزء من أجزاء النص خبرا أو لفظا يجب أن يُعَدّ من زمن بعد وفاة ابن سلام (ت بعد 273هـ / 886- 887م). كذلك مما يتضح من أسباب كتابة هذا المصنف

كذلك تكرار عبارات مثل عبارة " نروي عنهم ديننا ".15 وتعني هذه الكلمات كُلاًّ من النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والتابعين، والفقهاء، والعلماء، الذين تلقوا الدين الإسلامي وحافظوا عليه، ويتكرر لفظ " ديننا " إشارة إلى الإسلام عند ذكر مبادئه الهامة وكبار رواته في أقوال من أمثالها " ديننا دين الله ورسوله " أو " ديننا دين الجماعة من أصحاب النبي ".16 و أن صيغة " ما جاء في " أو " ما جاء في الأثر مِن " تعود إلى المؤلف نفسه وهو يستعملها في بداية فقرة جديدة أو في العناوين الجانبية.17 كما ترد هذه الصيغة في العنوان الجانبي الأول: " باب ما جاء في تفسير الإيمان... " فكلمة " تفسير " الواردة في هذا العنوان نجدها في عناوين أخرى: " باب ما جاء في الأثر من تفسير دين الله الذي هو دين الجماعة " و" تفسير شرائع الدين والولاية عليه والبراءة " و" تفسير المخالفين لدين الجماعة من الملوك... "

فالثلث الأخير للنص والخاص بأخبار المذهب الإباضي، اعتقد أنه من تأليف ابن سلام، فقد ذكر نفسه كجامع الملاحظات وذكر جده وأباه، وأشار أيضاً إلى الذين تلقى عنهم معلومات معينة وفي بعض الأحيان ذكر السَّنة والموضع الذي لقيهم فيه. يتكرر في هذا الثلث من النص استعماله كلمة " تسمية " في عناوين الفقرات 17 إلى 20 أو في جملها الافتتاحية.18

ويوجد في ثلثي النصيين الأولين ما يثبت الأصل المغربي للمؤلف أو لجامع فقراته : شرح في كلمتين عربيتين بمثيلتيهما البربريتين. وبعد تفسير "دعوة الجاهلية" استناداً إلى حديثين أولهما منسوب إلى عمر بن الخطاب وثانيهما إلى عمرو بن العاص ألحق بالفقرة حديثاً آخر عن أبي الخطاب الذي قاد إباضية طرابلس في ثورتهم على الحكم العباسي. وفي كتب هذا العنوان: " هذه شريعة رسالة كتب بها عبد الوهاب بن عبد

15- المصدر نفسة انظرص61، 108، 116.
16- وكذلك انظرص61، 69، 72، 73، 74، 75، 78، 79، 95.
17- وكذلك انظرص59، 72، 73، 74، 75، 121، 125.
18- كذلك انظرص108، 116، 117، 132.

الرحمن إمام تاهرت إلى أهل طرابلس ". ونضيف إلى جملة ما يدل على كون المؤلف إباضياً مغربياً ما يأتي في أواخر الثلث الثاني للنص من عد الأقطار التي ظهرت الإباضية فيها.

و يتألف المصنف في صورته الحالية من أربعة أجزاء رئيسة ذات حجم مختلف وتقع في تتابع مضبوط حسب محتوياتها بين مختصر عام أجزاء خاصة في الآتي :

1- في الثلث الأول من المخطوط (الفقرة 2 إلى 8)19 يأتي التعريف بأسس العقيدة الإسلامية، وما يميز المؤمنين الحقيقيين من غيرهم. كما يشار إلى مجموعة من الصحابة الذين اتخذت حياتهم كمثل أعلى. وفي هذا المضمار يرد الكثير من الأحاديث النبوية التي تسند لكل من عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، والحسن البصري. وهؤلاء هم المرجع في بعض المسائل الهامة للعقيدة أيضا. وقد فُسِّرت آيات قرآنية عديدة لتشكل أساساً ودليلاً لأقوال هامة ظهرت في النص وذكرت إلى جانب ذلك تفسيرات مختلفة لمفسرين آخرين.

2- في الفقرتين (9 و 10)عرض " لشرائع الدين " التي تنظم الحياة الدينية للفرد، ويشرح الكاتب ما يتعلق بالتصرفات الأخلاقية شرحاً مستفيضاً. ثم يعرض قواعد دينية تنظم حياة المجتمع الإسلامي، ويأتي هنا التعريف بالفئات المختلفة من المُحْدثين ومن أهل الكتاب. ويتبع ذلك ذكر الخصال التي يجب توافرها في " إمام المسلمين " والقاضي، والمفتي، ثم الشروط التي تفرض مقاومة الحاكم الجائر (الفقرة 11 إلى 13) وفي هذه الفقرات إشارة إلى رسالة الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن إلى أهالي طرابلس.

3- في الجزء الثالث نجد المصنف يأتي على ذكر تقييم الإباضية لبعض الأحداث الحاسمة التي مرت بها الأمة الإسلامية يظهر من خلال ذكر تنظيم عمر بن الخطاب لنظام الاستخلاف من بعده، وذكر فترة ولاية عثمان بن عفان أيضاً ذكر دور قريش في قيادة الأمة (الفقرة 15- 16).

4- يأتي ذكر علماء المذهب الإباضي، وفقهائه، وزعمائه، بالمشرق وبمصر (الفقرة 17 إلى 18). ويلي ذلك أخبار تأريخية هامة بخصوص إمامين من أئمة الإباضية سبقا عبد الرحمن بن رستم الفارسي مؤسس دولة تاهرت وهما: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وأبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزيوفي (الفقرة 18) يشير إلى أسباب تأليف هذا الكتاب في (الفقرة 19). تتخلل هذه الأخبار أحاديث تعبر عن " فضائل البربر " (ص121- 125 و 131) وتقطع العرض التأريخي. ثم ترد " تسمية فقهاء أصحابنا " في مدينة القيروان وما حولها وفي مدينة طرابلس (الفقرة 20)، وبعدها " رسالة أبي عيسى الخراساني " إلى إخوانه المغاربة في عهد الإمامين عبد الوهاب وابنه أفلح، وجلّ المعلومات في هذه الفقرة معلومات شفوية ليست من مصادر مدونه (الفقرة 21)،تتضمن رسالة أبي عيس الخراساني هو من فقهاء الإباضية في المشرق وبه ينتهي ما لدينا من كتاب ابن سلام.

و يضم الكتاب أحد وعشرين باباً جاءت تحت العناوين الآتية:

1-كتاب فيه بدء الإسلام وشرائح الدين" وفضائل الصحابة المهتدين ولمع من أخبار الجبابرة المعتدين.

2- باب ما جاء في تفسير الإيمان والإسلام والعز والإحسان

19-تظهر بعض فصول النص من خلال استعمال المداد الأحمر وأشرنا إليها بتقسيم النص إلى فقرات لكل واحدة منها رقمها، وعدا ذلك حددنا الفقرات حسب مضمونها كما سنشير إليه بالتفصيل.

3- ما شرائع دينك ومن الفقهاء والعلماء الذين تروي عنهم دينك.

4- في فضائل بعض الصحابة: - أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، أبو عبيدة بن الجراح، عبد الرحمن بن عوف، عمار بن ياسر، عبد الله بن مسعود.

5- في المشاورة في الأمر.

6 - أربعة من الصحابة.

7- ديننا دين الجماعة من أصحاب النبي عليه السلام.

8-باب ما جاء في الأثر من تفسير دين الله الذي هو دين الجماعة.

9- تفسير شرائع الدين والولاية عليه والبراءة.

10-شريعة رسالة كتب بها عبد الوهاب بن عبد الرحمن إمام تاهرت إلى أهل طرابلس.

11- في المبتدعين وفي أهل الكتاب.

12- هذا ديننا الذي ندين لله به.

13- في الإمام والقاضي والمفتي.

14- تفسير المخالفين لدين الجماعة من الملوك والجبابرة وأتباعهم.

15- قصة إخلاف الستة

16- أمر ولاية عثمان بن عفان.

17- من تسمية فقهائنا وأئمتنا الذين نروي عنهم ديننا .

18- هؤلاء مشايخ المسلمين وفقهاؤنا وأمصارهم.

19- من تسمية خروج أئمتنا وظهورهم على الجبابرة بالمغرب وفيها- :

- قصة ظهور أبي خطاب بالمغرب .

-باب ما جاء في الأثر عن النبي عليه السلام في فضائل البربر .

-ما جاء في ظهور المسلمين على الجبابرة في طرابلس والقيروان

-أبو حاتم يعقوب بن حبيب التجيبي الملزوزي

20 - تسمية فقهاء أصحابنا وعلمائهم ومشايخهم وذراريهم" في مدينة قيروان وطرابلس.

21 - رسالة أبي عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني..

والله ولي التوفيق

قائمة المراجع:

1 – ابن سلام : بدء الإسلام وشرائع الدين ، تحقيق قيرترشقاتس ، سالم بن يعقوب ، دار فرانز شتايز (المانيا ، 1986م)

2– بكير بن محمد الشيخ بالحاج، مقدمة كتاب الإباضية بين الفرق الإسلامية، للشيخ، طبع مكتبة الضامري، السيب، سلطنةعمان، 2003 م.

3– بيير كوبرلي : مدخل إلي دراسة الاباضية وعقيدتها ،ترجمة عماد الجلاص ، منشورات مؤسسة تاولت الثقافية (د، ت)

4– جمعة محمود الزريقي : مساهمة علماء ليبيا في مسيرة الفقه الإباضي – الجزء الثاني 21 أغسطس 2010 /عن المحاضرة التي ألقيت بالمركز الوطني للمحفوظات والوثائق التاريخية بطرابلس 2010

5– حسين جابر بني خالد،أوجه التشابه بين المعتزلة والإباضية المعاصرة في العقيدة وموقف أهل السنة منهما. مقال بمجلة دراسات،علوم الشريعة والقانون، الجامعةالأردنية،عمان،مج 27،عدد 2،عام 2000م.

6– الشماخي ،أبو العباس حمد بن سعيد، كتابالسير – تحقيق احمد بن سعودالسيابي (وزارة التراث والثقافة سلطنة عمان، 1987م

7– معمر، علي يحي،. الاباضية في موكب التاريخ. مركز الدراسات الاباضية، نشر مركز النشاط الثقافي في ليبيا

8–محفوظ: محمد ، تراجم المؤلفين التونسين، دار العرب الإسلامي ، بيروت ، 11990

9 – محمود حسين كوردي : من جهود علماء جبل نفوسة ودورهم في إثراء الحياة العلمية، طرابلس ليبيا

10–المهدي البوعبدلِّي: لمحات من الدولة الرستمية، مجلَّة الأصالة، ع. 41،
http://www.tamatart.com/) موقع تاماتارت .

11–النامي، عمر خليفة :

–دراسات عن الاباضية ، ترجمة ماهر جرار وآخرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2001م

– من هم الاباضية؟ مقدمة تحقيقه لكتاب أجوبة ابن خلفون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،